

طه حسين

حديث الأربعاء

١



مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

PJ
7515
T12
V-1

B719814
55
5

707

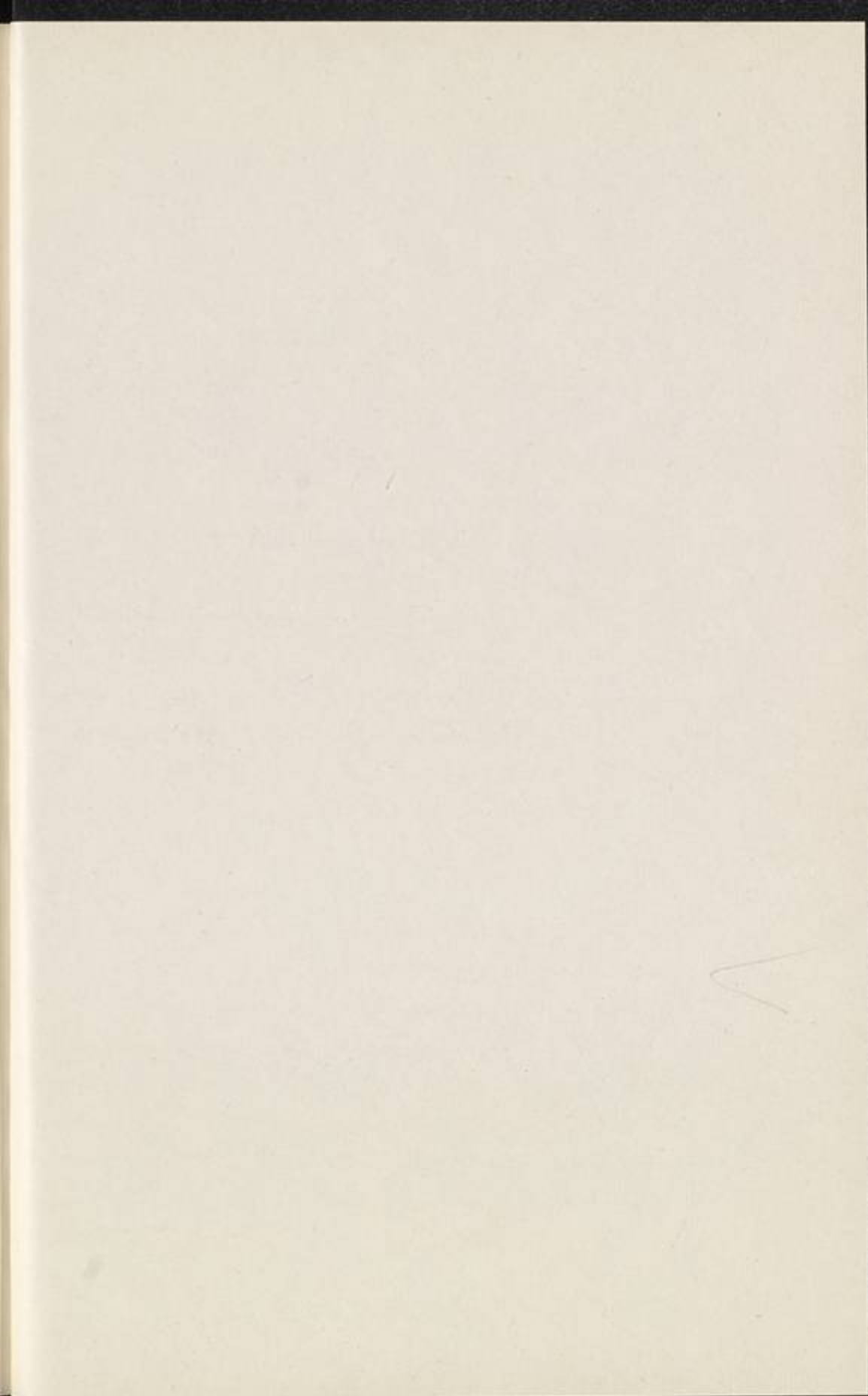
الإهداء

إلى الأستاذ الصديق أحمد لطفى السيد

مجلة تلميذ ، وتحية صديق

طه حسين

١٧ يناير سنة ١٩٢٥



مقدمة

وإنما أسمى هذه الأسطر مقدمة لأن الناس تعودوا تسمية مثلها مثل هذا الاسم ، فليست هي في حقيقة الأمر مقدمة وما كان مثل هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة ، وقد قرأ الناس فصوله كلها في « السياسة » و « الجهاد » فهم يعرفونها بأنفسهم ولا يحتاجون إلى أن يقدمها إليهم أحد . وما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة وأنت لا تكاد تقرأ فصلا من فصوله إلا وجدت فيه مقدمته الخاصة . ما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة فأنا أسميه سفراً لا شيء إلا لأنه مجلد يجمع طائفة من الصحف قد ضم بعضها إلى بعض ، فأنت تستطيع أن تسميه سفراً ، وأنت تستطيع أن تسميه كتاباً لأن هذه التسمية صحيحة صادقة من الوجهة اللغوية الخالصة ، وهي إن صحت وصادقت من هذه الوجهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس إلى الصورة التي أتصورها لما أسميه بحق سفراً أو كتاباً . ليست هذه الصحف التي أقدمها إليك سفراً ولا كتاباً كما أتصور السفر والكتاب . فأنا لم أتصور فصوله جملة ، ولم أرسم لها خطة معينة ولا برنامجاً واضحاً قبل أن أبدأ في كتابتها ، وإنما هي مباحث متفرقة كتبت في ظروف مختلفة وأيام متقاربة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، فلست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأحدثك في غير تحفظ ولا احتياط : أني مهما أكن قد تكلفت في هذه الفصول من جهد ومشقة فلاني لم أعن بها العناية التي تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، وإنما هي فصول كانت تنشر في صحيفة سياراً ليقراها الناس جميعاً فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكك بقراءتها من يتفكك ، ولم يكن بد لكتابتها من أن يتجنب التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي ، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا . ولقد يكون من الحق على نفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأن ما كتبت منه فصلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية

به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لي من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من استئناف تلك العناية وهذا النظر ، حتى إذا فرغت منه ونشرته السياسة أو الجهاد عرضت لغيره في مثل هذه الحال العقلية التي عرضت له فيها معتزماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحيياً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح . والأيام تمضي والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها متفهمة في شيء واحد هو أنها كانت تحول دائماً بيني وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر . وأى الكتاب ، وأي الباحثين لا يشكو مثل هذا في مثل هذه الأيام التي نعيش فيها ؟! أليس كل الناس يحس في هذه الأيام كأن شيئاً قد طرأ على حركة الزمان فأفسد نظامها وغير اطرادها ؛ فهي مسرعة إلى حد لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه أن ندبر أمورنا ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نحب ونهوى ، حركة الأيام أسرع من حركة النفوس ، حتى لقد يخيل إلى أن اليوم في هذا العصر لا يكاد يعدل ساعات من أيامنا تلك التي قضيناها قبل أن تطرأ على مصر هذه الطوارئ السياسية التي تغير فيها كل شيء .

لم أفرغ إذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب ، ولم أعن إذن بهذه الفصول كما يعنى الباحث المحقق يبحث علمي وأدبي قيم ، ومع هذا فقد لقيت من الناس رضى وصادفت من نفوسهم هوى ، فرغبوا إلى في أن أضم بعضها إلى بعض وأجمعها في كتاب منفرد يمكن حفظه ، والتصرف به ، على غير ماتحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها . ولقد عرضت عن هذه الرغبة حيناً لا لشيء إلا لأني كنت أرجو أن تتيح لي الأيام شيئاً من فراغ البال يمكنني من استئناف النظر في هذه الفصول وتبويبها للجمع والنشر ؛ ولكن الأيام لم تتح لي ما كنت أرجو وما أحسب أنها ستتيحه لي قبل أمد بعيد . وأخذ الناس يلحون على ، وتجاوز بعضهم الإلحاح إلى اللوم ، فكتب إليّ ينكر عليّ أني أذنت بجمع القصص التمثيلية في كتاب ، وأبطأت في جمع أحاديث الأربعاء ، ويسألني أكان مصدر هذا ازدياء للأدب العربي وإسرافاً في حب الأدب الأجنبي . كلا يا سيدي الأستاذ ! إنما كان هذا ضناً بالأدب العربي وإكباراً له أن تنشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة إلى الإصلاح ، وإذ كنتم قد ألحتم من جهة وأبت الظروف عليّ ما كنت أريد من جهة أخرى فدونكم هذه

الفصول كما كتبت وكما نشرتها السياسة ، لم أغير فيها حرفاً ، ولم أضف إليها شيئاً ، ولم أصلح مما فيها من الخطأ قليلاً ولا كثيراً ، قد نشرتها صحيفة سياره فأصبحت حقاً لكم فأنا أرد إليكم هذا الحق ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً : وهو ألا تنظروا إليها نظركم إلى كتاب في الأدب العربي قد فرغ له صاحبه وعنى بتحقيقه وتمحيصه .

قلت إن هذه الفصول ليست متصلة ولا ملتزمة ولا خاضعة لهذه الفكرة المتحدة التي يصدر عنها المؤلفون في تأليف كتبهم ، ومع ذلك فقد صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد وذهب فيها هذا الكاتب مذهباً واحداً وقصد بها إلى غرض واحد ، فهي متحدة مؤتلفة مهما تختلف ومهما تنقصها هذه الفكرة الواضحة المنظمة المتحدة ، فروح الكاتب فيها واضح بين ، ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلي ، وغرض الكاتب فيها لا يحتاج إلى أن يدل عليه ، بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والأموية ، وهي لا تكاد تتجاوز طائفة بعينها من هؤلاء الشعراء ، وهم أصحاب المحجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة ، وهي لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعاً هي ناحية مجنونهم وإسرافهم ، وما كان لذلك من أثر في حياتهم العقلية ، وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية في تلك البيئة من صلة ، ولعلك تذكر — وإن كنت قد نسيت فستذكر — أن النتيجة الواضحة التي انتهت إليها هذه الفصول كلها هي أن هذا العصر ، الذي انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية ، قد كان عصر شك وعبث ومجون ، أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته . وأنا أعلم أن هذا لم يعجب الناس ولن يعجبهم ، وأنا أعلم أنهم كرهوا وسيكروهون أن يعتمد كاتب إلى مثل هذه الناحية من نواحي الأدب العربي فيدرسها درساً مفصلاً ويظهر الناس على دقائقها وأسرارها ، ولكنني مع ذلك عمدت إليها متى أتيت لي ذلك ، لأني أعلم أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ، وأن من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحي الأدبية ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لي ، ولن يكون لأحد من الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته ، أن نغير التاريخ ، أو أن نظهر عصرًا من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه . فنحن لم نخلق أبا نواس

وأصحابه ، ونحن لم نلهمهم اللهو والمجون ، ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة ، ولكننا وجدناهم كذلك فكنا بين اثنين : إما أن نجعلهم وإما أن نعلمهم ؛ فأثرنا الثانية على الأولى واعتقدنا أن العلم خير من الجهل ، وأن الصواب خير من الخطأ ، وأن الشجاعة في التاريخ خير من الجبن فيه . ونحن نعلم حق العلم أن ليس على عقول الناس ولا أخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الأدبية ، فالناس لم ينتظروا هو أبي نواس وأصحابه ليعرفوا اللهو ، والناس لم ينتظروا هذه الفصول وأمثالها لنحبب العبث إلى الناس ونرغبهم فيه ، فإن في ظروف هذه الحياة التي نحياها مرغبات في اللهو ومحرضات على العبث أقوى وأبلغ من هو أبي نواس ، وعبث « مطيع » و « حماد » . قل ما شئت في هذه الفصول ، فلن تستطيع أن تنكر أن لها نتيجتين قيمتين : الأولى ، أنها جلست ناحية من نواحي تاريخ الأدب العربي لم تكن واضحة ولا بيّنة ، وليس هذا بالشيء القليل . الثانية ، أن فيها ضرباً من مناهج البحث أحسب أن الأدباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن يستغلوا هذه الكنوز القيمة التي لا تزال مجهولة والتي نشأ من جهل الناس إياها غضهم من الأدب العربي ، وانصرفهم عنه في أنفة وازدراء .

إن الذين يزدرون الأدب العربي ، ويغضون منه ، يجهلون منه هذا الأدب جهلاً منكراً ، وما كان لمن جهل شيئاً أن يحكم عليه . فكرت في هذا كله حين ألح عليّ الملحنون في نشر هذه الفصول ، فانتهيت إلى أن أذنت بنشرها كما هي ، وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر في فهم الأدب العربي وكتابة تاريخه .

أثناء قراءة الشعر القديم^(١)

قال صاحبي وهو يحاورني : إنكم لتَشْتُمُونَ علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتذوقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً ، وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها ، ونستطيع أن نأتى من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتون ، وأن نحس كما كانوا يحسون ، ونشعر كما كانوا يشعرون ، ونفهم من أجل ذلك ونذوق ما كانوا يقولون ، وأنتم مع ذلك تقرأون التاريخ وتدرسونه ، وكيف يستقيم لكم درس الأدب إذا لم تقيموه على إتقان التاريخ والعلم به ؟ فأنتم إذن تعرفون أن حياتنا غير حياة هؤلاء الناس ، وأن أطوارنا غير أطوارهم ، وأن الصلة قد انقطعت أو كادت تنقطع بينهم وبيننا ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث ، وحمل إلينا الحضارة الحديثة ، وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء ، وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا ، وجعل الأساليب بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب ، أدنى من الأسباب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز . فنحن يا سيدي نتعلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية فنتقنها أحياناً ، ويتاح لنا أن نقرأ الشيء الكثير أو القليل من آثار الشعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان ، فنفهم ما نقرأ ونتذوقه ، ونجد فيه لذة ومتاعاً ، وغذاء للعقول والقلوب ؛ لا نحس بيننا وبين هؤلاء الشعراء من بعد الأمد ، واختلاف الطبع والذوق والمزاج ، مثل ما نحس بيننا وبين أصحاب شعركم هذا القديم ، لأننا نحيا حياةً تقارب حياة الشعراء الأوربيين ، ولأننا نستمد علمنا وأدبنا وثقافتنا في هذه الأيام من ينباع نفسها التي يستمد منها الشعراء الأوربيون علمهم وأدبهم وفنهم ، ولأن اتصال الأمر بيننا وبينهم على هذا التحويد بيننا منهم ، ويقرب أدبهم إلينا ، ويحدث بيننا وبينهم صلات سيرة هينة ، لا مشقة فيها ولا جهد . والأيام كلما مضت واتصلت زادت

(١) نشرت بجريدة الجهاد بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٣٥ .

البعد بيننا وبين شعرائكم هؤلاء القداماء ، والحياة كلما تطورت وتحولت زادت في تغيير طبائعنا ، وفي تغريبتنا ، إن صح هذا التعبير . فكيف تريدوننا على أن نجد في هذا الشعر القديم من اللذة والمتاع ما نبحت عنه فلا نظفر به ؟ وكيف تريدون أن تفرضوا علينا عناء البحث عما لا سبيل إليه ، والدرس لما لا نفع في درسه ، والحفظ للكلام لا تسيغه أفواهنا حين تنطق به ، ولا تقبله آذاننا حين يلقي إليها ، ولا يصل إلى نفوسنا بحال من الأحوال ؟ إنكم لتضيعون وقتكم ووقتنا في غير نفع ، وإنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروباً من الجهد العنيف في غير طائل . ولو أنكم تقدرون الوقت ، وتعرفون للجهد الإنساني قيمته ، لوضعتم شعركم القديم هذا حيث أرادت الحياة أن تضعه ، فقصرتم درسه وفهمه وتفسيره على هؤلاء العلماء الإخصائيين ، الذين يفرغون لما يلائم ذوقهم من ضروب العلم ، فيحنون به ، وينفقون جهودهم فيه ، يبتغون لذتهم الخاصة ، ويبتغون ما يسمونه خدمة العلم ، وإحياء التاريخ . وما ينبغي لأحد أن يلوم رجلاً في العناية بالشعر الجاهلي ، أو يصدده عن هذه العناية ، ما دام في الناس من ينفق الوقت والجهد والمال في جمع طوابع البريد وما يشبهها من هذه السخافات ، التي يتهالك على جمعها أصحاب الثراء والدعة والفراغ . ولكن رفقا بالشباب ، لا تفرضوا عليهم الترف فرضاً ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ولا تأخذوهم بما تحبون أن تأخذوا به أنفسكم ، فإن الإغراق في نوع من أنواع التخصص خروج عما ألفت الناس ، وما ينبغي أن يخرج الناس جميعاً عما ألفت الناس .

لا تفرضوا شعركم الجاهلي ، بل شعركم القديم ، على الطلاب والتلاميذ ؛ فليس هذا الشعر منهم ، وليسوا هم من هذا الشعر في شيء . علموهم ما يستطيعون أن يتعلموا ، وخذوهم بحفظ ما يستطيعون أن يحفظوا ، ولا تفسدوا عقولهم وأذواقهم بتكليفهم ما لا يطيقون .

وكان صاحبي يقول هذا كله في صوت حازم ، ولهجة حادة ، وحماسة تكاد تبلغ العنف ، ونشاط لم يقتصر على نفسه المفكرة العاقلة ، وإنما تجاوزها إلى جسمه أيضاً ، فكان كثير الحركة والاضطراب : يقوم ويقعد ، ويلتفت إلى يمين وإلى شمال ، ويحرك يديه وذراعيه حركات عنيفة مختلفة ، كأنه كان خطيباً يريد أن يقهر الجماهير .

ولست أخفى عليك أنى أنفقت كثيراً من الجهد ، وتكلفت كثيراً من العناء ، لأرده إلى شىء من الهدوء ولأقنعه بأن من حقه أن يقول ، ولكن من الحق عليه أن يسمع . وأكاد أعترف بأنى يثبت من حملة على الصمت والاستماع ، ولولا أنى انصرفت عنه ، وهممت بفراقه ، لما اتصل بينه وبينى الحديث فى هذا الموضوع .

ذلك أنه مخلص كل الإخلاص فى بضع هذا الشعر القديم المسكين . ويظهر أن بينه وبين هذا الشعر ثاراً ، فهو قد كان يلتمس مثله الأدبى الأعلى أول أمره عند القدماء من العرب ، وكان فى هذا متأثراً لغيره من المثقفين والممتازين . وهو قد قرأ بعض الشعر العربى القديم فى ديوان الحماصة وغير ديوان الحماصة من كتب المختارات ، ففهم وتذوق ولكنه لم يرض ! فاستزاد وأكثر القراءة وأراد أن يتعمق الدرس ، وتجاوز الحماصة وأمثالها من الكتب اليسيرة إلى كتب أخرى ، أقل يسراً وأشد إمعاناً فى المذهب العربى الخالص فى الشعر ، فأخذ ينظر فى الأراجيز والمفضليات ومطولات الجاهليين ، ونقائض الفرزدق والأخطل وجرير . ولكنه لم يكاد يمضى فى هذا النظر حتى قامت أمامه صعاب وعقبات ، لم يجد إلى تذليلها من سبيل ، فألفاظ ضخمة تنبوعها أذنه وتستغلق معانيها عليه ، فإذا حاول فهمها لجأ إلى الشروح والمعاجم ، فإذا هذه الشروح والمعاجم مضطربة ، شديدة الاختلاط ، كثيرة الاستطراد ، وإذا ففهمها ليس أدنى إليه ، ولا أسرع عليه ، من فهم النص الشعري الذى يلتمس تأويله وتفسيره . وقد وقع المسكين على شرح ابن الأنبارى للمفضليات ، فضل ضلالاً بعيداً فى هذا الكلام الكثير الذى تختلط فيه الروايات والأقاويل ، ومسائل النحو ، ومذاهب اللغويين ، ثم وقع على النقائض ، فلم يكن ضلاله قريباً ، وإنما كان بعيداً كل البعد ، يبدأ القصة فلا يعرف كيف تنهى ، لأنه لا يكاد يتقدم فيها خطوة أو خطوتين حتى يجد نفسه قد دفع إلى قصة أخرى ، ولا يكاد يمضى فى هذه القصة الثانية حتى يدفع إلى قصة ثالثة ، وهو لا يكاد يمضى فى هذه ولا تلك حتى يجد الشعر يروى من هنا وهناك ، قد ركب بعضه بعضاً ، واختلط ببعضه ببعض ، ولم تقم فى الصحراء أو فى هذه الغابات أعلام يهتدى بها إن مضى ، ويعتمد عليها إن رجع ، فأعرض عن الكتائين إعراضاً ، ويشس من الأدب القديم بأساً ، والتمس من كتب

المحدثين ما يقرب إليه هذا الأدب النافر ، ويدلل له هذا الفن الجامح ، فلم يجد شيئاً . هنالك فرع إلى الأوروبيين ، فوجد من أدبهم ومن نظامه الذى يقربه وييسره ما أرضاه ، فأصبح مبغضاً للأدب القديم بطبعه ، محبباً للأدب الأجنبي أعظم الحب . ثم ذكر أن الأدب القديم كان يفرض عليه فى المدرسة فيحمله من المشقة ما لا يطيق ، ويبغض إليه المدرسة تبغيضاً ، ونظر فإذا الطلاب والتلاميذ ما يزالون يشقون بمثل ما كان يشقى به ، ويجاهدون فى مثل ما كان يجاهد فيه ، وينتهون إلى مثل ما كان ينتهى إليه من العناء واليأس والإخفاق . فأصبح لا يطبق حديثاً عن الشعر القديم ، ولا يطبق التفكير فى أنه شيء يمكن أن يدرسه الشباب ، أو يفرغ له غير هؤلاء المجانين ، الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس علماء .

وقد أطلت الحوار مع صاحبي فلم أظفر منه بشيء ، لأن انصرافه عن الشعر القديم ، قد أصبح علة ، قد استقرت فى نفسه استقراراً ، تؤذيه كل الإيذاء ، وليس فى شفائها أمل ، ولا إلى إنقاذه منها سبيل . وقد تحدث إلى المتحدثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، لأنها ، كما قال صاحبي ، تباعد بينهم وبين حياة القدماء ، وتحول بينهم وبين فهم هذه الحياة ، وما كان يصورها من الأدب القديم . والناس مفتونون بالسهل ، متهاكون على القريب ، يكرهون الجهد ، ويفرون من التعب . والحضارة الحديثة تغريهم بهذا ، فهم لا يمشون إذا استطاعوا الركوب ، وهم لا يتخذون القطار والسفينة إذا استطاعوا اتخاذ الطائرة . وهم يجدون فى الأدب الأجنبي الحديث ما يرضيهم ، فإن أرادوا اللذة الفنية ظفروا بها ، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه ، وإن أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا فى ذلك جهداً ولا عناء .

ومع أن الجهود التى بذلت فى هذا العصر الحديث لإحياء الأدب العربى القديم لا بأس بها ، فقد يجب أن نعرف بأنها لم تغن عن هذا الأدب القديم شيئاً ، لأن الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم ، فهى تسعى إلينا وتبلغنا من كل وجه ، وهى تلح علينا إلحاحاً فى جميع أطوار حياتنا ، وإنتاجها الأدبى لا ينقطع ، فهو يغمرنا بكثرتة ، ويغرينا باختلافه ، ويفتتنا بسحره ، ويصرفنا عن هذا الأدب القديم ، الذى لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئاً

قد أثقلته القرون ، وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتى يتعثّر في هذه العقبات التي تبثها الحضارة الحديثة أمامه ، والتي يتصل بعضها بالعلم ، وبعضها بالجهل ، وبعضها بالذوق المترف الرقيق ، وبعضها بالذوق الحسن الغليظ ، وبعضها بما شئت وما لم تشأ من هذه الخطوب ، التي تفرضها الحضارة الحديثة علينا فرضاً ، فتصرفنا عن كل ما يحتاج إلى الجهد والرواية والأناة . ومعنى ذلك أن الأدب القديم صائر ، إذا مضت الأمور على هذا النحو الذي تمضى عليه ، إلى أن يصبح لوناً من ألوان الترف ، لا يعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص في بعض الفنون . ومع ذلك نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ في هذا العصر الحديث كما كان من قبل ، ضرورة من ضرورات الحياة العقلية ، وأساساً من أسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب .

ونحن لا نحبّ أن يظلّ الأدب القديم في هذه الأيام كما كان من قبل ، لأننا لا نحبّ القديم من حيث هو قديم ، ونصبو إليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين ، بل نحن نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ قواماً للثقافة ، وغذاء للعقول ، لأنه أساس الثقافة العربية ؛ فهو إذن مقوم لشخصيتنا ، محقق لقوميتنا ، عاصم لنا من الفناء في الأجنبي ، معين لنا على أن نعرف أنفسنا .

فكلّ هذه الحصال أمور لا تقبل الشكّ ، ولا يحسن فيها المراء ، ولكننا مع ذلك نحبّ أن يظلّ أدبنا القديم أساساً من أسس الثقافة الحديثة ، لأنه صالح ليكون أساساً من أسس الثقافة الحديثة . ونحبّ أن يظلّ أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب ، لأن فيه كنوزاً قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب . والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شراً غير قليل ، لم يأت منها هي ، وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها ، وإنما أخذنا منها بالظواهر ، وقنعنا منها بالهين اليسير ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً . هذا الشاب ، أو هذا الشيخ الذي أقبل من أوروبا يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانة بإحدى اللغات الأجنبية أو بغير لغة من اللغات الأجنبية ، ويجلس إليك وإلى غيرك منتفحاً منتفشاً ، مؤمناً بنفسه وبلجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ، ثم يتحدث إليك كأنه ينطق بوحى أبولوّن ، فيعلن إليك

في حزم وجزم أن أمر القديم قد انقضى ، وأن الناس قد أظلمهم عصر التجديد ، وأن الأدب القديم يجب أن يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويمثلون أفواههم بالقاف والطاء وما يشبههما من الحروف الغلاظ ، وأن الاستمسك بالقديم جمود ، والاندفاع في الحياة إلى أمام هو التطور ، وهو الحياة ، وهو الرقى . هذا الشاب وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة لأنه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها . ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر القديم ولا تنفر منه ، ولا تصرف عنه ، وإنما تحببه وترغب فيه ، وتحث عليه ، لأنها تقوم على أساس منه متين ، ولولا القديم ما كان الحديث . وإن بين أدباء الأوروبيين الآن لقوماً غير قليلين ، يحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يحسنه القدماء أنفسهم ، ويعكفون على درس الأدب القديم أكثر مما كان يعكف كثير من القدماء ، ويؤمنون بأن اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بين حديث أديهم وقديمه هو اليوم الذي يقضى فيه الموت على أديهم ، ويحال فيه بينهم وبين كل إنتاج .

هذا الشاب ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ، أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشره ليس مقصوداً عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس فهو يتحدث ، وهو يعلم ، وهو يكتب ، وهو في هذا كله ينفث السم ، ويفسد العقول ، ويمسخ في نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد ، فليس التجديد في إماتة القديم ، وإنما التجديد في إحياء القديم ، وأخذ ما يصلح منه للبقاء . وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه في الأدب مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهبهم مظاهر هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهبهم عن أديهم القديم ، لم يذوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا منها صوراً وأشكالاً ، وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل . والذين تلتفهم الحضارة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بألا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامي ، وبالآداب العربي قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمس حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفعوا في إقامة الحياة الجديدة على أساس متين .

وأراني شغلت عن صاحبي وحواره ، وعن موضوع هذا الحوار بهؤلاء الذين أفسدتم الأخذ بظواهر الحضارة ، فجهلوا القديم ثم كرهوه ، ثم اتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يغرون به ويدعون إليه .

على أني قلت لصاحبي فيما قلت : إنما أمر الأدب القديم عندي أشبه بحديقة طال عليها الزمن ، وأهملت إهمالاً متصلاً ، ولم تنقطع عنها مع ذلك مادة الحياة ، ففضت أشجارها وشجيراتنا تنمو في غير نظام ، هذا النمو المهمل المضطرب ، حتى اختلط أمرها اختلاطاً شديداً ، وحتى أصبح من العسير عليك وعلى أمثالك أن تجدوا فيها سبيلاً إلى ما تحبون من النزعة والراحة إلى جمال الزهر والشجر . فأنتم قد ألغتم الحقائق التي يتعهدنا البستاني إذا أصبح ، ويتعهدنا إذا أمسى ، وينسقها لكم تنسيقاً ، ويمهد الطرق لكم فيها تمهيداً . أنتم تريدون الراحة دون أن تتكلفوا في سبيلها التعب ، وتلتمسون اللذة دون أن تحتملوا في سبيلها الألم . تريدون أن تسعوا في الحقائق دون أن يعوقكم التفاف الشجر ، والتواء الأغصان ، وقيام هذه العقبات التي يكلف بها الذين يحسنون فن النزعة ، ويتذوقون الجمال الحر . أنتم تريدون أن تهياً لكم لذة الفن تهية ، وأن يوضع لكم الطعام في أفواهكم والعلم في قلوبكم . وأنا أعرف قوماً يؤثرون هذه الحقائق الحرة ، التي طال عليها الزمن وألح عليها الإهمال ، على حقائقكم هذه المنسقة المنظمة التي أعدت لكم إعداداً .

وأعرف قوماً لا يظفرون بهذه الحقائق المهملة فيبتكرونها لأنفسهم ابتكاراً ويتكلفون إهمال حقائقهم ، وإرسال ما ينبت فيها من الشجر والنجم على سبيلته ، ليهياً لهم بعد زمن يقصر أو يطول ، أن يجدوا في طريقهم أشجاراً ملتفة ، وأغصاناً ملتوية ، وعقبات خضراء ، يضطرون إلى أن يزيلوها بأيديهم ، ويتعرضون لأن يصيبهم منها قليل من الأذى أو أكثر .

أعرف هؤلاء الناس وأحب أن أكون منهم ، ولست أخفي عليك أني إذا لم أكره الأدب السهل الميسر فإنني أؤثر عليه الأدب الصعب الذي يكلفني مشقة وجهداً لأفهمه وأذوقه ، وإذا كان شعرنا القديم يمشك ويؤذيك ، وإذا كانت كتبنا القديمة التي ألقت لشرح هذا الشعر وتفسيره تثقل عليك ، فإنني أبجد في هذا الشعر ، وفي هذه الكتب ، متاعاً لا أجده في هذا الأدب الحديث الذي تؤثره وتهالك عليه ، والذي أحبه أنا ولكني لا أؤثره بالحب ،

ولا أختصه بالعناية ، ولا أرى أنه كل شيء .

وقلت لصاحبي فيما قلت : إن ما يصرفك عن الشعر القديم يغريني به ، وما يزهديك فيه يدفعني إليه ؛ فأنت تكره هذه الألفاظ التي تكلفك البحث في المعاجم ، وأنا أحبّ هذه الألفاظ ، لأنها تكلفني البحث في المعاجم . وأنت تكره هذه الشروح التي تختلط فيها الروايات ، ويكثر فيها الاستطراد ، وتنبث فيها مسائل النحو ، وأنا أحبّ هذه الشروح لنفس هذه العلة .

وأنا أعلم أن الناس جميعاً لا ينبغي أن يؤخذوا بما آخذ به نفسي ، وأن الناس جميعاً لا ينبغي أن يكلفوا قراءة شرح ابن الأنباري للمفصليات . وأعلم أيضاً أن العلم بهذه الأشياء يجب أن يكون مقصوداً على عدد لا بأس به من العلماء . ولكنني أعلم مع هذا أن هؤلاء العلماء لا ينبغي أن يؤثروا أنفسهم بالعلم ، وأن يحتكروه من دون الناس ، وإنما يجب عليهم أن يتعبوا لتستريح أنت وأمثالك ، وأن يشقوا لتسعد أنت وأمثالك ، وأن يستخرجوا لكم من هذه الحقائق القديمة المهملة ، التي طال عليها الزمن ، وبعد بها العهد ، زهرات لا تستطيعون أنتم أن تخرجوها ؛ فمن يدري لعلّ هذه الزهرات أن تعجبكم ، ولعلها أن تغريكم بمصادرها ، ولعلها أن تثير في نفوسكم شيئاً من النشاط والغيرة ، وتدفعكم إلى أن تخاطروا بالسعي بين هذه الأشجار الملتفة ، والأغصان الملتوية ، لتستخرجوا مثل ما يخرجكم لكم العلماء من الزهر والثمر .

وأنا أبيع لك كل شيء إلا أن تزعم أن حديقتنا المهملة قد أماتها الإهمال ، وأذواها طول الزمن ، فلم يبق لها حظّ من حياة . وأنا أبيع لك كل شيء إلا أن تزعم أن أدبنا القديم قد مات لأنه قديم ، فأنت إن زعمت ذلك ، تزعمه عن جهل ، لأنك لم تسع في حديقتنا ، وإنما صدك عنها مظهرها المهمل المضطرب ، الذي اشتدّ فيه الاختلاط ، فإن كنت في شكّ من ذلك فالأمر بينك وبينى يسير ، فتعال نقض معاً ساعة أو بعض ساعة متزهين في طرف من أطراف هذه الحديقة المهملة ، ولك علىّ ألاّ أمعن بك فيها إمعاناً ، وأن أهونّ عليك أمر هذه الزهرة ما استطعت تهوينه ، فإن رجعت منها أسفاً فأنا المخطيء ، وأنت المصيب .

قال صاحبي : فإني قد قبلت ، وإن كنت أعلم حقّ العلم أنك ستكلف نفسك وتكلفني معك مشقة لا طائل فيها ولا غناء ، ولكنني أريد أن أقيم عليك

الحجة ، وأكرهك على أن تعترف بالحق ، وأضطرك إلى أن تعلن أن شعركم القديم قد بلى فلم يصبح لنا فيه أرب . قلت : لا تعجل ، ولكن في أيّ طرف من أطراف الحديقة تريد أن نقضى ساعة من نهار؟ قال : تخيراً أنت فما ينبغي لي أنا أن أختار . قلت : فإني أختار أشدّ أطراف الحديقة اضطراباً وأكثرها اختلاطاً ، وأبعدها عهداً بالحدثين ، وأريد أن نقضى ساعة أو بعض ساعة مع شاعر من هؤلاء الشعراء الذين يسمونهم الجاهليين ، ننظر في قصيدة من هذه القصائد التي يسمونها المعلقات .

ثم تمّ الاتفاق بيننا على أن يكون يوم الأربعاء من كلّ أسبوع موعداً لهذه التزهة في صحراء الأدب الجاهلي ، التي يراها الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها ، وسنرى كيف يكون حكم صاحبي ، وكيف يكون حكم القراء حين يقرءون ما يكون بينه وبينى من حوار أثناء هذه التزهة القصيرة؟

ساعة مع شاعر جاهلي^(١)

قلت لصاحبي - وقد طال الحوار بينه وبينى في نفع هذه الساعة التي أردت أن يقضيها مع شاعر من الشعراء الجاهليين هو لييد-: وما يضرك أن تتكلف بعض الجهد والعناء ساعة من نهار ، لتسمع عن هذا الشاعر الذي كان القدماء يعجبون به إلى غير حد ، ويكبرون شعره في غير تحفظ ، يجتمعون إليه ليستمعوا له ، ويسعون إليه ليسألوه ، ويتناقلون شعره معجبين برصانة لفظه ، ومتانة أسلوبه ، واعتدال وزنه ، واستقامة قوافيه ، وروعة معانيه ؛ في دقة لا تشبهها دقة ، ووضوح مع ذلك لا يشبهه وضوح . قال : فإني لن أفهم عنه إذا استمعت له ، ولن أذوقه إن فهمت عنه ، ولن أجد في ذوقه من اللذة والمتاع ما أجده حين أقرأ شعر المحدثين ، وأستخلص ما فيه من معان تلائم طبيعتي ومزاجي ، قد أدت في لفظ يلائم ذوق وحسى . ولقد حاولت منذ حين أن أقرأ ليبدأ هذا فما كدت أبلغ الأبيات العشرة الأولى من قصيدته المطولة ، حتى ضقت بها ، وانصرفت عنها ، لا بغضاً ولا قِلَياً ، ولكن عجزاً وبأساً . قلت : فإني سأكون ترجماناً بينك وبينه ، ولئن فاتك أن تذوق ألفاظه الضخمة الفخمة ، التي قد تبلغ من الضخامة والفضامة إلى حيث تضيق بها أفواهنا المترفة الصغار ، وآذاننا التي لم تتعود قصف الرعد ولا وقع الجلاميد ، فن يدري لعلك تذوق هذه المعاني الرائعة البارعة على بداوتها ، ولعلك توافقني على أن الشعر ليس كله محدثاً ، وإنما هناك شعر قديم ، وعلى أن الشعر القديم نفسه ليس كله ميتاً ، وإنما هناك شعر قديم ما زال يترقق فيه ماء الحياة . وإني لأعلم أن الأبيات الأولى من قصيدة لييد خشنة الملمس ، غليظة اللفظ ، بعيدة المعنى عن مألوفنا ، ولكن مع ذلك أجد فيها شعراً قوياً غنياً ، خصباً ممتعاً ، خليقاً بالإعجاب والإكبار ، خليقاً أن يثير في نفوسنا عاطفة قلما تثيرها فيها خطوب حياتنا المتحضرة ، التي تشغلنا بالعاجل من الأمر ،

(١) نشرت بمجريدة الجهاد بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٩٣٥ .

والتي تحول بيننا وبين الأناة والتفكير ، والتي تمنعنا من أن نعود إلى نفوسنا ،
ونعكف عليها ، ونستخرج منها ، أو نتبين فيها عواطف الشوق والحب والحنان
والحنين أيضاً .

وما رأيك في هذا الرجل الذي أراد أن يتغنى ما يملاً حياته البدوية بالنشاط ،
فبدأ كما تعود أمثاله أن يبدءوا بشيء من النسيب ، ولكنه نسيب شاحب ،
فيه حزن يشتد حتى يؤثر في النفس ، ويكاد يبلغ بها الجزع واليأس ؛ لولا
أن الشاعر قوى النفس ، شديد الأيد ، عظيم الحظ من الإرادة ، جلد صبور ،
فهو لا يستسلم للعاطفة ، ولا يخضع لسطانها ، وإنما يأخذ منها بمقدار ،
إن صح هذا التعبير ، يحزن ولكن على ألا يفسده الحزن ، ويفرح ولكن على
ألا يبطره الفرح . يحزن ويفرح بمقدار ما ينبغي له من هذا الحزن الذي يصلح
النفس ، وهذا الفرح الذي يعتدل له المزاج . على أن تأثره بهذه العواطف
ليس مقصوراً عليه ، ولا على معاصريه الذين كانوا يفهمون عنه ويفهم عنهم ،
بل هو يتجاوزه ويتجاوزهم إلينا نحن ، وإن بعد بينه وبيننا العهد ، وطال
بينه وبيننا الزمان .

وهو يسلك إلى تصوير عواطفه هذه نفس الطريق التي يسلكها الشعراء
المحدثون : طريق التصوير القوي المؤثر ، الذي يثير في نفسك الإعجاب
لأنه يؤثر في عقلك وحسك وشعورك معاً . وأنا أشفق عليك ، أو أشفق منك ،
فلا أروي لك الأبيات الأولى من هذه القصيدة بلفظها ، مخافة أن تنفر منها ،
وإنما أترجمها لك ترجمة . وأى بأس من أن يترجم الشعر العربي القديم إلى اللغة
العربية الحديثة ؟ فإن هذه القرون الطوال ، التي مضت بين القدماء وبيننا ،
لم تمض عبثاً ، وإنما أنشأت بينهم وبيننا فروقاً عظيمة ، جعلت من العسير
علينا أن نفهمهم إذا تحدثوا ، كما نفهم أنفسنا حين يتحدث بعضنا إلى بعض .
وإذا كان الفرنسيون يحتاجون إلى أن يترجموا بعض آثارهم في القرون الوسطى ،
وفي أول العصر الحديث ، إلى لغتهم التي يألونها الآن ، فلم لا نحتاج نحن
إلى أن نترجم أو نقرب شعر القدماء من الجاهليين أو من الإسلاميين إلى هذه
هذه اللغة اليسيرة ، التي نصطفها فيما يكون بيننا من الأحاديث ؟ لا بأس
عليك إذن ولا على من أن ندع لفظ «ليبد» الآن ونكتفي بمعانيه ، لئلا نرى لها حظاً
من الشعر ومن جماله ، أم هي بريئة من الشعر والجمال معاً ؟ أما أنا فيعجبني

جداً تصويره هذه الديار ، وقد خلت من أهلها ، وبعد عهدها بهم ، وطال عليها الزمن ، واختافت عليها الخطوب وأحداث الجو ، فأصبحت وكأنها لم يسكنها الناس ، لولا هذه الآثار الضئيلة التي يصورها الشاعر ويتحدث عنها ، ولولا هذه الذكرى التي تملأ نفس الشاعر حباً وشوقاً وحناناً ، ولولا هذه الأسماء التي حفظها الشاعر ، فهو يجري بها لسانه استثارة لعواطف الحب والحنان .

خلت هذه الديار من أهلها ، كما خلت من آثارهم ومتاعهم ، ولم يبق فيها إلا هذه الرسوم الضئيلة النحيلة التي بقيت ؛ لأن حملها ليس ممكناً ولا ميسوراً ، والتي جدّ الزمن في إزالتها ، فأخذت تنمحي قليلاً قليلاً ، حتى كأنها النقش على الحجر قد طال به العهد ، فأخذ ينمحي حتى كاد يزول .

خلت هذه الديار من أهلها ، ومضت عليها أعوام طوال كاملة ، لم يزرها إنسان ، ولم يستقر بها مقيم ، وهي مع ذلك معرضة لأحداث الجو ، تختلف عليها الرياح ، وتلم بها العواصف والأنواء ، ويصيبها المطر الخفيف ، ويصيبها المطر الغزير ، ويقصف في جوها الرعد إذا كان العشي . ثم تنجلي عنها هذه الأحداث الجوية ، وقد ألفت إليها الخصب ، وأشاعت فيها الحياة ، وأثارت فيها النبات ، وجعلتها مرتعاً للطي والبقر ، ومأمناً للوحش ، تعيش فيها راضية لاهية مطمئنة فارغة لنفسها ولأبنائها ، قد بعد عهدها بالناس فليست تخاف الناس ، وإنما هي آنسة حيث لم يكن لها أن تأنس منذ أعوام . وقد وقف الشاعر على هذه الديار التي تغيرت وتبدلت شئونها ، وقفة السائل المتذكر ووقفة الحزين الأسف ، وهو يودّ لو تخبره بأخبار الذين كانوا فيها ، ولكنه لا يكاد يمعن في هذا التفكير ، حتى يردّه حزمه إلى الروية والرشد ، فينكر على نفسه ما هو فيه ، من سؤال هذه الأحجار والصخور الصم الخوالد ، التي فقدت كل حركة وكل نشاط ، فكيف السبيل لها إلى أن تتكلم ! وكيف السبيل لها إلى أن تجيب ! وكيف السبيل لها إلى أن تبين !

وكلّ هذه المعاني مألوفة عند الشعراء الأقدمين ؛ ولكن انظر إلى هذه الصور الجميلة ، التي يؤدّي الشاعر فيها هذه المعاني ، وحدثني لو أن شاعراً محدثاً أراد أن يؤدّي مثل هذه المعاني ، أتراه يستطيع أن يؤديها في صور خير من هذه الصور ؟ آثار الخيام في الديار ، وآثار ما كانت تحتويه الخيام من المتاع والأثاث ، قد محيت ولم يبق منها إلا القليل ، كأنه بقايا النقش ،

وقد محاه أو كاد يمحوه طول العهد ، أو كأنه رجع الوشم وقد أخذت الواشمة
تعيده وتجده على اليد ؛ وهذه السماء الملحة على هذه الديار بالمطر الهادئ
والمطر القوى ، والرعد حيناً والمطر في غير رعد حيناً آخر ؛ وهذا النبات
الذى يشور ، فإذا الأرض تنشق عنه ، وإذا هو يمضى فى ثورته حتى يرتفع !
وهذه الحياة التى تنبث فى الأرض فإذا هى نبات كلها ، وإذا الوحش يجد
فيها مأمناً ومرتعاً ، وفراعاً للحنان والعناية بالأطفال ؛ وهذا الشاعر الذى يلم
بهذه الأرض ، وقد اختلفت عليها كل هذه الأحداث ، وألت بها كل
هذه الخطوب ، وأصابها كل هذا التغيير ، فيذكر عهدها القديم وأهلها
القدماء ، وما كان بينه وبينهم من صلوات ، وما كان يشاركهم فيها من لذة ،
وما كان يقاسمهم فيها من ألم ؛ وإذا هو فى أول أمره سائل ملح فى السؤال ،
ثم إذا هو يثوب إلى رشده قليلاً ، وإذا هو يستئيس من الجواب شيئاً فشيئاً ،
وإذا هو يطمئن إلى هذا اليأس ، وإذا هو يقنع بالذكرى ، وإذا هو
يستحضرها بالذكرى ، ويقصها على نفسه كما لو قصها عليه إنسان آخر ، وإذا هو
يتحدث عن يوم الرحيل ، وعن هؤلاء النساء الحسنات اللاتي ارتحلن ذات يوم
من هذه الديار إلى أرض مجهولة ، لا يستطيع هو أن يحققها ؛ فقد تكون عن
شماله نحو الحجاز ، فى هذا المكان أو ذاك ، وقد تكون عن يمينه نحو اليمن ،
فى هذا المكان أو ذاك ؛ وهو على كل حال عاجز كل العجز عن أن يسعى
إلى هذه الأماكن أو تلك ، وأن يلم بأهل هذه الديار هنا أو هناك ، فحسبه أن
يذكر ويكرر الذكرى ، وحسبه أن يستحضر ويلح فى الاستحضر ، وهو
يرى النساء وقد دخلن الموادج كأنهن الظباء حين يؤوين إلى الكنس التى
يتخذنها من أغصان الشجر ، وهو يرى هذه الموادج وبتبينها ويصورها ،
كأنه يمسه بيده ، فهو يذكر لنا قوائمها ، وهو يذكر لنا ما نشر عليها من
الثياب ، وهو يذكر لنا أستارها الرقيقة ؛ ثم هو يرى الإبل وقد نهضت ثم
دفعت أمامها فى الطريق ، وهو يتبع هذه الإبل ببصره وهى تنأى عنه شيئاً
فشيئاً ، وتغيب عن عينه قليلاً قليلاً ، والضحى يرتفع ، والسراب ينتشر ،
وصور هذه الإبل ، وهى تخرج من سراب لتدخل فى سراب ما تزال تتمثل
لعينيه ، ثم تغيب الإبل حتى تنقطع أو تكاد تنقطع الأسباب بينه وبينها ،
وما زال الضحى يرتفع ، وما زال الآل ينتشر ، وإذا الشاعر ينظر فلا يكاد

يرى إلا تلالاً صغاراً ضئيلة ، قد اتخذت من هذا السراب أردية .
 وليست عين الشاعر وحدها هي التي ترى وتتبع الإبل ، وليست وحدها
 هي التي تذكر ما رأت وما تبعت ، ولكن أذن الشاعر أيضاً قد سمعت ،
 وهي تذكر ما سمعت ، والشاعر يصور لنا هذا الذي سمعته وذكرته تصويراً
 يمر به المعلمون والمتعلمون غير حافلين به ، ولا ملتفتين إليه ، وفيه مع ذلك
 الشعر كل الشعر : فهذه الإبل قد نهضت وأخذت تسعى بأحبالها ، وعليها
 الخيام التي كانت تظل أهل الديار ، وهذه الإبل تسعى بهذه الخيام وتضطرب ،
 وهذه الخيام تصرّ لهذا السعي والاضطراب ، ومن يدري لعل في صرير هذه
 الخيام اشتكاء لهذا الرحيل الذي لم تكن تنتظره ولا ترجوه . ومن يدري ! لعلنا
 لا نفهم عن الأشياء كما ينبغي ، حين نرى صورها ، أو نسمع أصواتها ،
 وإنما الشعراء وحدهم هم القادرون على هذا الفهم ، وهم القادرون على أن يترجوا
 عما تريد الأشياء .

على أن شاعرنا - كما قلت لك آنفاً - ليس ضعيفاً ، ولا واهي العزم ،
 ولا مسرفاً في الاسترسال مع العاطفة ؛ وإنما هو صاحب حزم وإرادة وتصميم ،
 وقد غابت الإبل عن عينيه ، وقامت من دونها التلال والجبال ، وقد انقطع
 عن أذنيه صرير الخيام ، الذي قد يكون فيه الشكوى ، وقد يكون فيه الوداع .
 وقد مضت الأيام ، ومضت الشهور ، ومضت الأعوام ، وليس من سبيل
 إلى أن يرد الماضي ، ولا أن يبلغ أحباءه ، لأنه لا يعرف أين يكونون . فما
 استرساله في اليأس ، وما استسلامه للجزع ، وإن في الحياة لما يشغل عن
 اليأس ، وإن فيها لما يصرف عن الجزع ؛ وإن صاحبتة هذه التي هجرته
 وانصرفت عنه ، وقطعت ما بينها وبينه من الوسائل والأسباب ، لخليفة أن تلقى
 منه صدأً بصد ، وإعراضاً بإعراض ؛ فما ينبغي للرجل الحازم العازم أن يحتمل
 الهجر والصد ، دون أن يجزى الهاجر الصاد بمثل هجره وصدده . وإنما الرجل
 الذي يحسن الوصل حين يتاح له الوصل ، هو الرجل الذي يقدر على الهجر
 حين لا يكون له من الهجر بد ؛ وقد مضت الإبل بصاحبتة إلى حيث لا يدري ،
 أفطن أن الإبل لا تستطيع أن تمضي به هو إلى حيث يدري ؟ كلا . إن له
 لناقاة قادرة على أن تمضي به لدى حيث يريد ، ولدى حيث لا يدركه الطالبون ،
 ولدى حيث تجهل صاحبتة من أمره مثل ما تجهل ، أو أكثر مما تجهل من أمرها .

وأنت يا سيدي مخطئ أشد الخطأ حين تظهر ما تظهر من الضجر ،
 وحين تأخذ في التبرم بحديث الناقه الذي يكثر منه الشعراء القدماء ؛ فليس
 شاعري حين يصف ناقته مثقلا ولا مملا ، وإن كان مطيلا مكثراً ، فناقته في
 حقيقة الأمر لا تعنيه ، إلا لأنها تستطيع أن تسليه عن هجر الهاجر ، وأن
 تمضي به إلى حيث لا يطلب ، فقدرتها على الإسراع واحتمال ما يفرضه السفر
 من الجهد والمشقة والجزال ، هو أهم ما يعنيه من هذه الناقه ، ومن يدري لعل
 الشاعر كان يتنبأ بأن القرون ستمضي وتمضي في إثرها القرون ، ثم يخلف
 خلف من الناس ، يضيعون بالمألوف من وصف الإبل ، ويكروهون الحديث
 المطرد في غير تنوع ولا اختلاف ، ويتبرمون كما تبرم أنت بالقديم ، فأراد
 ألا تضيق به ، ولا تزور عن وصفه لناقته ؛ ومن يدري لعله فكر فيك وفي
 أمثالك الذين فتنهم الشعر الحديث ، وخلبهم ما فيه من هذه الصور المختلفة
 الحية التي تمر بأذانهم ، فإذا هم يرونها بعينهم ، وإذا هي تضطرب أمامهم
 كما يضطرب الأحياء ، فشاعري يا سيدي قادر ماهر ، وهو ماكر أيضاً ،
 يخيل إلى أنه إنما اتخذ ناقته تعلقة ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التي كانت
 تشيع في الصحراء ، وليعرضها عليك وعلى أمثالك عرضاً سريعاً هادئاً معاً ،
 كأنك تراها في دفتر من دفاتر الصور إن شئت ، وكأنك تراها على لوحة
 من لوحات السينما إن أحببت . وقل إن أردت إنى مفتون بهذا الشاعر القديم ،
 ولكن انظر معي إلى هذه الصور المختلفة التي يعرضها عليك في لفظ رائع ،
 لا تستطيع أن تحكم على روعته ، لأني لا أرويه لك ، ولأنك تؤثر الكسل
 والراحة ، على أن تنظر فيه وتندوق جماله .

انظر معي إلى هذه الصور ، فقد يخيل إلى أنها ستفتنك كما فتنتني ؛
 فشاعري يا سيدي صاحب حركة ونشاط ، هو لا يثبت الشيء أمامه ليصفه ؛
 هو لا يصف الشيء ساكناً مستقرّاً ، وإنما يدفعه أمامه ، ثم يندفع في أثره ،
 ثم يصفه لك مسرعاً في الحركة ، فيضطرك أنت إلى أن تنشط ، وإلى أن تتبعه
 في طريقه التي مهما تبعد ، ومهما تطل ، فهي واضحة ، لا يخشى فيها الضلال .
 ناقه شاعري يا سيدي قد تعودت الأسفار ، واحتملت من أسفارها غير قليل ،
 فهي متعبة مكدودة ، قد براها السفر ، وألح عليها الجزال ، ولكن ذلك لم يقعد
 بها عن السرعة ، وإنما أعانها عليها ، فهي تمضي وكأنها السحاب قد أراق

ماءه ، فحفف واستسلم لأيسر الريح . على أن هذا التشبيه لا يكفي شاعري ، وإنما هو يطمع في تشبيهات أخرى أبلغ منه ، وأكثر روعة وجمالا ، وفيها من الحياة ، ومن الحياة القرية ، ما ليس في السحاب . فهل رأيت إلى الأتان الوحشية ، وقد تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها ، وكثر فيما بينها الخصام . ثم استطاع واحد منها أن يستأثر بها من دون أصحابه ، وأن يصطفئها لنفسه ، ثم استيقن أن له عليها حقاً ، ثم لعب في نفسه الشك ، وثار في الريح ، وملكته عليه الغيرة أمره ، ففضل حياة العزلة ، وزاده حرصاً على العزلة وتأثراً بالغيرة ، ما يرى من تمنع صاحبه وتجنبها ، فهو يدفعها أمامه ، وهي تمضي مسرعة تود لو تفوته ، ولكنه يعدو في إثرها ، فلا يزيدا هذا العدو إلا إلحاحا في الإسراع ، وما تزال مسرعة ، وما يزال هو عادياً في إثرها ، حتى تم لهما العزلة في مكان مرتفع ، قد كثر فيه النبات ، وغطاه العشب ، فهما يقفان فيه فصل الشتاء ، بعيدين عن الماء ؛ وما حاجتهما إلى الماء ، وفي هذا النبات الرطب الذي يرعيانه ما يكفل لهما الري ؛ ولكن الأيام تمضي ، والشتاء ينقضي ، ويقبل الحر ، ويجف النبات ، ويشتد الظمأ ، فهما في حاجة إلى الماء ؛ وقد ترددا ، وطال ترددهما ، ثم تمت عزيمتهما على ورود الماء ، فقدمها أمامه ، لتسعى بين يديه ، غير قادرة على أن تتخلف عنه أو تفلت منه ؛ وهي لا تسعى وإنما تعدو عدواً سريعاً ، تريد أن تفوته كما كانت تفعل من قبل ، وهو يريد أن يلزمها كما كان يفعل من قبل ، وهي لا تحفل بهذا الشوك الذي يصيب دوابها ؛ وهي تثير غباراً منتشراً ، وهو يثير معها هذا الغبار ؛ والغبار ينتشر بينهما رقيقاً سهلاً ، كأنه ثوب يتنازعانه ، أو كأنه دخان نار مضطربة قد أوقدت باليابس الذي يضرها تضرماً ، وبالرطب الذي يثير لها الدخان . وما يزالان يعدوان في طلب الماء حتى يبلغاه ؛ وياله من ماء جميل هذا الذي ينتهيان إليه ! عين غزيرة تجرى في غابة كثيفة من القصب ، قد عبثت بها الريح ، فبعضها قائم يقاوم الريح ، وبعضها قد عجز عن المقاومة ، فانكفأ على الماء كأنه صريع .

أرأيت إلى هذه الأتان في هذه القصة الحية السريعة التي تتتابع فيها الصور ، وتختلف فيها المناظر ، وتكثر فيها الأحداث ، وتثار فيها عواصف الغيرة والحرص والمنافسة ، هذه الأتان يضر بها الشاعر مثلاً لناقته حين يدفع بها في الأسفار .

على أن تشبيه الناقة بالسحاب الخفيف ، وبالأتان ذات القصة الرائعة ، التي تعرض عليك من مناظر الطبيعة في الصحراء ما تعرض ، لا يكفي صاحبي ، كأنه أحس أنه لا يكفيك ، وكأنه أحس أنك في حاجة إلى قصة أخرى ، وإلى مناظر أخرى ؛ وكأنه أحس أن قصة الأتان قد أعجبتك ، فهو يريد أن يزيد إعجابك ، ومن ذا الذي ينكر على الشاعر وعلى صاحب الفن ، أن يحب الإعجاب به ، وأن يستزيده ، وأن يبذل ما يملك من الجهد ليبهرك ويسحرك . وهل كان الشعر والفن إلا ليبهرك ويسحرك ؟

فهذا تشبيه آخر يثير قصة أخرى وأى قصة ! قصة تملؤها الحياة ، وتملؤها العاطفة ، واملؤها الصراع : وهي قصة هذه البقرة الوحشية البائسة التي عدت على طفلها العوادي فأكله السبع ، فهي تلمسه فلا تجده ، وهي تلح في التماسه هائمة في الأرض ما قدرت على الهيام ، صائحة منادية ما وجدت قدرة على الصياح والنداء ؛ تفعل ذلك ما وسعها النهار ، ولكن الليل يدنو ، وتدنو معه الظلمة ، وتدنو معهما العاصفة بما تدفع بين يديها من مطر متصل غزير ، وبما تنشر حولها من برد مهلك ؛ وهذه الأم الحزينة البائسة التي كانت خليقة أن تستئس من لقاء ابنها ، لولا أن قلوب الأمهات لا تعرف اليأس ، هذه الأم البائسة قد أجهدتها الطلب والصياح ، وشق عليها البرد والمطر ، وأخافها ظلمة الليل ، فهي تلمس لنفسها مأوئاً ومأوى في أصول الشجر المتلف ، حتى إذا انجلى الليل وأسفر الصبح ، اندفعت هائمة تصيح وتدعو ابنها هنا وهناك ، وابنها لا يجيب ، فقد أكله السبع ، ولم يبق منه إلا أشلاء قد طرحت على رمل الصحراء ، وإنما لكذلك مرتاعة ملتاعة في هيام وصياح ، وإذا هي تحس من ظهر الغيب نبأة لا تبين أصلها ، وصوتاً خفيفاً لا تعرف مصدره . وهل يصدر هذا الصوت إلا عن الناس ؟ ! وهل للوحش أمن إذا أقبل الناس ؟ وإذا غريزة الدفاع عن النفس ، والحرص على الحياة ، تغلب غريزة الأمومة والحزن على الطفل الفميد ، وإذا هذه الأم الحزينة بقرة يطلبها القناص ، وهي في حاجة إلى أن تنجو ، فهي تعدو أمامها لا تلوى على شيء ، قد ملأها الخوف ، وملكها الرعب ، فهي تنتظر الخطر من أمام ، وهي تنتظر الخطر من وراء ، وهي تسلم نفسها لقوائمها النحاف كأنهن القداح ، حتى أياست الرماة ، وفاتت النبل ، ولكن عجز الرماة وقصور النبل لم يؤمنا هذه

البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما أسرع ما أرسلها القناص ، فأخذت تعدو ، وأخذت البقرة تعدو أيضاً ؛ فلما استيأست من العدو ، وعرفت ألا نجاة لها إلا باستقبال الخطب ، عطفت على هذه الكلاب ، فكانت بينها وبينهن حرب ، أسفرت عن قتيلين .

فهذه البقرة المرتاعة المخزونة الهائمة في طلب ابنها ، الخائفة إذا جنّتها الليل ، الهاربة بين يدي القناص ، العاطفة على الكلاب للحرب والصراع ، هي التي يشبه الشاعر بها ناقته ، بعد أن شبهها بالسحاب ، وبعد أن شبهها بالأتان .

وأظنّ أن الشاعر قد أرضى حاجتك إلى الصور ، وإلى القصص الساذج القوى ، وأرضى حاجة نفسه في تصوير ناقته ووصفها بما أحبّ لها من السرعة والقدرة على احتمال الجهد . فليس عليه بأس بعد هذا من أن يحدثنا عن نفسه ، ومن أن يحدثنا عن نفسه محتملاً للخطوب ، محتملاً لهجر صاحبه ، هاجراً لها إن هجرته ، معرضاً عنها إن عرضت عنه ، متحدّثاً إليها بما يعرف لنفسه ، وبما يعرف للناس له من خلال الشجاعة ، والبأس ، والكرم ، والجود ، حتى إذا أرضى الشاعر نفسه ، تحدث عن قومه ، فوصفهم بما يحبون أن يوصفوا به ، وانتهى من قصيدته وقد نسب في أولها ، ووصف في أثنائها ، وفخر بنفسه وبقومه في آخرها ، وكان شاعراً بارعاً ، ومصوراً صادقاً لحياة نفسه ، ولحياة قومه ، ولحياة جيله من العرب في عصره في القصيدة كلها .

وأظنك تلاحظ ياسيدي أنني قد أجملت وأسرفت في الإجمال ، وأنى قد تجنبت التفصيل ، وأبيت أن أقف بك عند كل صورة وعند كل تشبيه ، وأشفتت عليك من الوقوف عند الألفاظ وما فيها من جمال يأتي من هذه الجزالة التي إن نبت عن أذنك ، فإنها لا تنبو عن آذان قوم آخرين يألّفونها ويكلفون بها ، ولعلها لا تنبو عنك إذا أنت رُضت نفسك على قراءتها ومراجعتها .

وقد أشفتت عليك أيضاً مما تثيره هذه الألفاظ وهذه المعاني ، من مسائل في النحو يلدّ تفسيرها ، ويروق الوقوف عندها ، لو أنك من الذين يشاركون في هذا العلم ، الذي يكره الناس المشاركة فيه الآن .

أظنك قد لاحظت هذا كله ، وأظنك توافقني على أن مثل هذا الشعر الذي يعرض مثل هذه الصور ، ويثير مثل هذا الخيال ، ويحيي في النفس مثل هذه العواطف ، لا ينبغي له أن يهمل ، ولا أن يصرف عنه الشباب صرفاً ؛

ولست أزعم أنى أريد أن يفرغ له الشباب ويتخصصوا فيه - كما يقولون -
ولكنى أريد أن يعرفه الشباب ، وأن يحسنوا العلم بأغراضه ومعانيه ، وأنا واثق
بأنه لن يكون أقل إلهاماً لهم ، وإحياء لنفوسهم من الأدب الحديث .
قال صاحبي : فى شىء من الشك : قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هذه
القصيدة ، ولكن كم ترك القدماء من قصيدة تشبهها ؟
قلت : تركوا كثيراً يا سيدى أكثر جداً مما تظن .

ساعة أخرى مع لبيد^(١)

قال صاحبي وهو يتسم : لقد أخطأت حين اتخذتني مثلاً للمثقفين الذين يضيقون بالشعر القديم ، أو للكثرة من هؤلاء المثقفين . فقد حدث لك حين تحدثت إليّ عن قصيدة لبيد ، أنك وقفت بي عند المعاني التي أراد إليها هذا الشاعر ، ولم تجشمني ألفاظه الضخمة ، وقوافيه الغلاظ ، ولم تكلفني تعمق هذه المعاني ولا الدخول في تفصيلها . ولكن غيري من خصوم هذا الشعر ، فضلاً عن أصدقائه وأنصاره ، لم يحمداوا لك هذا القصد ، ولم يرضوا منك بهذا الإجمال . وقد حدثني غير واحد من خصوم الشعر القديم وأنصاره ، أنهم يحبون حديثك الأخير ، لولا أنه خلا من الشعر ، تروى منه البيت أو البيتين ، لتدلّ على ما تزعم ، ولتصدق ما تنبئ به ، ولترين به حديثك من حين إلى حين . وهم لا يقبلون أن تتحدث عن الشعر والشعراء حديثاً طويلاً ، ثم لا تروى لهم في هذا الحديث من الشعر شيئاً . وأقد دافمت عنك ما وسعني الدفاع ، وزعمت هؤلاء الذين كانوا يعتبرون عليك في إعراضك عن رواية الشعر ، أنك إنما فعلت ذلك رفقاً بهم ، وإشفاقاً عليهم ، فكان كل واحد منهم يرد علىّ بأنه ليس في حاجة إلى هذا الرفق ، وليس في حاجة إلى هذا الإشفاق ، وبأنك تستطيع أن ترفق بي أنا ، وأن تشفق علىّ أنا ، فيما يكون بينك وبينى من حديث ، فإذا تحدثت إلى قرائك في (الجهاد) فلا تأخذهم كلهم بذنبي ، ولا تعيهم كلهم بضعفى ، ولا تتخذنى لهم مثلاً ، فهم عند أنفسهم ، وهم يحبون أن يكونوا عندك خيراً منى ، وأصبر على الشعر القديم وإن كرهوه ، وإن عرفوا أن أبياته أشبه شىء بالصخور ؛ وهم يرون أن الخير لهم في أن يستقبلوا هذا الشعر ، ويستمعوا له ، ويقضوا فيه بأنفسهم ، وأن في موقفك هذا منهم ازدراء لهم ، وشكاً فيهم ، وتعالياً عليهم ، فارو لهم إذن من الشعر ما هم في حاجة إليه ، وأعفى أنا من هذه الرواية حين يكون الحديث

(١) نشرت بمجريدة الجهاد بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٣٥ .

خاصاً بينك وبينى . قلت : فإنك تعلم يا سيدى أنى لا أتيتاً للحديث مرتين ، وأنى إذا تحدثت إليك بشيء فهو الذى أذيعه فى الناس ، وما رغبت فى إذاعة أحاديثنا لولا أنك قد ألححت علىّ فيها ؛ فأنت بين اثنتين : إما أن تقبل ما يريدك الناس فتصبر لرواية الشعر حين نتحدث ، كما أنهم سيصبرون لها حين يقرءون ، وإما أن تعرض عما رغبت فيه إلىّ من إذاعة هذا الحديث . قال : فإنك ظالم وإنهم ظالمون ، ولقد صبرنا للظلم منذ أعوام ، فما يضرنا أن نصبر لهذا الظلم الأدنى ، الذى إن كلفنا بعض الجهد فلن يؤذينا فى أنفسنا ، ولا فى أموالنا ، ولا فى مرافقتنا . فهات من شعرك القديم ما ترى أن فى روايته إقامة لحجتك ، وتصديقاً لمذهبك ، فإنى ما زلت فى شكّ مما تزعم ؛ وما زلت بعيداً عن الإيمان بأن فى شعرك القديم هذا لنا نفعاً وغناء . قلت : فسجل قبل كلّ شيء أنى قد ظهرت عليك ، وظفرت بك ، فهولاء الناس الذين يلحون عليك ، ويلحون علىّ فى رواية الشعر القديم ، لا يزيدون على أن يعلنوا أنهم ليسوا من بغض الشعر القديم ، والإعراض عنه ، والزهد فيه ، بحيث وضعت نفسك ، وبحيث تظنّ ، ولكن فى نفوسهم حنيناً إليه ، وكلفاً به ، فهم حين يطلبونه إنما يستجيبون لهذا الحنين ، ويصورون هذا الشوق ، ويعلنون فى صراحة أن مصر ما زالت بخير ، وأن حبّ الجديد لم يطغ على نفوسهم وقلوبهم ، وأن كثيراً منهم يعرفون كيف يحبون الجديد دون أن ينصرفوا عن القديم أو ينفروا منه نفوراً . قال : فلا تعجل ولا تسرع إلى تسجيل الفوز والانتصار ، ولكن أجب إلى ما يطلبه الناس إليك ، وارو لهم الشواهد من شعر لبيد وغير لبيد من الشعراء . فما أظنّ أنك ستقف عند لبيد ، وأنا زعيم بأن رواية هذا الشعر ستفصح هذا الخداع الذى أنت ماض فيه ، وستبين للناس أنك تختلس إعجابهم بالشعر القديم اختلاصاً ، لأنك تزينه لهم فى لغتهم الحديثة ، فإذا ظهروا عليه كما هو فيسمنحونه ما أمنحه من الإعراض والنفور .

على أنى قد أمهلتك حتى تعرض علىّ وعلى الناس من معانى صاحبك ما عرضت ، ولست أمارى فى أن هذه المعانى تصوّر شعراً رائعاً ، وخيالاً قوياً ، وقريحة خصبة ؛ ولكنك توافقنى فيما أظنّ على أن هذا ليس كلّ شيء ، وعلى أن الشعر لا يقوم بجودة المعنى وروعته ، وقوة الخيال وخصبه ، ونفاذ البصيرة ودقتها ؛ فإذا اجتمعت كلّ هذه الخصال لشاعرك لبيد ، فهناك خصال

أخرى يجب أن تجتمع له ليكون شاعراً حقاً ، وليكون شعره رائعاً معجباً حقاً ، فلا بد من جمال اللفظ ومتانته ، ولا بد من حسن الأسلوب وورصاته ، ولا بد من هذه الموسيقى التي يحسن وقعها في السمع والنفوس معاً ، والتي تلائم بين الألفاظ والمعاني فتؤثر أحسن التأثير في الحس والشعور . ونحن ننتظر أن تبين لنا اجتماع هذه الخصال لشعرائك القدماء ، حين تعرض علينا الأبيات من شعرهم ، وحين تدلنا على ما في ألفاظها وأساليبها وأوزانها وقوافيها من الجمال ، على أن هناك شيئاً آخر أراك تتعمد إهماله والإعراض عنه ، لأنك تشفق فيما أظن من التعرض له ، والوقوف عنده ، وهو استقامة بناء القصيدة ؛ فأنت تعلم ما يقوله الناس من أن أقبح عيب يمكن أن تؤخذ به القصيدة العربية في الشعر القديم خاصة ، هو أنها ليست وحدة ملتزمة الأجزاء ، وإنما تأتيها الوحدة من القافية ومن الوزن ، فلولا أن « لبيدك » هذا قد اختار البحر الذي اختاره ، والقافية التي اختارها ، لما تشابهت أجزاء قصيدته ، ولما اتصل بعضها ببعض ، ولكانت أبياتاً مثورة لا قران لها ؛ فحدثنا عن هذه الوحدة ما صنع الله بها في شعر القدماء ؟ وحدثنا كيف يستقيم للعقل الحديث أن يسمى قصيدةً هذا الكلام المفترق الذي لا يجمعه إلا نظام ظاهر من الوزن والقافية ؟ وكيف يستقيم للعقل الحديث أن يعرض هذا الكلام المفترق على الشباب ، ليتخذوه نموذجاً ومثلاً ، وليستوحوه ويستلهموه ؟ ألسنت تشفق على ملكات الشباب أن تفسدها هذه النماذج والمثل ، وأن تعوقها عن أن تبلغ ما تريد لها من فهم القصيدة وإنشائها ، على أن لها وحدة داخلية جوهرية تتصل بالمعنى قبل أن تتصل باللفظ ، بالوزن والقافية ؟

قلت : هوّن عليك ، واصطنع شيئاً من القصد ، ولا تنس أني لا أكتب ما تقول لأردّ عليه شيئاً فشيئاً ، وإنما أسمع منك فأردّ عليك ، فارقق بذاكرتي بعض الرفق ، فإنك تحملها ما لا تطيق . قال : أجبني ما صنع الله بوحدة القصيدة عند شعرائك القدماء ؟ قلت : صنع الله بها خير ما يصنع بآثاره ، فأوجدتها وأتقنها ، وأتمها إتماماً لا شكّ فيه ، ولا غبار عليه ، وما سمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة عند المحدثين وتمككها عند القدماء إلا ضحكك وأغرقت في الضحك . والعجيب أن تنشأ الأساطير في العصر الحديث ، وأن تنمو ويعظم أمرها ، وتسيطر على العقول ، مع أن عهد

الأساطير قد انقضى ، وأصبح العقل الحديث أذكى وأرقى وأدنى إلى الحذر والفتنة من أن يذعن لها أو ينخدع بها ، وتفكك القصيدة العربية ، واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى ، أسطورة ياسيدى من هذه الأساطير التي أنشأها الافتنان بالأدب الأوروبي الحديث ، والقصور على تذوق الأدب العربي القديم ، والذين ينكرون الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة ، إنما يدفعون إلى هذا الإنكار لسببين :

الأول : أنهم لا يدرسون الشعر القديم كما ينبغي ، ولا يتعمقون أسراره ومعانيه ، وإنما يدرسونه درس تقليد ، ويصدقون فيه ما يقال لهم من الكلام ، في غير تحقيق ولا استقصاء ، وهم يحفظون منه البيت أو الأبيات ، وقلّ منهم من يحفظ القصيدة كاملة ، ويدرستها كاملة ، فضلاً عن أن يحفظ القصائد الطوال ؛ أما علماءهم فيكتفون بالأغاني وما يشبه الأغاني من الكتب ولا يلتفتون إلى الدواوين . وأما عامتهم من أوساط المثقفين فيكتفون بكتب التاريخ الأدبي وما يشبهها من المذكرات التي تداع في المدارس بين الطلاب ؛ وكلّ هذه الكتب لا تتكلف ولا تستطيع أن تروى قصائد الشعراء كاملة ، لأنها لم تنشأ لذلك ، وإنما تختار من هذه القصائد ما يلائم الغرض الذي وضعت له ، وقصدت إليه ، فخاصة المثقفين المحدثين وعامتهم يعرفون الشعر العربي متفرقاً لأنهم يحفظونه متفرقاً ، وهم من هذه الناحية يجهلون هذا الشعر ويقضون عليه حين يقضون قضاء الجهال .

والسبب الآخر الذي يدفع المثقفين المحدثين إلى إنكار هذه الوحدة المعنوية في القصيدة يأتي من أنهم يقبلون ما يقوله الرواة ، وما ينقلونه إليهم ، في غير تحفظ ولا احتياط ولا تحقيق ، وينسون أن كثيراً جداً من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوباً ، وإنما نقلته الذاكرة ، فأضاعت منه ، وخلطت فيه ، ولم تحسن الرواية ، فكثرت الاضطراب في هذا الشعر ، وخيل إلى المحدثين أن هذا الاضطراب طبعي في الشعر العربي القديم ، ولم يفتنوا أنه علة طارئة ، ومرض عارض ، لم يصب الشعر العربي وحده ، وإنما أصاب كلّ قديم نقل إلى المحدثين أجيالاً طويلاً من طريق الرواية لا من طريق التدوين .

ولو أنك يا سيدى فطنت لهذين الأمرين ، وقاومت فتنة الشعر الأوربي الحديث ، لما ذهب مذهب هؤلاء الذين يتعللون ويتكلمون ، ويقولون في الشعر القديم ما لا يعلمون .

ولست أريد أن أبعد في التدليل على أن الشعر العربي القديم كغيره من الشعر ، قد استوفى حظه من هذه الوحدة المعنوية ، وجاءت القصيدة من قصائده ملتزمة الأجزاء ، قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله ، وأشدّه ملاءمة للموسيقى ، التي تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية .

وإنما أقف معك عند قصيدة لبيد هذه التي كانت موضوع حديثنا في الأسبوع الماضي ، وأتحداك وأسألك أن تبين لي من أن أين يأتيها الاضطراب والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة إلا من الوزن والقافية ؟ إنكم تقولون ياسيدى إن القصيدة العربية مضطربة التكوين ، بحيث نستطيع أن نقدم منها وتؤخر ، ونضع أبياتها فيما نحب لها من المواضع ، دون أن يصيبها من ذلك فساد أو اعتلال . فأمامك قصيدة لبيد هذه ، فأرنى كيف تقدم فيها وتؤخر ؟ وكيف تضع فيها بيتاً مكان بيت دون أن تفسد معناها إفساداً ، وتشوّه جمالها تشويهاً ؟ انظر إليها ، فسترى أنها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئاً إلا أفسدت البناء كله ونقضته نقضاً . ألسنت ترى إلى الشاعر وقد استقبل الشعر ، فبدأ بما يبداً به الشعراء ، فأنشأ لنفسه ولسامعيه وقارئيه هذه البيئة الشعرية التي يخرج فيها الإنسان عن أطوار الحياة الواقعة المادية ، ويرتفع إلى جو آخر فيه عواطف الحنين والشوق والاستعداد للغناء أو لاستماع الغناء ، وهو إنما أنشأ هذه البيئة بذكر الديار وما يتصل بها ، وما ذهب منها وما بقي ، وما اختلف عليها من الأحداث ، وما عرض لها من الخطوب ، ومن تحمل عنها من السكان .

وأنت تستطيع أن تقرّ هذا القسم من أقسام القصيدة ، فسترى أنك لا تستطيع أن تقدم فيه ولا أن تؤخر ، وإنما أنت مضطر إلى أن تدعه كما وضعه صاحبه :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلَّهَا فُقَامَهَا مَعْنَى تَابَدَ غَوْلَهَا فَرَجَامَهَا
فَدَا فَعُ الرِّيَّانُ عُرَى رَسْمَهَا خَلَقًا كَمَا صَمِنَ الْوُحَى سِلَامَهَا
دِمْنٌ تَجَرَّمُ بَعْدَ عَهْدِ أُنَيْسَهَا حَجَجَ خَلُونَ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا

لا تجزع لهذه الألفاظ والأسماء التي تراها في هذه الأبيات ، فالله عز وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد كان لبيد يعيش في بادية نجد ، وكان

يعرف هذه الأسماء ، لأنه كان يعرف هذه الأماكن ؛ ولم يكن يعيش في مدينة القاهرة ، ولم يكن قادراً على أن يسمى أماكن نجد بغير أسمائها . ولكن حدثني عن هذه الأبيات الثلاثة ، أستطيع فيها تقديماً وتأخيراً ؟ وكيف يستقيم لك ذلك ؟ ألسنت مكرهاً بحكم المعنى ، وبحكم التركيب اللغوي نفسه على أن تحتفظ لهذه الأبيات بالترتيب الذي أراده لها الشاعر ، لأن المعنى يفرض ذلك عليك فرضاً ؟

ثم يمضى الشاعر في وصف هذه الديار ، وما مر بها من الأحداث والحطوب ، على نحو من هذا الترتيب الدقيق الذي لا سبيل إلى تغييره ، حتى يقول :

فَوَقَفْتُ أَسْأَلَهَا وَكَيْفَ سُوِّأْنَا صُمَّا حَوَالِدَ مَا يَمِينُ كَلَامُهَا
عَرَيْتُ وَكَانَ بِهَا الْجَمِيعُ فَأَبْكُرُوا مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤْيُهَا وَثُمَّامُهَا

وبهذين البيتين قد بلغ الشاعر إربه ، وأبلغك إربك من ذكر الديار ووصفها ، وهيبته الجوى الشعري لنفسه ولك . فإذا آتم هذا المعنى انتقل منه إلى أشد المعاني اتصالاً به ، ولزوماً له ، وهو ذكر الأحبة الذين ارتحلوا عن هذه الديار ، وما يثيرون في نفسك من شوق إليهم ، وكلف بهم ، ووصف ارتحالم ، ذاك الذى أدخل هذه الديار ، فعرضها لما تعرضت له ، وأحيا في نفس الشاعر وفي نفسك ما أحيا من الحزن :

شَاقَتَكَ ظُغْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحْمَلُوا فَتَسْكَنْسُوا قُطْنَا نَصِرُ خِيَامُهَا

حتى إذا أثار هذه الذكرى ، وصور هذا الرحيل ، في إيجاز ممتع مقنع ، وأتم إنشاء الجوى الشعري الذى لم يكن بد من إنشائه ، أدركه حزمه وعزمه ، فأخرجاه من هذا البكاء الذى لا ينبغى أن يطول ، ومن هذا الحزن الذى لا ينبغى أن يتصل ، فإذا هو يصور يأسه من صاحبه في هذين البيتين البديعين :

بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَأَتْ وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا
مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدٍ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الْحِجَازِ فَأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُهَا

وهو يمضى في تصوير هذا اليأس ، وتعظيم أمره ، وإقامة الأدلة القاطعة

على أنه محتوم لا منصرف عنه ، فيذكر الأماكن التي يمكن أن تكون فيها صاحبتة في الحجاز ، عن يساره ، أو في اليمن ، عن يمينه ، حتى إذا أم هذا المعنى إتماماً ، انتهى إلى نتيجة المحتومة ، وهي اليأس المريح والتعزى عن الحزن بالارتحال :

فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُهُ وَخَيْرُ وَاَصِلِ خَلَّةَ صَرَامِهَا
وَأُحِبُّ الْمُجَامِلَ بِالْجَزِيلِ وَصَرْمُهُ بَاقٍ إِذَا ضَلَعَتْ وَزَاغَ قَوَامِهَا

يقول : اقطع حاجتك من كل من لم تستقم لك مودته ، وانصرف عنه انصرفاً ، وأظهر المودة لمن أظهرها لك مجاملاً ، وإن أعوج عليك ضميره ، والثبوت عليك محبته في حقيقة الأمر ، وتعز عن هذا كله باقتحام الصحراء وتجشم أهوالها .

بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةَ مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبَهَا وَسَنَامِهَا

فأنت تراه قد وصل إلى ناقته وصولاً يسيراً ، لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، ولا جهد فيه ولا مشقة ، إنما انتهى إليها كما تنهى أنت إلى سيارتك في مدينتك هذه المتحضرة ، حين يضيق بك الأمر ، وتزدحم على نفسك الهموم ، وتكره المقام حيث أنت ، فتخف إلى التزهة ، تلمس فيها فرجاً من كرب ، وسعادة من ضيق . أما أنت فتعمد إلى سيارتك فتركبها ، وتمضى بها إلى حيث تريد أو لا تريد ، لا تلتفت إليها ، ولا تقف عندها ، إلا من حيث هي أداة تعيينك على ما تقصد إليه من الأغراض ، وأما الشاعر ، والشاعر القديم خاصة ، فإنه لا يرى شيئاً ، ولا يستخدم شيئاً إلا حقيقه وتصوره ، وأمعن في تحقيقه وفي تصويره ، ثم صوره فأحسن تصويره ، ثم أعرب عن هذا التصوير فأحسن الإعراب ، كما فعل لبيد .

ولو أن شعراءنا الأقدمين هؤلاء أدركوا السيارة ، والترام ، والطيارة ، والقطار ، لما رأوها ولا استخدموها جاهلين لها ، معرضين عنها ، ولما شكوا ما نشكو الآن من أن أدبنا العربي الحديث ما زال ينتظر وصفاً صادقاً ممتعاً رائعاً للسيارة ، والترام ، والطيارة ، والقطار .

وما طريق الشاعر إلى التحقيق والوصف الدقيق إذا هو لم يعتمد إلى التشبيه والاستعارة والحجاز ، وإلى هذا الفن الذي عمد إليه لبيد من القصص الساذج

اليسير؟ فهو يشبه ناقته كما رأيت في الأسبوع الماضي بالسحاب الخفيف الذى يطبع أيسر الريح ، وهذا التشبيه يتأتى له في نصف بيت ، ثم هو يشبهها بالأتان الوحشية فيطيل في هذا التشبيه ، لأنه يطيل في وصف الأتان ، وفي تفصيل قصتها ، وهو لم يطل في وصف السحاب الخفيف ، لأنه لا يستطيع أن يساير السحاب الخفيف ، ولا أن يجرى معه في الجو ، ولا أن يسابقه تحت تأثير الريح اليسيرة أو العاصفة ، ولكنه يستطيع أن يتبع الأتان الوحشية ، وأن يبلو من أخبارها ، ويعرف من أمرها ، ما يعرضه عليك في هذا الشعر الرائع الجميل .

أَوْ مُلْعِعٍ وَسَقَتِ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ طَرْدُ الْفُحُولِ وَضَرْبُهَا وَكَدَامُهَا
يَعْلُو بِهَا حَدَبَ الْإِكَامِ مُسَحَّجٍ قَدْ رَابَهُ عَصِيَانُهَا وَوَحَامُهَا

يشبه ناقته بهذه الأتان الوحشية التى ظهر عليها الحمل ، وقد خلصت لنحلها بعد منافسة شديدة ، وخصومة عنيفة ، فيها مطاردة ومضاربة وعض ، ولكنه على كل حال قد استخلصها بعد هذا كله ، فهو يحشمها الهول ، ويعلو بها الآكام والمضاب ، وقد ظهرت فيه آثار العض ، وامتألت نفسه ريبة بما تظهر له من عصيان وتمنع ، وما تتجنى عليه بما يعرض لها من الشهوات .
وما يزال الشاعر ماضياً في وصف هذه الأتان وفحلها ، وقد انتهى إلى ربوة فأقاما عليها بعيدين عن غيرهما ، حتى انحسر عنهما الشتاء ، وجف الرطب ، واحتاجا إلى الماء فاندفعا إليه عازمين بعد تردد ، ومقدمين بعد احجام ، فانظر إليه كيف يصور هذا العزم والإقدام :

حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سِتَّةَ جَزَاءٍ فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا
رَجَعَا بِأَمْرِهِمَا إِلَى ذِي مِرَّةٍ حَصِدٍ وَنُجْحٍ صَرِيْمَةٍ إِثْرَامُهَا

فانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف صور فيه العزيمة المصممة ، والإقدام الذى لا تردد فيه ، وكيف لاعم بين هذا المعنى الحازم الشديد ، وبين هذه الألفاظ الحازمة الشديدة ، فاستعمل كلمة المرة ، وكلمة الحصد ، ثم انظر إلى آخر البيت ، كيف أرسله مثلاً تجرى به الألسنة مهما تختلف

العصور والبيئات ، وهو قوله : « ونجح صريمة إبرامها » يريد أن نجح العزيمة رهين بالتصميم عليها .

ثم انظر إلى هذا البيت الذى يصور فيه استباقها فى العدو ، وإثارتها للغبار الرقيق ، كأنما يتنازعانه كما يتنازعان الثوب ، وإلى تشبيه هذا الغبار بالدخان . كل هذا فى بيت واحد لا ينقطع عما قبله ولا ينفصل مما بعده .

فَتَنَازَعَا سَبْطًا يَطِيرُ ظِلَالُهُ كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ صِرَامُهَا

ثم انظر إليه وقد شبه الغبار بدخان النار المشتعلة ، كيف أنى إلا أن يحقق تشبيهه ويتمنه ، لأن الشاعر العربى كما قلت لك لا يمر بالأشياء مرًا يسيرًا ، وإنما هو يحققها ويتقنها ، فشاعرنا يحقق مصدر هذا الدخان الذى شبه به الغبار ، فيزعم أن النار التى تثير هذا الدخان ، قد شبت باليابس الذى يعينها على الاشتعال ، وبالرطب الذى يثير لها الدخان ، وقد نشخت فيها أثناء ذلك ريح الشمال .

مَشْمُولَةٌ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرَفَجٍ كَدُخَانِ نَارٍ سَاطِعٍ أَسْنَامُهَا

وما زالت الأتان وفحلها فى هذا العدو الطويل حتى انتهيا إلى غايتهما ، فانظر إليهما وقد بلغا الماء ، أو انظر إلى هذا الماء الذى بلغاه ، إنه ينبوع جميل ، ينساب منه غدير غزير ، تحفه غابة من القصب ، تعبت بقصبتها الريح ، فنه القائم الذى يثبت لها ، ومنه الصريع الذى يعجز عن المقاومة :

فَتَوْسَطًا غُرُضَ السَّرِيِّ وَصَدَّعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قَلَامُهَا
وَمُخَفَّفًا وَسَطَ الْبِرَاعِ يُظِلُّهُ مِنْهُ مُصْرَعُ غَابَةٍ وَقِيَامُهَا

ولم يكن هذا التشبيه ، ولم تكن هذه الصور ، فانتقل إلى تشبيه آخر وعرض صوراً أخرى ، فى قصة البقرة التى فقدت طفلها ، وصارعت كلاب الصيد ، وأنت تستطيع أن تقرأ هذا القسم من القصيدة كما قرأت الأقسام التى سبقت ، فلن تجد فيه - كما تجد فى غيره - سبيلاً إلى تغيير أو تبديل ، ولا إلى تقديم أو تأخير .

وقد أتم الشاعر تصوير البقرة ، كما أتم تصوير الأتان فى أطوارها المختلفة ،

فحقيق تشبيهه تحقيقاً ، وأتقنه اتقاناً ، وانتهى به إلى غايته . ثم عمد إلى ناقته فذكرها ، وذكر ما يستعين بها عليه من الأسفار :

فَبَيْتِكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَىٰ وَاجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامَهَا
أَفْضَى اللَّبَانَةَ لَا أَفْرَطُ رَيْبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامِهَا

فانظر إليه يستقبل الصحراء بناقته تلك ، وقد ارتفع الضحى ، وأخذ الآل يرقص فيها . ثم انظر إليه يمعن في الصحراء وقد انتصف النهار ، والآكام والتلال قائمة منبثة أمامه ، منها القريب ، ومنها البعيد ، وكلها قد اتخذ من السراب أردية وثياباً . على أن الشاعر كما ترى لم يطل في ذكر الناقة حين انتهى إليها ، ولا في وصف الطريق حين اندفع فيها ، وإنما عاد إلى صاحبه «النوار» ، تلك التي كان يتعزى عنها في أول القصيدة ، فقال متغنياً بما فيه من خصال الحزم ، والكرامة ، والعزة ، والإباء :

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بِأَنِّي وَصَّالُ عَهْدِ حَبَائِلِ جَدَامِهَا
تَرَكَ أَمَكْتَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعْتَلِقَ بَعْضَ النُّفُوسِ حَمَامِهَا

وانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف يصور إباء الشاعر للضميم أبرع تصوير وأروع ، فهو لا يقيم في مكان إذا لم يرض الإقامة فيه . ولكن انظر إلى الشطر الأخير «أو يعتلق بعض النفوس حمامها» فهو غامض ولكنه جلي ، وهو مبهم ولكنه واضح ، هو لا يقيم في مكان يسام فيه الضميم ، فإن أقام ، فلا بد لبعض النفوس من أن تزهد ويدركها الموت . أي النفوس ؟ نفسه هو ، أم نفس أعدائه الذين يسومونه الضميم ؟ لا يريد الشاعر أن يخصص شيئاً لأنه لا يدرى كيف يكون السبيل إلى هذا التخصيص . كل ما يعرفه هو أنه إن أقام في مكان يسام فيه الضميم فهو لن يقبل الضميم . ولكنه سيأباه ويقاومه ، فإذا أن يموت في هذا الإباء وهذه المقاومة ، وإما أن يميت .

ثم يتحول الشاعر من الحديث عن صاحبه إلى الحديث إليها ، قد فكر فيها وأطال التفكير ، وقد تحدث عنها وأطال الحديث ، فارتسمت في نفسه ارتساماً على بعد العهد ونزوح الدار ، ومثلت أمامه وإذا هو يراها ، وإذا هو يتحدث إليها عاتباً مشاخراً ، وإذا هو يصور لها حياته في السلم لاهياً في الليل ،

ولاهياً في النهار ، متردداً على الخانات ، مغالياً في شراء الخمر ، مقامراً لايفيد ويستكثر من الربح ، ولكن ليغني السائل ، ويطعم الجائع ، ويعطي المحروم . ثم يصف لها حاله أثناء الحرب وقد انتهى النذير إلى قومه بالغارة أو أشنقوا من الغارة ، فإذا هو أسرعهم إلى فرسه ، وماله لا يسرع إليها وقد اتخذ بلجامها وشاحاً له ، كأنما ينتظر الفزع في كل لحظة من لحظات النهار . ولم يكذب يعلو فرسه حتى اندفع به طليعة لقومه ، يتحسس لهم أنباء العدو ، فيشرف بفرسه على مرقب عال يقيم فيه ما أقام النهار ، ينتظر أن يرى من العدو ما يدل على مقدمه ، لينبئ قومه .

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

هنالك يهبط إلى السهل ، فقد أقبل الليل ، ولم يبق له أرب في ارتقاب العدو من هذا المكان المرتفع ، ولكن انظر معي إلى قوله « حتى إذا أَلْقَتْ يَدًا فِي كَافِرٍ » يريد حتى إذا غربت الشمس ، أَلْسَتْ تَرَى فِي هَذَا التَّعْبِيرِ المोजز روعة وجمالاً ؟

ثم يصف الشاعر لصاحبه بعد ذلك موقفه في محافل الخصومة والمفاخرة فاسمع له حين يقول :

وَكَثِيرَةٌ غُرَبَاؤُهَا مَجْهُولَةٌ تُرَجَى نَوَافِلُهَا وَيُخْشَى ذَامُهَا
غُلْبٌ تَشْدُرُ بِالدُّخُولِ كَأَنَّهَا جِنُّ البَدِيِّ رَوَاسِيَا أَقْدَامُهَا
أُنْكَرْتُ بِأَطْلَمِهَا وَبُوتُ بِحَقِّهَا عِنْدِي وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرَامُهَا

والرجل العربي مهما يعظم قدره ، ويرتفع أمره ، فرد من قبيلة لا عز له إلا إذا عزت ، ولا كرامة له إلا إذا كرمت ، فإذا تغنى لبديد بحياته الخاصة ، ومكارمه ومفاخره الخاصة ، وعدد من ذلك كله ما أراد ، موجزاً في أكثر الأحيان ، منفصلاً أحياناً ، مجيداً دائماً ، فرغ إلى عشيرته ففخر بهم ووصفهم بما هم أهل له من الكرم والنجدة والبأس والسلطان .

قال صاحبني : لم تسرف علىّ فيما رويت لي من هذه القصيدة ، وقد أخذت أحس بشيء من الحب يعطفتني على شاعرك هذا ، وما أحسب إلا أن وراء هذا الشعر الرائع شاعراً بارعاً . ولكنني أخشى أن تكون قد أسرفت

على قرائك ، فهذا الشعر لا يخلو من مشقة ، وفي ألفاظه ضخامة وفخامة لم يألفهما الناس .

قلت : فأنبئني عن الوحدة المعنوية أتجدها في هذه القصيدة ؟ أم لا تزال ترى أن ليس لهذه القصيدة وحدة إلا في وزنها وقافيتها ؟

قال : ما أحرصك على الفوز ، وعلى تسجيل الظفر لنفسك ، فإني يا سيدي أقرك على أن لهذه القصيدة وحدتها المعنوية ، ونظامها الشعري المتسق البديع ، ولو لم تكن وحدة هذه القصيدة إلا في هذه النفس القوية العالية السمحة الوديدة التي أنشأتها ، لكانت خليقة أن تكون من أروع ما حفظ الشعر العربي . أفيرضيك أني قد اعترفت لك بكل ما تحب ؟ ولكن لا تطمع ولا يبترك هذا الانتصار . فما يصح لهذه القصيدة قد لا يصح لغيرها من قصائد هذا الشاعر ، وما يصح لهذا الشاعر ، قد لا يصح لغيره من الشعراء .

قلت : حسبي يا سيدي أني قد استنقذت هذه القصيدة مما تصبونه على الشعر العربي القديم من عيب وإنكار ، على أني لست يائساً من أن استنقذ قصائد أخرى من عيبكم وإنكاركم .

قال وهو يبتسم : فهل لك ألا تترك لبدياً حتى نلم بمقدار آخر من شعره كثير أو قليل ؟ قلت : هذا لك .

ساعة أخرى مع لبيد^(١)

قلت لصاحبي : أما اليوم فلن أشق عليك ، وإن أجشمتك الشعر الغريب في لفظه أو معناه ، فقد أحسبني حملتك من ذلك ما يبيح لك أن تطيع في أن أريحك وأرفه عليك . ولولا أنك اقترحت عليّ في الأسبوع الماضي أن يتصل حديثنا عن لبيد لما عدت إليه هذا الأسبوع ، ولنقلتك منه إلى الحديث عن شاعر آخر ، وإن كان إعجابي بلبيد لا ينقضي ، وإن كنت أوتر أن يطول الحديث عن لبيد ما استطاع أن يطول .

وأنا أريد أن أحدثك اليوم عن الشاعر أكثر مما أحدثك عن شعره ، فقد كان القدماء يتحدثون عنه ، فيحبون الحديث ويطيأونه ، لأن لبيداً لم يكن شاعراً مجيداً فحسب ، وإنما كان رجلاً كريماً أيضاً . كان أصحاب الشعر يحبون الحديث عن شعره ، وكان أصحاب المروءة يحبون الحديث عن مروءته . وما رأيك في رجل تحدث الولاة عنه على منابرهم ؟ وفي أى عصر كان هذا الحديث ؟ في عصر الخلفاء الراشدين ، لا في عصر من هذه العصور المتأخرة ، التي كان الولاة يستبيحون فيها حرم المنابر ، ويتقون فيها على المنابر ما لا يحسن أن يقال . فقد يحدثنا الرواة ، وهم يتقنون في الحديث ، أن لبيداً كان قد نذر في جاهليته ألا تهب الصبا إلا أطمع الناس ، وقد وفي بنذره في الجاهلية ، وحرص على الوفاء به في الإسلام . ويصدق حديث الرواة في هذا قول لبيد نفسه في مطولته التي تحدثنا عنها في الأسبوعين الماضيين :

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا بِمَقَاتِقِ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ بُدِلَتْ لِحَبْرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
فَالضَيْفُ وَالْجَارُ الْجَنِيبُ كَأَمَّا هَبَطًا تَبَالَةً مُخْصِبًا أَهْضَامُهَا

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ٢٠ فبراير سنة ١٩٤٥ .

تَأْوِي إِلَى الْأَطْنَابِ كُلِّ رَزِيَّةٍ مِثْلِ الْبَلِيَّةِ قَالِصٌ أَهْدَامَهَا
وَيُكَلِّلُونَ إِذَا الرِّيحُ تَنَاوَحَتْ خُلُجًا تُمَدُّ شَوَارِعًا أَيَّتَامَهَا

فهو يتحدث بهذه الأبيات - وأظنك قد فهمت حديثه - عن عاداته حين كان يتامر على نحر الإبل ، لا يتغنى بذلك ربحاً ولا كسباً ، إنما يتغنى إطعام الجائعين الذين كانوا يأوون إليه ، فيهم الضيف ، وفيهم الجار ، وفيهم العاقر لا ولد لها ، وفيهم المطفل قد كثر ولدها ، وفيهم هذه البائسة ، أو هؤلاء البائسات ، يلزم أطناب الخيمة كأنهن النوق التي تشد إلى قبور الموتى ، لا تبرحه حتى تموت عليه ، وكل هؤلاء يرزقون عنده رغداً ، تقدم لهم الجفنان قد ملئت بالثريد ، وكللت باللحم ، فهم ينعمون كأنهم نزلوا « تباله » وقد أخصبت وكثر فيها الرزق .

فيقول الرواة : إن المغيرة بن شعبه ، كان إذا هبت الصبا ، خطب الناس فقال لهم : أعينوا أبا عَمَّيْلٍ على مروءته . ويقول بعض الرواة : هبت الصبا يوماً ، والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد المنبر فخطب الناس ، ثم قال : إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية ألا تهب صباً إلا أطمع ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صباً فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم نزل عن المنبر ، فأرسل إليه مائة بكرة ، وكتب إليه بأبيات قالها :

أَرَى الْجَزَّارَ يَشْحَدُ شَفَرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيحُ أَبِي عَمِيلٍ
أَشْمُ الْأَنْفِ أَضْيَدَ عَامِرِيًّا طَوِيلَ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ
وَفِي ابْنِ الْجَعْفَرِيِّ بِمِخْلَفَتَيْهِ عَلَى الْعِيَلَاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ
بِنَحْرِ الْكُومِ إِذْ سَحَبَتْ إِلَيْهِ ذُبُولُ صَبَا تَجَادَبُ بِالْأَصِيلِ

فقال لابنته : أجيبيه ، فلعمري لقد عشت برهة وما أعيأ بجواب شاعر .

فقال :

إِذَا هَبَّتْ رِيحُ أَبِي عَمِيلٍ دَعَوْنَا عِنْدَ هَبَّتِهَا الْوَلِيدَا
أَشْمُ الْأَنْفِ أَرْوَعَ عَبْشَمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءَتِهِ لَبِيدَا
بِأَمْثَالِ الْهَضَابِ كَأَنَّ رَكْبًا عَلَيْهَا مِنْ بَنِي حَامٍ قُعُودَا

أَبَا وَهَبٍ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا نَحَرْنَاهَا فَأَطْعَمْنَا الثَّرِيدَا
فَعَدَّ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّي بِابْنِ أَرْوَى أَنْ يَمُودَا

فقال لها لبيد : أحسنت ! لولا أنك استطعتمته . فقالت : إن الملوك لا يُستحيا
من مسألهم . فقال : وأنت يابنية في هذا أشعر^(١) .

وأكبر الظن أن كلا الأميرين قد تقدم إلى الناس في أن يعينوا لبيداً على
مروءته ، ولكن المغيرة بن شعبة لم يعطه ، أو لم يعطه إلا قليلاً لأنه كان ثقيفياً
حريصاً على المال ، ولأنه كان والياً لعمر . فأما الوليد بن عقبة ، فكان فتي
من فتيان قريش ، سخياً كريماً ، يغلو في السخاء والكرم ، ويحتفظ بكثير
من السنن الجاهلية ؛ وكان غنياً ضخماً الثروة ، فساق إلى لبيد ما ساق من
الإبل . وكتب إليه ما كتب من الشعر .

قال صاحبي : فحقق من ذلك ما شئت إذا خلوت إلى طلابك في الجامعة ،
ولكن ، ألسنت تعجب معي بهذه الأبيات التي أرسلها إلى لبيد هذا الفتي
القرشي ؟ أليس يعجبك منه أنه أضاف الرياح إلى أبي عقيل لما تعود أبو عقيل
من إطعام الناس إذا هبت الرياح ؟ ثم ، أليس يعجبك أنه يرى الجزار وهو
يشحد شفرتيه لنحر الإبل إذا هبت هذه الرياح ؟ لأنه يتوقع أن يأمره لبيد
بنحرها ؟ ثم أليس يعجبك هذان البيتان الأخيران اللذان يصور فيهما الأمير
القرشي وفاء لبيد بنذره ، ونحره للإبل حين يقبل الأصيل ، وتتجاذب الرياح
ذيلها ؟ وهذه الأبيات التي ردت بها ابنة لبيد على الأمير ، أليس يعجبك لينها
ورقتها ، وهذا الصفاء الذي يترقق فيها ، ويدل دلالة واضحة على أنها صدرت
عن نفس صافية تشكر النعمة ، وتقدر الجميل ، وتحب الخير ، وتستعين عليه ؟
قلت : كل شيء يعجبني ، ولكن الذي يعجبني خاصة هو أنك قد
أخذت تحب الشعر القديم ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، وتدل على ما فيه
من جمال . فقال : فعد بنا إلى حديثك ، فما رأيت أعجل منك إلى تسجيل
الفوز . قلت : لقد كنا نتحدث عن مروءة لبيد ، وعن حديث القدماء بها
وإكبارهم لها ، فقد شهد له بها هذان الأميران من أمراء المسلمين ، وشهد له
بها ابن سلام . فقال : إنه كان رجل صدق . والأخبار القليلة التي تروى عن

(١) الأغاني جزء ١٤ صفحة ٩٧ و ٩٨ .

حياته في الكوفة بعد أن أسلم ، تصور كلها رجلاً كريم النفس ، صافي الطبع ، حلو السمائل ، معتدل المزاج ، قد انصرف عن أكثر ما تعود من حياة الجاهليين ، لم يستبق من ذلك إلا مالا يكرهه الإسلام ؛ فهو كريم جواد ، لأن الإسلام يحب الكرم والجود ، ويدعو إليهما ، ويقر عليهما الكرام الأجواد من العرب . وهو معرض عن الشخر ، لا يتورط فيه إلا كارهاً ، ولا يكاد يقبل عليه حتى ينصرف عنه . وهو يستغفر الله منه ؛ ومع ذلك فقد كان لبيد فخوراً في الجاهلية ، ملحاً في الفخر ، يكاد يتورط في الغلو والإسراف ، كان يفخر بنفسه محتملاً للخطوب ، متجشماً للأهوال ، وكان يفخر بنفسه مقبلاً على اللهو ، شارباً للخمر إذا أصبح ، شارباً لها إذا أمسى ، منفثاً في شربها أيام أمنه ولياليه ، بصور ذلك في مطولته التي تحدثت عنها إليك من قبل . وكان يفخر بنفسه فارساً مغوراً ، وكان يفخر بنفسه كريماً جواداً ، ثم كان يفخر بعد هذا كله بعشيرته . ترى هذا كله في مطولته ، وتراه فيما بقى من شعره من هذه المقطوعات المثورة في كتب الأدب ، وفي ديوانه . بل كاد الفخر أن يكون صناعة لبيد طوال حياته الجاهلية ، فهو قد جعل نفسه محامياً عن أحساب قومه ، يناضل عنها كلما احتاج إلى النضال . والرواة يحدثونا عن مقامه في النضال عن قومه في مواطن مختلفة ، فهم يزعمون لنا أنه بدأ حياته الشعرية بهذا النضال ، كان فتي غرماً ، فصحب قومه في سفارة لهم عند النعمان ابن المنذر ، وكان قومه يرون من النعمان إقبالا عليهم ، وتلفظاً لهم ، ثم رابهم منه ريب ، وأخذوا يحسون إعراضه وصدوده ، واتمسوا مصدر هذا الإعراض والصدود ، فعرفوا أن الربيع بن زياد ، وهو شريف من أشرف عبس ، ونحال من أخوال لبيد ، يدس لهم عند النعمان ، وكان من ندمائه ؛ فسأهم ذلك ، وأرقوا له ذات ليلة ، وأخذوا يتحدثون فيه ، والنبي لبيد يسمع لهم ولا يفهم عنهم ، فلما طال عليه ذلك ، سأهم أن يبينوا له جلية الأمر ، فأعرضوا عنه ، واعتلوا عليه ، فألح عليهم ؛ وما زال يلح حتى قصوا عليه قصتهم . فقال لهم : أنا أكفيكم الربيع بن زياد ، فإذا أصبحتم فاصطحبوني إلى مجلس الملك ، فأبوا عليه لحداثته ، ثم امتحنوه في قصة طويلة تجدها في الأغاني ، فوافقوا منه فتي فصيحاً صارم اللسان ، فاصطحبوه حين غدوا على الملك ، فلما أذن لهم لهم دخاوا ، فإذا الملك على طعامه ، ومعه صفيته الربيع بن زياد ، وقد أخذ الربيع

ابن زياد هذا ينتقص وزد بنى جعفر ، ويصرف الملك عنهم . فوثب لبيد فقال هذا الرجز الذى أستطيع أن أرويه لك ، ولكنى سأحذف آخره حين أذيع هذا الحديث فى الناس ، لأنه ليس مما يروى :

أَكَلْ يَوْمَ هَامَتِي مُقَدَّعَةً يَا رَبِّ هَيْجَا هِي خَيْرٌ مِنْ دَعَةٍ
 نَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَيْنِ الْأَرْبَعَةَ سُيُوفُ حَزِّ وَجْفَانٍ مُتْرَعَةٍ
 نَحْنُ خِيَارُ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةٍ وَالضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَةِ
 وَالْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدْعَدَعَةَ مَهَلًا أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلُ مَعَهُ

ويقول الرواة : إن النعمان لم يكذب يسمع آخر هذا الرجز ، حتى تأذى ، وكف يده عن الطعام ، وقضى لبنى جعفر حوائجهم ، وصرفهم عنه ، فارتحلوا . ويقولون : إن الربيع بن زياد حاول أن يبرى نفسه مما وصمه به الفتى فلم يفلح ، واضطر إلى الرحيل مغاضباً للملك ، مغاضباً لبيد ، وقد ثار الشر بين لبيد وبين خاله الربيع . والرواة يروون فى ذلك شعراً .

ولست أدري أكانت القصة كما يصورها الرواة أم لم تكن ، أم كانت شيئاً مقارباً لها . ولكن هذه القصة على كل حال تدل على أن لبيداً كان عند العرب صاحب فخر ودفاع عن أحساب قومه ، نشأ على ذلك ، وجد فيه منذ الصبأ . قال صاحبي : إنك لتشك فى كل شيء ، وما يعينى شكك وارتيابك ، إن الرجز القصير يعجبني ، لأنه يصور اندفاع الشباب ، والشباب البدوى خاصة ، ولأنه يصور هذا الفخر الساذج ، الذى يواتى صاحبه دون أن يبحث عنه ، أو يتكلفه ، أو يجود فى طلبه . قلت : فإنك تخطئ فى هذا ، فالرواة يزعمون أن الفتى أرق لهذا الموقف ليله كله ، وإنما دعاك إلى هذا الخطأ أن هذا الشعر متقن قد صنع وصنع حتى خفيت فيه الصنعة ، وظهر كأنه ابن البديهة وعفو الخاطر ، قال : ولا هذا أيضاً يعينى ، وإنما يعينى هذا الإقذاع فى الهجاء ، الذى يتصل بالفخر اتصالاً ، ويدعونى إلى أن ألاحظ هذه الحلف بين هذين الفئتين من فنون الشعر العربى القديم ، وهما الفخر والهجاء . قلت وماذا يروعك من هذا ؟ وإنما الشاعر يمدح نفسه وقومه حين يفخر ، ويذم عدوه وعدو قومه حين يهجو ، فطبيعة الأشياء تقتضى

أن يكون الشاعر المنافر بارعاً في الهجاء ، حين يقوم من قومه مقام المحامي ، كما فعل لبيد . وما أظن إلا أنك تعرف نشاط لبيد حين كانت المفارقة والمنافرة بين عظيمين من عظماء قومه ، هما علقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ، فقد اختلف هذان السيدان ، وعظم الشرّ بينهما ، وزعم كل منهما أنه خير من صاحبه . ويقول الرواة : إنهما تحاكما إلى أبي سفيان بن حرب الأموي ، فأبى أن يحكم بينهما . ثم تحاكما إلى ابن هشام المخزومي ، فأبى أن يحكم بينهما . فلما استياسا من حكم قريش تحاكما إلى عيس ، وانتهى أمرهما إلى هرم بن قطبة ، وكانت قصتهما في هذا عظمة الخطر ، فاشية شائعة ، تحدثت بها العرب في الجاهلية ، وتحدثت بها في الإسلام دهرًا طويلا ، وسأل عنها عمر ابن الخطاب هروماً ، فأبى أن يبيئه بسرهما ، فحمد عمر منه أمانته ووفاءه وكتابه . وكانت المخاطرة بين هذين السيدين على مائتين من الإبل : مائة للحكم ، ومائة لمن يحكم القضاء له . ولكن الحكم لم ينضل أحدهما على صاحبه ، ولم يأخذ منهما أجر التحكيم ، وإنما نحر عنهما الإبل ، وأطعم عنهما الناس . وقد نشط لبيد مع عامر بن الطفيل في هذه القصة نشاطاً عظيماً تستطيع أن ترى صورة منه في الأغاني ، ونشط الحطيئة مع علقمة ، ولكن الفرق بين نشاطهما عظيم : فقد كان لبيد صادقاً يدافع عن عشيرته الأقربين ، وكان الحطيئة مأجوراً يبيع شعره لسيدة علقمة ، الذي كان برّاً به في الجاهلية ، وأراد أن يكون برّاً به في الإسلام ، فحال الموت بينه وبين ما أراد . وقال الحطيئة في ذلك أبياته المشهورة .

وَمَا كَانَ بَيْئِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا وَبَيْنَ الْغِنَى إِلَّا لَيَالٍ قَلِيلُ

والرواة متفقون على أن لبيداً كان شاعر قومه ، يدافع عنهم إن خاصموا ، ويمدح كرامهم ، ويرثي موتاهم ، ويهجو عدوهم ؛ فهو كان برّاً بقومه في الجاهلية ، وهو ظل برّاً بقومه في الإسلام ؛ كان إذا سمع من يعيبهم رده رداً حازماً ، رفيقاً مع ذلك ، ثم استغفر الله من الفخر . فإذا عرفت أن الفخر كان صناعة لبيد ، وأنه أنفق فيه حياته الطويلة في الجاهلية ، وأنه مع ذلك قد كف عنه بعد أن أسلم ، فقد تستطيع أن تتصور الأثر العميق الذي تركه الإسلام في نفس لبيد . والرواة يقولون إن لبيداً قد أعرض عن الشعر لإعراضاً

بعد الإسلام ، ويغلو بعضهم فيزعم أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً من الشعر وهو :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجَلِي حَتَّى اكَتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرّاً
 وهم يروون أيضاً أن عمر أراد أن يمتحن الشعراء ، ويسأل عما أحدثوا من الشعر في الإسلام ، وكتب في ذلك إلى المغيرة بن شعبة ، وكان واليه على الكوفة ، فسأله الأغلب العجلي فقال :

أَرْجَزاً تُرِيدُ أَمْ قَصِيداً لَقَدْ سَأَلْتَ هَيْئاً مَوْجُوداً

وسأل لبيداً فقال : إن الله قد أغناه عن الشعر بسورة البقرة ، وآل عمران . ويقال : إن عمر نقص من عطاء الأغلب العجلي خمسمائة ، وزادها في عطاء لبيد . ويقال أيضاً إن الأغلب العجلي راجع عمر ، وقال : تعاقبني لأنني أطعت أمرك ! فرد عليه عمر ما نقص منه ، وحفظ لبيد ما زاد في عطائه .

ولست أخفي عليك أن اطمئناني إلى هذه القصة ليس تاماً ، فسترى أن الرواة يضيفون إلى لبيد شعراً ، إن صح ، فقد كان لبيد إذن يقول الشعر في الإسلام ؛ وإن صحت هذه القصة ، فقد كان الرواة إذن يكذبون على لبيد ؛ وإذن فما يمنعهم أن يكذبوا على غيره من الجاهلين والإسلاميين . وأكبر ظني أن لبيداً ، أعرض عن الشعر في الإسلام ، فلم يتخذه صناعة ، ولم يكتر من إنشائه وإنشاده ، وانصرف عنه إلى القرآن ، ولكنه قال في الإسلام غير بيت . ولعله حين امتحنه المغيرة بن شعبة ، إن صحت القصة ، عرف سر هذا الامتحان ، فعرف كيف يجب . ويقال إن معاوية لما قدم الكوفة ولقي لبيداً أراد أن يحط عطاءه إلى حيث كان قبل أن يزيد عمر . فقال له لبيد : إنما أنا هامة اليوم أو غد ، فدع لي هذه العلاوة ، فن يدري ! لعل لا أقبضها . فرق له معاوية وترك له عطاءه ، ومات لبيد قبل أن يقبض هذا العطاء .

والرواة مختلفون في وفاة لبيد : فقوم يظنون أنه مات في آخر أيام معاوية . وقوم آخرون يقولون : إنه مات في أول خلافة معاوية . وهم على كل حال متفقون على أن لبيداً كان من المعمرين ؛ يقولون : إنه عاش قرناً وما يقرب من نصف قرن . ويقولون : إنه عاش خمسة وأربعين ومئة عام ، عاش منها في الجاهلية تسعين عاماً ، ومات سنة خمس وخمسين للهجرة . ولكن ابن سعد ينبئنا في

الطبقات أنه مات في أول أمر معاوية، حين قدم الكوفة ليصالح الحسن بن علي، وقبل أن يدخل الكوفة. وإذن فابن سعد ينقص من حياة لبيد، التي يثبتها الرواة، نحو أربعة عشر عاماً. ومهما يكن من شيء، فقد عمّر لبيد وثقلت عليه الحياة، ونقل لنا عنه شعر في ذلك، منه ما قيل في الجاهلية، ومنه ما قيل في الإسلام؛ لا سبيل إلى الشك في ذلك، إلا أن يكون هذا الشعر مكذوباً عليه، قد صنع لإثبات أنه كان من المعمرين. تحدث أبو الفرج عن رواته أن لبيداً لما بلغ السابعة والسبعين قال:

قَامَتْ تَشَكَّى إِلَى النَّفْسِ مُجْهِشَةً وَقَدْ حَمَلَتْكَ سَبْعًا بَعْدَ سَبْعِينَا
فَإِنْ تَزَادِي ثَلَاثًا تَبْلُغِي أَمَلًا وَفِي الثَّلَاثِ وَفَاءَ لِلثَّمَانِينَا
فلما بلغ التسمين قال:

كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً خَلَعْتُ بِهَا عَنْ مَنْكِبِي رِدَائِيَا
فلما بلغ مائة وعشراً قال:
أَلَيْسَ فِي مِائَةٍ قَدْ عَاشَهَا رَجُلٌ وَفِي تَكَاْمُلِ عَشْرِ بَعْدَهَا عُمرُ
فلما جاوزها قال:

وَلَقَدْ سَنَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ: كَيْفَ لَبِيدُ؟
غَلَبَ الرَّجَالَ وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبٍ دَهْرٌ طَوِيلٌ دَائِمٌ مَمْدُودٌ
يَوْمًا أَرَى يَأْتِي عَلَيَّ وَلَيْلَةً وَكِلَاهُمَا بَعْدَ الْمَضَاءِ يَعُودُ
وَأَرَاهُ يَأْتِي مِثْلَ يَوْمِ لَقَيْتُهُ لَمْ يُنْتَقِصْ وَضَعُفْتُ وَهُوَ يَزِيدُ

فالشعر الذي قاله حين بلغ عشراً ومئة، والشعر الذي قاله بعد ذلك، إسلامي من غير شك، إن صحت نسبته إليه، وإذن فقد كان يقول الشعر في الإسلام، وإذن فليس صحيحاً أنه لم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو الذي رويته لك آنفاً.

قال صاحبني: ما أشد إسرافك فيما لا حاجة إليه، ألم أطلب إليك أن تدع هذا التحقيق إلى حيث تفرغ له مع طلابك في الجامعة؟ أليس الخير في أن تقف بنا عند هذه الأبيات:

وَلَقَدْ سَمِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدٌ ؟

فتعجب بهذا اللفظ السهل الخزل ، وبهذه المعاني الممتعة الخصبية ، التي تصور عقلاً مفكراً ، ونفساً قد استقبلت الزمان ، ناظرة فيه ، غير معرضة عنه ، مقارنة مقبله بمدبره ، حتى أخذت من ذلك بحظها ، ثم احتملت الحياة في شجاعة وصبر ، ثم طالت عليها الحياة ، وثقل عليها رفيق الناس بها ، وعطف الناس عليها ، وسؤال الناس عنها مخلصين ، فسئمت ذلك وضافت به ، وأعلنت في صراحة وإخلاص هذا السأم :

وَلَقَدْ سَمِئْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدٌ ؟

قلت غير حافل به : والرواة يتحدثون إلينا بأن لبيداً قال شعراً قبل أن يموت ، يعلم فيه ابنتيه كيف تؤديان إليه حقه من الحزن عليه بعد أن يموت ، وهو :

تَمَنَّى ابْنَتَايَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةٍ أَوْ مُضَرٍّ ؟
فَإِنْ حَانَ يَوْمًا أَنْ يَمُوتَ أَبُوكُمْ فَلَا تَحْمِشَا وَجْهًا وَلَا تَحْلِقَا شَعْرًا
وَقَوْلًا هُوَ الْمَرَّةَ الَّذِي لَا حَلِيفَهُ أَضَاعَ ، وَلَا خَانَ الصَّدِيقَ وَلَا غَدَرَ
إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اعْتَدَرَ

وأصحاب النحو يستشهدون بالبيت الثاني من هذا الشعر على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذي لم يمنع من الصرف . قال صاحبى : فإنك تأتي إلا أن تكون معلماً ، وما أنا وأصحاب النحو وحذف التنوين أو إثباته ! إنما يعجبني هذا الأدب الذي أدب الشاعر به ابنتيه ، ورسم لها فيه ما يجب عليهما من الحزن عليه بعد موته ، فهو لا يريد منهما إلا أن تذكراه بالخير : بأنه لم يضع حليفه ، ولم يخن صديقه ، ولم يتورط في الغدر ، ثم هو معتدل لا يشتط على ابنتيه ، ولا يكلفهما أكثر مما يطيق الناس ، يريد أن تذكراه وأن تبكياه حولاً ، فإذا تم الحول فسلام عليهما ، ولا بأس من أن يُلْقَى بينه وبينهما ستار النسيان في غير لوم ولا جناح ، أليستا قد بكتنا حولاً ؟ ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر .

أعترف أن شاعرك هذا يعجبني ، ويقع من نفسى أحسن موقع ، ويثير في

قلبي عواطف الحب والحزن والرفق معاً ؛ ولكن احذر أن تفسد شعره بالتحقيق والتحصيص ، وأن تزعم لى أو لغيرى أن هذا الشعر منحول تكلفه الرواة . قلت باسماء : ومع ذلك فإن فى نفسى من هذا شيئاً ، ولكن إذا كان هذا النحو من الشعر يعجبك ، ويحبب الشاعر إليك ، فاسمع هذه الأبيات الأخرى ، التى يتحدث الرواة بأنه قالها لابن أخيه حين أحس الموت ، فقد تحدث أبو الفرج أنه لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه — ولم يكن له ولد ذكر — يا بنى : إن أباك لم يمت ولكنه فى . فإذا قبض أبوك فأقبله القبلة ، وسجده بثوبه ، ولا تصرخن عليه صارخة ، وانظر جفنتى اللتين كنت أصنعهما فاصنعهما ، ثم احملهما إلى المسجد ، فإذا سلم الإمام فقدمهما إليهم ، فإذا طعموا فقل لهم فليحضروا جنازة أخيهم ، وأنشد قوله :

أَبْنَىَّ هَلْ أَبْصَرْتَ أَهْمًا — مَامَى بَنِي أُمَّ الْبَنِينَا
وَأَبِي الَّذِي كَانَ الْأَرَا مِلُّ فِي الشَّتَاءِ لَهُ قَطِينَا
وَأَبَا شُرَيْكٍ وَالْمَنَا زِلَ فِي الْمَضِيقِ إِذَا لَقِينَا
مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ — بِمِثْلِهِ فِي الْعَالَمِينَا
فَبَقِيْتُ بَعْدَهُمْ وَكُنْتُ بِطُولِ صُحْبِهِمْ ضَنِينَا
دَعْنِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي — إِنْ شَدَّدْتُ بِهَا الشُّوْونَا
وَأَفْعَلُ بِمَالِكَ مَا بَدَا لَكَ مُسْتَعِينَا أَوْ مُعِينَا
وَإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فَاجْعَلْ فَوْقَهُ خَشَبًا وَطِينَا
وَسَقَائِفًا صُمًّا رَوَا سِبْهَا يُسَدِّدُنَ الْعُضُونَا
لِيَقِينَ حُرَّ الْوَجْهِ سَفًّا — سَافَ التُّرَابِ وَلَنْ يَقِينَا

قال صاحبي : فلست أدرى أيهما أحب إلى ، وأحسن موقعاً من نفسى ، أهذه القصة المنشورة التى سبقت هذا الشعر ، والتى هى شعر كلها ، شعر فيه ثقة وحزن واطمئنان إلى الموت ، وبر بالناس إلى اللحظة الأخيرة ، أم هذا الشعر الرقيق الخفيف ، ذو اللفظ اللين ، والمعنى المتين ؟ قلت : ومع ذلك فإنى أخشى ج (٤) ١

أن تكون هذه القصة مصنوعة ؟ فأبو الفرج وأصحابه يزعمون في هذه القصة أن لبيداً لم يكن له بنون . ولكن ابن سعد ينسبنا في الطبقات ، أنه هاجر إلى الكوفة مع بنيه ، فلما مات دفن في صحراء بني جعفر ، وعاد بنوه إلى البادية فأقاموا فيها . وأكبر الظن أن لبيداً مات كما يموت غيره من الناس بين أبنائه وبناته وسائر أهله ، وأن ما يروى من هذه القصص والأخبار إنما صنع في الأمصار صنعاً . قال صاحبى : إنكم معشر المعلمين لتلحون على الشعر الجميل بالنقد والتحليل ، حتى تذهبوا جماله ونضرتة ، وتردوه كلاماً كغيره من الكلام ؛ فحقق حياة لبيد إن شئت ، واحذف منها وأضف إليها ، ولكن في غير هذا الحديث ، فإنى لم ألقك لأخذ عنك هذا النحو من العلم ، وإنما لقيتك لتجيب إلى شعر لبيد ، وقد وفقت من ذلك إلى ما أردت ، فحببت إلى الشعر والشاعر جميعاً . قلت : فإنك حين تحب الشعر والشاعر ، لا تعدو أن تكون كالقدماء من العرب ، فقد كانوا يحبونهما حباً شديداً . فأما حبهم للشاعر ، فقد رأيت منه طرفاً . وأما حبهم للشعر ، فأبهم لم يعجب بالمطولة ، وأبهم لم يعجب بغيرها من شعره الذي كان كثيراً شائعاً ، فلم يبق لنا منه إلا الشيء القليل . وقد زعموا أن الفرزدق سمع قوماً ينشدون مطولته فلما انتهوا إلى قوله :

وَجَلَّا السُّيُولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا

سجد . فأنكر الناس منه ذلك ، وقالوا : ما هذا يا أبا فراس ؟ قال أنتم تعرفون سجدة القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر . وكانت في الفرزدق محافظة بدوية لا تخلو من دعاية . قال صاحبى : لولم يكن في هذا البيت إلا هذه الموسيقى التى تأتى من الملاءمة بين كلمة السيلول والطلول لكان الفرزدق خليقاً أن يسجد له ! فكيف بهذا التشبيه الجميل !

قلت : ومع ذلك فإن للبيد فناً آخر من فنون الشعر جوده كل التجويد ، وبرع فيه كل البراعة ، وأعجب القدماء به كل الإعجاب ، وهو فن الرثاء ، ولست أدرى كيف يمكن أن تقدّم عليه الخنساء في رثائها ! وهو عندى أبرع منها في تصوير الحزن ، وصبّ اليأس في القلوب صبباً في غير ضعف ولا وهن . ولعلك تذكر أن الرواة كانوا يتحدثون بأن لبيداً كان شاعر قبيلته ، يمدح أحياءها ، ويرثى أمواتها ، فدعنا من هذا الرثاء الذى كانت تفرضه عليه حياته

في قبيلته . وقف بنا عند هذا الرثاء الخاص ، الذي اختص به أخاه لأمه « أربد بن قيس » وأنت تعرف قصة أربد من غير شك ، فهو قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ، وكانا يريدان الغدر به ، فعصمه الله منهما ، ثم ارتحلا عنه منذرين ، فدعا النبي عليهما . فأما عامر فأدركه الطاعون قبل أن يبعد عن المدينة ، فمات عند امرأة من بني سلول . وأما أربد فانتفى إلى قومه ، ولكن حياته فيهم لم تطل ، وإنما أصابته صاعقة فقتلته . ووقع موته من لبيد أشد المواقع ، وأعتمتها في نفسه أثراً ، فثراه بشعر كثير جيد كله ، يصور برّ لبيد ووفاءه وحزنه أجمل تصوير ، وكله يصور في الوقت نفسه حكمة لبيد ، وفلسفته البدوية — إن صح هذا التعبير — وتفكيره في الحياة وانصرافه عنها ، وزهده فيها بعد طول التأمل والتفكير . ومن يدري لعل ما أصاب عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، بعد انصرافهما عن النبي مغاضبين ، قد كان مما حمل لبيداً على أن يفد على النبي فيسلم ، ويحفظ شيئاً من القرآن ، ثم يعود إلى بلاده ناسكاً أو كالناسك ، ثم يهاجر إلى الكوفة أيام عمر ، فيقيم فيها منقطعاً إلى الخير والبر والقرآن . ولست أروى لك من رثاء لبيد لأخيه إلا هذه الأبيات ، وأنت تستطيع أن تقرأ غيرها من الرثاء في الأغاني ، ولكن اقرأ معي هذا الشعر ، وحدثني عما فيه من حكمة وفطنة ، ومن جزالة ورسالة ، ومن جمال في اللفظ والمعنى والأسلوب جميعاً :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ	وَتَبَسَّقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَفِ دَارِ مَصْنَعَةٍ	فَفَارَقَنِي جَارٌ بِأَرْبَدٍ نَافِعُ
فَلَا جَزَعٌ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا	فَكُلُّ امْرِئٍ يَوْمًا لَهُ الدَّهْرُ فَاجِعُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالدِّيَارِ وَأَهْلِهَا	بِهَا يَوْمَ خَلَوْهَا وَتَعَدُّو بِلَاقِعُ
وَيَمْضُونَ أَرْسَالًا وَتُخَلَّفُ بَعْدَهُمْ	كَأَضْمٍ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا كَالشَّهَابِ وَضَوْنُهُ	يُحَوِّرُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنَ التَّقَى	وَمَا الْمَالُ إِلَّا عَارِيَاتٌ وَدَائِعُ
أَلَيْسَ وَرَأَى إِنْ تَرَخْتَ مَنِيَّتِي	لِزُومِ الْعَصَا تُخَنِّي عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
أَخْبِرْ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ	أَرِبُّ كَأَنِّي كَلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفَنَهُ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَةَ مَوْعِدُ
أَعَادِلُ مَا يُدْرِيكَ إِلَّا تَطْنِيًا
أَمْجَزُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى
تَعْمُرُكَ مَا تَدْرِي الصَّوَارِبُ بِالْحَصَى
تَقَادُمُ عَهْدِ الْفَيْنِ وَالنَّضْلُ قَاطِعُ
عَلَيْنَا فَذَانِ لِلطُّلُوعِ وَطَالِعُ
إِذَا رَحَلَ الْفَتِيَانُ مِنْهُ هُوَ رَاجِعُ
وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارِعُ
وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

أتعرف أبجل من هذا الشعر معنى ، وأرصد منه لفظاً ، وأروع منه أسلوباً ، وأدنى منه إلى الصدق ، وأنطق منه بالحق ، وأعظم منه حظاً من هذه السداجة الحلوة التي لا تتناول معانيها الراقية من بعيد ، وإنما تتناولها من قريب ، تتناولها من أقرب ما تتناول المعاني ؟ فالشاعر لا يجهد نفسه ولا يجهدك . ، وإنما ينظر ويحملك على أن تنظر معه إلى النجوم التي تطلع وتغيب ، وإلى الجبال المستقرة على الأرض ، ثم إلى الإنسان ، وإذا هو يرى - وأنت ترى معه - أن النجوم على اختلافها طلوعاً وغروباً باقية ، تذهب الأجيال والأجيال ، وهي تشرق في السماء وتغرب ، لتشرق مرة أخرى وتغرب . وإذا الجبال كذلك ثابتة مستقرة ، تذهب الأجيال والأجيال ، وهي في مكانها لا تريم ، وإذا الإنسان شيء يسير ، لا يستطيع أن يشرق ويغرب ، كما تشرق النجوم وتغرب ، ولا يستطيع أن يثبت ويستقر ، كما تثبت الجبال وتستقر ، وإنما هو كالشهاب ، يشرق ساطعاً فيبهز الأبصار ، ثم لا يلبث أن يستحيل رماداً تندروه الريح . وإذن فما أشد غرور الإنسان وحبه للباطل ، وثقته بما لا ينبغي أن يثق به ، واطمئنانه إلى ما لا ينبغي أن يطمئن إليه ، وتعلله بالسخف من أحاديث العائفين ، والقائنين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، وإنما أمر هذا كله باطل ، وأمر الغيب إلى من استأثر بعلم الغيب :

تَعْمُرُكَ مَا تَدْرِي الصَّوَارِبُ بِالْحَصَى
وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ

ثم قلت لصاحبي بعد صمت غير قصير : أأنت ترى أن شاعري مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء من باطل الحياة : وصفاً ، وفخرًا ، ومدحاً ، وهجاء ؟

أو لست ترى أنه مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الحكماء من جد الحياة : تأملا ، وتفكيراً ، وزهداً ، ونسكاً ؟

قال : بلى ! ولكن ما أقل ما حفظت لنا الأيام من هذا الشعر الجميل ! قلت : فاقراً معى هذا الحديث الذى يرويه أبو الفرج ، فهو أحسن ختام لحديثنا عن لبيد ، ولا بأس هنا برواية الإسناد ، فقيمة الحديث فى إسناده . قال أبو النرج : حدثنا محمد بن جرير الطبرى قال : حدثنا أبو السائب سالم بن جنادة قال : حدثنا وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كانت تنشد بيت لبيد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ثم تقول : رحم الله لبيداً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم ! قال هشام : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! وقال وكيع : رحم الله هشاماً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو السائب : رحم الله وكيعاً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو جعفر : رحم الله أبا السائب ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو الفرج الأصهبانى : ونحن نقول : الله المستعان ! فالقصة أعظم من أن توصف .

قال صاحبى : وكذلك تمضى الأجيال لا يستقبل بعضها الحياة إلا أحب الماضى وآثره ، وكره الحاضر وضاق به ؛ فرحم الله هؤلاء الناس جميعاً ! فليت شعرى ! ماذا كانوا يقولون لو عاشوا فى هذه الأيام ، ورأوا ما نحن فيه من خير قليل ، وشر كثير ؟ أكانوا ينشدون قول لبيد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

أم كانوا يستقلون هذا البيت ، ويرون أنه لا ينى بوصف ما يجدون من الضيق كما رأى أبو الفرج ؟

قلت : أما أنا يا سيدى ، فراض عن الجيل الذى أعيش فيه ، ولعلى لو خيرت أن أعيش فى الأجيال التى كان يعيش فيها هؤلاء الناس الصالحون ، لآثرت عصرى ، وجيلى ، وبيئتى ، ولقنعت بحظى من ذلك ، ولأنشدت قول لبيد :

فَاقْنَعْ بِمَا قَسَمَ الْمَلِكُ فَإِنَّمَا قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا

ساعة مع طرفه^(١)

قال صاحبي : أما اليوم ياسيدي فلن يكون أمرك يسيراً ولا ممهداً ، فقد اخترت « طرفة » موضوعاً للحديث الذي أردت أن يكون بينك وبينى ، والذي أذنت في أن أقترح موضوعه عليك من حين إلى حين ، وقد اخترت مطولته التي يسمونها المعلقة ، وأكاد أعترف بأنى لا أعرف له شعراً آخر ، فقد أقرأ له البيت أو البيتين في هذه القصة أو تلك ، وقد سمعتك وقتاً ما تتحدث بأن له ديواناً مطبوعاً ، ولكن يدي لم تصل إلى هذا الديوان ، فأنا أجهل صاحبك جهلاً تاماً ، وقد حاولت أن أعرفه من قصيدته المطولة هذه فلم أجد من نفسى صبراً عليها . ولم أستطع أن أقرأ منها إلا الأبيات الأولى التي يبكى فيها الديار ، وينسب فيها بصاحبته في غير سهولة ولا براءة من التكلف . فلما بلغت وصف الناقه عجزت عن التقدم ، وأعلنت الإفلاس وطويت الكتاب . فهلم ياسيدي أنبئني عن هذه القصيدة ، وحدثني بمظاهر الفن الرائع والشعر البارع فيها ، وما أرى أنك ستفعل ، فليس الشعراء القدماء كلهم ليبدأ . وليست تستقيم لهم جميعاً هذه الخلال التي استقامت للبيد ، ولولا أنى كنت أؤثر النفع ، ولا أريد أن أشق عليك ، ولا أن ألزمك الحجة منذ ابتدأنا الحديث ، لما رضيت منك ليبدأ موضوعاً لأول الحوار ، ولا أقترحت عليك طرفة أو أشباه طرفة من أصحاب المطولات ، ولكنى لا أكره أن أنهزم لك لأطمعك في الفوز الآن ، وقد استمتعت بالفوز أسابيع ، لا تكره أن تلقى الجدل كما ينبغي أن تلقاه ، وأن تعترف بالحق كما يفرض نفسه عليك ، وأن تؤمن لى بأن هذا الكلام الذي يقوله طرفة كلام ليس منا ولسنا منه فى شىء ، لانفع فى قراءته ، ولا قدرة لنا على قراءته ، ولا أثر له فى تثقيف عقل ، أو تهذيب طبع ، أو تقويم إنسان ، وإنما هو كلام مات ، والخير فى أن يموت . أم تراك ستحاور وتداور وتقسم الشعرة إلى نصفين لتثبت لنا أن فى شعر « طرفتك » هذا بقية من حياة ، وقدرة

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٥ .

على النفع ، وغناء في التثقيف والتهديب والتقويم .

قلت ضاحكاً : وهل عرفت مني إلا المحاورة والمداورة ، وتقسيم الشعرة إلى نصفين أو إلى أثلاث أو إلى أرباع ، والجد في إثبات ما ألفت الناس أن ليس إلى إثباته سبيل ، ونفي ما استيقن الناس أن ليس إلى نفيه سبيل ! وقد يقال إنى رجل شاذ في التفكير ، شاذ في الحديث ، شاذ في الفهم والحكم . فلم تريد أن تحولنى عن هذا الشذوذ وأن تجعلنى رجلاً مثلك ، مستقيم المنطق ، معتدل المزاج ، أقر ما يقره الناس ، وأنكر ما ينكرون ، أعلم ما يعلمه الناس ، وأجهل ما يجهلون ؟ على أنى أظن أنك إنما تكلف بالتحديث إلى . والاستماع لى بهذا الشذوذ نفسه ، فأنت ترى عندى ما لا تراه عند غيرى ، ففسليك هذه الغرابة ، وتلهيك وتريحك من هذه الحياة المطردة التى لا نبو فيها ولا اختلاف . قال وهو يظهر الدهش : فأنت إذن تريد أن تشذ ، وأنت إذن تزعم أو تتكلف أن لقصيدة «طرفة» هذه نفعاً وغناء ، وأن فيها شعراً وجمالاً . قلت : نعم ، أريد أن أشذ ما دام الناس يروننى شاذاً ، وإن كنت أنا أرى الشذوذ فيك وفى أصحابك . فأنا أحب قصيدة طرفة حباً شديداً ، وأكبرها إكباراً لا حد له ، وقد أعجب ببعض أجزائها إعجاباً لم أمنحه قصيدة لبيد . وأنا لا أرى فى هذا إغراباً ولا شذوذاً ، ولا ميلاً إلى الإغراب والشذوذ ، وإنما أذهب فى هذا مذهب الذين لهم بالشعر علم من القدماء ، وأزعم أن المحدثين سيذهبون هذا المذهب يوم يكون لهم بالشعر علم . وما أشك فى أن بين المحدثين المعاصرين من يجب طرفة كما أحبه ، ويمنحه مثل ما أمنحه ، أو أكثر مما أمنحه من الإعجاب . وأى شىء أيسر من أن تجهل شعر طرفة ، أو تعجز عن فهمه ، أو تكسل عن محاولة فهمه ، فتنكره وترفضه ، وتقضى على الذين يفهمونه ويحبونه بالإغراب والشذوذ ! وإذا كنت تعترف بأنك لم تقرأ من هذه القصيدة إلا الأبيات الأولى ، وبأنك لم تكد تنهى إلى وصف الناقة حتى عجزت ، وأقررت بالعجز ، وأعرضت عن القصيدة ، وطويت الكتاب ، فهل ترى من العدل الذى تطمئن إليه نفسك ، ويرضى به ضميرك ، أن تقضى بأنها لغو ، وعلى من يجب القصيدة بأنه شاذ ؟ ومع ذلك ، فما أظن إلا أننا سنتفق على حب طرفة ، والإعجاب بمطولته هذه فى غير مشقة ولا جهد ، بعد أن ننظر فيها معاً نظرة صدق وإخلاص للحق والفرن جميعاً . والخير فى أن تقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها دون أن

تتكلف فهما ، أو تحاول تعمقاً واستقصاء ، وأن تنبئني إذا فرغت من هذه القراءة بما تركه في نفسك من الأثر . قال : وأى أثر تريد أن تركه في نفسي وقد أنبأتك بأنى أخذت في القراءة فلم أستطع أن أمضى في وصف الناقة ؟

قلت : فاقراها ، لعلك تستطيع أن تمضي في وصف الناقة ، ولعلك تستطيع أن تجد فيه شيئاً ، ولعلك تستطيع بنوع خاص أن تجد بعده شيئاً .

قال : فإنني مطمئن إليك ، وأنا أعلم أنك قرأتها ، فحدثني عنها ، وأبني لي عن رأيك فيها ، ولك على أن أقرأها بعد ذلك .

قلت : كلا ياسيدى ! إنى لا أريد أن ألقى عليك درساً ، وإنما أريد أن أصل بينك وبينى حواراً ، فإما أن تقرأ هذه القصيدة ، وإما أن ينقطع الحوار . قال : إن إلحاحك هذا ، واستبدادك بي ، ليدلان على شيء من الضعف لا أكرهه ، فأمهني إذن لحظة لأقرأ القصيدة ، وإن كنت أكره القراءة في غير فهم ، ولا سبيل إلى الفهم . قلت : لك من الوقت ما تشاء .

ثم انصرفت عنه إلى بعض الأمر ، وتركته خالياً إلى هذه القصيدة ساعة أو بعض ساعة ، ثم عدت إليه ، فإذا هو في مكانه لم يتحول ، وإذا هو ما زال ينظر في القصيدة ، ويطيب النظر فيها ، وإذا هو قد نهض من مكانه فأخذ قاموس «الفيروزابادى» من موضعه بين الكتب ، ثم عاد إلى حيث كان ، وأخذ يلتمس في هذا المعجم بعض الألفاظ التي شقت عليه ، فلما رأى مقبلاً قال في شيء من الحياء والغيب : هلا وضعت بين يدي شرحاً من شروح المعلقات لتغنيني عن البحث والتفتيش في هذا المعجم الضخم العسير ، قلت : فإنى ياسيدى لم أطلب إليك أن تفهم ، وإنما طلبت إليك أن تقرأ . فما حاجتك إلى المعجم ؟ وما حاجتك إلى الشرح ؟ قال مغضباً : فإذا كانت هذه القراءة التي طلبتها إلى تثير حاجتى إلى الفهم ، وتدفعنى إليه دفعاً ؟ قلت وقد أغرقت في الضحك ، وأغرق هو في الاستحياء : وإذن فما بال قراءتك الأولى لم تثر حاجتك إلى الفهم ؟ ولم تدفعك دفعاً إلى البحث والاستقراء ؟ لم تكذ ترى الناقة حتى أعرضت عن القصيدة كلها إعراضاً ، فما بال الناقة لا تخيفك اليوم ؟ قال : إنها ناقة بغيضة قد حجبت عنى ، وما زالت تحجب عنى ، صوراً ومعانى أظن أنها من أروع الصور والمعانى ، ولو استطعت ، لعمرت هذه الناقة عقرراً ، أو لنحرتها نحراً ، أو لحوتها محوياً ، لأنفذ إلى هذه المعانى الرائعة .

ولكني أخشى أن أهمل وصف الناقه هذا فأهمل شعراً كثيراً ؛ فقد كنت أكره وصف الناقه في قصيدة لبليد ، فلما درسناه معاً ، تبينت أن فيه جمالا وفتناً ما أزال أذكرهما . قلت : لا بأس عليك ! فليست ناقه طرفة كناقه لبليد ، وما أظن أن بعقرها أو نحرها عليك أو على طرفه بأساً ، وقد كان طرفه نفسه مسرفاً في إبله . وفي إبل أبيه عقراً ونحراً . فهو كان يهين الإبل لإكرام الضيف ، كما كان يهينها للهو ، وكما كان يهينها للميسر أيضاً ؛ فأهن ناقته هذه ولا تحفل بها ، ولا تطل الوقوف عندها ، فما أظن أن الوقوف عندها سينتعك أو يجدى عليك . قال وهو في شيء يشبه الحيرة : أو لست تزعم أن طرفه شاعر مجيد ؟ قلت : بلى . قال : فكيف يستقيم للشاعر المجيد أن يكون في قصيدته جزء من الأجزاء يمكن إهماله والإعراض عنه دون أن تفسد له القصيدة كلها ؟ قلت في شيء من الأسف ، بل من الحزن العميق : لسنا ياسيدي بإزاء قصيدة لطرفة ، وإنما نحن في أكبر الظن ، بإزاء بقايا قصيدة لطرفة ، وليست هذه الناقه التي تقوم بينك وبين المعاني الرائعة والصور الجميلة ناقه طرفة في أكبر الظن ، وإنما هي ناقه قد دُست عليه دسّاً ، وزُجّت في حظيرته زجّاً ، ليست منه وليس منها في شيء ؛ ألم تبلغ وسط القصيدة وآخرها ؟ قال : بلى . قلت : فكيف تستطيع أن تفهم هذا الاختلاف العظيم بين هذا الجزء الذي وصفت فيه الناقه وبين ما بعده وما قبله من الأجزاء ؟ ألسنت ترى في وصف الناقه إغراباً وتكلفاً للألفاظ التي يقل استعمالها ويندر أن تنطق الألسنة بها إلا عند الإخصائيين ؟ ثم ألسنت ترى أن هذه الألفاظ الغريبة النادرة تقل وتكاد لا توجد في سائر القصيدة ؟ وأن لغة الشاعر تسهل وتلين دون أن تنمذ جزالتها ومثانتها إذا تجاوز الناقه إلى غيرها من المعاني والأشياء ؟ قال : بلى . قلت : ألا تظن أن هذا دليل واضح على أن وصف الناقه على هذا النحو قد أقحم في قصيدة الشاعر إقحاماً ؟ قال : لا أدري . قلت : فإن للشاعر قصيدة أخرى رائية طويلة ، رويت في ديوانه ، وقد عرض فيها للناقه فلم يكذب يطيل ، وإنما أوجز في وصفها كل الإيجاز ، وشغل عنها بما أهمه من الغزل والنمخ . وأكبر ظني ياسيدي ، أنه لم يحفل بالناقه في دليته هذه ، ولم يقل فيها إلا البيتين أو الأبيات القصار ، أو أنه حفل بهذه الناقه ، ولكن وصفه لها قد ضاع ، فطول الرواة حيث أوجز الشاعر ، أو عوض الرواة ما ضاع من قصيدة الشاعر . وأي رواة ؟ الرواة

المتأخرون ، الذين كانوا يتخذون العلم والتعليم صناعة ، ويحرضون على أن يعلموا الشباب أوصاف الإبل ، وأوصاف الخيل ، وأوصاف السحاب ، وأوصاف السلاح وما يشبه ذلك . فلم أقرأ هذه القصيدة يوماً من الأيام - وما أكثر ما قرأتها - إلا كان هذا الشعور في نفسي قوياً ؛ وازدادت ثقتي بأن هذا الجزء من أجزاء القصيدة مصنوع ، قد قصد به إلى تعليم الشباب طائفة من أوصاف الإبل أحصيت فيه إحصاء . ومن آية ذلك ، أنك تستطيع أن تنظر إلى وصف لبديد وغيره من الشعراء للنوق ، فسترى في هذا الوصف حركة واطراداً وحياة قوية ، وسترى أن الشعراء يتبعون الإبل أو يسايرونها ، أو يشبهونها بحيوان آخر كالنعامة أو البقرة أو حمار الوحش ، ثم يتبعون هذا الحيوان في حركته واضطرابه ، وهم يتخذون هذا وسيلة إلى استحضار الصور الطبيعية المختلفة ، وعرضها عليك . فأما هذا الجزء من قصيدة طرفة ، فليس له حظ من حركة ولا حياة ، وإنما استحضر الشاعر أو الناظم ناقة من النوق ، فوقفها أمامه ، وأخذ يحاكي فيها تحديقاً ، ثم يصورها تصويراً دقيقاً ، فهو معنى بالناقة من حيث هي ناقة ، يكاد ينسى أنها أداة للسفر ، وتجشم أهوال الصحراء ، فهو إلى أن يكون أستاذاً يسمى لك أجزاء الناقة ، ويعلمك ما يحمل على هذه الأجزاء من الصفات ، وما يستجد لها من الخصال ، أقرب منه إلى أن يكون شاعراً يستوحى حياة نفسه ، كما يفعل غيره من الشعراء .

قال صاحبي - ولم أستطع أن أطيل حواراه فيما قال ، ومن يدري ! لعله موفق فيه إلى الصواب - : فإنني لا أرى رأيك في هذا ولا أقرك على أن إعراض الشاعر هنا عن الحركة القوية ، والحياة المضطربة ، ووقفه عند أجزاء الناقة يحققها ويصورها ويصفها ، دليل على أن هذا الشعر مصنوع ، فليس ضرورياً أن يكون الشاعر متحركاً دائماً ، وليس ضرورياً ألا يتعرض الشاعر إلا للحركة والحياة والنشاط . والشاعر يستطيع أن يصور ناقته قائمة مستقرة ، كما يستطيع أن يصورها متحركة نشيطة ، وهو في هذا كله قادر على أن يحسن التصوير ويأتى بالشعر . ومع أني لم أفهم بعد كل ما قاله طرفة ، أو حمل عليه في وصف الناقة ، فقد يخيل إلي أنه لم يقيد ناقته ، ولم يعقلها ، وإنما هو تركها حرة تذهب وتجيء وأخذ يصفها في أثناء ذلك ، ولعله امتطأها ومضى بها في الصحراء ، ثم أخذ يصفها خلال ذلك ، وأكبر الظن ، أنه شغل بها عن النعام والبقر وحر

الوحش . وأعود فأقول: إني لم أفهم هذا الجزء من القصيدة بعدُ على وجهه، فلا أستطيع أن أقطع فيه برأى . قلت: فمن أيسر الأشياء أن نقف عند هذا الجزء، وأن ننظر في أبياته بيتاً بيتاً، لتبين من أمره ما نستطيع أن نتبين . قال: كلا ياسيدى! فإني لست في حاجة إلى هذا العناء، وقد زعمت أنك لا تريد أن تلقى على درساً في اللغة أو في غير اللغة، وإنما تريد أن تصل بينك وبينى حواراً، فأعفتني من هذا الجزء، وليكن مصنوعاً كما ترى، أو صحيحاً كما أظن، فإن وجه الأرض لن يتغير إن صح رأيك أو صدق ظني، وأسرع بنا إلى القسم المفهوم من هذه القصيدة، فإني أرى فيه جمالا قل أن يشبهه جمال .

قلت: والغريب أننا نستطيع أن نأخذ في هذا القسم المفهوم من القصيدة، كما تقول، دون أن نشعر بأننا فقدنا شيئاً، ودون أن نحس هذا النقص الذي نحسه كلما عرضنا لدرس البقايا المنقوصة، والآثار التي ألح عليها الزمن، وحفظ منها ما حفظ، وأضاع منها ما أضاع . ألا ترى أن أول ما يلقانا من هذا القسم إنما هو حديث الشاعر عن نفسه في إيجاز وإجمال، وفي أبيات قليلة جامعة، كأنه يريد أن يعرف نفسه لنا أو يقدمها إلينا، كما يقول المحدثون، فكأننا نلقاه لأول مرة، وكأننا نحب أن نعرف من أمره ما نجعل، وكأنه يصور لنا نفسه تصويراً يسيراً، قبل أن يأخذ معنا في الحديث المفصل الطويل . ألا ترى إلى هذه الأبيات القليلة؟ كيف تقف الشاعر أمامك، وتمثله تمثيلاً صادقاً، فتحببه إليك، وتعطفك عليه، وتدعوك إلى أن تطيل سؤاله، وتستمتع بالاستماع له:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ فَتَى خِلْتُ أَنَّنِي
عُنَيْتُ فَلَمْ أَكُنْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ
وَأَسْتُ بِحَلَالِ التَّلَاجِ مَخَافَةً
وَأَلِكُنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ
وَإِنْ تَبَغْنِي فِي حَلَقَةِ الْقَوْمِ تَلْقَنِي
وَإِنْ تَلْتَمِسْنِي فِي الْحَوَانِيتِ تَصْطَلِدِ
مَتَى تَأْتِنِي أَصْبَحُكَ كَأَسَا رَوِيَةً
وَإِنْ يَلْتَقِي الْحَى الْجَمِيعُ تُلَاقِنِي
إِلَى ذِرْوَةِ الْبَيْتِ الشَّرِيفِ الْمُصَدِّدِ

فانظر إليه وهو يتقدم إليك ظريفاً، لبقاً رشيقاً، خفيف الروح، حازماً مع ذلك كل الحزم، واثقاً بنفسه أشد الثقة، راضياً عنها كل الرضا، شاعراً

بواجبه الاجتماعى أوضح الشعور وأقواه ، يؤمن بأنه قد خلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه ، فهو يجيبهم إذا دعوه ، بل هو يجيبهم إذا دعوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليه ، كأنهم لا يستطيعون أو لا ينبغي لهم أن يدعوا غيره ، وكأنه هو الفتى كل الفتى ، هو الفتى الذى يختصر شباب قومه اختصاراً ، ويمثلهم تمثيلاً ، ويحتل عنهم أثقال القبيلة كلها . وهو يستجيب لدعوة الداعى ، سواء أوجهت إليه أم إلى غيره ، مسرعاً لا كسلًا ولا متبلدًا ، وكيف يكسل أو يتبدل وهو الفتى الذى ملأ نفسه إعجاباً بنفسه ، وملأ نفوس قومه إعجاباً به ، واعتماداً عليه ! فأول صفاته إذن هذا الشباب الذى يدفعه إلى أن يتمثل الواجب الوطنى أقوى التمثل ، ويسرع إلى الإجابة إليه . ثم هو بعد ذلك لا يكتفى بالمخاطرة والمغامرة فى سبيل هذا الواجب ، ولكنه كريم أيام السلم لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين ، ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجيرين . هو لا ينزل الأماكن الخفية التى لا ترى فيها المنازل ، ولا يقصد إليها المحتاجون ، وإنما ينزل الأماكن الظاهرة ، فيعطى إذا سئل ، كما يجب إذا دعى . وإذا اطمأن الرجل إلى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور ، ويؤديه أحسن الأداء ، ويعطى قومه وغير قومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ولا بخل ولا إشفاق ، فن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ، وألا يحول بينها وبين نعيم الحياة . وصاحبنا لا يحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس ، هو لا يستتر منك ، ولا من غيرك ، وهو يدلك على الأماكن التى تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه ، فأما فى ساعة الجلد ، فتستطيع أن تلتمسه فى حلقة قومه هناك حيث يجتمعون فى ناديبهم ، يتحدثون ويتشاورون إن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور ، فهو يشارك قومه فى جدهم كله ، وإن كان شاباً ، لأن له من الرشد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك ، ويفرضه على قومه فرضاً . وأما فى غير ساعات الجلد ، فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك ، حيث يلتمس أترابه من الشبان المترفين الذين لا يضمنون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج إليها ، ولا يقعدون عن اللذات حين تتاح لهم أوقات الفراغ . تستطيع أن تلتمسه فى الحانات عند هؤلاء الخمارين الذين يحملون خمرهم المعتقد من الحضرة ، فيمتعون بها شباب البادية ويحببون بها إليهم هو الحياة . ولن يضع سعيك إذا سمعت إليه تلتمسه فى حانة من هذه الحانات ، فهو لن يلقاك بخيلاً ولا شحيحاً ولا

كزراً ، ولكنه سيشركك في لوه ، وسيستقيك حتى تروى ، وهو لن يكرهك على ذلك فأنت وما شئت ، إن كان بك ظمأ نفعت غلَّتْكَ ، وإن كنت غنياً فليزدك الله غنى ، ولا بأس عليك . فإذا أردت أن تسأل عنه دون أن تلقاه ، فأنت تستطيع أن تسأل من شئت ، فستعلم أنه ليس من أوساط قومه ولا من أقلهم خطراً ، وإنما هو الشريف الكريم من أشرف البيوت وأكرمها ، وهو منها في أرفع مكانة وأرقاها .

أعرفت الآن هذا الشاعر في نفسه ، وفي قومه ، وفي أسرته الأذنين ، في جده ، وفي لوه ، في عمله وفي فراغه ، وإذن فلا بأس عليك من أن تمنع في معرفته إمعاناً ، ومن أن ترى مجالسه حين يلهو وينفق أوقات الفراغ . وهو يجد شيئاً من اللذة في التحدث إليك بهذا ، لا يتكلف ولا يتحفظ ، ولكنه لا يسف ولا يتبدل .

ندَامَى بِيضٌ كَالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ
تَرُوحُ عَلَيْنَا بَيْنَ بُرْدٍ وَمُجَسَّدِ
رَحِيْبٌ قِطَابُ الْجَيْبِ مِنْهَا رَفِيْقَةٌ
بِحَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ الْمَتَجَرِّدِ
إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينَا أَنْبَرَتْ لَنَا
عَلَى رِسْلِهَا مَطْرُوفَةٌ لَمْ تَشَدِّدِ
إِذَا رَجَعْتَ فِي صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَهَا
تَجَاوَبَ أَظْآرٍ عَلَى رُبْعِ رَدِي

فأنت لا تجده في الحوانيت متبدلاً ، ينادم الصعاليك وأخلاق الناس ، وإنما تجده فيها كريماً ممتازاً ، ينادم قوماً كراماً ممتازين أحراراً مثله ، بيضاً كأنهم النجوم ، وهم لا يحبون هذا الشراب الخفاف الحشن — إن صح هذا التعبير — وإنما هم أصحاب هو مترف له حظ من الفن ، فهم يشربون ويسمعون ويستمتعون أيضاً ، لهم قينة جميلة حسنة الصوت ، قد ملء صوتها رقة وحناناً وحينئذ أيضاً ، وهي بضة رخصة ، وهي متبدلة لهم لا تحتجب عنهم ، ولا تبخل عليهم بما يحبون من دعابة وتجميش ، هي أشبه شيء بهذه الفتاة التي تصورها الأغنية الفرنسية ، التي كان يتغنى بها الجند أيام الحرب والتي يسمونها « ملدون » . وفي تصوير هذه القينة بهذه الحرية ، وهذه السداحة ، ومن غير تكلف ولا غلو في الاحتياط ، جمال بلوى رائع حقاً ، وإياك أن تظن أن صاحبنا على شبابه وفراغه يلهو عبثاً ، أو ينفق وقته في الشراب والاستمتاع بالنساء

استجابة لحسه ، وطاعة لهذا الميل النظري إلى اللذة ، فإنك إن ظننت به هذا أخطأت فهمه وأسأت إليه ، فهو ليس صاحب لذة غليظة تصدر عن الحس لترضى الحس ، وإنما هو صاحب لذة رقيقة تصدر عن تفكير ، وعن فلسفة وعن اختبار للحياة ، وعن حكم دقيق على حوادثها وخطوبها ونتائجها ، وقد ظن به قومه مثل هذا الظن ، فانكروا عليه إسرافه في اللهو ، وإتلافه الطارف والتلبد ، فاجتنبوه وقاطعوه وتحاموه ، ولكنه لم يحئل بذلك ، لأن قومه لم يفهموه ، فاحذر أن تكون كقومه عاجزاً عن فهمه ، مقصراً في إدراك فلسفته ، فهى فلسفة يسيرة سهلة خليقة أن تفهم ، وهى فلسفة خالدة تجدها في كثير من البيئات البادية التى لم ينفذ إليها الدين ، أو الحاضرة التى لم يؤثر فيها الدين :

وما زالَ تَشْرَانِي الخُمُورَ وَلَدَّتِي وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتَلَدِّي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي العَشِيرَةُ كُلُّهَا وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ التَّبَعِيرِ المُعَبَّدِ

على أن قومه إن عجزوا عن فهمه فأنكروه ، فهناك قوم آخرون لم يحاولوا فهمه ، ولكنهم لم ينكروه على كل حال ، وهم الفقراء المحتاجون إلى عونه وإعانتته ، والأشراف المكبرون لسؤدده ومكانته ، أولئك يفزعون إليه ، وهؤلاء يعتزون به ، وهو مع ذلك حريص على أن يعرض فلسفته ، ويجادلك فيها ، ويدود عنها ، ويقنعك بها إقناعاً . فاسمع له كيف يقول :

أَلَا أَيُّهَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضَرَ الوَغَى وَأَنْ أَشْهَدَ اللِّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي
فَإِنْ كُنْتَ لَا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي فَدَعْنِي أُبَادِرُهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

فالذين يلومونه حين يخاطر ويغامر ، ويسرع إلى الحرب أداء للواجب وذوداً عن قومه ، يخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمّنوا الخلود إذا عرض عن الحرب ، فالموت ساع إليه إذا هو لم يسع إلى الموت . والذين يلومونه على شهود اللذات ، والأخذ بحظه من نعيم الدنيا وهو الحياة ، مخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمّنوا له حياة خالدة إذا عرض عن اللذات ، وما قيمة هذه الحياة الطويلة الخشنة الجافة التى لا لذة فيها ولا نعيم ؟ وهل يحرص الناس على الحياة إلا لما فيها من لذة ؟ وإذا لم يكن بد من الموت ، وإذا لم يكن وراء

الموت شيء ، وإذا كان الموت ملمماً بالفقير والغنى ، بالجواد والبخيل ، وبالشجاع والخبان ، أفليس الخير أن يأخذ المرء في هذه الحياة بلذات النفس والجسم جميعاً ، فيرضى نفسه بأداء الواجب ، والارتفاع عن الدنيا ، ويرضى جسمه بالأخذ بأعظم نصيب ممكن مما يتاح له من اللذة والمتاع ؟

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لَكَ لَطَوَّلِ الْمُرُخَى وَثَنِيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدَهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَةِ يَنْقَدُ

قال صاحبي : أما أنا ففتون بهذين البيتين إلى غير حد ، هذا التشبيه البدوي الصادق الصارم الذي لا يدع سبيلاً إلى الأمل ، ولا يشق عليك باليأس المظلم القاتم ، وإنما هو موثس في شيء من الدعة والحلاوة والإذعان المطمئن المحبب إلى النفوس . هذا التشبيه القريب الذي يفهمه كل إنسان دون أن يتكلف في فهمه جهداً ، أو يحتاج إلى تفكير شاق . هذا التشبيه الذي لا تكاد تسمعه وتفهمه ، حتى ترى نفسك في البادية مع الشاعر تسمع له ، وتفهم عنه ، وتنظر إليه ، وتهم أن تسير سيرته ، لولا أن لك ديناً ينبئك بأن للحياة غاية أخرى غير اللذة ، وبأن الموت ليس هو الأمد الذي ينتهى إليه الأحياء . هذا التشبيه الرائع من جميع جهاته يفتنى ويخلبنى ، ويحبب إلى الشاعر ويحملنى على أن أطلب إليك أن نطيل عنه الحديث . قلت : لا بأس ، ولكن ليكن هذا في الأسبوع المقبل .

ساعة أخرى مع طرفة^(١)

لم يكن صاحبي مبتهجاً ، ولا مبتسماً ، ولا ظاهر النشاط ، حين لقيته في الموعد الذي كان بيننا ، وإنما كان كثيراً محزوناً كاسف البال ظاهر الفتور فلما سألته عن أمره ، أعرض عني وأبى أن يجيب ، فلما ألححت عليه في السؤال ، قال : وماذا تريد أن أرد عليك ، وأنت قد أشمتني بالعدو ، وأثرت إشفاق الصديق عليّ ، ورثاءه لي ، وأطلقت في السنة الناس بالفكاهة والسخرية وكذت تجعلني مثلاً في الأندية يضرب للجهل والغفلة ، وبلادة الذهن وقلة الاطلاع .

قلت : وما ذاك ؟ قال : إنك تذيع أحاديثنا في شيء من التبسط ، لا تحفظ ولا تحتاط ، فتروى عني كثيراً مما أقوله لك ، لا تصفّيه ولا تنقيه ، ولا تزيل منه الغناء ، ولا تنفي عنه كثيراً من هذا السخف الذي تجرى به الألسنة في المألوف من الحديث ، ولكن الأقلام تتجافاه ، وترتفع عنه حين تسجل هذه الأحاديث ، فأنت تظهرني دائماً على حظ لا بأس به من الغباء والقصور ، ومن الإهمال والتقصير ، حتى لقد ظن بعض الناس أنني لست شخصاً موجوداً بالفعل ، وإنما أنا شخص خيالي قد اخترعته اختراعاً ، وابتكرته ابتكاراً ، وصورته كما تحب أن يكون خصمك من الضعف والعجز ، لا كما هو في حقيقة الأمر . قلت مبتسماً : إن فيما تقول بعض الحق ، فقد رأيت قوماً يسخرون منك ، ويتندرون عليك . وقد زعم لي صديق من الأصدقاء أنني قد استضعفت رجلاً من الناس ، لا حول له ولا قوة ثم اتخذته خصماً في هذا الحوار . وما أرى إلا أن هذا الصديق الماكر قد أحصى واستقصى ، وبحث حتى اهتدى إليك فوشى بي عندك ، وما زال بك يهيجك ويغريك ، حتى ملاًك غيظاً وحنقاً ، ولست أرى عليك مما يقول الناس بأساً ، ولست أحب لك أن تسمع لهذا الصديق الذي سيجد لذة في المكر ، ولا يتحرج من أن يعبث بأصدقائه ، وإنما أحب

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ٦ مارس سنة ١٩٣٥ .

لك أن ترتفع عن هذا كله ، وأى الناس أمن السنة الناس ! وأى الناس استوثق من أن الناس سيحسنون به الظن ، وسيقولون فيه الخير ، وسيكفون عنه السنهم ، وأقلامهم ، وسيصدون عنه سعاتهم وشايتهم ! وإنما تجرى أمور الحياة على الشر أكثر مما تجرى على الخير ، والناس إلى الإساءة أسرع منهم إلى الإحسان ، فاصبر لما يقال فيك ، وما يساق إليك ، ولا تظهر الضعف فتقطع فيك من لا ينبغي أن يرقى إليك .

قال صاحبي : هذا كلام يسير حين يقال ، سهل حين يكتب ، ولكنك لا تستطيع فيما أعتقد أن تلتقي بعض ما ألقى ، وأن تصبر عليه كما تريد أن أصبر ، وتغضى عنه كما تريد أن أغضى ، وأنا رجل مثلك لا ينبغي أن تعرضني لما لا تحب أن تعرض له . وما يعينني من أمر لبيد وطرفة ، وأمثال لبيد وطرفة ، إذا كان الحديث عنهما وعن أمثالهما سيعرضني لمثل هذه السخرية ، ومثل هذا الازدراء . لقد أذعت في الأسبوع الماضي أني لم أر ديوان طرفة ، ولم أنظر فيه ، فما أكثر ما سمعت من استهزاء المستهزئين وعيب العائنين ! قلت : لا بأس عليك ، لقد تحدثت بهذا في صراحة صريحة ، ووضوح ليس بعده وضوح ؛ ومع ذلك فلم آمن أن تظن بي الظنون ، وأن يشفق علي المشفقون ، وأن يتفضل كاتب أديب مقيم في الريف ، فيكتب إلى (الجهاد) أنه يظن أني لم أر ديوان طرفة ولم أعرف أنه قد طبع ، وأنه مستعد لإرسال نسخة إلى إن احتجت إلى ذلك ، ثم ينبئني من أمر هذه النسخة بالمفصل الذي لا بأس به . ومع أني أشكر للكاتب الأديب فضله أجل الشكر ، فإنني قد رأيت هذا الديوان الذي تحدث عنه ، ورأيت له طبعة أخرى نشرت في الخارج مع دواوين جماعة من الجاهليين ، فإذا كان الناس يعيبونك بما أذعت من أنك لم تر ديوان طرفة ، فإن منهم من ظن أني لم أره ، فلا يسوءك عيب الناس لك ، فإنني لا يسوءني أن يظن الناس بي الظنون . قال يا سيدي أنت صاحب صراع وخصام ، وبينك وبين الناس شؤون لا تنقضي ، تثبت لهم ويثبتون لك ، وتصبر عليهم ويصبرون عليك ، وتقول فيهم ويقولون فيك ، فأنت وما شئت من خصوصتهم ، أما أنا فلست من هذه الخصومات في شيء ، لا أعيب أحداً فلا أحب أن يعينني أحد ، وإذا كانت أحاديثنا عن هؤلاء الشعراء ستجر على هذا الشر الذي لا أريده ولا أقبله ، فإنني زاهد في هذه الأحاديث فلنقطعها منذ اليوم . وأعود فأقول

لك : إني رجل مثلك أكره ما تكره وأحب ما تحب ، فما ينبغي أن تعرضني للوم والعيب ، ولا للسخرية والاستهزاء ، لا لشيء إلا لأني أتحدث إليك ، وأسمع منك ، في صراحة وصدق ، وفي اجتناب للتكلف والتكبر ، وللتزويد والغرور .

قلت : وأي غرور أكثر مما أنت فيه ؟! ها أنت ذا تجادلني وتجادوني ، وتسرف في الجدال والحوار ، وتظهر التمتع والإباء ، وكأنك تريد أن تأخذ على العهود ، وتعلمي على الشروط ، وأنت تعلم حق العلم أنك مدين لهذه الأحاديث بالوجود ، وأنت ما كنت لتشهد الحياة ، أو لتشهدك الحياة ، لو لم اخترعك اختراعاً ، وأبتكرك ابتكاراً ، وأمنحك من الحياة والحركة ما يمكنك من أن تجادل وتجاوز ، وتلقى السؤال وتنتظر الجواب ، وإلا فحدثني من أنت ؟ ومتى كنت ؟ وكيف تستطيع أن تكون إذا قطعنا هذه الأحاديث ؟ وهل تظن أن الناس يتحدثون عنك أو يلهجون بك أو يجادلون فيك ؟ ولقد كتب إليّ من كتب يسألني عن وجه الحق في أمرك : أوجود أنت بالفعل ؟ أم أثر أنت من آثار الخيال ؟ وقد رفقت بك ، وأشفقت عليك ، فلم أجب من سأل ، وتركته يقدر أنك شخص موجود حقاً . ولعله ظن هذا ، ثم رجحه ، ثم صدقه ، واطمأن إليه . وأي غرابة في هذا وقد انخدعت أنت عن نفسك ، وظننت أن لك وجوداً خاصاً مستقلاً ، وأخذت تناضل دونه وتذود عنه ، وتعلمي الشروط وأي شروط ، فكيف بك لو أنك موجود في حقيقة الأمر ؟ أفرايت غروراً أكثر من هذا الغرور ؟

قال : غروركم أنتم يا سيدي ليس أقل من غروري ، فأنتم ترون أنكم شيء ، وما أنتم في حقيقة الأمر بشيء ، وأنتم ترضون وتسخطون ، وتعرفون وتنكرون ، وتحمدون وتذمون ، وتقبلون من القضاء وترفضون ، ولولا القضاء ما كنتم ، ولو شاء القضاء لذهبتم من حيث أقبلتم . فما بالك تأتي عليّ ما أنت غارق فيه إلى أذنيك ! وما بالك تنكر مني ما تعرفه من نفسك ! كلا يا سيدي ! لست أول من تجنتي على منسثه ، وتمرد على مؤجده . ولم يكن لي بدّ من هذا التجني والتمرد ، فقد تزعم أنك أوجدتني ، فينبغي إذن أن أكون صورة صادقة لك وأثراً دالا عليك ، ومختصراً يتمثل فيه كل ما يظهر أو يخفى فيك من عيب ، وما زلت ألح الآن كما كنت ألح من قبل في أني لا أحب أن تتحدث عني

بما تشاء دون أن تتحاطب في حديثك ، فتحول بيني وبين سوء الظن بي ،
وتعصمني من هذه الأحكام الخاطئة التي لا أحب أن أتعرض لها ، وهما
يكن في هذا الكلام من شطط ، فإنه لن يخطئ لومك لأنك لم تحسن تصويري
حين صورتني ، ولا ابتكاري حين ابتكرتني . فقد كان ينبغي أن تنشئ
لك خصما خليقاً بهذا الاسم ، قادراً على أن يحاور في غير ضعف ، ويجادل
في غير جهل ، ويتحدث عن طرفة بعد أن يكون قد قرأ ديوانه وفهم
مطولته ، فأما أن تتخذ لك خصما جاهلاً غافلاً ، ثم تقول وهو عاجز عن القول ،
وتثبت وهو عاجز عن النفي . فهذا شيء لا يدل على براعة ، ولا على مهارة ،
ولا على خيال خصب قوى . ولا بأس عليك من أن أثور بك وأتكرر لك ،
فأزلم جميعاً تثورون وتتكرون بمن لا ينبغي أن تثوروا به أو تتنكروا له .

والآن وقد جلّيت عن نفسي غمرتها ، وتحدثت إليك بما كنت أريد أن
أتحدث به ، فلست أرى بأساً من أن نعود إلى الحديث في طرفة ، ولك أن
تذيع من هذا الحديث ما شئت ، على أن تتحفظ وتحاطب ، فإن أبيت إلا أن
تصورني كما تعودت أن تفعل ، فثق بأني أنا المنتصر لأنني سأراجعك ، وأراجعك ،
وألح عليك في المراجعة حتى أضطرك إلى ما أحب ، أو أنقص عليك الحديث
عن الشعراء القدماء . وما أظن أنك تجهل أن جماعة غير قليلة من أمثالك الكتاب
يخلقون الأشخاص في القصص والأحاديث خلقاً ، ثم يلقون منهم شططا .
والخطأ أن تظن أني لا أوجد إلا بك ، وأنتك تستطيع أن تستغني عني متى شئت ،
فما دمت قد أنشأتني ياسيدي ، فلا بد من أن تحتلمني كما أنا ، ولا بد
أن تدعن لبعض ما أريد ، إن لم تدعن لكل ما أريد ، وثق بأن الأشخاص
الخياليين قد يكونون أعظم أثراً وأشد سلطاناً على حياة الأحياء من الأشخاص
الذين يستمتعون بالحياة الواقعة التي لا شك فيها ولا ريب . وأظننا كنا نتحدث
في الأسبوع الماضي عن هذه الفلسفة التي يعرضها طرفة في قصيدته ، ويعتمد
عليها في تفسير تلك الحياة التي كان يحياها ، والتي لم تكن حياة جد مظلم ،
ولا حياة لهُ مفسد للنفس ، وإنما كانت مزاجاً معتدلاً من الجلد واللّهو ، ومن
العمل والفراغ ، كانت مقسومة قسمة عادلة بين ما ينبغي لقومه ، وما ينبغي
لنفسه من الحق عليه ، وكانت مع هذا كله حياة واضحة كل الوضوح ،
لا غموض فيها ولا إبهام ، واضحة لصاحبها على أقل تقدير ، وواضحة لكثير

من الناس الذين لن تؤثر فيهم الحياة الدينية ، إما لأنهم لم يألفوها ، وإما لأن نفوسهم لم تدعن لها . وما دام الشاعر لم يعرف أن بعد الموت شيئاً ، فهو مضطر إلى أن يرى الموت آخر الحياة وغايتها ، وهو مضطر إلى أن يلائم بين سيرته وبين هذه الحياة التي تنتهى إلى الموت . والشاعر قد وفق إلى هذه الملاءمة أحسن توفيق ، فأرضى قومه ، وأرضى نفسه ، وأخذ لا ينظر إلى عمله ، ولا إلى سيرته ولا إلى حياته كلها إلا اطمأن واستراح ، وأحس أنه يسلك الطريق التي لا ينبغي له أن يسلك غيرها . هو ميت من غير شك ، فليس ما يمنعه من أن يسعى إلى الموت ، كما يسعى الموت إليه ؛ وهو يسعى إلى الموت حين يغيث المستغيث ويستجيب للداعي ، كما أنه يسعى إلى الموت حين يأخذ بحظه من لذات الحياة ، فيشرب الخمر ، مصطبجاً حيناً ، ومغتبجاً حيناً آخر ، وهو يسعى إلى الموت حين ينفق من أيامه ما ينفق ، مستمتعاً بلذات الحب يسيرة ساذجة كما كان يستطيع أن يتصورها ، وأن يستمتع بها في غير تكلف ولا تصنع ولا اختراع لما لا حاجة إلى اختراعه من الخواطر والمعاني ، ومن الغايات والأغراض . وهو من أجل هذا قد جعل لحياته أغراضاً ثلاثة لولاها لما حفل بالحياة ، ولا اهتم لها ، وهي : شرب الخمر ، ونجدة المستغيث ، والاستمتاع بالحب . ولو أنه عاش في بيئة معقدة غير البيئة التي عاش فيها ، أو أدرك عصرًا معقدًا غير العصر الذي أدركه ، لتغير مثله الأعلى في الحياة ، ولا ينبغي لنفسه لذات أخرى غير هذه اللذات اليسيرة الساذجة .

قلت مبتسماً : فقد أصبحت أنت المتحدث ، ولم يبق لي إلا أن أستمع ، وما أرى إلا أنك قد تهيأت لهذا الحديث قبل أن تجيء ، وما أشك في أنك لو فعلت هذا وتهيأت للأحاديث الماضية قبل أن تقبل عليها لما تورطت فيما تورطت فيه من قصور أو تقصير ، ولما لم تنبئ بعد ذلك في تصوير ما صورته من هذا القصور أو التقصير . على أني أستأذنك في أن ألاحظ أنك لا تقول شيئاً حين تزعم أن طرفة لو عاش في بيئة غير التي عاش فيها ، أو أدرك عصرًا غير الذي أدركه ، لكان مثله الأعلى في الحياة أرقى من هذه اللذات اليسيرة التي صورها في أبياته الرائعة :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى وَجَدَّكَ لَمْ أَحْفَلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي

فَمَهْنٌ سَبَقِي الْعَاذِلَاتِ بِشَرِبَةٍ كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعَلَّ بِالْمَاءِ تَزِيدُ
وَكَرَّيْ إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا كَسِيدِ الْغَضَا نَهْتَهُ الْمُتَوَرِّدُ
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنِ مُعْجَبٌ بِبِهْكَنَةٍ تَحْتَ الطَّرَافِ الْمُعَمَّدِ
كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالْدَمَالِيَجَ عُلِّقَتْ عَلَى عُشْرِ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يَخْضِدِ

فواضح جداً أن المثل العليا تتغير بتغير البيئات والعصور ، ولكن واضح أيضاً أن الأشخاص كذلك يتغيرون بتغير البيئات والعصور ، فلو عاش طرفة في بيئة غير بيئته ، أو عصر غير عصره ، لما كان طرفة ، وكان تغير فلسفته نتيجة لتغير شخصيته ، وكان من الجائز ألا تعجبنا فلسفته لو أنه صورها في أبيات من الشعر كهذه الأبيات التي رويناها .

وما رأيك في شاعر أو كاتب أو متحدث يزعم لك الآن أنه إنما يجب الحياة ، ويكلف بها ، ويحرص عليها ، لأنه يستمتع فيها بالتدخين ، وشرب القهوة ، وقراءة الكتب ، أو قراءة الصحف ، أو الاستماع للمحاضرين . أتري أن فلسفته هذه تعجبك ، أو ترضيك مهما يتكلف في تصويرها وتزيينها من أسباب الفن ؟ إنما تعجبنا فلسفة طرفة هذه لأنها ساذجة تمثل حياة ساذجة ، ولأن الشاعر قد صورها فأجاد تصويرها . فنحن لا نعجب بمعاني هذا الشعر وحدها ، وإنما نعجب أيضاً بلفظه الجزل ، وأسلوبه الرصين ، وأسرته القوي . وآية ذلك أننا نساير الشاعر مطمئنين إليه ، راضين عنه ، معجبين به ، حتى إذا بلغنا البيت الأخير من هذه الأبيات لم نستطع أن نمنع أنفسنا من ابتسامة فيها شيء غير قليل من التسامح والتبسط ، فإن مثله الأعلى في جمال المرأة لا يخلو مما يثير الابتسام . وما رأيك في صاحبه هذه التي تطول وتعظم تحت الحياء ، حتى كأنها شجرة علق عليها الحلى تعليقاً ؟

قال صاحبي : قل إن هذه الصورة لا تعجبك أنت ، ولكن ثق بأن بين الناس من يعجبون بها أشد الإعجاب ، ولا يكرهون أن يكون مثلهم الأعلى في جمال المرأة ارتفاع القامة ، وضخامة الجسم ، وهذا النحو الذي يثير مثل هذا التشبيه . قلت : فدعنا من لذات الشاعر ، ومن مثله العليا في الحياة ، وقف بنا عند هذا البيت البديع الذي يصور حبه للحياة ، وحرصه عليها ،

وكلفه بأن يأخذ من لذاته بأعظم حظ ممكن ، ومن لذة الشراب خاصة قبل أن يدركه الموت ، فيقضى عليه بالظماً الأبدى ، وتقطع الأسباب بينه وبين الرى .

كَرِيمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ سَتَعَلَّمُ إِنْ مِتْنَا غَدًا أَيُّنَا الصَّدَى

فانظر إلى هذا النذير الموثس في الشطر الأخير ، وانظر إلى مقدار ما يصور من هذه الحشرات التى لا آخر لها حين تنقطع الأسباب بين الحياة والأحياء ، وبين اللذات والمستمتعين بها ، وانظر إلى هذه الموازنة بين رجلين ، أحدهما شرب في الحياة حتى ارتوى ، والآخر أخذ نفسه بالظماً واحتمال الصدى ، فأما أحدهما فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، وقد حال بين نفسه وبين الشرب قبل أن يموت ، وأما الآخر فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، ولكنه قد ارتوى قبل أن يموت ، ومن يدرى ! لعله يجد أثر هذا الرى ، ولعل حظه من الصدى أن يكون أقل من حظ صاحبه ذلك الذى حرم نفسه الرى أثناء الحياة !

ثم انظر إلى هذه الأبيات وإلى ما تصوره من اليأس وما تصوّره من المساواة أيضاً بعد الموت :

أَرَى قَبْرَ نَحَامٍ بِخَيْلِ مِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثُونَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا صَفَاحُ صَمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُنْضِدِ
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمَتَشَدِّدِ
أَرَى الْعَيْشَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصِ الْأَيَّامُ وَالذَّهْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى لِكَالطَّوْلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ
مَتَى مَا يَشَأُ يَوْمًا يَقْدُهُ لِحَتْفِهِ وَمَنْ يَكُ فِي حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

أترى إلى هذه الصورة التى تمثل لك ما بين قبر البخيل الحريص وقبر الكريم الذى يفسد ماله ، ويستمتع بحياته ، من التشابه والمساواة ؟ كلاهما جثوة تراب عليها حجارة منضدة ، لا يفرق بينهما أن أحدهما يضم رجلا قد حرص على ماله فأبقاه ، وأن الآخر يضم رجلا قد طابت نفسه عن ماله فأتلفه إتلافاً . فالذين يرثون مال البخيل كالذين يرثون إعدام الكريم ، لن يستطيعوا أن يغيروا ما بين هذين القبرين من الشبه ، ولا أن يمحو ما بينهما من المساواة .

وانظر إلى هذه الأبيات التي تبتدئ بفعل «أرى» ، والتي تصدر عن الشاعر حكماً مرسله لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى الجدل فيها ، وإنما هي مقنعة ملزمة ، لا تحتمل مكابرة ولا مراء ، وهي مع ذلك لا تسقط عليك كما تسقط الصواعق الموثقة ، وإنما تنزل على نفسك كما تنزل السكينة التي تمنحك الأمن والراحة والهدوء .

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ لَيْلَةٍ وما تنقصُ الأيامُ والدَّهرُ ينفدُ

وإلى هذا التشبيه القوي الصارم الذي لا سبيل إلى إنكاره ، ولا إلى عيبه ، ولا إلى الشك في طرف من أطرافه ، وإلى هذا الجمال الذي يجعل الحياة كنزاً ، ويجعل الأيام والليالي كأنها رجال تنقص من هذا الكنز في غير انقطاع حتى تأتي على آخره ، وهي واثقة بأنها ستستنفده لأنها واثقة بأنها أطول منه بقاء .
قال صاحبي : وما ينبغي أن تهمل هذا التشبيه الذي كنت وما زلت مفتوناً به في قوله :

لعمرك إنَّ الموتَ ما أخطأَ الفَتَى لكالطَّوْلِ المُرْخَى وثِنياهُ بِالْيَدِ

قلت : نعم ، أنا أعرف أنك مفتون بهذا البيت ، ولكنك توافقني على أن البيت الذي يليه ليس من شعر طرقة في أكبر الظن ، وإنما هو تفسير لهذا البيت . قال : وما يعينني ؛ إنه بيت جميل على كل حال . قلت : وما دامت الحياة منتهية إلى هذا اليأس ، وما دامت الأعمال والآمال فرصاً تنهز ، وخلساً تختلس ، وأشياء إن لم تظفر بها حين تتاح لك فستفوتك أبداً ، فما ينبغي أن يكبر الإنسان من أمرها ، ولا أن يعظم من خطرها ، ولا أن يتخذها وسيلة إلى إفساد الصلات بينه وبين أمثاله من الناس ، وما ينبغي للرجل الرشيد أن يعدل بالمودة الصادقة ، والإخاء الكريم ، والوفاء الذي لا غبار عليه ، شيئاً من الأشياء ؛ ولكن الناس يغرمهم الغرور ، وتفسدهم أعراض الدنيا ، فيؤثرون بها أنفسهم ويضنون بها على غيرهم ، ويتكلفون في سبيلها ما لا ينبغي أن يتكلفه الرجل الكريم من البخل والضيق ، ونقص المروءة وإيذاء الإخوان ، والتقصير في ذاتهم ، والتقصير في ذات أنفسهم أيضاً ، حين يكفون خيرهم عن الناس ، فيجعلون حياتهم وموتهم بالقياس إلى الناس سواء . وهذه السيرة التي يسيرها

الناس المغرورون الذين تخلبهم الدنيا ، وتأسرهم أعراضها ، وتصرفهم عن الكرم والوفاء ، هذه السيرة المخزية ، التي يتورط فيها أكثر الناس في كل عصر ، وفي كل بيئة ، والتي تفرض عليهم النفاق فرضاً ، والتي تصغرهم في نفوسهم وفي نفوس نظرائهم ، هذه السيرة هي التي ألهمت « طرفة » فيما يظهر ، شعره هذا الجميل ، فليس من شك في أنه قد أنشأ قصيدته وأنشدها عاتباً على ابن عمه لهنات بدت له منه ، ولتقصير أحسه في بعض ما كان بينهما من الأمر ، والقدماء يفسرون هذه الهنات ، ويقولون في هذا التقصير ما تخيلوا ، أو ما نقل إليهم من قصة طرفة مع ابن عمه ، أو مع أخيه ، أو معهما جميعاً ، في شأن هذه الإبل التي أضلها . ولكن ما الذي يعنيننا نحن من هذه القصة أن تصح على نحو ما يرويها الرواة ، إنما نحن أمام شاعر يؤديه تقصير ابن عمه في ذاته ، وإيذاء ابن عمه له ، وإسراف ابن عمه عليه ، والتواء ابن عمه بحقوق المودة والقربى ، بخلا وشحاً وأثرة ، فهو يألم لذلك ، ويضيق به ، ويشكو منه ، ولا سيما وهو في سيرته بعيد كل البعد عن هذه الحصال ، مرتفع كل الارتفاع عن هذه الهنات ، فمن حقه أن يلقى من أكفائه ونظرائه مثل ما يلقى منه الأكفاء والنظراء . والذي يحتقر أعراض الحياة ويصغر المال ويزدريه ، بل يصغر المنافع كلها ويزدريها ، ولا يكبر إلا الخلق الكبير ، ولا يقدر إلا السيرة التي هي خليقة أن تقدر ، لأنها مملوءة بما ينفع الناس ويصلح أمورهم ؛ الرجل الذي لا يبخل بالمال حين يطلب إليه المال ، ولا يبخل بالحياة نفسها حين تطلب إليه الحياة ، خليق أن يزدرى البخل والجبن ، وأن يزدرى معهما البخل والجبن ، وهو خليق أن يألم حين يرى من أكفائه ، أو ممن كان يعدهم أكفاهه ، جبناً وبخلاً . وانظر إلى هذه الأبيات التي يشكو فيها طرفة سيرة ابن عمه معه ، وإسراف ابن عمه عليه ، وتعلله ضناً بالمعونة ، وبخلاً بالمال والجهد :

فَمَالِي أَرَانِي وَإِبْنَ عَمِّي مَالِكًا	مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يِنَا عَنِّي وَيَبْعُدِ
يَلُومُ وَمَا أَدْرِي عَلامَ يَلُومُنِي	كَأَلَا مَنِي فِي الْحَيِّ قَرُطُ بْنُ مَعْبِدِ
وَأَيَّاسُنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ	كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسٍ مُلْحَدِ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي	نَشَدْتُ فَلَمْ أَغْفِلْ سَحْوَةَ مَعْبِدِ

وَقَرَّبْتُ بِالْقُرْبَىٰ وَجَدَّكَ إِنَّهُ مَتَى يَكُ أَمْرٌ لِلنَّكِيَّةِ أَشْهَدِ
وَأَنْ أَدْعَ لِلْجَلِيِّ أَوْ كُنْ مِنْ مُحَامِيهَا وَإِنْ يَأْتِكَ الْأَعْدَاءُ بِالْجَهْدِ أَجْهَدِ
ثم يقول :

فَذَرْنِي وَخَلِقِي إِنَّمَا لَكَ شَاكِرٌ وَلَوْ حَلَّ يَدِي نَائِبًا عِنْدَ ضَرْغَدِ
فَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَالِدٍ وَلَوْ شَاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْرَو بْنَ مَرْثَدِ
فَأَصْبَحْتُ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَزَارِنِي بَنُونَ كِرَامٍ سَادَةٌ لِمُسَوِّدِ

أفترى عتباً أرق من هذا العتب ، وألمأ الأذع من هذا الألم ؟ أفترى شعراً أرق من هذين البيتين الأخيرين خاصة ؟ وقد يقال إن القدماء أنفسهم رقوا لهذين البيتين ، وأن أحد هذين الرجلين اللذين سماهما رق له فجباه كثيراً من المال ، وإن لم يستطع أن يجوه من الأبناء كثيراً ولا قليلاً . على أن الشاعر يكره أن يمضي في هذا العتب المؤلم دون أن يشوبه بشيء من الفخر يثبت ما ينبغي له من الكرامة وعزة النفس والارتفاع عن الحاجة المدلة ، فانظر إليه كيف يقول :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَّاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّةِ الْمُتَوَقِّدِ
فَالَيْتُ لَا يَنْفَكُ كَشْحِي بِطَانَةٌ لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

وانظر إلى قوله الذي تعرفونه ، فإنني أرى فيه جمالا لا يعدله جمال . ثم امض في قراءة هذه الأبيات التي يصف بها سيفه ، فهي من أروع الشعر العربي في تصوير القوة والمنعة والاعتداد بالنفس . وإذا فرغ الشاعر بعد هذا العتب وهذه الشكوى من تصوير قوته وعزته وامتناعه على الضيم ، لم يكره أن يعود إلى كرمه وسخائه فيصورهما أجمل تصوير وأرقه وأظرفه وأدناه إلى السداجة واليسر في هذه الأبيات :

وَبَرَكَ هُجُودٍ قَدْ أُنَارَتْ مَخَافَتِي بَوَادِيهَا أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدِ
فَمَرَّتْ كَهَاءَ ذَاتٍ خَيْفٍ جُلَالَةٍ عَقِيلَةٌ شَيْخٍ كَالْوَيْلِ يَلْنَدِدِ
يَقُولُ وَقَدْ تَرَّ الْوَظِيفُ وَسَاقَهَا أَلَسْتُ تَرَى أَنْ قَدْ آتَيْتَ بِمُؤَيِّدِ
وَقَالَ أَلَا مَاذَا تَرَوْنَ بِشَارِبِ شَدِيدٍ عَلَيْنَا بَغِيَهُ مُتَعَمِّدِ

وقال ذَرُوهُ إِنَّمَا نَفَعُهَا لَهُ وَإِلَّا تَكْفُؤُوا قاصِيَ الْبَرْكِ يَزِدُّ
فَظَلَّ الْإِمَامَ يَمْتَلِنَ حُورَاهَا وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسِّدِّيفِ الْمُسْرَهْدِ

أترى إلى هذه الإبل وقد أخذت تطمئن لولا أنها رأت هذا الفتى ،
وهي تعلم من إتلافه لها وعدوانه عليها ما تعلم ، فلما رآته أشفقت منه ، ومن هذا
النصل المجرد في يده ، فندت متفرقة منتشرة في الأرض ، تلتمس مهرباً من
هذا الموت الذي يلعب في يد هذا الشاب ، ومرت منها ناقة ضخمة عظيمة أمام
الفتى فيعقرها بهذا السيف فتسقط ، ويراهما أبوه وهو شيخ حريص عاقل في غير
بخل ولا ضيق؟! فانظر إليه كيف يلوم ابنه مداعباً له كأنما يشجعه على هذا
الكرم . وانظر إليه كيف يتحدث إلى من حوله من مشيخة قومه مفاخرأ
بابنه هذا السكران ، الذي إذا شرب بغى على مال أبيه فأسرف في البغي ، ثم
انظر إليه وهو يمنع من حوله من لوم الفتى ، ولم يلومونه والمال صائر إليه
غداً أو بعد غد ! فمن حقه أن يتعجل إتلافه والانتفاع به . ثم انظر إلى الحى
وقد أقبلوا على عيدهم يشتون ويأكلون ، ويطوف الإمام بأطياب هذه الناقة
على الفتى وندمائه الذين صورهم مندحين . فقد عرفنا « طرفة » نفسه ، ثم صور
لنا مذهبه في الحياة ، ثم عتب على ابن عمه وشكا ، ثم عاد إلى فخره فوصف
قوته ومنعته ، ووصف كرمه وجوده . وانظر إليه كيف يتحدث إلى ابنة أخيه فيقول :

فإن ميتٌ فأنعيتنى بما أنا أهلهُ وشقئى على الجيبِ يابنةَ معبدِ
ولا تجعلينى كأمري ليسَ همهُ كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

ثم انظر إليه كيف يعود في آخر القصيدة إلى فلسفته التي كان فيها ،
مجدداً تهوين الحياة ، وتحقير أمرها ، وتعظيم أمر الموت ، وما يصور من اليأس فيقول :

أرى الموتَ أعدادَ النفوسِ ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غدِ
ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبارِ من لم تزودِ

قال صاحبي : ألم أقل لك إن هذه القصيدة من أجود الشعر وأجمله وأروعها
وأرقاه ! قلت : وهل أريد منك ياسيدى ومن أمثالك الذين تصورهم إلا أن
تعترفوا بأن في الشعر القديم جمالا وروعة وغناء ومتاعاً ، لا للقدماء وحدهم بل
للمحدثين مهما يبعد بهم العهد !

ساعة مع زهير^(١)

قال صاحبي : أما زهير فإني أراه قريباً منا ، يسيراً علينا ، لا نجد في قراءته جهداً ، ولا نحتمل في فهمه مشقة ، ولا نحس بيننا وبينه هذه الفروق العظيمة التي نحسها بيننا وبين غيره من الشعراء ، ولهذا استثنيته من أصحابه القدماء منذ زمن بعيد ، وقرأت مطولته غير مرة ، وحفظت منها شيئاً كثيراً ، وأوشك أن أكون قد حفظتها كلها ، ثم قرأت له قصائد أخرى غير هذه المطولة ، وما أرى إلا أن المطولة ، ليست خيراً مما روى عن زهير من الشعر ، بل ما أشك في أن في ديوان زهير قصائد هي أروع وأجمل من هذه المطولة .

قلت : وما دمت تعرف زهيراً وتحبه ، وتألف ديوانه ، وتعجب بشعره ، وتحفظ منه مقداراً ليس به بأس ، فما ينبغي أن نتحدث عنه ، أو أن نضيع الوقت فيه ، والخير أن نعدل عنه إلى شاعر آخر من هؤلاء القدماء الذين تظلمهم ، وتتجنى عليهم ، لأنك لم تنهمهم ، أو لأنك لم تتكلف فهمهم .

قال : إن فيك لخصلتين أمقتهما منك ، وأنكرهما عليك ، فأنت لا تريد أن تتحدث إلى^٢ إلا في الأشياء التي لا أحسنها ولا أتقنها ، والتي يظهر فيها فضلك علي^٣ ، وتقوم فيها مني مقام الأستاذ من التلميذ ، وما كنت أحسب أنك مشغوف بالتفوق والرغبة في الاستعلاء قبل أن تأخذ في هذه الأحاديث . وما يضرك أن نتحدث في شيء أستطيع أن أقول فيه ، وتستطيع أن تسمع ؟ وما بالك لا تريد أن تريح نفسك من الكلام ؟ فإني أرى كلامك لا ينقطع ، وأحب لك أن يتصل استماعك ساعة من نهار . فهذه إحدى خصلتيك . وخصلة أخرى لا أحبها منك ، وأودّ لو تتخلص منها ولو قليلاً ، وهي تعمدك للصعب ، وقصدك إلى العسير ، وازدراؤك أو انصرافك عن السهل الميسور ، كأنك تؤمن لنفسك بقوة نادرة ، لا ينبغي لها إلا أن تواجه المشكلات والمعضلات ، وتتجافى عن الأمور الهينة الممهدة . والناس يحمدون هذا أحياناً ، ويرون فيه

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ١٣ مارس سنة ١٩٣٥ .

شجاعة وجرأة وإقداماً ، ولكنى أخافه عليك ، وأشفق أن تصيبك بعض آثاره السيئة ، فهو قد يصدر عن شجاعة وإقدام ، ولكنه قد يصدر أيضاً عن غرور وإسراف في الاعتداد بالنفس ، ولو أتى ملكت من أمرك بعض الشيء ، لقمتم منك مقام المعلم ، ولنفعتك بهذا التعليم ، فجنبتك بعض ما تتورط فيه من الشر ، وأتحت لك بعض ما تحتاج إليه من الراحة ، وعلمتك أن الحياة ليست كلها جهداً ومشقةً وعنفاً وعسراً ، وإنما فيها اللين والخفص ، وفيها النعيم واليسر ، وإلا فما تعمدك لشعر لبيد ، وأمثال لبيد من هؤلاء الشعراء الذين يُحزنون ولا يُسهلون ، والذين يضيطرون قارثهم ودارسهم إلى أن يحزن كما حزنوا ، ويشق على نفسه كما شقوا على أنفسهم ؟ فإذا عرض لك شاعر سهل قريب المأخذ ، يسير اللفظ ، محبب المعاني ، زهدت فيه ، وزهدت فيه الناس ، وزعمت أنه معروف مألوف ، وأن الخير في أن تعدل إلى من هو أقل منه وضوحاً ، وأبعد منه منالاً ، كأنك ترفع نفسك عن أن تقف عند هؤلاء الشعراء الذين مُهدّ شعريهم تمهيداً ، وكشفت أغراضهم كشفاً ، وأتاحت لينا معانيهم من قريب .

قلت : ما أظن أنك مخطيء حين تستكشف لي هذه العيوب التي تحصيها من حين إلى حين ، وما أبريء نفسي من العيب ، وما أظنك أنك تستكشف من عيوبى وسيئاتى إلا أقلها شأنًا ، وأيسرها خطراً ، ومن يدري ، لعلك لو عرفتنى حق المعرفة أن تظهر منى على سيئات ما كنت لتظنها أو تقدرها ، ولكنى مع هذا لا أعتقد أنك ناصح لى ، ولا مخلص فيما تحاول من إصلاحى ، وما أظن إلا أنك تشاركنى في بعض هذا الغرور الذى تأخذنى به وتناهى على ، وما أحسب إلا أنك قد ضقت بالاستماع ، وكرهت هذا المقام الذى يشبه مقام التلميذ ، وسئمت ألا تظهر للناس فيما أذيع من أحاديثنا إلا هذا المظهر الذى أخذت تنكره منذ الأسبوع الماضى ، فأنت تريد أن تتحدث إلى كما تحدثت إليك ، وأن أسمع منك كما سمعت منى ، وأن يراك الناس مرشداً إلى جمال الشعر ، دالا عليه ، مبيناً لما فيه من المحاسن ، ولست أكره أن أتبع لك هذا الذى تريده ، وإنك لتخطيء إن ظننت أنى أحب الكلام ، وأكلف به ، وأكره الاستماع ، وأتجافى عنه ، فالله يعلم ما أضيف بشيء كما أضيف بالكلام ، وما أهم بشيء كما أهم بالاستماع ، وما ذنبى إذا كان الله قد امتحننى

بالكلام ، وحرمني لذة الاستماع . وما ذنبي حين يسوقك الله إلى ، فلا أكاد أسمع منك حتى أضطر للرد عليك ، وما أكاد آخذ في ذلك حتى يتصل الكلام بي على كره مني ! وما أنت ذا تنبئني بأنك تحب زهيراً ، وتكلف به ، وتراه قريباً منا ، فأنت إذن ترى في شعره نفعاً ، وفي قراءته وفهمه لذة ، وليس بينك وبينى في ذلك خلاف ، أو شيء يشبه الخلاف ، والأصل في هذه الأحاديث ، أنها أحاديث حوار بين رجلين يختلفان في حب الشعر القديم وتقويمه ، فإذا اتفق هذان الرجلان ، فقد يحسن أن ينقطع الحوار بينهما فيما اتفقا عليه .

قال : وخصلة ثالثة يتكشف عنها هذا الحديث ، وهي حبك للخصومة وإسرافك في حبها ، فأنت لا تتصور الحوار أو لاتكاد تتصوره إلا أن يكون هذا الحوار خصومة بينك وبين من تحدثه ، ولست أدري ، لم لا يحاور الناس بعضهم بعضاً ؟ أو لم لا يحدث الناس بعضهم بعضاً فيما يحبون ، وفيما يتفوقون على إكباره ، والرضا عنه ، والإعجاب به ؟ ويخيل إلى أن هذا فن من الكلام لم تحسنه ، لأنك نشأت مخاصماً ، فغلب عليك حب الخصام . والخير في أن تتعلم هذا النوع من الحوار الهادىء الخاو الذى لا خصام فيه ، والذي لا ينتهى بالفوز والهزيمة ، ولا بالانتصار والاندحار ، وأنا واثق بأنك ستجد في هذا الحوار الذى لم تألفه راحة ولذة لا عهد لك بهما ، فابتسم للأيام وللناس ، فلفل الأيام أن تبتسم لك ، ولعل الناس أن يلقوك بغير الخذر والخوف ، وليكن بعض حديثك إلى الناس صلحاً وأمناً وسلاماً .

قلت : إنك لخصب الذهن ، منطلق اللسان منذ اليوم ، وما أرى إلا أنك قد تهيأت لهذا الحديث . قال : وما يعينك أن أكون قد تهيأت له ، أو لم أتهيأ ؟ وما يعينك أن أكون خصب الذهن أو جديبه ؟ منطلق اللسان أو معقوله ؟ ألسنت ترى أنك ما تفتأ مشغولاً بالخصومة ، متعلقاً بأسبابها ! تجدد حيناً فتكون مرراً ، وتسخر حيناً فتكون لاذعاً ! ألسنت ترى أنك خليق أن تظهر لنا ناحية من نواحي نفسك لا مرارة فيها ولا لذع ! فإن اتصال هذه الخشونة منك قد يؤذى الصديق ، ويسم الخليط ، وقد ينتهى إلى عزلة تكرهها . قلت : سمع الله لك ، وعفا الله عنك ! فما أعرف أنى أحب شيئاً أو أتمناه كما أحب أن يتاح لى حظ من العزلة ، أرجع فيه إلى نفسي ، وأستريح فيه

من هذه الحياة الاجتماعية التي سئمت تكاليفها ، وآدنتني أثقالها . قال : فإنك لم تعش بعد ثمانين حولاً لتسأم كما سئم زهير . قلت : وأين تقع تلك الثمانون التي عاشها زهير ، فلأت نفسه سأمًا ومللاً وضيقًا ، من عشرين سنة أو عشر سنين أو خمس سنين نعيشها نحن في هذه الأيام ! إن الناس يزعمون أن أعمارهم تقصر بالقياس إلى أعمار القدماء ، وقد يصح هذا في الحساب وعدد الأيام والشهور والسنين ، ولكنه لن يصح في حقيقة الأمر ، وقد كانت أيام القدماء فارغة بالقياس إلى أيامنا ، وقد كانت أعوامهم لا تعد شيئاً بالقياس إلى أعوامنا ، وأى شيء أيسر من أن تقيس يوماً من أيامنا في القاهرة إلى يوم من أيام أهل المدن في الأقاليم ، ومن أن تقيس يوماً من أيام أهل المدن هؤلاء إلى يوم من أيام أهل القرى والريف ، وأن تقيس يوماً من أيام أهل القرى هؤلاء إلى يوم من أيام أهل البادية في نجد أو في الحجاز ، فترى أن ساعاتنا أيام ، وأن أيامنا شهور ، وأن أعوامنا عصور طوال بالقياس إلى أزمنة أهل البادية . فإذا سئم زهير لأنه عمر ثمانين عاماً ، وإذا سئم لبيد لأنه تجاوز المئة ، فنحن أن نسأم حين نعيش أعواماً قليلة تبلغ العشرة أو تزيد عليها شيئاً . قال : كلا ياسيدي ! فليس في حياتنا من الاطراد والتشابه مثل ما في حياة أهل البادية . وتشابه الأوقات والأحداث وطلوع الشمس عليك اليوم بمثل ما طلعت به عليك أمس ، وغروب الشمس عنك غداً بمثل ما تغرب به عنك اليوم ، هو الذي يغري بك السأم ويبسط عليك سلطانه ، فأما أن تستقبل اليوم بغير ما استقبلت به أمس ، وأن يلقاك الليل بغير ما لقيك به النهار ، وألا تقدم على ساعة من ساعات اليقظة إلا بغير ما أقدمت به على الساعة التي سبقتها ، وبما ستقدم به على الساعة التي تليها ، فهذا خليق أن يتعبك ويضنيك ، لا أن يثير في نفسك سأمًا ولا مللاً .

قلت : فهنيئاً أخطأت الصواب في التعبير ، ووضعت السأم مكان التعب ، ولكن ألسنت ترى أن العدوى قد مستك ، وأنت أخذت تلمس الخوصومة ، وتتعلق بأسبابها ، وتتكلف ما يتيح لك الفوز والاستعلاء ؟ قال :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَتَسْأَلُ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنَةِ يَمْتَدِي

قلت : ما أكثر هذه القافات ، كأنما نحن في صحن الأزهر الشريف !

أو عند القبلة القديمة . خذ بنا في الحديث عن زهير إن شئت ، فإني أخشى إن مضينا في هذا الحوار أن تأخذنا القافات من كل وجه . قال : فإنما لم نُبعد عن زهير منذ بدأنا هذا الحديث ، فإني أدعوك إلى إثارة السلم ، وتجنب الحرب والخصومة ، وهل أنشأ زهير مطولته إلا في هذا ! وأي بأس عليك في أن تخلق بيئة يملؤها السلم والأمن ، أو الرغبة في السلم والأمن ، قبل أن نتحدث في هذه القصيدة التي يدعو صاحبها إلى السلم والأمن ! وهذه خصلة أخرى من خصالك التي أود لو تخلص منها ، فأنت لا تحب التبسط ، ولا الأناة ، ولا التهيؤ الهادئ المترف لما تأتي من الأمر ، أو تستأنف من الحديث ، وإنما تدفع نفسك إلى ما تريد دفعاً ، وتهجم بها على ما تبتغي هجوماً ، لا تمهد الطريق ، ولا توطئ المجلس ، ولا تحب خلق البيئة كما يقول الفرنسيون . أنت عاجل مندفع ، وما ينبغي أن يدرس الشعر على عجل ، ولا أن يذاق الشعر بالاندفاع ، إنما ينبغي أن يتهيأ دارس الشعر للشعر ، وأن يسعى إليه رقيقاً به وبنفسه ، فقد تضر العجلة ، ويسوء الاندفاع ، وقد يراغ طائر الشعر فيرتفع ، ثم يمضي في الجو حتى إذا بلغت موقعه لم تجد شيئاً .

قلت : ونستطيع أن نمضي في الحديث على هذا النحو ، لا أقول شيئاً إلا كشفت من ورائه عن عيب . حتى إذا فرغنا منه ، كنت قد أحصيت على طائفة من العيوب ، ولست أرى بذلك بأساً لولا أنني أظن أننا التقينا لتتحدث عن زهير لا عني .

قال : فهل نتحدث إلا عن زهير ! ألسنت تلاحظ أني حين أذكرك بما ينبغي من خلق البيئة وتهيئة الجو ، إنما أمعن معك إمعاناً في درس زهير ؟ فقد كان زهير من أقدر الشعراء القدماء على خلق البيئة هذه ، وتهيئة الجو الشعري ، قبل أن يمعن بالسامعين فيما يقصد إليه من الأغراض ، وأي خلق للبيئة وأي تهيئة للجو ، وأي إعداد للسامعين والقارئ ، أبرع من هذا القسم الأول من قصيدته المطولة ؟ إنه يعتمد إلى هذا في رقة وظرف ورفق ، وفي وداعة نفس وحلاوة روح ، تثير في نفسك هذه الأشجان الهادئة الرقيقة التي تخرجك عن طورك العادي ، ولا تبلغ بك الحزن الممض ، ولا اليأس المهلك ، ولا الأسى العميق ، وإنما هي تحيي في قلبك طائفة من الذكرى البعيدة ، التي طال عليها العهد ، فلم يبيلها ولم يفها ولم يمحمها ، وإنما خفف من حدتها ، وجعلها

خليقة أن تثير في النفس شوقاً حلواً ، وحرزاً هادئاً ، لا لوعة محرقة . انظر إليه وهو يتخيل أنه مر بآثار لم يعرفها ، فيلقاها بالحنن الصريح ، والبكاء الصريح ، ولم يجهلها فيمر بها غير حافل ولا مكترث ، وإنما هو يشك فيها ، فيقف عندها ، وينظر إليها ، ويسأل عنها ، وما يزال ينظر ويستقصى ، وما يزال يفكر ويسأل ، حتى يكاد نفسه ويجهدها ، ولكنه ينهى بعد الكد والجهد إلى معرفة الدار . وأى غرابة في ذلك ؟ لقد بعد العهد بها ، فهو لم يرها منذ عشرين عاماً ، وفي عشرين عاماً ما يغير المعالم ، ويمحو الآثار . وفي عشرين عاماً ما ينسى المألوف ، ، ويصرف عما لم يتعود الناس أن ينصرفوا عنه . فحسب زهير أنه استطاع أن يلتفت إلى الدار حين مرّ بها ، وأنه استطاع أن يقف عندها ، ويسأل عنها ، ويطلب الوقوف ، ويلح في السؤال حين التفت إليها ، وهو بعد ذلك ، يصور ما بقي من هذه الدار تصويراً هادئاً أيضاً . فزهير في هذه القصيدة كلها هادئ ، بل هو في شعره كله هادئ ، وليس من شك في أنه أطال الوقوف ، وألح في السؤال ، وأحسّ حرزاً مهما يكن هادئاً ، فقد كان طويلاً ملحاً ، ولكنه على ذلك لا يريد أن يجهدك ، ولا أن يشق عليك ، فهو يجتريء باليسير من هذا التصوير ، باليسير الذي ألفه الناس ، ويؤديه إليك في لفظ سهل ، ليقرب نفسك إلى نفسه ، وليبينك تهيئة حسنة لتسمع له ، وتفهم عنه :

أَمِنْ أُمَّ أَوْ فِي دِمْنَةٍ لَمْ تَكَلِّمْ	بِحَوْمَانَةٍ الدَّرَاجِ فَالْتَمَلْ
دِيَارُ لَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ كَأَنَّهَا	مَرَّاجِعُ وَشَمِّ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً	وَأَطْلَاوُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً	فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ
أَثَانِي سَفْعًا فِي مُعْرَسِ مِرْجَلِ	وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الْخَوْضِ لَمْ يَتَمَلْ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قَلْتُ لِرَبِّهَا	أَلَا نَعْمَ صَبَاحًا أَيُّهَا الرَّبِيعُ وَاسْلَمِ

فهذه المعاني كلها مألوفة شائعة بين الشعراء ، فتشبيه الرسوم الباقية في الأطلال البالية برجع الوشم على المعصم أو على ظاهر اليد كثير ، وتصوير الدار أهلة بالوحش بعد أن كانت أهلة بالأحباء كثير أيضاً ، وتسمية هذه

الآثار القليلة التي بقيت ولم يمحوها قدم العهد ، كهذه الأثافي التي كان يقام عليها المرجل ، وهذا النؤى الذي كان يعصم الخباء من الماء ، كثيرة شائعة أيضا . ولكن ظرف زهير في أنه لم يطل في وصف هذا كله ، وإن أطال الوقوف عنده ، والنظر فيه ، وإنما لمح هذا في شعره لمحا ، واختلس منه بعض الصور اختلاسا ، فكانت صورا جميلة ، منها الرائع الذي يبعث في النفوس بهجة ، ومنها القاتم الذي يبعث فيها حزناً وأسى ، فصورة هذه الوحش التي اتخذت الدار مرتعاً ومقاماً ، فهي تمشي فيها خلفه ، أى في جهات متضادة ، وأطلاؤها الصغار ينهض من هنا ومن هناك ، جميلة تثير البهجة في النفوس لما فيها من تمثيل الحياة الطبيعية ، وما يضطرب فيها من حركات هذه الوحش التي تقبل وتدبر ، وتجم وتنهض ، متأثرة بغرائرها ، وهذه البهجة نفسها لا تخلو من حزن ، فإن هذه الوحش إنما تنعم بالحياة والحرية في ديار قد كان ينعم فيها بالحياة والحرية قوم أحبهم الشاعر وأحبوه ، ثم أزعجوا عنها وانقطع عهدهم بها . وصورة هذه الآثار التي قاومت البلى ، وبقيت على بعد العهد ، وهي قليلة جداً ، هي هذه الأثافي وهذا النؤى ، هذه الصورة قائمة ، مثيرة للحزن المظلم حقاً . ثم انظر إلى تحيته لهذه الدار بعد أن عرفها ، كيف يؤديها في ظرف ودعة ، وفي لفظ جميل يسير ، لا جهد فيه ولا عناء :

• أَلَا أُنَعِمُ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبِيعُ وَأَسْلَمَ .

وقد زعمت لك أن زهيراً هادىء في قصيدته هذه كلها ، هو في أوها محزون مدعن لصروف القضاء ، وهو في آخرها حكيم يفكر في الحياة والأحياء ، ويستخرج من تفكيره هذا العبر والعظات ، وهو بين ذلك يمدح الأخيار ، ويشجعهم على حب الخير ، ويدعو الناس إلى أن يتواصلوا بالبر والمعروف ، ويتناهاوا عن الإثم والعدوان ، فنفسه حين كان ينشئ هذه القصيدة ، نفس الحكيم المطمئن ، الذي لا يزدنيه فرح ولا حزن ، ولا تستخفه عاطفة مهما تكن . وانظر إليه كيف عرف الدار بعد جهد فحياها في هدوء ، ثم لم يستخفه الشوق ، ولم يخرج الطرب عن طوره ، وإنما وقف مفكراً متذكراً ، ثم أحيا ما كان في نفسه من الذكري ، وبعث فيه حركة ونشاطاً ، ونخيل إلى نفسه أنه يعيش مع صاحبه في تلك الأيام أو في ذلك اليوم الذي ارتحل فيه أحباؤه ج ١ (٦)

عن هذه الديار ، فهو يراهم ، وهو يتبعهم طرفه ، حتى إذا بعدوا عنه ، وفاتوا
مرمى الطرف ، أتبعهم نفسه ، ورافقتهم في سيرهم من قريب ، وهو يصور
لنا هذا كله في طائفة من الصور ، قريبة يسيرة مألوفة ، ولكنها على هذا أو
لهذا جميلة حقاً :

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَل تَرَى مِنْ ظَعَانِي	تَحَمَّانَ بِالْعَلِيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْنَمِ
جَعَلَنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينِ وَحَزَنَهُ	وَكَمَّ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلِّ وَمُحْرِمِ
عَلَوْنَ بِأَنْطَاطِ عِتَاقٍ وَكَلَّةٍ	وَرَادِ حَوَاشِيهَا مُشَاكِهَةَ الدَّمِ
ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبَانِ مُمَّ جَزَعْنَهُ	عَلَى كُلِّ قَيْنِي قَشِيبٍ وَمُنْأَمِ
وَوَرَّ كُنَّ فِي السُّوبَانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ	عَلَيْنِ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِمِ
بَكْرَنْ بُكُوراً وَاسْتَحْرَنْ بِسُحْرَةٍ	فَهَنَّ لَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ
وَفِيهِنَّ مَاهِي لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرُ	أَنِيقٍ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ
كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ	نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ
فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِجَامُهُ	وَضَعْنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيَّمِ

أرأيت كيف رسم لأجائه الطريق التي سلكوها؟ أو كيف رافق أعباءه
في الطريق التي سلكوها؟ يتبعهم بطرفه أولاً ، فيصف ركبهم وقد بعد عنهم ،
ثم يسايرهم من قريب ، فيصفهم وصف المرافق لهم ، وأي وصف ، برىء من
كل تكلف ، حرّ من كل قيد ، يظهر عليه من السداجة ما يخيل إليك أن
صاحبه لم يتكلف فيه عناء ، ولم يحتمل فيه جهداً ، ولم ينشق فيه وقتاً ، ولكن
احذر أن تتخذع ، فلم يكن زهير من هؤلاء الشعراء الذين يقولون في غير
تكلف ولا عناء ، إنما كان صاحب فن وتجويد ، وهو صاحب الحوليات
فما يقول الرواة ، إنما آية البراعة الصحيحة في الفن ، أن تتكلف الجهد ،
وتحتمل العناء ، ثم تتخذع الناس عن ذلك ، فتخيل إليهم أنك قد أنشأت
ما أنشأت كأنه جاء عفو الخاطر ، وأي سداجة أحلى من هذا البيت :

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ

أترى إليه كيف آثر هذه القطع من الصوف التي كانت تسقط من

أهداب ما كان ينشر على الهوادج من الثياب والأنماط؟ فوقف عندها ،
 وشبهها هذا التشبيه الظريف بحب الفنا ، أو بعنب الثعلب ، إن كنت في حاجة
 إلى التفسير ! ثم أى سذاجه أصدق في تمثيل الحب والشوق والرغبة معاً من
 هذا البيت ؟ :

وَفِيهِنَّ مَلْهُىً لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أَنْيَقُ لِعَيْنِ النَّاطِرِ الْمُتَوَسِّمِ
 ثُمَّ انظر إلى هذا البيت الذى ختم به قصته القصيرة الجميلة :

فَلَمَّا وَرَدَنَّ الْمَاءَ زُرْقًا جِامُهُ وَضَعْنَ عِصَى الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ
 ولماذا قصر هذه القصة؟ وأوجز الوصف لهذه الرحلة؟ وما باله نسي
 ناقته ، أو أعرض عنها فلم يصفها ساكنة ولا متحركة ، ولم يمض في هذه
 التشبيهات التى تعود الشعراء أن يمضوا فيها؟ لأنه عن هذا كله مشغول ،
 مشغول ، لا أقول بمدح صاحبيه اللذين مدحهما ، بل بالدعوة إلى السلم التى
 يحبها ، ويكلف بها ، ويريد أن يجيبها إلى الناس ، ويتخذ مدح صاحبيه هذين
 وسيلة إلى ما يريد .

ولست أريد أن أتحدث إليك عن مدح زهير في هذه القصيدة ، فهو
 مدح لا حظ له من هذه البراعة الشعرية التى نعرفها لزهير ، وإنما يلتبس
 مدح زهير في قصائد أخرى ، لم تشغله فيها الحكمة عن الحياة الواقعة ، ولم
 تشغله فيها الجماعة عن الفرد ، ولم تشغله فيها المنفعة العامة عن منفعته الخاصة .
 أما في هذه القصيدة فزهير شاعر قومه وهو يتحدث عنهم ، ويتحدث إليهم ،
 وهو يصرفهم عما يكرهون ، وعما يكره لهم ، وعما يدفعون إليه بهذه
 الأحقاد التى لا تريد أن تخمد ، وهذه الحزازات التى لا تريد أن تنقضى ،
 وهذه الدماء التى لا تريد أن تجف ، وهو من أجل ذلك ، لا يفرغ لهرم ،
 ولا للحارث ، إلا من حيث إنهما قد نصرنا السلم ، وعصما قومهما من الفتنة والفساد .
 ولست أحب أن أقف من كل هذا القسم الجميل من قصيدة زهير إلا
 عند قطعتين اثنتين ، إحداهما هذه التى يصف فيها الحرب فيقول :

أَلَا أَبْلِغُ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَفْسَمْتُ كُلَّ مُقْسَمِ
 فَلَا تَسْكُتُنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمُ
 يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمُ

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ
 مَتَى تَبَعْتُمُوهَا تَبَعْتُمُوهَا ذَمِيمَةً وَلَنْصَرَ إِذَا صَرَ يَتَمُوهَا فَتَضَرَمِ
 فَتَعْمُرُكُمْ عَرَكَ الرَّحَى يَنْفَاهَا وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ نُتَبِّجُ فَتُنْتَمِ
 فَتَنْتَبِجُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلَّهُمْ كَأَحْمَرَ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتَنْفَطِمِ
 فَتَغْلِلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلِي لِأَهْلِهَا قُرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

فزهير في هذه الأبيات شيخ مجرب ، طويل التجربة ، كثير الانتفاع بها ، وهو شيخ بدوي ، تجاربه طويلة نافعة ، ولكنها على ذلك قليلة في النوع ، لم يجرب إلا أمور البادية ، ثم هو بعد ذلك ، وقبل ذلك كله ، شاعر يحس الأشياء حساً قوياً ، ويشعر بها شعوراً عنيفاً ، ويصورها تصويراً رائعاً ؛ فانظر إلى هذه التشبيهات التي تزدحم ، حتى يكاد بعضها أن يركب بعضاً ، كما تقول أنت في بعض ما كتبت عن زهير ، فالحرب مشبهة بالرحى ، وهي مشبهة بالناقطة ، وهي مشبهة بالنار ، وهي مشبهة بالأرض الحصبة التي تغل لأهلها الغلة الموفورة ، وكل هذا في لفظ جزل وسهل معاً .

وأما القطعة الثانية فهي قصة حصين بن ضمضم هذه التي صورها أبجل تصوير وأروع وأصدق في تمثيل حياة أهل البادية ، فحصين بن ضمضم هذا موتور ، قد قتل أخوه في بني عبس ، وقد تصالح القوم ، واستقرت بينهم السلم ، ولكنه هو لم يرض عن الصلح ، ولن يرضى حتى يثار لأخيه ، فهو يكتم أمره في نفسه ، و ينتظر حتى تسنح له الفرصة ، وما أسرع ما تسنح له الفرصة ! وإذا هو يظفر برجل من عدوه فيقتله ، لا خائفاً ولا متأمناً ، فهو يعلم حق العلم أن قومه لن يخذلوه ، وكان يعلم حق العلم أن قومه سيمنعونه من اقراف الإثم إن علموا به قبل وقوعه ، فليكتهم الأمر إذن ، وليضعهم أمام الأمر الواقع كما يقول المحدثون ؛ وها هو ذا قد فعل ، وهؤلاء عدوه قد ركبوا يطلبون القصاص ، وهؤلاء قومه قد أزمعوا نصر صاحبهم ، ولكن هرا والحارث يكرهان الحرب ، ويريدان لقومهما السلم ، فهما ينهضان بجناية حصين حتى يرضيا عبساً .

فانظر كيف صور زهير هذه القصة :

لَعَمْرِي لَنِعَمَ الْحَيُّ جَرَّ عَلَيْهِمُ بِمَا لَا يُؤَاتِيهِمْ حُصَيْنُ بْنُ ضَمَّضِمِ

وَكَانَ طَوَى كَشْحًا عَلَى مُسْتَكِنَةٍ
 وَقَالَ سَاقِضِي حَاجَتِي ثُمَّ أَتَيْتِي
 فَشَدَّ وَلَمْ يُفْرِغْ بِيُونَا كَثِيرَةً
 لَدَى أَسَدٍ شَاكِي السَّلَاحِ مَقْدَفٍ
 جَرِيٍّ مَتَى يُظْلَمَ يُعَاقَبُ بِظُلْمِهِ
 فَلَا هُوَ أَبْدَاهَا وَلَمْ يَتَجَمَّعْ
 عَدُوِّي بِأَلْفٍ مِنْ وَرَائِي مُلْجَمٍ
 لَدَى حَيْثُ أَلَقْتُ رَحْلَهَا أُمَّ قَشَعَمٍ
 لَهُ لَبْدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ يُقَلِّمْ
 سَرِيعًا وَإِلَّا يُبَدِّ بِالظُّلْمِ يُظْلَمُ

ألست ترى أن في هذه الأبيات أجمل صورة ، وأكملها للرجل البدوي ، الذي يجمع إلى الشجاعة والإقدام ، مكرراً ودهاء وثقة بالنفس ، واعتماداً على القبيلة وقدرة على الكتمان ؟ فهذا الأعرابي حصين بن ضمضم قد رأى الصلح فلم ينكره جهرة ، ولم يعرفه فيما بينه وبين نفسه ، وإنما طوى كشحه على خطة دبرها وأحكم تدبيرها ، ثم أخفاها وأحكم إخفاءها ، لم يصرح بها ولم يشر إليها ، وإنما أسرها بينه وبين ضميره ، واستوثق من أنها ناجحة ، ومن أنه آمن بعدد من إنفاذها ، أليس من ورائه قومه يحمونه راضين أو كارهين بألف من الخيل ؟ فلما أتم خطته ، أقدم وهو قوى قادر على الإقدام ، هو أسد مقذف ، يقذف نفسه ويقذفه قومه كلما جد الجد ، لم يقلّم أظفاره خوف ، ولم يقلّم أظفاره أمن ، لا يهاب حرباً ، ولا يذعن لسلم ، لا يرضى من ظلم ظلماً ، ولا يظمن إذا مسه الظلم ، حتى يعاقب الظالم ، فان لم يظلمه أحد فهو لا يتحرج من أن يظلم الناس . وفي هذه الأبيات جزالة لفظ تملأ القم دون أن تتعبه ، وتروع السمع دون أن تشق عليه .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أعجبت بهما إعجاباً قوياً في بعض كتبك ، واللذين أعجبت بهما أنا إعجاباً لا حد له ، واللذين يصور الشاعر فيهما حياة هؤلاء الناس الذين لا يكفون عن الحرب إلا ليستعدوا لها ، ولا يقدمون على الحرب إلا ليتحملوا أثقالها وآلامها ، حتى إذا بلغوا من ذلك حظهم الذي لا زيادة فيه لمستزيد ، لجأوا إلى السلم يجددون فيها قوتهم ، ويستكملون فيها عدوتهم ، ثم استأنفوا نشاطهم للحرب من جديد :

رَعَوْا مَارَعَا مِنْ ظَمِيمِهِمْ ثُمَّ أَوْرَدُوا
 غِمَاراً تَسِيلُ بِالرَّمَا حِ وَبِالدَّمِ
 فَقَضُوا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصْدَرُوا
 إِلَى كَلَا مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخِّمٍ

ويعجبني هذا التمثيل البديع الذي يشتق اشتقاقاً من حياة البادية ، ويضرب فيه المثل بأقطع الإبل إلى رعيها إياها ، ثم ورودها الماء ، ثم انصرافها إلى الرعى ، لترد الماء إذا أدركها الظمأ . وهكذا ما تنفك مضطربة بين إيراد وإصدار ، ولكنها لا ترد ماء صفواً ، وإنما ترد غماراً تسيل بالدم وبالرواح ، وهي لا ترعى عشباً هنيئاً ، وإنما ترعى كلاً وبيلاً كله علل وأدواء .

قلت لصاحبي : ألا ترى أنك قد ألقيت محاضرة طويلة عن زهير ، أو عن قصيدة زهير هذه ؟ أو لا ترى أنك قد بلغت من الحديث في غير مقاطعة ولا محاورة ما يرضيك ؟ ولكن ألا تسمح بعد أن أصبح الأمر كله لك ، أن أنبهك إلى أن في هذه الأبيات التي ترويهما لزهير ، وتطيل في تفسيرها وتحليلها ، شيئاً كثيراً من الخلط والاضطراب ! فألفاظ توضع مكان ألفاظ ، وأبيات تقدم حيث يجب أن تتأخر ، وأخرى تؤخر حيث يجب أن تتقدم . ألا تظن أن من الخير أن تحاول إصلاح هذا الاضطراب أو تعليقه ، أو التماس أثره في صحة القصيدة أو نحلها ؟ قال مغضباً ، وقد ضرب يداً بيد : كلا ياسيدي ! كل هذا لا يعنيني ، وإنما يعينك أنت ، ويعني أمثالك من الذين يدعون الباب ويتعلقون بالقشور ، ويريدون أن يصححوا هذا النص ، ويقدموا في ذلك ، وما يعنيني من هذه الثرثرة إذا كان النص في نفسه جميلاً ، يعجبني ويبعث في نفسي من الحياة والنشاط ، ومن اللذة والمتاع ، ما أنا في حاجة إليه ، ومن زعم لك أني طالب من طلاب الجامعة أتعلم عليك وعلى زملائك تحقيق النصوص ؟ قلت : فإني أخشى أن تكون هذه القصيدة من شعر زهير قد فتنتك وصرفتك عن غيرها من روائع هذا الشاعر القديم ، فلزهير مدح ، من الحق أن يستكشف عما فيه من الجمال ؛ ولزهير وصف ، ليس أقل دقة ولا قوة ولا حياة من وصف ليبيد ؛ ولزهير غزل أيضاً ، لا يخلو من عاطفة رقيقة قوية . قال ، وهو ينهض وقد ملأ فاه بضحك فيه شيء غير قليل من الاعتداد بالنفس : فلست أكره أن نتحدث في ذلك ، ولست أكره أن أدع لك الحديث في ذلك إذا كان الأسبوع المقبل .

ثم انصرف عني ، وهو راض عن نفسه كل الرضا ، فذكرت لقاءه في الأسبوع الماضي ، حين أقبل عليّ وهو ساخط عليّ وعلى نفسه كل السخط ، وحمدت لزهير ولشعر زهير أثرهما في هذا الكائن الغريب .

ساعة أخرى مع زهير (١)

قلت لصاحبي : إن ما بقي لنا من شعر زهير هو الذى حفظه الديوان ، وقد ذهب أكثره فى المدح ، وقليل منه فى الهجاء ، وأقله فى الرثاء ، وبعضه فيما يعرض من هذه الأحداث التى كانت تدفع البدوى لقول الشاعر ، ولم يكده يعرض زهير فيما حفظ لنا عنه على الأقل بهذا الشعر الخالص الذى لا يريد الشاعر به إلا الغناء ، وتصوير ما يضطرب فى النفس من خواطر ، ويثور فيها من عواطف ، هذا الشعر الذى لا يتخذه الشاعر وسيلة إلى غرض من أغراض الحياة ، أو عرض من أعراضها المألوفة ، وإنما هو غاية فى نفسه ، لا يقصد الشاعر به إلى غيره ، هو يحس ويشعر ويفكر ، وهو يريد أن يصور ما يجد من حس وشعور وتفكير ، والمعروف من سيرة زهير ، إن صح أن نسمى ما حفظته كتب الأدب من أخباره سيرة ، أنه كان كثير المدح ، انقطع إلى جماعة من أشرف غطفان فاستنفذ فى مدحهم أكثر ما قال من الشعر ، وكان يتكسب بهذا الشعر ، وكان يفيد منه مالا كثيراً ؛ والمعروف كذلك من أمر زهير ، فيما يروى الرواة ، أنه كان مجوداً ، شديد العناية بشعره ، يطيل التهيؤ له ، والعمل فى إنشائه ، ثم يطيل النظر فيه ، ثم يناله بالحذف والإصلاح حتى يستقيم له ، ثم ينشره بعد ذلك ويذيعه فى الناس ، وما بقي لنا من شعر زهير يصدق هذا المعروف من سيرته ، ويحقق ما تحدث به الرواة ، فديوان زهير مملوء بمدح الأشراف من غطفان ، ومدح هرم ابن سنان وقومه خاصة ، ونحن حين نقرأ هذا الشعر نحس فيه العمل ، ونبتين فيه الصنعة ، ولا نشك فى أن صاحبه قد تكلف فى إنشائه وتجويده جهداً غير قليل .

ولكن زهيراً مع أنه لم يكده يقصد فى شعره إلا إلى المدح والهجاء والرثاء ، قد مس فنوناً أخرى من الشعر فى مقدمات قصائده ، فأحسن مسها ، بل عالجها فأحسن علاجها ، ووفق فيها لإجادة قلما أتيجت لغيره من الشعراء

(١) نشرت بمجريدة الجهاد فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٥ .

الذين عاصروه ، لا ينبغي أن نستثنى من ذلك إلا أفراداً من الفحول الذين حفظ لنا من شعرهم شيء غير قليل ، ولو قد حفظ لنا شعر زهير كله أو أكثره لكان من الجائز بل من الراجح ، أن نقدمه ، كما كان يقدمه أهل الحجاز على الفحول الذين عاصروه وناظروه .

ولك أن تختار المذهب الذي نتخذه في الإلمام بما نحب أن نلم به في هذا الحديث من شعر زهير ، فأمامك طريقتان : إحداهما أن نعمل إلى قصيدة من شعر زهير فتتحدث عنها ، ونلم بما طرق فيها من فنون الشعر فناً ، حتى إذا فرغنا منها ، عمدنا إلى قصيدة أخرى فذهبنا في العناية بها هذا المذهب .

والأخرى أن نعنى بفنون زهير دون تشدد في الوقوف عند قصائده ، لنرى كيف يعالج هذه الفنون في قصائده المختلفة ، وهذا المذهب الثاني أحب إلى ، فما أظن أنك في حاجة إلى أن أثبت لك أن قصيدة زهير مستقيمة ، مطردة الأجزاء ، تتحقق فيها الوحدة الشعرية على أكمل وجه وأدقه .

قال صاحبي : فأى المذهبين أحببت فأنى راض به ، مطمئن إليه ، فما يعينني أن تذهب هذا المذهب أو ذلك ، أو تسلك هذه الطريقة أو تلك ، ما دمتنا نقرأ شعراً جميلاً ، ونتحدث عما فيه من جمال ، وأنا أعرف أنك لا ترضى عن مثل هذا النحو من الإهمال والتهاون ، لأنه لا يلائم ما ينبغي للدرس العلمي من نظام ، ولكن قلت غير مرة ، وسأقول لك غير مرة ، فيما يظهر : إنى تركت الدرس العلمي للجامعة والجامعيين ، وآثرت الحرية المطلقة في الحديث ، هذه الحرية التي لا يقيدتها شيء من هذه الأوضاع التي تخلقونها لأنفسكم ، وتفرضونها عليها ، فتجعل علمكم جافياً خشناً وغليظاً فجاً ، لا أدري كيف تسيغونه أو تجدون فيه لذة ومتاعاً .

قلت : فدع الاستطراد هذه المرة ، والثوب من فكرة إلى فكرة ، ومن موضوع إلى موضوع ، وقف بنا عند شعر زهير لا نعدوه ، وقد أكثرت الكلام في الأسبوع الماضي ، وأصبح من حقلك أن تستريح ، قال : بل أصبح من حقلك أن تقول في هذا الأسبوع ، فأنت لا تريد لي راحة ، وإنما تريد أن تفرض عليّ الصمت لتستأثر من دوني بالكلام ، ولست أدري ما حبك للكلام وتهالكك عليه وأنت تتكلم في غير انقطاع ! فقلت : إنى أردك إلى زهير مرة أخرى ، ولست أكره أن تقول إذا وجدت ما يدعوك إلى القول ،

أو إذا وجدت ما تقول ، فليست مشغولاً بالكلام ، ولا مهالكاً عليه ، وما كنت أظن أن ذاكرتك قصيرة إلى هذا الحد ، فأنت الذي دفعتني إلى هذا الحديث دفعاً ، واولاً تحدّيك وتصديك لما خضنا في هذه الأحاديث . قال : ففي أي فنون الشعر التي طرفها زهير تريد أن نتحدث ؟ قلت : إنك لذكي نادر الذكاء ، وإنك لتلقى من الأسئلة ما لا يحتاج إلى إلقائه رجل يحسن ما يأتي وما يدع ؛ إنما ينبغي فيما أظن أن نبدأ بالفن الذي يبدأ زهير به حين يعمد إلى قول الشعر ، فزهير غزل كغيره من الشعراء إذا أخذ في النظم . قال : إنك لسيء الخلق منذ اليوم ، فما عرفت منك هذه الحدة منذ أخذنا في هذه الأحاديث ، وما أظن أن مذاكرتنا لشعر القدماء تستقيم وتتصل إذا مضيت مع حدثك هذه ، فأنكرت على كل شيء ، ولتني في كل شيء ، وفي غير شيء ، ولست أدري كيف يستقيم لصاحب الخلق السيء ، والمزاج الحاد ، أن ينهم الغزل أو يذوقه أو يتحدث فيه ؟ فرفه على نفسك يا سيدي ، وانصرف عن هذا الحديث إلى التدخين ، أو إلى شرب القهوة ، أو إلى شيء من الرياضة ، حتى إذا اطمأنت نفسك ، واعتدل مزاجك ، أمكن أن نأخذ فيما نحن بسبيله من حديث الشعر ، فنقد الغزل محتاج إلى جو غير هذا الجو ، وإلى استعداد غير هذا الاستعداد . قلت : إنك لم تقرأ شعر زهير كله فيما يظهر ، ولم تر أنه قد يتغزل كارهاً للغزل ، ويشب زاهداً في التشبيب ، ويتحدث عن صاحبه ضيقاً بها ، زاهداً بها ، معرضاً عنها ، متمنياً لو استطاع أن يرسلها إلى الشيطان كما يقول الفرنسيون . وأين أنت من همزته المشهورة التي يهجو بها بنى عليم والتي يقول فيها :

فَلَمَّا أَنْ تَحَمَّلَ آلُ كَيْسَى جَرَّتْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ ظِلْمًا
جَرَّتْ سُنْحًا فَقُلْتُ لَهَا أُجِيزِي نَوَى مَسْئُولَةً قَمَتِي اللَّقَاءَ
تَحَمَّلَ أَهْلُهَا مِنْهَا فَبَانُوا عَلَى آثَارِ مَنْ ذَهَبَ الْعَفَاءَ

• • •

لَقَدْ طَالَبْتُهَا وَلِكُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ طَالَتْ لِحَاجَتُهُ انْتِهَاءُ
فَأنت ترى أن زهيراً ليس أقل مني حظاً من سوء الخلق ، ولا ضيقاً بالغزل

وبمن يقال فيهم الغزل قد سافرت صاحبتة على غير رضى منه ، أو في غير ضرورة إلى السفر ، وقد ألحت عليه بالهجر وألح عليها في المطالبة ، ولكل شىء أجل ، مهما يطل أمره ، وتشتد اللجاجة فيه ، حتى حسن الخلق ، وحسن الخلق مع الأحباء . فإذا أبيح لزهير ، أو إذا أباح زهير أن يكون سبي الخلق مع صاحبتة ، فقد أبيح لنفسى أن أكون سبي الخلق معك ، وليس إظهار الضجر بطول الهجر ، واتصال البعد مقصوراً على زهير ، فقد قال فيه غيره من القدماء الذين عاصروه ، وما أظنك نسيت قول لبيد :

فَأَقْطَعُ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُهُ
وَلِخَيْرٍ وَاصِلِ خَلَّةٍ صَرَامُهَا

وأظنك قد قرأت أول قصيدة دريد بن الصمة التي يقول فيها :

أَرْتِ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبِدٍ
بِعَاقِبَةٍ وَأَخْلَفْتِ كُلَّ مَوْعِدٍ
وَبَانَتْ وَلَمْ أَحْمَدُ إِلَيْكَ لِقَاءَهَا
وَلَمْ أَرْجُ مِنْهَا رَجْعَةَ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ

وضيق امرئ القيس بصاحبتة حين امتنعت عليه ، وأسرفت في الامتناع ، مشهور وأشهر من أن أذكر به :

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَإِنْ تَكُ قَدْ سَاءَتْكِ مِنِّي خَلِيقَةٌ
وَأَنْكَرِكِ مِنِّي أَنْ حُبِّكَ قَاتِلِي
وَإِنْ كُنْتِ قَدْ أَرَمْتِ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
فَسَلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِي
وَأَنْكِ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِي

قال صاحبي : إنك لتذهب اليوم مذهب القدماء تردني عن الاستطراد ولكنك تمنع فيه ، فتدع زهيراً إلى لبيد ، ثم إلى دريد ، ثم إلى امرئ القيس . ومن يدري ! لعلك لو خلّيت بينك وبين الاستطراد أن تمضي منتقلا بين شاعر وشاعر من هؤلاء الذين ضاقوا بصاحباتهم حتى نسى زهيراً . قلت : ومع ذلك فإن زهيراً لم يكد يظهر هذا الضيق حتى عاد إلى صاحبتة ، وقد استحضر صورتها ، فأثنى عليها في هذه الأبيات التي كان القدماء يعجبون بها إعجاباً شكلياً — إن صح هذا التعبير — لأنه جمع فيها بين هذه التشبيهات الثلاثة ، وإن لم يصور فيها حباً ولا عاطفة ، وذلك حين يقول :

تَنَازَعَهَا الْمَاهَا شَبَهَا وَدُرُّ النَّحُورِ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَابُ

فَأَمَّا مَا فُؤِيقَ الْعِقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءِ مَرْتَعِهَا أَخْلَاهُ
وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَابِ وَلِلدَّرِّ الْمَلَاخَةِ وَالنَّقَاهِ

فهو كما ترى يشبهها بالدر والمها والظباء جملة ، ثم يعود إلى تفصيل هذه التشبيهات ، فيبين وجوه الشبه فيها تصریحاً لا تلميحاً ولا إشارة ، وأنا أكره هذا التكليف ، وإن أحبه القدماء وأعجبوا به ؛ على أن هذه الصورة التي استحضرها زهير لصاحبه ، والتي كانت خليقة أن تزيد لها حباً ، وبها كلفاً ، لم تمنعه من أن يقول :

فَصَرَّمْ حَبَلَهَا إِذْ صَرَّمْتَهُ وَعَادِكْ أَنْ تُلَاقِيَهَا الْعَدَاءُ

وليس ضيق زهير بالغزل والحبيبة المملحة في الهجر والبعاد وقتاً على هذه القصيدة ، بل نحن نراه في قصيدة أخرى مشهورة هي التي يقول فيها :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَقَدْ كَانَ لَا يَسْلُو وَأَقْفَرَ مِنْ سَلَمَى التَّعَانِيقُ فَالْتَقَلُّ
وَقَدْ كُنْتُ مِنْ سَلَمَى سِنِينَ ثَمَانِيَا عَلَى صِيَرِ أَمْرِ مَا يَمُرُّ وَمَا يَحُلُو
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ يَوْمًا لِحَاجَةٍ مَضَتْ وَأَجَمْتُ حَاجَةَ الْغَدِ مَا تَحُلُو
وَكُلُّهُ مُحِبٌّ أَحَدَثَ النَّأْيُ عِنْدَهُ سُلُوهُ فُؤَادٍ غَيْرِ حُبِّكَ مَا يَسْلُو

فهو في هذه الأبيات محب يشكو الصدء والهجر ، ويزعم أن قلبه قد صحا ، وأنه قد أفاق من هذه اللوعة التي عذبه أعواماً طويلاً . ولكن انظر إليه كيف عادته الذكرى فساء لها خلقه ، وضاق بها ذرعاً وفرّ منها فراراً :

تَأَوَّبَنِي ذَكَرُ الْأَحْبَةِ بَعْدَمَا هَجَعْتُ وَدَوْنِي قُلَّةَ الْحَزَنِ فَالرَّمَلُ
فَأَقْسَمْتُ جَهْدًا بِالْمَنَازِلِ مِنْ مَنِي وَمَا سُحِفَتْ فِيهَا الْمَقَادِمُ وَالْقَمَلُ
لَأَرْتَحِلْنَ بِالْفَجْرِ ثُمَّ لَأَذَابَنَّ إِلَى اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ يُعَرِّجَنِي طِفْلُ

ولا تغضب من ذكر القمل ، فإن زهيراً لم يقدر أنك ستقرؤه على ما فيك من ترف ورقة مزاج ، ولو قد فعل لآثر على هذه الكلمة البغيضة إليك كلمة أخرى لا تؤذيك ؛ ولكن انظر إليه ، كيف عادته ذكرى الحبيبة أثناء الليل

بعد أن صحا عن حبه ، وبعدت عنه ، فضاقت ذرعاً بهذه الذكرى ، ونهض من مضجعه مقسماً على أن يرتحل مع الصبح ، وعلى أن يدأب في السير لا يلوى على شيء ، إلا أن تضطوره ناقتة إلى الوقوف ، فقد كانت وشك أن تلد . وضيق الخلق هذا بالحب والأحباء ، في شعر زهير ، يحتاج إلى شيء من التعليل . وأكبر الظن ، أن الرجل كان عجلاً حين ينظم قصائد المدح أو قصائد الهجاء ، يريد أن ينتهي إلى الفن الذي ينظم فيه الشعر ، ويكره أن يطيل الوقوف عند الديار ، أو عند وصف الأحباء ، ولعل شيئاً آخر يعلل هذا الضيق ، وهو كذب الكاذبين على زهير ، فالرواة يتحدثون ، فيما ينقل عنهم أبو الفرج ، أنهم كانوا في دار أمير المؤمنين المهدي بعباسا ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء ، بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالفضل الضبي الراوية ، فدخل فكث ملياً ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان في وجه حماد الانكسار والغم ، وفي وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم بلحودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا أن المهدي قال للمفضل لما دعا به وحده : إني رأيت زهير بن أبي سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

• دَعَّ ذَا وَعَدَّ الْقَوْلَ فِي هَرَمٍ •

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذي أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين في هذا شيئاً ، إلا أنني توهمته كان يفكر في قول يقوله ، أو يروى في أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال : « دع ذا » ، أو كان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أي دع ما أنت فيه من الفكر ، وعد القول في هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سألت عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف ؟ قال : فأنشده :

لَمَنِ الدِّيَارُ بِقُنَّةِ الحَجْرِ أَقْوِينَ مَذْ حَجَجِ وَمَذْ دَهْرٍ
لَعِبَ الزَّمَانُ بِهَا وَغَيْرَهَا بَعْدِي سَوَافِي المَوْرِ والقَطْرِ
قَفْرًا بِمُنْدَفَعِ النَّحَائِتِ مِنْ صَفْوَى أُولَاتِ الصَّلِّ والسُّدْرِ
دَعُ ذَا وَعَدَّ القَوْلَ فِي هَرَمٍ خَيْرِ البُدَاةِ وَسَيِّدِ الحِضْرِ

قال : فأطرق المهدي ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمر المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه ، ثم استحلفه بأيمان البيعة ، وكل يمين محرجة ليصدقته عن كل ما يسأله عنه . فحلف له بما توثق منه . قال له : أصدقني عن حال هذه الآيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حيثئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفي المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه . فهذه القصة الظريفة تنبئنا بأن القدماء كانوا يبدعون هذه القصيدة بهذا البيت :

دَعُ ذَا وَعَدَّ القَوْلَ فِي هَرَمٍ *

وكان المهدي لا يفهم هذا الابتداء ، وكان المفضل يتأوله كما رأيت مقدرًا أن الشاعر إنما يريد أن يعدل عما كان يفكر فيه ، وجائز أن يكون تأويل المفضل صحيحاً ، وجائز أيضاً أن يكون في القصيدة حين أنشأها زهير شعر آخر أصاعه الرواة ، وإلى هذا المذهب الثاني ذهب حماد ، ولكنه عوض هذا الشعر الذي ضاع فيما ظن بشعر آخر صنعه من عند نفسه ، وذهب فيه مذهب زهير في ذكر الديار . فما الذي يمنع أن يكون هذا الغزل الذي يتعجل الشاعر فيه ، ويظهر فيه من الضيق ما يظهر مضافاً إليه ، مصنوعاً عليه ، قد دسه حماد أو أشباه حماد من الرواة ، ولا سيما ما جاء في هذه اللامية بعد قوله :

تَأَوَّبَنِي ذِكْرُ الأَحِبَّةِ بَعْدَ مَا هَجَعْتُ وَدَوْنِي قُلَّةُ الحَزْنِ فالرَّمْلُ

فإن هذين البيتين اللذين أضيفا بعد هذا البيت يظهر فيهما التكلف والتصنع وحب التخلص ، والرغبة في وصل ما مضى من الغزل بما هو مقبل من المديح .

قال صاحبي : ما تنفك تلح في بحثك وتحقيقك ، وتثقل علينا بنقدك وتمحيصك ، فدع عنك هذا ، وعدني إلى شيء من غزل زهير ، لا يظهر فيه

فساد ولا اضطراب ، ولا يدعوك إلى هذا التحقيق والتمحيص .

قلت : فانظر في لاميته الأخرى التي يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر
والتي يقول فيها :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بَاطِلُهُ وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ
فأصحاب البيان مشغوفون كما تعلم بهذا البيت ، وبالشطر الثاني منه خاصة ،
لأنه جعل فيه للصبأ أفراساً ورواحل كان يركبها حين كان الشباب يواتيه ،
وحين كانت تتاح له اللذات ، ويدفعها إليه نشاطه ومرحه ، فلما أدركته الكبرة ،
وتقدم به العمر ، أقصر عن هذا كله ، وعرى أفراس الصبا ، وعرى رواحله ،
وتركها مهملة ، لا تعينه على رواح ، ولا على غدو .
ثم انظر إليه كيف يقول بعد ذلك :

وَأَقْصَرْتُ عَمَّا تَعْلَمِينَ وَسُدَّدْتُ عَلَى سَوَى قَصْدِ السَّبِيلِ مَعَادِلُهُ
وقال العذارى إنما أنت عمنا وكان الشباب كالتخليط نزائله
فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي وإلا سواد الرأس والشيب شامله
فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة ، وإقصاره عن اللهو ، وإقباله على الجد ،
لا رغبة فيه ، ولا زهداً في متاع الحياة ، بل قصوراً وعجزاً ، فهو يذكر الكبر
والشيب اللذين يصرفان عنه العذارى ، ويطلقان ألسنتهن بهذه الكلمة التي
تؤذيه ، والتي آذت الأخطل من بعده : « إنما أنت عمنا » ، وأظنك تذكر قول
الأخطل :

وَإِذَا دَعَوْنَاكَ عَمَّنْ فَإِنَّهُ نَسَبُ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالًا
ولعلك تذكر قوله أيضاً :

يَا قَاتِلَ اللَّهِ وَصَلَى الْغَانِيَاتِ إِذَا أَيْقَنَ أَنَّكَ يَمَنَّ قَدْرَهَا السِّكْبَرُ
أَعْرَضْنَ لَمَّا حَنَا قَوْسِي مُوْتَرَهَا وَابْيَضَّ بَعْدَ سَوَادِ اللَّمَّةِ الشَّعْرُ
مَا يَرْغَبُونَ إِلَى دَاعٍ لِحَاجَتِهِ وَمَاهِنًا إِلَى ذِي شَيْبَةٍ وَطَرُ
على أن زهيراً لم يكده يذكر تقدم سنه ، وما اضطرب إليه من الجد ، حتى

حن إلى عهوده الأولى ، فذكر الديار ، واستأنف قصيدته استئنافاً ، كأنه
يبتدئها دون أن يقدم بين يديها شعراً . فقال :

لَمَنْ طَلَلْ كَالْوَحَى عَافٍ مَنَازِلُهُ عَفَا الرَّسْمُ مِنْهُ فَالرَّسَيْسُ فَعَا قَلْبُهُ

على أنه لا يزيد بهذه الذكرى على أن ينظم أسماء الأماكن التي كان
يلقى فيها أحبائه ، ويستقبل فيها لهوه ومتاعه . ثم يسرع إلى فن آخر من
فنون الشعر هو وصف الصيد ، فهو كما ترى صاحب غزل ، ولكنه مقتصد
فيه ، أو معجل عنه ، لا يمنحه من وقته وجهده وتفكيره ما ينبغي .
وانظر إليه في قافيته التي يمدح بها هرماً كيف يقول :

إِنَّ الْخَلِيْطَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَانْفَرَقَا وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءِ مَا عَلِقَا
وَفَارَقْتِكَ بَرَهْنٍ لَا فَكَاكَ لَهُ يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا
وَأَخْلَفْتِكَ ابْنَةَ الْبَكْرِيِّ مَا وَعَدْتَ فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَاهِنًا خَلِقَا
قَامَتْ تَرَاعَى بِذِي ضَالٍ لِيَتَحَزَّنِي وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مَنْ عَشِقَا
بِحَيْدٍ مُغْزَاةٍ أَدْمَاءَ خَاذِلَةٍ مِنْ الظُّبَاءِ تُرَاعِي شَادِنًا خَرِقَا
كَأَنَّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكُرَى اغْتَبَقَتْ مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ لَمَّا يَعْدُ أَنْ عَنَّقَا
شَجَّ السَّقَاةُ عَلَى نَاجُودِهَا شَيْئًا مِنْ مَاءِ لَيْنَةٍ لَا طَرْقًا وَلَا رَقَا

فهو في البيت الأول يعرض قصته ، وقصته سيرة في أول الأمر ، ولكنها
عسيرة أشد العسر بعد ذلك ، فأول أمره أن الخليلط قد جد البين فانفرق ،
وبعد الأمد بينه وبين من كان يألف ، ولكن قلبه قد علق من أسماء شيئاً
لا سبيل إلى وصفه ، ولا إلى تصويره ، وإنما هو شيء يعبر عنه هذا التعبير
العام المحيط الذي لا يشمل تصويراً ولا تفصيلاً ، لأنه فوق التصوير والتفصيل
« وعلق القلب من أسماء ما علقا » . ثم انظر إليه في البيت الثاني : كيف يصور
ارتباطه بأسماء وحرصه عليها ، وعجزه عن أن يسلوها ، أو يفيق من حبها ؛
انظر إليه كيف يعبر عن هذا كله بهذا النحو اليسير المؤلف من الكلام الذي
لا يجد أحد فيه مشقة ولا عسراً ، وإنما يفهمه الناس جميعاً ، ويقدره الناس جميعاً ،

ولا سيما أهل البادية ، فهي قد ارتهنت قلبه ومضت به ، وليس من سبيل إلى أن يفك هذا الرهن ، ثم هي لم ترتحن قلبه فحسب ، ولكنها على ذلك بخيلة تعد ولا تنفي ، وتمنى ولا تحقق الأمانى ، وترتحل مع ذلك فتقطع الأسباب بينه وبين الأمل فى الوفاء بالوعد ، أو الانتظار لتحقيق المنى :

وَأَخْلَفْتِكَ ابْنَةَ الْبَكْرِىِّ مَا وَعَدْتُ فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَاهِنًا خَلَقًا

وهذه الفتاة ماكرة حقاً ، لا رحمة عندها ولا حظ لها من رفق أو إشفاق ، إنما هي قاسية أشد القسوة ، ظالمة أشد الظلم . ألسنت ترى إليها مع هذا كله تعرض للشاعر فتراءى له لتشوقه إليها ولتحزنه لهذا الفراق المؤسس الذى لا أمل معه فى اللقاء ؟ فمن رأى مثل هذه الفتاة ! من رأى مثل أسماء ابنة البكرى هذه التى تملأ قلب الشاعر حباً ، وترتهن قلبه ارتهاناً لا فكاك له ، وترتحل بهذا القلب موثثة من اللقاء ، ومن الأمل فى اللقاء ، ثم هي مع هذا كله ترسل صورتها إلى الشاعر لتعينه وتمنيه وتذيقه ألوان العذاب ! وانظر إلى قوله :

• وَلَا مَحَالَةَ أَنْ يَشْتَاقَ مَنْ عَشِقَا •

على أن الذكرى التى تثيرها هذه الصورة حين تترامى لزهير فتعذبه وتشقيه ، ذكرى مادية خالصة - إننا صحح مثل هذا التعبير - فصاحبنا يرى أسماء فيعجب بشكلها ولونها وجيدها الذى يشبه جيد الظبية ، ثم إذا أمعن فى الذكرى ، ذكر ريقها فشبهه بالخمير المعتقة التى مزجت بالماء النقى البارد العذب ، وفى هذه السداجة البدوية صدق "نُحْبِهِ مِنْ زَهِيرٍ ، فهو لا يتكلف ولا يغلو ، ولا يصف إلا ما يجد . ومن هذا الغزل اليسير الساذج الذى ذهب إليه زهير فى هذه القصيدة ، وفى غيرها من الشعر ، أخذ الشعراء الإسلاميون ، والأخطل خاصة ، كثيراً من معانيهم التى جودوها وأتقنوها ، لأنهم بسطوها بسطاً ، وفصلوها تفصيلاً ، واتخذوها وسيلة إلى تصوير قلوبهم ونفوسهم ، وما يثور فيها من العواطف والأهواء . على حين لم يزد زهير على أن ألم بهذه المعانى إلاماً ، وأجملها إجمالاً ، كأنه يريد أن يرسم النهج ، ويبين الطريق ، ويقيم الأعلام للذين سيقفون أثره من الشعراء المتأخرين .

وانظر إليه وهو يصور بعد ذلك تتبعه لهؤلاء القوم المسافرين ، فى لفظ بدوى

جزل عذب متين ، وفي معان بدوية ساذجة كل السذاجة ، يسيرة كل اليسر :
 مازت أزممهم حتى إذا هبطت أيدي الركاب بهم من راكس فلما
 دانية من شروزي أوقفا آدم يسعي الحداة على آثارهم حزفا
 فهو يتبعهم طرفه في مسيرهم هذا ، وهم يمضون لوجههم ، والحدادة
 يتبعونهم ، ويدفعونهم جماعات ، حتى إذا دنوا من هذه الأماكن التي سماها ،
 وشق عليه أن يتبعهم بطرفه ، لأنهم أبعد من أن يبلغهم الطرف ، ملكه اليأس ،
 واستأثر به الجزع ، فأنهلت دموعه مرسله في غير انقطاع . وهنا يوشك الشاعر
 أن ينسى حبه وغزله ، وأن يشغل عنهما بالوصف والتشبيه ، فهو يشبه عينه
 وهي تسكب الدمع سكباً بدلو تماماً ثم تصب في جدول ، وقد شغلته الدلو ،
 وشغلته الأدوات التي تصحبها ، وشغلته الناقة التي تستقي بها ، وشغله الجدول
 الذي يصب فيه الماء ، وشغلته الضفادع التي تعيش على شاطئ هذا الجدول —
 شغله هذا كله عن الخليط الذي أجد البين ، وعن ابنة البكري التي ارتهنت
 قلبه وأخلفت موعدها . فزهير محقق إذا وصف ، متمم للتشبيه إذا أخذ فيه ،
 وما دام قد عرض له هذا التشبيه ، فلا بد من أن يتمه ويستكمله وقد فعل ،
 ولكنه لم ينشئ القصيدة ليتغزل ، ولا ليصف ، وإنما هو ينشئها لمدح هرمياً ،
 فحسبه أن قال في الغزل ما قال ، وأن وصف من نفسه ومن صاحبه ومن حزنه
 ما وصف ، وليمض لما أنشأ القصيدة من أجله ، فيأخذ في الثناء على هرم
 ابن سنان ؛ وأنت تستطيع أن تقرأ رائية الأخطل أو غزل الأخطل في رائيته :

• خَفَّ القَطِينُ فَرَّاحُوا مِنْكَ أَوْ بَكَرُوا •

فسترى أن زهيراً قد كان من أشد الشعراء تأثيراً في شعر هذا الشاعر
 الإسلامي العظيم .

قال صاحبني : ولكنك استغرقت حديث اليوم كله فيما تسميه غزل زهير ،
 ولم تصل إلى وصفه ، ولا إلى مدحه ، ولا إلى ما طرق من الفنون غير الوصف
 والمدح .

قلت : وما يمنعنا أن نعود إلى زهير مرة أخرى ؟ فنتحدث عن وصفه ،
 وعن مدحه ؟ فإني أرى أن زهيراً من أبرع الشعراء في الوصف ، وقد أجمع
 القدماء على أنه من أبرع الشعراء في المدح .

ساعة أخرى مع زهير^(١)

قلت لصاحبي : أما اليوم فعندى لك معرض من معارض الصور ،
لست أدري أيروعك أم لا يبلغ من نفسك شيئاً ؟ ولكني أعلم أنه كان يروع
القدماء ، ويملاً نفوسهم إعجاباً وإكباراً . ولعله هو الذى جعل زهيراً أستاذ
جماعة من كبار الشعراء الجاهلين والإسلاميين ، منهم ابنه كعب وحفيده
عقبة والعوام ، ومنهم الخطيئة وتلميذه جميل ، وكثير تلميذ جميل ، ومنهم
الأخطل فيما أعتقد أنا ، ومنهم غير هؤلاء من الشعراء الذين عاصروا زهيراً
وسمعو منه أو نقل إليهم شعره ، ومن الشعراء الآخرين الذين لم يعاصروه ،
ولكن شعره انتهى إليهم من طريق الرواية والرواة .

ولست أريد أن أطيل عليك فى المقدمات ، ولا أن أشغلك بحديثي عن
حديث زهير ، وإنما أريد أن أهجم بك على ميدان من هذه الميادين التى كان
زهير يحسن أن يذهب فيها ويجيء . ومالى لا أبدأ بهذا الفضاء الجميل . الرائع
العريض الذى لا حد له ، أو الذى لا تستطيع العين أن تبين له حداً من أى
نحو نظرت فيه . فاهبط مع زهير إلى هذا الفضاء العريض ذى الآماد البعيدة .
فإن الهبوط إليه مستحب نافع . ألسنت تعلم أن السماء قد غمرت هذا الفضاء
منذ حين بمائها الغزير الذى يملأه الخصب والحياة ، فامتلاً هذا الفضاء خصباً
وحياة ! ولو قد رأيت لرأيت بهجة وجمالاً ، هذا النبات الكثير المختلف الذى
ملاً الفضاء ، سواء منه هذه الرنى المرتفعة ، وهذه الوهود المنخفضة ، وهذه
السفوح بين هذه وتلك . انظر فإن لك فى هذا النظر متعة ولذة وروحاً ؛
هذا الفضاء لم يكد يثور فيه ما ثار من النبات فيزينه ويجمله حتى عرف ذلك
الإنسان ، وعرفه الحيوان أيضاً ، بل عرفه الحيوان قبل أن يعرفه الإنسان ،
فأسرع إليه وعاش فيه ، واستمتع بهذه الرياض والجنات وقتاً من حياته
التى يملأها الجوع والضر ، إذا لم تعطف السماء على الأرض ولم ترسل إليها مع

(١) نشرت بمجريدة الجهاد فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٥ .

هذا الماء شيئاً من الخصب والحياة . كثر الحيوان في هذا الفضاء ، وأمن برهة . ولكن الإنسان لم يلبث أن عرف هذا الفضاء ، ومكان هذا الخصب والنعم فيه وإسراع هذا الحيوان إليه ، فأسرع هو إليه أيضاً ليستمتع بنعيمه ، ويصيب من خيره ، ويصيد من حيوانه . وهذا زهير في نثر من قومه قد أقبلوا هم أيضاً يلتمسون الصيد ، فانظر إليهم يهبطون ومعهم فرسهم هذا الضخم الذي أحكم خلقه إحكاماً ، وارتفع في السماء ارتفاعاً ، على قوائمه الممتولة أشد الفتل ، الممرة أشد إمرار . وهو قوى صلب ، وهو عنيف شמוש ، ليس سهلاً ولا مدلاً ، حتى إذا بلغوا من هذا الفضاء مكاناً يستقرون فيه ، أقبل إليهم غلامهم ، وكانوا قد أرسلوه يلتمس لهم أماكن الصيد ، فبحث ، ثم عاد إليهم محتاطاً محتالاً يمشى في خفة ، ويضائل شخصه مضاعفة حتى لا يرى ولا يحس ، حتى إذا انتهى إليهم ، أنبأهم في همس وصوت سريع بأنه قد رأى لهم صيداً فيه الخير كل الخير ، رأى لهم جماعة ضئيلة من حمر الوحش ترعى بعد أن عبث الصائدون بها ، فأخذوا معظمها ولم يبق منها إلا أثن ثلاث ضامرات مقوسات لقلّة ما شربن من الماء ، وكثرة ما رعين من هذا النبت الرطب ، يستغنين به عن الماء ، ومعهن فحلهن يراعين ويرعاهن . ولم يكد الغلام ينبهم بمكان هذا الصيد ، حتى ائتمروا فيما بينهم أيّادعونه خداعاً ، ويأخذونه بالغدر والمكر ، أم يصاولونه جهرة في غير مكر ولا ختل ولا احتيال ، ثم يستقر رأيهم على الحرب المعلنّة ، والمصاولة التي لا مكر فيها . وما حاجتهم إلى الخداع ، ومعهم هذا الجواد الذي لا يفوته شيء ! نعم ! ولكن هذا الجواد صعب عسير ، مسرف في الشמוש والحموح ، كأنه لم يُرَضْ قبل اليوم . ألسنت ترى إليه رافعاً رأسه في السماء مستعصياً على من يريد إلحامه ؟ ثم ألسنت ترى إلى هؤلاء الناس من حوله يضربونه ويعنفون عليه في الضرب حتى أعياهم أو كاد ؟ ولكنهم على كل حال أشد منه بأساً ، وأعظم منه قوة ، فقد قهره واضطروه إلى أن يخفض رأسه ويمكن من نفسه ، وهذا صاحب اللجام قد أقبل عليه ليلجمه ، ولكن انظر : إن هذا الجواد لمرتفع ، وإن صاحب اللجام ليجد في بلوغ رأسه مشقة وجهداً ، إنه ليقف على أصابع رجليه مرتفعاً في الجو ليبلغه ، وها هو ذا قد انتهى إلى إلحامه ، وهذا الغلام قد استطاع أن يثب إليه فيركبه ، وها هو ذا يريد أن يدفعه في طلب الصيد . واسمع لزهير يوصي الغلام بما ينبغي له ليذكر

من الصيد ما يريد ، هو يوصيه بالجواد خيراً ، وهو يوصيه بأن يلتمس غرة الصيد ، ولكن الغلام مشغول بالجواد الشموس الصعب عن أن يسمع لزهير أو يعقل عنه ، وها هو ذا قد دفع الجواد إلى أمام ، وزهير ينظر إليه وقد بعد عنه ، فيرى أنه يكلف الغلام ألواناً من المشقة ، ويرى أنه مع ذلك ينصب بالغلام على الصيد كما يهوى الشؤبوب من السماء . وهذا الغلام يعود بعد حين ، وقد أصاب حمار الوحش ، وعاد به دامياً جريحاً ، وعاد بفرسه دامياً لما تناثر عليه من دم هذا الصيد . وقرأ هذه الأبيات التي أفسدتها إفساداً بهذا التلخيص الذي لا دقة فيه ، فإنك واجد فيها حين تقرأها صوراً جميلة رائعة ، وألفاظاً متينة جزلة ، وسداجة مع ذلك في التعبير والتفكير لا تكلفك جهداً ولا عناء :

وَعَثِيثٌ مِنَ الْوَسْمِيِّ حَوْيَ تِلَاعُهُ أَجَابَتْ رَوَائِيهِ النَّجَا وَهَوَاطِلُهُ
 هَبَطْتُ بِمَسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحٍ مُرَّمٍ أَسِيْلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ
 تَمِيمٍ فَلَوْنَاهُ فَأَكْمَلَ صُنْعَهُ قَمَّ وَعَزَّتَهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ
 أَمِينٍ شَطَاهُ لَمْ يُخَرِّقْ صِفَاقَهُ بِمَنْقَبَةٍ وَلَمْ تُقَطَّعْ أَبَاجِلُهُ

فهو في هذه الأبيات قد عرض عليك صورتين لم يكن بد من عرضهما قبل أن يبدأ قصة الصيد . فأما أولاهما : فصورة هذا النبات الذي ملأ الفضاء العريض مرتفعة ومنخفضة . وأما الثانية : فصورة هذا الجواد الذي أقبل به في أصحابه يلتمسون الصيد وهذا الجواد ، كما قلت لك ، عظيم ، محكم الخلق ، شديد الأسر ، حديث عهد بالشباب ، قد فطموه منذ حين ، وتعهدوه بالعناية والرعاية ، فلم يحتج إلى البيطار ، ولم يتعرض لعله ، ولم يشك ألماً ولا سقماً ، وإنما هو مرح أشد المرح ، نشيط أشد النشاط . ثم يقص عليك الشاعر قصة الصيد ؛ فاسمع له أو انظر إليه ، فهو يتحدث إلى أذنك باللفظ ، وهو يتحدث إلى عينيك بالصور :

إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَعِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى تَرَهُ فَإِنَّا لَا نُخَاتِلُهُ
 قَبِينَا نُبَعِّي الصَّيْدَ جَاءَ غُلَامُنَا يَدِيبُ وَيُخْفِي شَخْصَهُ وَيُضَاتِلُهُ

انظر إلى هذا البيت الأخير ، أو إلى هذا الشطر الأخير ، وإلى صورة

هذا الغلام الذي جاء ينبئهم بمكان الصيد وهو حذر محتاط ، يدب ويخفي شخصه ويضائله ، فأنت توافقى على أنها صورة قوية صادقة معجبة حقاً :

فَقَالَ شِيَاهُ رَاتِعَاتُ بِقَفْرَةٍ بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرْيَانِ حَوْثُ مَسَائِلُهُ
ثَلَاثُ كَأَقْوَاسِ السَّرَّاءِ وَمَسْحَلُ قَدْ اخْضَرَ مِنْ لَسِّ الْغَمِيرِ جَحَافِلُهُ
وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادَ عَنْهُ جَحَاشُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَالُهُ

وانظر إلى البيت الثاني من هذه الأبيات الأخيرة ، فسترى فيه دقة الشاعر في التصوير ، وإحاطته بما يريد أن يصوره ، فهذه الحمر أربع ، فأما ثلاث منها فإنهن ضامرات ، تمتاز بهذا الضمور ، وأما الرابع فهو الفحل . وانظر إلى الشطر الثاني من هذا البيت ، فهو أبلغ في الدقة ، لأنه يصور لك هذا الحمار وقد أكثر من رعى النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرة هذا النبات في فيه ، ثم اسمع للأبيات الثلاثة كلها وحدثنى . أليس هكذا يكون حديث هذا الغلام الذي ذهب يتغى الصيد لقومه ثم عاد إليهم ينبئهم بما رأى حذراً هامساً محتاطاً مرغباً في وقت واحد :

فَبِتْنَا عُرَاةً عِنْدَ رَأْسِ جَوَادِنَا يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوِلُهُ
فَنَضْرِبُهُ حَتَّى اطْمَأَنَّ قَدَّالُهُ وَلَمْ يَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ وَخَصَائِلُهُ
وَمُلْجُمُنَا مَا إِنْ يِنَالُ قَدَّالُهُ وَلَا قَدَمَاهُ الْأَرْضَ إِلَّا أَنَامِلُهُ
فَلَأْيَابًا بِلَايٍ مَا حَمَلْنَا وَلِيدَنَا عَلَى ظَهْرٍ مَحْبُوكٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ

ففي البيتين الأولين من هذه الأبيات تصوير للجهد العنيف بينهم وبين الفرس ، وقد انتهى هذا الجهاد إلى أن خنض الجواد رأسه ، فاطمأن قذاله ، ولكن قلبه لم يطمئن ، فهو مضطرب شديد النشاط . وفي البيت الثالث صور الملجم وهو يحاول إلجام هذا الجواد في جهد ومشقة ، وفي البيت الأخير صورة الغلام وقد استطاع بعد العناء الطويل التقليل أن يركب هذا الجواد . واسمع لزهير وهو يوصى الغلام :

فَقُلْتُ لَهُ سَدِّدْ وَأَبْصِرْ طَرِيقَهُ وَمَاهُوَ فِيهِ عَنْ وَصَائِي شَاغِلُهُ

وَقُلْتُ : تَعَلَّمْ أَنْ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَإِلَّا تُضَيِّعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ
فَتَبَعَ آثَارَ الشَّيْءِ وَلَيْدُنَا كَشُوبُوبٍ غَيْثٍ يَجْفِشُ الْأَكْمَ وَابِلُهُ
نَظَرْتُ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَرَأَيْتُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ مَرَّةً هُوَ حَامِلُهُ
يُزِنُ الْحَصَى فِي وَجْهِهِ وَهُوَ لَاحِقٌ سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ وَأَوَالُهُ

وانظر إلى هذا البيت الأخير الذي يصور الطرد أجل تصوير وأبدعه ،
فهذه الحمر تثير الحصى في وجه الجواد ، ولكنه مع ذلك ماض في أثرهن ،
غير وان في الطلب ، وقد اشتد نشاطه حتى كأن أجزاءه تعدو يتبع بعضها
بعضاً ، فقدمه نشيط مسرع ، ومؤخره يتبعه في الإسراع والنشاط ، ولم يكن
بد لهذا الإلحاح في الطلب من أن ينتهي إلى الظفر ، وقد ظنر الغلام وجواده :

فَرَدَّ عَلَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُونِ إِيَّاهُ عَلَى رَعْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وَفَانَّهُ

فهو قد ظنر بالفحل ، ولكنه لم يظنر بجلالته ، وإنما فاتته هذه الأذن
الضامرة ، وهو على كل حال قد عاد بهذا العير دامياً جريماً محزوناً أشد الحزن
لفقد إلفه . أما الجواد فهو بعد هذا العدو المتصل ، والطلب الملح ، والجهد
العنيف ، قد عاد موفوراً شديد النشاط لا ضعيفاً ولا مهالكاً .

وَرُحْنَا بِهِ يَنْضُو الْجِيَادَ عَشِيَّةً مُخَضَّبَةً أُرْسَاغُهُ وَعَوَامِلُهُ

فانظر إليه كيف يرجع متقدماً غيره من الجياد ، لم يفتر عزمه ، ولم تنكسر
حدته ، وإنما يمشى مرحاً ، قد لونت دماء الصيد قوائمه وأرساغه .

ألست ترى في كل هذه القصة وما اشتملت عليه من الصور المختلفة
جمالاً وروعة وسذاجة وقدرة على استغلال الحس ، واستحضار الأشياء لا حد
لها ؟ قال صاحبي : أما هذا فليس إلى الشك فيه من سبيل ، والذي يعجبني في
هذه القصة أنها على ما فيها من الحركة وكثرة الاضطراب لا تتعب ولا تجهد ،
وإنما تعجب وتروع في يسر ومهل ، كأننا ننظر إليها ونحن مطمئنون ، كما
يشهد النظارة هذه الصور المتحركة في دار من دور السينما .

قلت : فإني أريد أن أعرض عليك الآن صورة أخرى هادئة كل الهدوء ،
مريحة كل الراحة ، فيها حركة واضطراب ، ولكنها حركة يسيرة مطردة مطمئنة ،

تثير في النفس حزناً خفيفاً ، وحناناً هادئاً مطمئناً ، ولا غرابة في ذلك ، فالشاعر قد أقبل على رسم هذه الصورة وهو محزون ، قد امتلأ قلبه حناناً وشوقاً ، فهو قد كان يتبع أحباءه الظاعنين بطرفه ، حتى إذا بعدوا عنه وغابوا عن عينه بكى ، فانهمرت دموعه انهماراً ، كما ينهمر الماء من الدلو ، وهذا التشبيه دعا الشاعر إلى أن يحققه ويستوفيه ، كأنه وجد في تحقيقه واستيفائه تسلياً لنفسه عن هذا الحزن ، فاستطرد وأمعن في الاستطرد ، وذكر لنا أن هذه الدلو التي ينهمر منها الماء كما ينهمر الدمع من عينيه لا تمتلئ مرة ولا مرتين ، وإنما تمتلئ ثم تفرغ ، ثم تمتلئ ثم تفرغ ، وهكذا ما تزال تهبط فارغة ، وتصعد ممتلئة ، ثم تهبط فارغة وتصعد ممتلئة ، ثم لم ير الشاعر بأساً من أن يصور لنا الناقه التي تستقي بهذه الدلو ، ومن أن يصور لنا السائق الذي يحدو من ورائها ، وينذرنا بالسوط إن أبطأت ، ومن أن يصور لنا هذا الرجل القائم أمامها الذي يتناول الدلو فيفرغها إذا امتلأت ، ثم لم ير بأساً من أن يصور لنا الجدول الذي يجري فيه هذا الماء الذي تصبه فيه الدلو ، ثم لم ير بأساً من أن يصور هذه الضفادع التي تعيش على شواطئ هذا الجدول ، وفي هذه الحنجر التي تحيط بالنخيل ، ولم ير بأساً من أن يصور لنا فرع هذه الضفادع حين ينصب الماء فيجري في الجدول ويصب في الحنجر ، فهي تخرج مشفقة تخاف الغرق . والغريب أن القدماء من أصحاب اللغة والنقد عابوا هذه الصورة الجميلة الأخريرة على زهير ، وأنكروها أشد الإنكار ، وغلطوا شاعرنا العظيم ، وزعموا أن الضفادع لا تخرج من الماء مخافة الغرق وإنما تخرج لأنها تبيض على الشاطئ ، كأن شاعرنا إنما ذهب مذهب التحقيق العلمي في خصال الحيوان ، مع أنه لم يرد إلا أن هذا الماء الذي يصب في الجدول وينصب في الحنجر متوالياً متدافعاً بين حين وحين ، يخيف هذه الضفادع فيدفعها إلى الشاطئ ، ويخرجها من الماء . وقرأت معي هذه الأبيات واعجب معي بلفظها الرصين ، وأسلوبها الحلو ، وقافيتها المتينة :

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُمْتَلِئَةٌ مِنْ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةَ سُحْقَا
تَمْطُوا الرِّشَاءَ وَتُجْرِي فِي ثِنَايَتِهَا مِنْ الْمَحَالَّةِ ثَقْبًا رَائِدًا قَلْبَا
لَهَا مَتَاعٌ وَأَعْوَانٌ غَدَوْنَ بِهِ قَتْبٌ وَغَرْبٌ إِذَا مُفْرِغَ أَنْسَحْقَا

وَحَلَفَهَا سَائِقُ يَحْدُوا إِذَا خَشِيَتْ
 مِنْهُ اللَّحَاقَ تَمُدُّ الضُّلْبَ وَالْمُنْقَا
 وَقَابِلٌ يَتَغَنَّى كُلَّمَا قَدَرَتْ
 عَلَى الْعَرَاقِي يَدَاهُ قَائِمًا دَوَقًا
 يُحِيلُ فِي جَدْوَلٍ تَحْبُو ضَفَادِعُهُ
 حَبْوَ الْجَوَارِي تَرَى فِي مَائِهِ نَطْقًا
 يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَابَاتِ مَاؤِهَا طَحِيلُ
 عَلَى الْجَذْوَعِ يَخْفَنَ النِّمَّ وَالغَرَاقَا

قال صاحبي : نعم ! إن هذه الصور جميلة ، ولكن الفاظ الشاعر عسيرة بعض الشيء ، تحتاج إلى التفسير ، وما أظن أن قراءك إن نشرت لهم مثل هذا الشعر يرضون عنه إلا أن تفسر لهم غامضه . قلت : فإلى أين تريد أن نمضي إذا فسرنا كل غامض ، ويسرنا كل عسير ؟ أليس يحسن أن يكون الجهد قسمة بين القراء وبيننا ، عليهم بعضه ، وعلينا بعضه الآخر ؛ وأى شيء أيسر من أن يشتري القارئ طبعة من هذه الطبعات اليسيرة التي نشر فيها شعر زهير مفسراً مشروحاً ؛ بل أنا لا أذيع هذه الأحاديث إلا لأغرى القراء بشراء هذه الدواوين ، وإطالة النظر فيها من حين إلى حين . قال صاحبي : فإن في هذين البيتين الأخيرين تشبيهاً جميلاً يعجبني حقاً ، وهو تشبيه هذه الضفادع التي تحبو في الجداول والحفر بالصبيان اللاعبين ، حتى إذا أدركها الماء أشفقت منه فارتفعت إلى جذوع النخل تريد أن تنقيه اتقاء . قلت : نعم ، ولكن الذي يعجبني أنا من هذه القطعة كلها هو بنوع خاص هذه الحركة الهادئة المطمئنة التي تلائم حزن الشاعر وحنانه ، والتي يلوذ بها الشاعر ليتعزى بها عن هذا الحزن ويستقي بها بعض هذا الحنان .

على أني أريد أن أعرض عليك الآن صوراً أخرى رسمها زهير في شعره فأبدع وأجاد ، ومن هذه الصور ما هو مأوف عند شعراء آخرين غير زهير ، فهو في بعض قصائده يريد أن يرسم ناقته فيذهب مذهب لبيد ، فيشبهها بالنعامة ، حتى إذا أتم هذا التشبيه وحققه ، عدل عنه إلى تشبيه آخر كما فعل لبيد فشبه ناقته بحمار الوحش الذي يدفع حليلته أمامه يتغنى الماء ويفر بها من الفحول ، وهو يذهب في هذا التشبيه وفي قصته مذهب لبيد كأنه يحاكيه ، أو كأن لبيداً هو الذي حاكى زهيراً .

وفي قصيدة أخرى يريد أن يصور ناقته فيذهب مذهب طرفه ، أو مذهب

الذين حملوا وصف الناقاة على طرفة ، فيصف أجزاء الناقاة ، وربما استعمل في بعض وصفه الفاظ طرفة نتمسها . وانظر إلى هذه الأبيات .

قال صاحبي : حسبك رواية من هذا الشعر ، فلست أشك في جماله ولا في روعته ، ولكني أعلم أنك لن تعرض له حتى تدخل في الموازنة بين زهير وليبيد ، وبين زهير وطرفة ، وحتى تبحث عن سبق ، ومن سرق ، وحتى تنهى آخر الأمر إلى مذهبك الذي فتننت به فتوناً ، وهو أن بعض هذا الشعر منحول ، قد حمل على زهير أو على لبيد أو على طرفة ، فأرحني من هذا البحث ، ومن هذا العناء الذي لا أحبه ، ولا أجد فيه خيراً .

قلت : لك ذلك ، فما زلت فيما أرى ضعيف الجهد ، قصير الباع ، عن مثل هذا البحث العنيف الخصب ، ولكنك ستسمع هذه الأبيات على كل حال ، لأنها سهلة حلوة ، لا مشقة فيها ولا جهد ، وهي لهذا كله تريحك من هذا الشعر العسير الذي جشمتك عسره ومشقته . وزهير في هذه الأبيات يصور طوه وهو أصحابه في لفظ جميل يسير ، وفي معان مقتصدة لا غلو فيها ولا إسراف :

وَقَدْ أَغْدُوا عَلَى ثُبَّةٍ كَرَامٍ نَشَاوَى وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاهُ
لَهُمْ رَاحٌ وَرَأْوُوقٌ وَمِسْكٌ تَعَلُّ بِهِ جُلُودُهُمْ وَمَاهُ
يَجْرُونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ حُمِيًّا الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالغِنَاهُ
تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ نُفُوسُهُمْ وَلَمْ تَهْرَقْ دِمَاهُ

قال صاحبي : ما أيسر : هذين البيتين الأخيرين ! وما أجمل يسرهما !
لأنهما ليصوران البهجة والمرح أيسر تصوير وأصدق . وإن في البيت الأخير
خاصة بالجمالا لا يخلو من غرابة . قلت : إن صححت هذه الأبيات لزهير فعنه إذن
قد أخذ الغزلون الإسلاميون ، حين زعموا أن عيون الحسان سهام يصبين العاشقين
فيقتلنهم دون أن يرقن دماء ترى . قال : فإنك تشير إلى قول الشاعر الإسلامي :

إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْحَدِيثَ لِدَى الْهَوَى سِقَاطَ حَصَى الْمَرْجَانِ مِنْ سِلَاحِ نَاضِمٍ
رَمِيْنَ فَأَقْصَدْنَ الْقُلُوبَ فَلَمْ نَجِدْ دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَوَى فِي الْحِيَاظِمِ

قلت : نعم ! وإلى غير هذا الشعر مما نجده كثيراً شائعاً عند أصحاب الغزل .

قال : وأنت تشك في صحة هذه الأبيات لزهير ؟ قلت : بل أنا أشك في صحة الكثرة من أبيات هذه القصيدة ، وأى شيء أيسر من أن تتبين النحل ؟ قال : حسبك ! فإني أكره حديث النحل ، وأتوسل إليك ألا تشركني فيه ، أو تثقل به عليّ ، ولكننا مع ذلك لم نصل إلى الفن الذي تفوق فيه زهير على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وهو فن المديح . قلت : فإن أمر المدح عند زهير يسير ، أيسر جداً مما تظن ، وقد فهمه القدماء على وجهه أحسن فهم وأصدق . ولعلك تذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحب مدح زهير لأنه كان مدحاً صادقاً لا يضيف إلى الرجل غير مافيه ، ولأنه كان مدحاً خليقاً أن يبتى ، وأن يحفظه الناس لصدقه ، وارتفاعه عن السخف ، وبعده عن الإحالة ، وتوخيه هذه الخصال التي يحبها الناس ، ويحبها العرب خاصة . فالذين يمدحهم زهير قوم كرام أجواد ، لا يحفلون بالمال ، ولا يؤثرون به أنفسهم ، وإنما هم يهينونه ، ويؤثرون به عشائهم ، يشترون به سلم العشيعة ، ويشترون به راحة الضمير ، ويشترون به الحمد والثناء ، وهم شجعان لا يؤثرون أنفسهم بالعافية ، ولا يبخلون بحياتهم عند مواطن البأس ، لا يصرقون مهما تكن الملمات ، ولا يحجمون مهما يقدموا على الهول ، وهم على ذلك كله ناس لا يخرجون عن طور الناس ، حتى حين يريد زهير أن يغلو ويلح في المدح ، فهو مهما يتغلُّ يكره الإحالة ، وينفر من أن يقول غير الحق ، وانظر إلى هذا البيت ، فإنه يلخص مذهب زهير في المدح أحسن تلخيص ، ويصدق فيه فيه رأى عمر رحمه الله :

وَلَوْ أَنَّ حَمْدًا يُحْمَدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ وَلَسَكِنَّ حَمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخْلِدٍ

وإذا لم يكن بدء من أن تستعرض بعض هذا المدح ، فاقروا معي هذه الأبيات التي يمدح بها زهير حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري :

وَأَبْيَضَ فَيَاضَ يَدَاهُ غَمَامَةٌ	عَلَى مُعْتَفِيهِ مَا تَغِبُّ فَوَاضِلُهُ
بَكَرَتْ عَلَيْهِ غُدْوَةٌ فَرَأَيْتُهُ	قُعُودًا لَدَيْهِ بِالصَّرِيمِ عَوَازِلُهُ
يُفَدِّيَنَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلْمَنَهُ	وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِيْنَ أَيْنَ مَخَابِلُهُ
فَاقْصَرْنَ مِنْهُ عَن كَرِيمٍ مُرَزَّأٍ	عَزُومٍ عَلَى الْأَمْرِ الَّذِي هُوَ فَاعِلُهُ

أَخِي ثِقَّةٌ لَا تُتَلَفُ الْخَمْرُ مَا لَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهُ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

أجمل شيء في هذا الشعر أنه واضح سهل ، لا يجهد سمعك إن سمعته ، ولا يجهد عقلك إن وعيته ، وإنما هو نقي ناصع كصفحة الشمس ، وخصال الممدوح فيه ، هي هذه الخصال التي يجبها الناس ، ويألفها العرب ، والظريف أنه قد اصطنع القصص اليسير وسيلة إلى إظهار هذه الخصال ، فهو قد غدا على صاحبه حصن ، فألفاه وقد أحاط به عواذله يلمنه ، ويلحجن عليه في اللوم ، لكثرة ما ينفق من المال ، وهنّ مع ذلك يجيبنه ، ويؤثرنه ، ويرفقن به ، ويفدينه بأنفسهن ، يأخذنه بالعنف حيناً ، ويأخذنه بالرفق حيناً آخر ، ولكنه يعيين ويعجزهن ، فلا يبلغن منه شيئاً ، ولا يعرفن كيف ينتهين إلى نفسه ، ليصرفنه عن هذا الإسراف ، فإذا بلغ منهن العجز أقصرن عنه ، وتركنه وما هو فيه من إهلاك للمال ، لا في هو ولا في عبث ، ولكن في إغاثة الملهوف ، وإعانة المحروب . ثم يمضي الشاعر في مدحه ، فيصل إلى هذا البيت البديع الذي لا أعرف أبداع منه في سداجته ويسره ، وارتفاعة عن التكلف ، وتصويره لطبيعة الإنسان السهلة السمحة التي لم تعقدها الفلسفة ، ولم يلح عليها الترف ، ولم تخرجها الحضارة عن طورها :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

وصاحبه كسبن "فصيح ، قوى الحججة ، بالغ البرهان ، حلیم مع ذلك شديد الصفح ، معرض عن اللغو ، متفضل على الضعيف المغلوب :

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ مُصِيبٌ فَمَا يُلِمُّ بِهِ فَهَوَ قَائِلُهُ
عَبَاتُ لَهُ جِلْمًا وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مُقَاتِلُهُ

وأظن أن من الإطالة ، بل من الإسراف في الإطالة ، أن نصل الحديث في مدح زهير ، فقد قال فيه القدماء ما كان يمكن أن يقال ، وأى القدماء؟ عمر بن الخطاب وجماعة من خيرة العلماء ، وأنه النقاد . لا يحتاج مدح زهير إلى النقد ولا إلى التقرّظ ، وإنما يحتاج إلى أن يقرأ ويقرأ ، وأن يجد القارئ فيه

هذه اللذة التي لا تفتنى ، والتي توجد في الشعر الصادق الذي لا إسراف فيه ولا إحالة ولا تكلف . ولزهير هجاء لاذع عنيف مخيف ، وأظنك قد رأيت في ديوانه قصته مع ذلك الأسدى الذي أغار على إبنة فاستاقها ، وأخذ معها عبداً له يسمى يساراً ، فأنشأ زهير كافيته المشهورة التي أولها :

بَانَ الْخَلِيْطُ وَلَمْ يَأْوُواوَ الْعَيْنُ تَرَكَوْا وَرَوَدُوْكَ أَشْتِيَاقًا أَيْةً سَلَكَوْا

والتي يقول فيها :

يَا حَارِ لَا أُرْمِيْنَ مِنْكُمْ بِدَاهِيَةٍ لَمْ يَلْقَهَا سُوْقَةَ قَبْلِيْ وَلَا مَلِكُ
فَارْدُ دَسَارًا وَلَا تَعْنُفَ عَلَيْهِ وَلَا تَمَعَكَ بِعِرْضِكَ إِنْ الْغَادِرَ الْمَلِكُ

فلم يلتفت الأسدى إلى هذه القصيدة ، ولم يحفل بما فيها من نذير ، بل أمسك يساراً . فقال زهير أبياتاً أخرى فيها هجاء مقذع ، لا سبيل إلى روايته ، ولكنه على كل حال يدل على أن زهيراً لم يكن يتجنب الإقذاع حين تدعو إليه ضرورة الحياة . وحسبك أنه اتهم الأسديين بحب هذا العبد ، وأن الأسديين إنما يمسكونه عندهم إرضاء لنسائهم . فلما انتهت هذه الأبيات إلى الأسديين طلبوا إلى صاحبهم أن يقتل هذا الغلام ، ولكن صاحبهم كان عاقلاً رشيداً كريماً ، فكسا الغلام وردة إلى مولاه ، وانطلق لسان زهير بمدح هذا الأسدى والثناء عليه ، وهجاء قومه والإسراف في هجائهم .

فزهير كما رأيت ، وكما ترى ، قد فتح للشعراء أبواباً في الغزل والحنين ، وفتح لهم أبواباً في الوصف والتصوير ، وسن لهم سنناً في المدح والهجاء ، فأى غرابة في أن يكون إماماً من أئمة الشعر العربي النابهين ! وأى غرابة في أن يتخرج عليه هؤلاء الشعراء الذين أشرت إليهم آنفاً ! وكم يكون طريفاً وقياً أن ندرس شعر هؤلاء التلاميذ الذين تعلموا على زهير لنتبين أثره فيهم ، وانتفاعهم بتأثره واتباعه ! . قال صاحبى : وما يمنعنا أن نمضى بالحديث نحو كعب بن زهير والحطيئة ؟ فهما أظهر تلاميذه ، وأشدهم به اتصالاً ، وأى بأس في أن ندع أصحاب المعلقات حيناً لنعود إليهم بعد أسبوع ، أو بعد أسبوعين ؟ قلت : لا أرى بذلك بأساً ، ولا أكره أن يكون موضوع حديثنا في الأسبوع المقبل قصيدة كعب المشهورة : بانت سعاد . قال : ومن يدري لعل الاستطراد

أن يغلب علينا فنتخذ هذه القصيدة الرائعة طريقاً إلى شيء من العناية بشعر المحدثين ، وهل ترى بأساً في أن ننتقل من « بانث سعاد » إلى « البردة » ، ومن البردة إلى نهجها الذي أنشأه شوقي ، أو إلى ميمية البارودي ؟ قلت : يا سيدي ، لا تسرف في التقدير ، ولا تبعد في الحساب ، فإنني لا أحب ذلك ولا أميل إليه ، وحسبنا أن نتحدث في الأسبوع المقبل عن « بانث سعاد » . قال : فإنني أريد أن أريحك وأريح نفسي بعض الشيء من هذا الشعر القديم ، ولكنني فيما يظهر لم أحسن الاحتيال عليك .

ساعة مع كعب بن زهير^(١)

قلت لصاحبي : إن لزهير عند القدماء صورتين مختلفتين . إحداهما ألمنا بها إلاماً في الحديثين الماضيين ، والأخرى يجب أن نلمّ بها اليوم ، لنبلغ بها إلى ابنه كعب .

فأما الصورة الأولى ، فهي التي كان يألفها الأدباء والنقاد وأصحاب اللغة ، وهي صورة الشاعر الجاهلي البارع المجيد ، الذي كان يزاحم فحول الشعراء ، ويستأثر من دونهم بالسبق عند أهل الحجاز عامة ، وعند عمر بن الخطاب خاصة ، وعند جرير وغير جرير من بعد عمر ، والذي كان ينفق شعره في المدح كما كان يقول القدماء ، ويتوسل إلى هذا المدح بفتون أخرى من الشعر أجادها وبرع فيها كالغزل والوصف ، والذي كان يبنى بشعره عناية ، ويجوّده تجويداً ، ولا يظهره إلا إذا أتقنه وأطال النظر فيه ، والذي كان يعلم الشعر جماعة من الشبان ، منهم ابنه كعب ، وراويته الخطيئة . وسرى أننا سنحتاج إلى هذه الصورة ، وسنستعين بها على فهم كعب ، أو على فهم هذه القصة الوحيدة التي بقيت لنا من شعره كاملة أو تشبه الكاملة .^(٢)

وأما الصورة الأخرى ، فهي هذه التي كان يألفها القصاص وأصحاب السير ، والتي تتخذ سبباً إلى هذه القصيدة الرائعة التي بقيت لنا من شعر ابنه كعب ، والتي تستخلص استخلاصاً من بعض الشعر الذي صح لزهير ، أو الذي حمل عليه ، فزهير في بعض شعره يلمّ بأمور تتصل بالدين ، فهو يذكر البعث في مطولته المشهورة فيقول :

فَلَا تَسْكُتُنَّ اللَّهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمُ
يُوْخَرْ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْفَخَ

وقد تنبه لذلك القدماء أنفسهم فذكروه ، كما أن شعراً قد حمل على زهير

(١) نشرت بجمريدة الجهاد في ٣ أبريل سنة ١٩٣٥ .

(٢) لقد عثر على ديوان كعب ، وطبعته دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

وتنبه القدماء إلى أنه حمل عليه ، وفيه ذكر مفصل لأموال الدين . وقرأ هذه الأبيات الياثية التي أنكر الأصمعي أن تكون لزهير ، والتي أولها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَرَى النَّاسُ مَا أَرَى مِنْ الْأَمْرِ أَوْ يَبْدُو لَهُمْ مَا بَدَأَ لِيَا
بَدَأَ لِي أَنْ النَّاسَ تَفَنَى نَفُوسُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَلَا أَرَى الدَّهْرَ قَانِيَا
وَإِنِّي مَتَى أَهْبِطُ مِنَ الْأَرْضِ تَلَعَةً أَحْذُ أَثْرًا قَبْلِي جَدِيدًا وَعَافِيَا
أَرَانِي إِذَا مَا بَيْتٌ بَيْتٌ عَلَى هَوَى وَأَنِّي إِذَا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ غَادِيَا
إِلَى حُفْرَةٍ أَهْدَى إِلَيْهَا مُقِيمَةً يَحْتُ إِلَيْهَا سَائِقٌ مِنْ رَائِيَا

ثم يمضى الشاعر في هذه الحكمة الطبيعية اليسيرة على نحو ما رأيت في عينية لبيد التي مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِيَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ

ولكنه يعدل بعد ذلك إلى نوع آخر من الفلسفة الدينية فيقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَهْلَكَ تَبَعًا وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا
وَأَهْلَكَ ذَا الْقُرَيْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ مَا تَرَى وَفِرْعَوْنَ جَبَّارًا طَغَى وَالنَّجَاشِيَا

فأنت ترى أن للشاعر في هذه الأبيات التي سمعها طريقتين مختلفتين في الفلسفة ، إحداهما طبيعية يسيرة ، تلائم تفكير أصحاب السداجة من حكماء البادية ، والأخرى دينية كأنها أخذت من القرآن أخذاً . ومن الواضح أن هاتين الفلسفتين لم تجتمعا في هذا الشعر ، إلا لأنهما خلطتا فيه خلطاً ، ولكن الواضح على كل حال هو أن شعراً دينياً قد نسب إلى زهير ، وإنما نسب إليه لأنه عرف بالحكمة وضرب المثل من جهة ، ولأنه أبو كعب وبجير من جهة أخرى ، وما دام إسلام ببجير ، ثم إسلام كعب ، قد تمّا على النحو الذي سطرته السيرة والذي ستحدث عنه ، فلا بدّ من تفسيره ، ومن تنظيم القصة التي تبينه وتوضحه وتجلوه ، وقد رتب هذه القصة ترتيباً ظريفاً ، قد لا يستقيم للعقل الحديث ، ولعله لم يستقم للعقل القديم أيضاً . ولكنه على ذلك حلّو ساذج ، محبب إلى النفس ، مثير لهذه العواطف الجميلة الحلوة الهادئة ، التي تثيرها أحاديث

الأولين ، وهو إنما يثير هذه العواطف لأن فيه شعراً جميلاً حقاً لو نظم لكان من أروع الشعر وأبقاه .

فقد تحدثوا أن زهيراً كان كثيراً ما يلقي أهل الكتاب ، ويسمع منهم ، ويتحدث إليهم ، ويفكر فيما وعى عنهم ، ويظهر أن حديثه وتفكيره قد أثرا في نفسه ، وكادا يغيران من سيرته ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم كأنه قد رفع إلى السماء ، فما زال يصعد حتى كاد يبلغها ، فلما أحس ذلك أراد أن يتناول السماء بيده ، فرد عنها وهوى إلى الأرض ، فلما استيقظ لم يشك في أن هذه الرؤية تصور شيئاً ! وتدل على شيء ، وأن الحوادث ستعبرها ، وما أكثر ما يتاح للحوادث أن تعبر الأحلام ، ويقال إنه رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن أسباباً من السماء قد مدت إليه ، فلما هم أن ينالها نأت عنه ، ثم أفاق من نومه ، فلم يشك في أن لهذه الرؤية دلالتها وتأويلها ، وقال لابنيه : إنه كائن بعدى للسماء خبير . ثم أوصاهما أن يستقصيا هذا الخبر ، وأن ينتفعا به ، وأن يتبعا صاحبه إن أدركاه .

وكانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت الخصومة بينه وبين قومه من قريش ، ثم كانت الهجرة ، ثم كانت الهجرة ، ثم كانت الهجرة ، وغيرهم من العرب ، ثم أذن الله بالفتح ودخل النبي وأصحابه مكة ظافرين ، ثم كان يوم حنين ، وأتم الله نصره للمسلمين على من اجتمع لحربهم من العرب . وقد تسامع الناس منذ عهد غير قصير بهذا النبي العربي ، وبما يحدث به من أخبار السماء ، وبما صدق الله به حديثه من الآيات البينات ، وكان يجيراً وأخاه كعباً قد سمعا هذا كله ، فلم يحتملا به ، ثم سمعاه فأعرضا عنه ، ثم سمعاه ورأيا من آياته ما رأيا ، فذكرا حديث أبيهما زهير ، وذكرا وصيته ، وحرصا على أن يتبيننا خبر السماء لعله قد كان ، وأن يعلمنا علم هذا الرجل الذي يتحدث بجزر السماء . فانطلقا حتى إذا بلغا الأبرق ، قال يجير لأخيه كعب : أقم هنا حتى آتى هذا الرجل فأسمع منه ، وأعلم علمه ، ثم أعود إليك . أو قال كعب لأخيه يجير : اذهب إلى هذا الرجل فأسمع منه ، وأعلم علمه ، ثم عد إلى ، ففعل خبر السماء قد كان ، ولعله صاحب هذا الخبر ؛ فإن كان إياه ذهبنا إليه واتبعناه . وأقام كعب ، وذهب يجير ، ولكن كعباً أقام وأقام ، وانتظر أخاه وأطال الانتظار ، وأخوه لا يعود إليه ، ذلك أن يجيراً

قد أتى هذا الرجل فسمع منه ، وعلم علمه ، واستيقن أنه صاحب خبر السماء ، وأن خبر السماء هذا قد كان ، فأقام مع صاحبه ، وآمن به ، وانصرف إليه وإلى دينه عن أخيه هذا الذي قدمه بين يديه مستظلاً ورسولاً ، واستياس كعب من مقدم أخيه ، واستيقن كعب أن أخاه قد صبأ ، كما كان العرب يقولون لمن تبع النبي في ذلك الوقت ، فغاضه ذلك وساءه ، فقال هذه الأبيات التي يختلف الرواة في نصها وترتيبها اختلافاً غير قليل :

أَلَا أبلغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسَالَةً قَهْلَ لَكَ فِيمَا قُلْتَ وَيَحْكَ هَلْ لَكَ
سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَأْسِ رَوِيَّةٍ فَأَنْهَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَاكَ
فَفَارَقْتَ أَسْبَابَ الْهُدَى وَاتَّبَعْتَهُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ وَيَبَّ غَيْرِكَ دَلَاكَ
عَلَى مَذْهَبٍ لَمْ تُنْفِ أُمًّا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تَعْرِفْ عَلَيْهِ أَخَا لَكَ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ فَلَسْتُ بِأَسْفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَعَا لَكَ

وانتهت هذه الأبيات إلى المدينة فيما كان ينهى إليها من الشعر الذي كان يقال في هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والتحريض عليه ، وسمع النبي هذه من بجير نفسه فيما يقول الرواة ، أو من غير بجير ، فتوعد كعباً وأباح دمه لمن لقيه .

والقصة في أكبر الظن على هذا النحو قد رتبت ترتيباً ، وإذا كان لنا أن نفقه هذه الأحاديث التي تروى السير ، ونستخرج منها المعقول ، فإني أرجح أن بجيراً وأخاه كانا قد ائتمرا بالنبي ، وأن بجيراً كان قد سبق إلى محضر النبي ، ليؤذيه ويسوءه ، فلما انتهى إليه آمن واهتدى كغيره من الذين سعوا إلى النبي يريدون به السوء ، فلم يجدوا عنده إلا هدى ورحمة ونوراً ، واستبطأ كعب أخاه ، وعرف من أمره ما عرف ، أو شك من أمره فيما شك فيه ، فقال هذا الشعر . وأنت تذكر أن البيت الأول يروى على نحو يؤيد هذا المذهب الذي أذهب إليه ، فهو يروي :

* قَهْلَ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالْخَيْفِ هَلْ لَكَ *

فهو إذن كان قد قال شيئاً بالخييف وكعب يذكره به ، ويحرضه عليه ، ويستبطئه في إنفاذ ما قال ، والبيت الأخير صريح في هذا :

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْعَلْ فَلَسْتُ بِأَسِيفٍ وَلَا قَائِلٍ إِمَّا عَثَرْتَ لَعَاكَ

وعلى هذا النحو يفهم إبعاد النبي لكعب وإهدار دمه ، فقد كان كعب يلهج بالنبي ويحرض عليه ، ويدس إلى محضره من يناله بالمكروه ، ثم يقول الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء قريش ومن شعراء العرب الذين كانت تأجرهم قريش لدم النبي والإغراء به .

وأكبر الظن أن انتصار النبي في مكة وحنين ، وإذعان العرب كلهم لسلطانه الجديد ، وقتل من قتل بعد الفتح من خصوم الإسلام وأعداء النبي ، وفرار من فر ، كل ذلك قد ملاً كعباً فزعاً وربحاً . وأكبر الظن أن كعباً حاول الفرار والاستخفاء فيمن حاول الفرار والاستخفاء ، ولكن الأرض ضاقت به ، والناس تخاذلوا عنه ، ونظر فإذا هو مأخوذ فهالك إذا لم يحتط لنفسه ، وجاءته في أثناء هذا كله رسالة أخيه بيجير بأن النبي رعوف رحيم يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف ، ويعرض عن الجاهلين ، ولا يعاقب تائباً بما قدم قبل أن يتوب . فاستقرت عزيمة كعب على أن يستجير بعفو النبي من غضب النبي ، وانطلق حتى بلغ المدينة ، فأوى إلى رجل من جهينة ، فيما يقول بعض الرواة ، وأوى إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فيما يقول بعضهم الآخر . فلما صليت الصبح ، أقبل أبو بكر ومعه كعب وقد تلثم حتى استخفى وجهه ، فلما انتهيا إلى النبي ، قال له أبو بكر : هذا رجل يريد أن يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده فبايعه كعب وأسلم ، ثم حسر عن وجهه ، وقال : هذا مكان العائذ بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . وهم الأنصار به لما قدم من الإساءة إلى النبي ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ردهم عنه ، وماذا كانوا يستطيعون أن يصنعوا به ، وهو قد دخل في الإسلام ، وبايع النبي ، واتخذ له جاراً ؟ ويقال إن النبي استنشد أبا بكر هذه الأبيات التي رويتها آنفاً ، فأنشدته إياها ، فلما بلغ قوله :

• فَأَنْهَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَاكَ •

قال كعب : لم أقل المأمور يا رسول الله ، وإنما قلت المأمون . فقال النبي مأمون والله ، ورضي عن كعب ، وقام كعب فأنشدته قصيدته هذه الرائعة :

بَأَنْتَ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبُولٌ مُتَمِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَّ مَكْبُولٌ

ويقال إنه ظل ينشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش ، أو ما النبي إلى الناس أن اسمعوا ، فلما بلغ من هذا المدح أروعه وأجمله ، أو ما النبي إلى المهاجرين أن اسمعوا ، ولكن كعباً عرض بالأنصار فيما يقول الرواة ، فغضب المهاجرون ، أو غضب النبي نفسه ، واضطر كعب إلى أن يثني على الأنصار في هذه الأبيات الجميلة المشهورة :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الْحَيَاةِ فَلَا يَزَلْ فِي مِقْنَبٍ مِنْ صَالِحِي الْأَنْصَارِ
الْمُكْرَهِينَ السَّمْهَرَى بِأَذْرَعِ كَسَوَافِلِ الْهِنْدِيِّ غَيْرِ قِصَارِ
وَالْبَازِلِينَ نُفُوسَهُمْ لِنَيْبِهِمْ لِمَوْتِ يَوْمٍ تَعَانَتِي وَكَرَارِ
يَتَطَهَّرُونَ يَرَوْنَهُ نُسْكَاً لَهُمْ بِدِمَاءِ مَنْ عَلَقُوا مِنَ الْكُفَّارِ

قال صاحبي : ما أجمل هذا البيت الأخير ! وما أروع هذا التطهير بدماء من علقوا من الكفار ! وما أظن إلا أن هذا البيت قد أرضى الأنصار ، وبلغ من نفوسهم أقصى الرضى . قلت : نعم وأرضى المهاجرين أيضاً . وأكبر الظن أن الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش قد غاظهم هذا البيت ، ولكن ألا يعجبك الشطر الأول من هذا البيت ؟ فإن فيه ضميراً يعجب النحويين كل الإعجاب ، وهو هذا الضمير في قوله « يرونه نسكاً لهم » .

ففي رد الضمير على ما يفهم من الفعل جمال رائع حقاً . وينبثنا الرواة بأن قصيدة كعب قد أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكتف بالعفو عن كعب والاستماع له ، والإقبال عليه ، بل أراد أن يجيزه ويصله فكساه بردة كانت له . وقد زعموا أن معاوية أراد أن يشتري هذه البردة من كعب بعد ذلك فأغلى له الثمن ، ولكن كعباً أتى ، فلما مات راجع معاوية أهله فاشترها منهم بثمن ضخم ، وهى التى توارثها الخلفاء فيما يقول الرواة ، وكانوا يخرجون بها للناس في العيدين .

فأنت ترى أن هذه القصة من أولها جميلة رائعة حلوة محببة إلى النفوس حقاً ، وسواء أصحت كلها أم لم تصح إلا فى جملتها ، فإنها تهيب لقصيدة كعب جواً شعرياً ملائماً كل الملازمة بلهاها وروعها ، وملائماً بنوع خاص كل الملازمة لمكان الممدوح صلى الله عليه وسلم من البأس أول الأمر ، ثم من العفو والحلم

بعد ذلك ، ثم من الكرم والجلود آخر الأمر ، فهذا رجل كان يلهمج بالنبي ويحرض عليه ويأتمر به ليسوءه ، وقد أهدر النبي دمه حين أتم الله له النصر ، وحين دانت له العرب ، فلما بلغه الوعيد استطير ، ولفظته الأرض — كما يقول ابن سلام — وجفاه الناس ، ونبا عنه الأصدقاء ، وخذله النصير ، فلجأ من النبي إلى النبي ، فوجد عنده حلماً واسعاً وعفواً كريماً ، ثم مدحه فوجد منه إقبالا عليه واستماعاً له ، ثم وجد منه بعد هذا كله كرمًا وبذلاً وجوداً .

ونحن نقرأ هذه الأنباء ، ونرى هذه المرأة الصافية التي تجلوا لنا طرفاً من أخلاق النبي ، فلا نجد في ذلك غرابة ولا طرافة ، وإنما نحس ذلك ونستعذبه ونعجب به ، لأننا نشأنا ، ونشأت الأجيال من قبلنا ، على إكبار النبي ، والإيمان له بمكارم الأخلاق ومحاسن السمائل والحصال ، ولكننا خليقون أن نخرج من أنفسنا وننسى ما تعودنا ، وما ورثنا عن الأجيال من قبلنا ، ونعيش لحظة في ذلك العصر الذي عاش فيه النبي ، وفي تلك البيئة التي امتحن فيها كعب ، ونتمثل الصورة الصادقة لهؤلاء العرب الذين كانوا قد أخذوا يدينون لهذا السلطان الحديد ، يحبه أقلهم وهم المهاجرون والأنصار ، ويرغب فيه أو يرهبه أكثرهم ، وهم هؤلاء المغلوبون من قريش وغير قريش ، والمتقدمون بالطاعة عن رضا قبل أن يتقدموا بها عن كره . يجب أن نعيش في ذلك العصر ، وفي تلك البيئة ، وأن نتمثل هذه الصورة الصادقة لنقدّر ما تجلوه هذه القصة من أخلاق النبي ، ولنتبين موقع هذه الأخلاق من نفوس هؤلاء العرب الذين كانوا يزدهمون في المدينة ، أو يستبقون في الطريق إلى المدينة ، أو ينتظرون في مواطنهم النائية والدانية ليعلموا من أمر هذا الرجل العظيم أكثر مما علموا ، وليتبينوا من خلاله أكثر مما تبينوا .

ولكننا قد بعدنا عن زهير ، وبعدنا عن كعب ، وأن لنا أن نعود إليهما . قال صاحبني : إنك لعجل إلى كعب وإلى أبيه ، وإني لأؤثر أن نمضي في الحديث عن ممدوح كعب ، فحديثه آثر عندي وأحب إلى ألف مرة ومرة من شعر الشعراء . قلت : وهو كذلك آثر عندي وأحب إلى ، ولكن ممدوح كعب قد سمع هذا الشعر ورضى عنه ، وأقبل عليه وأجازه ، فالحديث عن هذا الشعر حديث عن هذا الممدوح ، وأنت تعلم من غير شك ، أننا لم نستأنف هذه الأحاديث في السيرة وإنما استأنفناها في الشعر والشعراء . وأنا حين أقرأ

قصيدة كعب أراها تأتلف من ثلاثة أجزاء متباينة في ظاهر الأمر ، ولكنها مؤتلفة أحسن الائتلاف في حقيقة الأمر ، لولا أنى أكاد أرجح أن جزءاً منها قد كثر فيه عبث الرواة .

قال صاحبي : فإني أعزم عليك أن تعفيني من التحقيق والتمحيص ، ومن الإبانة عن الكذب والانتحال ، وعن العبث واللعب ، وعن التقديم والتأخير . قلت : ما من بعض ذلك بدّ يا سيدي ، فأجزاء هذه القصيدة ثلاثة كما قلت . فأما أولها : فهو هذا الغزل الذي قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعود الشعراء أن يفعلوا . وأما الثاني ، فهو هذا الوصف الذي انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً . وأما الثالث : فهو المدح الذي أنشئت القصيدة من أجله ، وانتهت القصيدة إليه ، وأنت تستطيع أن تسمع هذا الغزل ، فستحبه وتطمئن إليه ، وستعجب به إعجاباً شديداً ، وسترى فيه أثر زهير نفسه واضحاً جلياً ، واسمع هذه الأبيات الحسان :

بانتُ سعادُ قَلْبِي اليَوْمَ مَتْبُولٌ مُتَمِّمٌ بِإِثْرِهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ

وأظنك توافقني على أن هذا البيت الظريف إنما يصور في إيجاز جميل ما صوره زهير في بيتين حين قال :

إِنَّ الْخَلِيظَ أَجَدَّ الْبَيْنِ فَاغْفَرَا وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا
وَقَارَقَتِكَ بِرَهْنٍ لَا فَكَاكَ لَهُ يَوْمَ الْوَدَاعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْ غَلِقَا

فأنت ترى أن المعنى الذي قصد إليه كعب هو نفس المعنى الذي سبق إليه زهير ، فقد ذهبت سعاد بقلب كعب وارتبته ، فهو عندها مكبول لا يفك ، كما ذهبت أسماء بقلب زهير وارتبته ، فليس له عندها فكاك ، ولكن كعباً قد أوجز حيث أظن أبوه ، وأثر قافية أيسر وأحلى موقعاً من قافية أبيه . ثم يقول كعب :

وَمَا سَعَادُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ بَرَزَتْ
تَجَلُّو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ
شَجَّتْ بِذِي شِمِّ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَّةٍ
إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ
كَأَنَّهُ مَنَهْلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ
صَافٍ بِأَبْطَحِ أَضْحَى وَهُوَ مَشْمُولٌ

تَنْفِي الرِّيحِ الْقَدَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ مِنْ صَوْبِ غَادِيَةِ بِيضِ يَعَالِيلُ

وهذا المعنى أيضاً عليه طابع زهير ، وهو من معاني المدرسة ، إن صح هذا التعبير الحديث . فكعب يشبه سعاد بالظبي ، ثم يفصل بعض صفات الظبي ، ثم يلح في وصف ثغر سعاد الجميل ، وفي تشبيه ريقها بالخمير التي مزجت بالماء الصافي العذب البارد . وقد قال زهير في نفس هذا المعنى ، وفي القصيدة التي تحدثت عنها آنفاً :

قَامَتْ تَرَاءَى بَدَى ضَالٍ لِيَتَحَزُنَنِي وَلَا مَحَالَّةَ أَنْ يَشْتَاكَ مَنْ عَشِقَا
بِحَيْدٍ مُغْزَلَةٍ أَدْمَاءَ خَاذِلَةٍ مِنْ الظُّبَاءِ تُرَاعِي شَادِنَا خَرِقَا
كَأَنَّ رَيْقَهَا بَعْدَ الْكَرَى اغْتَبَبَتْ مِنْ طَيْبِ الرَّاحِ لَمَّا يَمْعُدُ أَنْ عَتَقَا
شَجَّ الشَّقَاةُ عَلَى نَاجُودِهَا شَبِيماً مِنْ مَاءِ لَيْنَةٍ لَا طَرَفَا وَلَا رَيْقَا

فسعاد كعب كأسماء زهير ، تشبه الظبي ، وريق سعاد كريق أسماء يشبه الخمر الممزوجة بالماء البارد العذب .
ويقول كعب :

وَيْلٌ أُمِّهَا خُلَّةٌ لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ بَوَعْدِهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّضْحَ مَقْبُولُ
لِكِنَّهَا خُلَّةٌ قَدْ سَيْطَرَ مِنْ دَمِهَا فَجَعٌ وَوَلَعٌ وَإِخْلَافٌ وَتَبْدِيلُ
فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغَوْلُ
وَلَا تَمَسُّكَ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءُ الْغَرَابِيلُ
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتِهَا وَمَا إِخَالُ لَدَيْنَا مِنْكَ تَنْوِيلُ
فَلَا يَفْرُغُ نَفْسُكَ مَا مَنَّتْ وَمَا وَعَدَتْ إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ

وهذا المعنى أيضاً قد سبق إليه زهير ، وطبعه بطابعه ، فهو من معاني المدرسة . ولكن كعباً قد أطنب حيث أوجز أبوه ، وكان في إطناب كعب جمال وروعة ، لأنه فصل من أخلاق سعاد ما لم يفصله أبوه من أخلاق أسماء ،

فزهير لم يزد على أن وصف أسماء بأنها أخلفت الوعد فرثت حبالها ، وذلك حيث يقول :

وَأَخْلَفْتِكِ ابْنَةَ الْبَكْرِيِّ مَا وَعَدْتِ فَأَصْبَحَ الْحَبْلُ مِنْهَا وَاهِنًا حَلَقًا

أما كعب فإنه يفصل هذا تفصيلا ، فيذكر تلون سعاد وتغيرها ، كما تتلون الغول ، ويذكر أنها لا تمسك العهد الذي تقطعه إلا كما تمسك الماء الغرابيل . وأظنك توافقني على ما في هذين التشبيهين من سداجة رائعة ، ثم يخلص كعب إلى ناقتة ، فيقول :

أَمَسْتُ سَعَادُ بِأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُهَا إِلَّا الْعِتَاقُ النَّجِيَّاتُ الْمَرَايِلُ

وأنا أريد أن أعفنيك ، وأن أعفني نفسي من حديث الناقة ، فإن لي فيه آراء لعلك لا تطيقها . ولكني أحب أن ألفتك إلى أن هذا النوع من شعر كعب وزهير قد أثر في الشعراء المعاصرين . ولست أصدق أن المصادفة وحدها هي التي أنطقت شاعراً معاصراً لكعب بهذه الأبيات الحلوة التي تشبه غزل كعب ، لا في المعاني والألفاظ وحدها ، بل في الوزن والقافية أيضاً ، وهذا الشاعر هو عبدة ابن الطيب ، وقد قال قصيدته التي أشير إليها بعد كعب من غير شك ، لأنه قالها في أثناء الفتح أيام عمر . وأنت تستطيع أن تقرأ هذه القصيدة في المفضليات ، فسرى فيها كثيراً جداً من معاني كعب وزهير ، ومن ألفاظ كعب وزهير أيضاً . وأولها :

هَلْ جَبَلٌ حَوْلَةَ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْضُولٌ أَمْ أَنْتَ عَنْهَا بَعِيدُ الدَّارِ مَشْغُولٌ

وقد قال كعب في ناقتة ما قال ، وما أراد الرواة المتكلفون له أن يقول مما تستطيع أن تقرأه وتدرسه إذا شئت ، ومما لا أكره أن أدرسه معك إذا أحببت ، ولكن على مذهبي الذي تعرفه .

قال صاحبني : وقاني الله شر هذا المذهب ، فإني لا أحبه ولا أرتاح إليه . قلت : فانظر إلى انتقال كعب من وصف ناقتة وتخلصه إلى تصوير خوفه وفرعه ، وضيق الأرض به ، وتنكر الناس له في هذا الشعر الجميل :

تَسَعَى الْوُشَاةُ جَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ إِنَّكَ يَا بَنَ أَبِي سُلَيْمٍ لَمَقْتُولٌ

وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أَمَلُهُ لَا إِلَهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

أفترى إليه وقد كثر من حوله الخائفون عليه ، والخوفون له ، والمرجنون به ، والنابون عنه ، وهو متأثر بما يرى وما يسمع ، خائف مما يرى وما يسمع ، حتى انتهى به الخوف إلى اليأس ، وحتى ضاقت به الأرض ، وحتى لم يجد من الهول ملجأ إلا إلى الهول :

كُلُّ ابْنِ أُنْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ
على أنه لم يكذب يذكر أن الذي يوعده هو رسول الله حتى انجلى عنه اليأس وثاب إليه الأمل :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولُ
فوازن بين هذا البيت وبين بيت آخر ، تذكره من غير شك إذا أنشدت هذا البيت ، وهو قول النابغة للنعمان :

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا مُقَامَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ
فسرى هذا الفرق العظيم بين هذين اللذين اللذين يوعدان فيخاف وعيدهما ، فأما أحدهما ، وهو النعمان . فوعيده مخيف موثس ، وأما الآخر فوعيده مخيف ، ولكن الأمل من ورائه ؛ لأن صاحبه هو النبي الذي عرف بالعمو والحلم والرحمة وسعة الخلق ، والذي أنزل الله عليه السكينة حين أنزل عليه القرآن :

مَهَلًا هَذَاكَ الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَوَاعِظٌ وَتَفْصِيلُ
لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ وَلَمْ أَذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقْوَابِ
وما يزال كعب يستعطف ، ويصور خوفه وفزعته . ثم يصور بأس النبي وقوته وحزمه ، ويذهب في ذلك مذهب زهير يشبه النبي بالليث ، كما شبه زهير « هرما » بالليث ، ولكنه يفصل من صفات الليث وبأسه ما لم يفصل زهير ،

حتى إذا فرغ من ذلك وصوره في أجمل لفظ وأروع ، انتهى إلى هذا المدح
الخالص الرائع الذي يحسن أن نختم به الحديث ، فقال :

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مَهْنَدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكٌ
فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بَيْطُنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤُلُوا
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلٌ مَعَاذِيلُ
سُمُّ الْعَرَانِينَ أَبْطَالَ لَبُوسَهُمْ مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَاسِ رَبِيلُ
بَيْضٌ سَوَابِغٌ قَدْ شُكَّتْ لَهَا حَلَقٌ كَانَتْهَا حَلَقُ الْقَفْعَاءِ مَجْدُولُ
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا بِمَجَازِيعًا إِذَا نِيلُوا
يَمْشُونَ مَشَى الْجَمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ صَرَبٌ إِذَا عَرَدَ الشُّوْدُ التَّنَابِيلُ
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ وَمَالَهُمْ عَنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلُ

قال صاحبي : إن مما يحزن حقاً أن يذهب شعر كعب ، فما أشك في
أنه لو بقى لنا لبقى لنا شعرائع حقيق بالإعجاب . قلت : حسبه هذه ! فما أرى
إلا أن مدحه فيها يعدل مدح زهير كله .

ساعة مع الحطيئة^(١)

أقبل على صاحبي جدلان فرحاً شديد النشاط وهو يقول : أما أنا فلست أعدل بالحطيئة أحداً ، ولا بشعره شعراً ، ولا بحديثه حديثاً ، فأنا مفتون بهذا الرجل ، وبما يروى له من الشعر ، وبما يتصل حوله من الحديث . قلت : لست أحسدك على هذه الفتنة ، فما أراك قد فتنت بخير . لئن كان شعر الحطيئة جيداً رائعاً ، من أجود ما قال العرب وأروعها ، فما كان الحطيئة ولا حديثه خليقين أن يفتنا أحداً من أصحاب الجدد . قال وهو يضحك : فن زعم لك أنى من أصحاب الجدد ؟ أو لست أنت وأمثالك من الذين يتجهمون للحياة والأحياء خليقين أن تملثوا الأرض جدا بعد أن ملثت دعاية وهزلاً ؟ أو ليس لى وأمثالى من الذين يحبون الابتسام ، ولا يقطبون جباههم لما تقبل به الأيام من الأمر ، أن نرضى إذا سخطم ، ونبسم إذا عبستم ، ونستقبل الحياة مبتهجين إذا استقبلتموها أنتم مكتئين ؟ ومن زعم لك أن حب الحطيئة والافتتان به مظهر من مظاهر الهزل ، أو دليل على الانصراف عن الجدد ! قلت : فإنى لم أزعم ذلك ، وإنما زعمت أن الحطيئة لم يكن صاحب خير وبر ووفاء ، فالكلف به والانصراف إليه كلف بالشر وانصراف إلى من لا يستحق أن يعنى به إلا العلماء الذين يدرسون ويكشفون . وقد عرفتك تكره الدرس والكشف ، ولا تحب أن تلم إلا بما يلهيك ويسليك . قال : فإن الحطيئة يلهى ويسليني ، ويجب إلى القراءة في كتب القدماء ، والتفكير فيما تركوا من الآثار ، وأنا أزعم أن حديث الحطيئة لا يثير ضحكاً ولا ابتساماً ، وإنما يثير في النفس رثاء وإشفاقاً ، فقد كان الحطيئة فى رأيي بائساً كأشد ما يكون البؤس ، محزوناً كألدع ما يكون الحزن ، مكتئباً كأقوى ما يكون الاكتئاب . ولو قد استقامت الأمور للحطيئة ، كما كانت تحب طبيعته أن تستقيم ، لكان خليقاً أن يكون له شأن آخر . قلت ضاحكاً : وكيف كان ذلك ؟ قال مبالغاً فى الضحك : زعموا أن ما

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ١٠ أبريل سنة ١٩٣٥ .

أدركه الخطيئة من تطوّر الحياة العربية قد أفسد عليه أمره الخاص ، وإن كان قد أصلح للعرب أمرهم العام ، فإنى أرى الخطيئة شاباً ذكياً قوى العقل ، حاد اللسان ، قد اتصل بزهير ، وأخذ يختلف إليه مع ابنه كعب فيسمع منه ، ويحفظ عنه ، ويروى شعره فى الأندية والمجالس ، ويحاول تقليده فيبلغ من ذلك ما يريد ، ويظفر منه بما كان يظفر به كعب ، ويرضى الأستاذ عن تلميذه أو عن تلاميذه ، ويجتهد فى تأديبهم ، وأخذهم بما كان يأخذ به نفسه من إتمام الشعر ، وتجويده والعناية به جملة وتفصيلاً . قلت : وكيف تكون العناية به جملة وتفصيلاً ؟ قال : لا تقطع على حديثي ، فإن العناية به جملة هى العناية بالقصيدة من حيث هى قصيدة ، والعناية به تفصيلاً هى العناية بالبيت ، بل بالشطر ، بل بالكلمة فى البيت أو فى الشطر ، والعناية بالمعنى من المعانى يطرقه الشاعر ، فلا يدعه حتى يحققه ويستوفيه ، ولكنك قد أهيتنى ، أو كدت تلهينى بهذه المقاطعة عما كنت آخذاً فيه ، فإنى أرى الخطيئة كما قلت متصلاً بزهير ، يتعلم عليه الشعر ، رواية وإنشاء ، ويرى أن يكون مثله الأعلى فى حياته كمثل أستاذه الذى كان الناس يعظمونه ، ويكبرون من شأنه ، قصاراه أن يتصل بجاعة من الأشراف يختصم بالمدح والثناء ، ويختصونه بالمنح والعطاء ، وقد نعم زهير حين اتصل بهرم بن سنان والحارث بن عوف المرّيين ، وحصن بن حذيفة بن بدر وأمثالهم من سراة غطفان ، فما يمنعه هو أن يتصل بجليل ناشئ من الأشراف ، كما اتصل أستاذه بهذا الجليل الفانى . وأكبر الظن أن كعباً كان كزيميله الخطيئة ، قد اتخذ أباه زهيراً مثلاً أعلى له فى الشعر ، وفى الحياة اليومية أيضاً ، ونحن نقرأ فى أخبار الخطيئة أنه كان يصاحب كعباً فى الاختلاف إلى زهير ، وكان يصاحبه فى الصيد واللهو ، وكان يتعاون معه على قول الشعر ، والإشادة بهذه المدرسة الشعرية التى أسسها أوس ، ورفع أمرها زهير ، وكان يريد أن يفرض هذه المدرسة على البيئة التى كان يعيش فيها فرضاً ، فهو يستعين بكعب على ذلك ، ويحمله على أن يقول الشعر يفضل فيه نفسه ، ويفضل فيه الخطيئة ، ويزعم لنفسه وللخطيئة التفوق فى الإجادة والانفراد بالإتقان ، ويضطر أخا الشماخ إلى أن يردّ عليه فيقذع فى الرد ، وقد أخذت أمور الخطيئة ، فيما يظهر من الأخبار القليلة المفرقة التى بقيت لنا ، تجرى على ما كان يجب ، فهو قد اتصل بعلقمة

ابنُ عائلة الكلابي ، وكان رجلاً من أشرف العرب وعظماهم ، وكانت مضاربه نحو الشام ، وهم الحطيئة أن ينقطع له ، وأن يظفر منه بمثل ما ظفر به زهير من أصحابه ، فهو قد دافع عنه ، وأحسن الإشادة به ، حين كانت الحصومة بينه وبين عامر بن الطفيل ، ولكن أمور العرب تتغير فجأة ، فإذا سلطان قريش يندك ، وإذا التوازن بين القبائل العربية في نجد والحجاز يختل ، وإذا وقعة حنين تحطم آخر مقاومة للعرب الجاهليين ، وإذا كلمة الإسلام هي العليا ، وإذا أشرف العرب وصعاليكهم وأوساطهم مصروفون عن هذه الحياة الجاهلية التي كانوا فيها ، إلى هذه الحياة الجديدة التي كان الإسلام يدعوهم إليها دعاء ، فأصبح يدفعهم إليها دفعاً ، وإذا أنظار هؤلاء العرب على اختلافهم لا تتجه نحو العراق ، حين كان ذلك السلطان العربي يضطرب في ظل الفرس ، ولا تتجه نحو الشام حين كان ذلك السلطان العربي يضطرب في ظل الروم ، ولا تتجه إلى مكة حين كانت قوة قريش وثروتها وقيامها دون البيت ، وإنما تتجه نحو المدينة حين كان هذا السلطان الجديد ينهض في قوة وأيد ، وفي بأس وسماحة أيضاً ، وحين كانت المثل العليا الجديدة قد استقرت ، وأخذت تبسط سلطانها على النفوس والقلوب ، كما أخذت تبسط سلطانها على الأجسام أيضاً . فأما كثرة الناس ، فقد دخلوا في هذا الأمر أفواجا ، وأقبلوا على النبي صلى الله عليه وسلم يسلمون أو يؤمنون . وأما أقل الناس فقد أبوا وامتنعوا ، ومنهم من أقام حيث هو ، ومنهم من تفرق في الأرض ، يهرب بحياته الجاهلية الغليظة التي كان يؤثرها من هذه الحياة الجديدة اللينة السمجة التي كان ينفر منها أشد النفور ! وما أرى إلا أن كعباً قد كان كالحطيئة ، نافرأ من الحياة الجديدة ، منصرفاً عنها ، متأذياً بها ، حريصاً على حياته الأولى تلك وعلى ما كان فيها من لهُ ومتاع وحرية لاتحد ، وما أظن إلا أنه كان خليقاً أن تصيبه مثل ما أصاب الحطيئة ، لولا أنه كان أرفع من الحطيئة شأناً ، وأنه منه ذكراً ، وأظهر منه مكاناً ، وأعجز منه عن الحرب والاستخفاء ، فاضطر إلى أن يذهب إلى المدينة ، ويلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويعتذر مما قدم ، ومن الله عليه بالهدى ، فثاب إليه ولزمه ، ولم ينحرف عنه . فأما الحطيئة ، فقد كان خامل الذكر ، لم يكن ابن زهير ، بل لم يكن معروف النسب ، وإنما كان يضطرب بنفسه ونسبه بين القبائل ، فهو مضرب حيناً ، وربيعي

حيناً آخر ، فكان هربه يسيراً ، وكان استخفاؤه هيناً . وأكبر الظن أنه لم يحتاج إلى هرب ، ولا إلى استخفاء ، وإنما ظل كما كان لم يخفل به أحد . والرواية كما نعلم مختلفون : فمنهم من يزعم أنه أسلم أيام النبي ووفد عليه ، ثم ارتد مع المرتدين أيام أبي بكر ، ثم تاب مع التائبين بعد ذلك ، ومنهم من يزعم أنه لم يسلم أيام النبي ، وإنما ظل على شركه وجاهليته ، حتى كانت الردة ، فاشترك في مقاومة المرتدين للإسلام ، اشترك بلسانه حين قال هذا الشعر الذي حفظ منه الرواية هذين البيتين :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ بَيْنَنَا
فِيَا لَهْفَتِي مَا بِالُ دِينَ أَبِي بَكْرٍ
أَيُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ
فَتَلَّكَ وَبَيْتِ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الحطيئة أخل ذكراً ، وأهون شأنًا ، من أن يظهر له خطر في الإسلام أيام النبي ، ولكنه اضطر حين انهزم المرتدون إلى أن يدعن لما أذعنن له العرب ، ويدخل فيما دخل فيه الناس ، فاتخذ لنفسه من الإسلام رداء ، لم يشك الرواية في أنه كان رقيقاً جداً يشف عما تحته من حب الجاهلية وإيثارها والحزن الشديد عليها ، رداء لم يحمد الله عليه كما حمد لبيد الله حيث يقول :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِنْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي
حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرًّا بِالًا

وأكد أعتقد أن الحطيئة لم يكذب يظهر الإذعان والطاعة والدخول في دين الله حتى حدثته نفسه أن ينفض هذا كله ، وأن يهرب إلى حيث يستطيع أن يعيش عيشته تلك التي كان يحبها ويهواها ، فالرواية يحدوثونا بأنه قصد إلى علقمة بن علاثة ، ذلك الذي اتصل به في الجاهلية ، ولم يكن ولاء علقمة للإسلام ظاهراً ولا صادقاً ولا مقطوعاً به ، ومن الرواية من يزعم أنه لم يسلم ، أو أنه أعان الروم على المسلمين . على أن الحطيئة لم يكن موفقاً ، فقد اصطلحت الظروف كلها على أن تمكر به وتناله بما لا يجب . فلم يكذب يدنو من أرض علقمة حتى بلغه أنه قد مات ، فعاد محزوناً أسفاً ، وقال قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا
وَبَيْنَ الْغِنَى إِلَّا لَيْالٍ قَلِيلٌ

ونظر الحطيئة بعد موت علقمة فإذا هو وحيد أو كالوحيد في هذه البيئة العربية التي كان يحبها ويهاها ، ويتخذ لنفسه فيها آمالاً عراضاً من الثراء ، وارتفاع الشأن ، وبعد الصوت ، وخص العيش ، ولين الحياة ، يرى الناس من حوله قد تركوا كل ما كانوا عليه أو أكثر ما كانوا عليه ، فأما شبابهم ، فقد تحولوا إلى المدينة ، أو أقاموا حيث كانوا ، ولكن قلوبهم تحولت إلى المدينة حيث الدين ، وحيث السلطان والقوة .

نظر الحطيئة فرأى كل شيء من حوله قد تغير إلا نفسه ، فإنها ظلت كما كانت شديدة الحنين إلى العهد القديم ، شديدة الامتناع على العهد الجديد ، محتاجة مع هذا إلى أن تعيش ، وإلى أن تعيش عيشة خمول وخمود ، فالناس منصرفون عن الشعر ، وأشرف العرب منصرفون عما كانوا فيه أيام زهير من هذه الحروب والخصومات التي كانت تطلق لسان زهير بما كان ينفعه من المدح والهجاء . نعم ، نظر الحطيئة ، فإذا هو غريب في وطنه ، خليع أو كاخلليع في داره ، مضطر إلى أن يلتمس الحياة بالسؤال ، يحملها من مكان إلى مكان ، ومن حى إلى حى ، ومن رجل شريف إلى رجل شريف . وإني لأراه ، وقد وفد على المدينة يلتمس الرزق ، وجمعت له قريش من العطاء ، فإذا هو يقوم في المسجد ويدعو ؛ من يحملني على بغلين ؟ وإني لأراه كذلك ، وقد خرج مع امرأته أمامة وابنته مليكة ، ومعه أجمال له ، فلما أدرسته القائلة نزل بمستراح وسرح أجماله ، ثم يقوم للرواح ، فإذا هو يفتقد جملاً من أجماله فيأخذ منه الحزن كل مأخذ ، ويقول هذين البيتين :

أَذِنْتُ الْقَفْرَ أَمْ ذِنْتُ أَنْيْسُ أَصَابَ الْبَكَرَ أَمْ حَدَثُ اللَّيَالِي
وَتَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثُ ذَوْدٍ لَقَدْ جَارَ الزَّمَانَ عَلَى عِيَالِي

فأين حياته هذه التي يملأها البؤس واليأس ، من حياته تلك التي كان يملأها الأمل والرجاء حين كان يختلف إلى زهير ، ويشارك كعباً في اللهو والصيد ، ويحاول أن يتصل بعلقمة بن علاثة ، أو بعينته بن حصن ، أو يزيد الخليل ، وقد أسره ومنّ عليه ؛ أين حياته هذه البائسة اليائسة ، من حياته تلك التي لم تكن تخلو من نعيم ومرح ، والتي كان يملؤها الانتظار لما ستشرق عنه شمس الغد من ارتفاع الشأن وحسن الثراء !

على أن بأس الحطيئة وحزنه لم يكونا فيما أرى مقصورين على حياته المادية ، بل كانا يأتياه من ناحيتين أخريين : كانا يأتياه من دخيلة نفسه التي لم تطمئن إلى الدين الجديد ، ولم تؤمن به فيما يظهر إلا تكلفاً ورياء ، واتقاء للسيف الذي لم يكن للعربي إلا أن يختار بينه وبين الإسلام ، فنفس الحطيئة لم تكن ساخطة على حياته المادية وحدها ، بل كانت ساخطة على حياته المعنوية أيضاً ، كانت ساخطة على هذه الحياة التي حالت بين عواطفه الجاهلية ، وبين أن تظهر وتنمو وتؤتي ثمرها كما كان يجب أن تؤتيه ، وتذوق لذات الحياة وآلامها كما كان يجب أن يذوقها . والناحية الأخرى هي ناحية جسمه ، فقد كان الحطيئة قصيراً جداً ، قريباً من الأرض ، ولهذا سمى الحطيئة كما يقول الرواة ، وكان دمياً قبيح المنظر مشوه الخلق ، لا تأخذه العين ، ولا تطمئن إليه ، فكان منظره بشعاً ، وكان من غير شك يحس اقتحام الأعين له ، ونبوها عنه ، فيسوءه ذلك ويؤذيه ، أضف إلى هذا كله أنه لم يكن مستقر النسب ، وإنما كان مدخولاً مضطرباً ، ينتسب هنا وينتسب هناك ، وكان العرب يعرفون منه ذلك ويذكرونه به ، ويزدرونه من أجله ، فكان الحطيئة مهاجماً من جميع نواحيه ، مضطرباً إلى أن يدافع عن نفسه من جميع نواحيه أيضاً ، كان سيئ الدين ، فكان محتاجاً إلى أن يتقى عواقب سوء الدين . كان سيئ الحال ، فكان محتاجاً إلى أن يرد عن نفسه عوادي القمر والبؤس والإعدام . كان مشوه الخلق ، فكان مضطرباً إلى أن يحمي نفسه من السخرية والاستهزاء ، وكان كل شيء يقوى في نفسه سوء الظن بالناس ، وقبح الرأي فيهم ، وكان ابتلاؤه للناس يزيده إسراعاً إلى ذلك وإمعاناً فيه ، فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يكره منظره ، ويتقى لسانه ، ويشترى الأعراض منه بالأموال . ولأمر ما تحدث الرواة بأن عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . وقصة الحطيئة مع عمر رائعة حقاً ، تملأ النفس حزناً وأسى ، وتملؤها إعجاباً بهذا الخليفة القوى الرحيم معاً ، وتملؤها إعجاباً بالحطيئة أيضاً . فأما عمر فقد ارتفع إليه هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر بالقصيدة المشهورة التي يقول فيها :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُعَيْتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فأظهر أنه لا يرى في هذا البيت شيئاً ، وليس من شك في أنه كان يرى في البيت شيئاً ، ومن ذا الذي يرتاب في فهم عمر للشعر وعلمه بأسراره ودخائله ؟ وهو أذكى قريش قلباً ، وأنفذهم بصيرة ، وأشدهم دقة حس ، ورقة شعور ، وهو الذي كان يحب زهيراً ويقدمه على الشعراء لأسباب فنية خالصة ، ولكن عمر كان يريد أن يدرك العقوبة بالشبهة ، وأن يتجاوز للشاعر عن هذه الهفوة التي لا يتحرج منها الشعراء ، وألا يعاقب على هذه القصيدة التي يقول فيها الحطيئة أصدق بيت قالته العرب في رأي أبي عمرو بن العلاء .

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدُمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وكان الزبيرقان شاعراً ، ولم يكن حسناً بعيداً عن عمر ، فلما سأله لم ينكر أن في البيت هجاء ، وهجاء قبيحاً ، فاضطر عمر إلى أن يعاقب الحطيئة ، ومن الرواة من زعم أنه همّ بقطع لسانه . ولكن هذا كذب من غير شك ، فليس قطع اللسان من العقوبات التي أذن الله بها للخلفاء ، وعمر أتى الله ، وأحرص على دينه من أن يتجاوز الحدود ، إنما اكتفى عمر بحبس الحطيئة . ولو وسعه ألا يفعل لما فعل ، ولكن العدل كان يقتضيه إرضاء الزبيرقان ، وقد استعطف الحطيئة عمر من سجنه بهذه الأبيات المشهورة ، فعطف عليه ، ورق له ، ويقال إنه بكى لما سمعها ، ثم أطلق الشاعر ، وأعطاه ما يمنعه من الهجاء .

ولست أدري أكان الحطيئة صادق اللهجة والعاطفة في هذه الأبيات التي وجهها إلى قلب عمر ! ولكن الشيء الذي لا شك فيه ، أنه عرف كيف يبلغ قلب هذا الرجل العظيم ، ويترك فيه أعظم الأثر وأبقاه ، فاسمع هذه الأبيات فسترى أنها لم تفقد جمالها ، ولن تفقده مهما تتغير الظروف وتتعاقب الأيام :

مَآذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بِيْذِي مَرَّخٍ زُغْبِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ
 أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاعْفِرْ عَلَيَّكَ سَلَامُ اللَّهِ يَا عُمَرُ
 أَنْتَ الْإِمَامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صَاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَ النُّهَى الْبَشْرِ
 مَا آثَرُوكَ بِهَا إِذْ قَدَّمُوكَ لَهَا لَكِنَّ لَأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الْإِثْرُ

وأما الحطيثة نفسه فهو خليق بالإعجاب حقاً إذا تبينا موقفه مع الزبرقان بشيء من الإنصاف ، فهو قد اطمأن إلى الزبرقان حين عرض عليه جواره ، وما فيه من أمن ولبن وتمر ، وهو قد سبقه إلى أرضه ونزل ضيفاً على امرأته ، وأقام وقتاً غير قصير ينتظر عودته ، ويلقى من امرأة الزبرقان جوداً مدخولاً إلى حد ما ، لأنها كانت تجهل مكانه ، أو لأنها كانت تغار من ابنته مليكة ، أو لشيء آخر . وكان خصوم الزبرقان من أبناء عمه يغرون الحطيثة ويرغبونه ، ويلحون عليه بالإغراء والترغيب ، والحطيثة يأبى عليهم ، ولا يريد أن يأخذ الزبرقان بتقصير امرأته وجهلها ، حتى إذا طال إهمال امرأة الزبرقان له ، وإعراضها عنه ، تحول إلى هؤلاء الذين كانوا يغرونه ، فتلموه أحسن لقاء ، ومنحوه فوق ما كان ينتظر ، وانتظروا منه هجاء الزبرقان فلم يفعل ، ودعوه إلى ذلك فلم يفعل ، وألحوا عليه ، وزادوا في إكرامه فلم يفعل ، ولكن الزبرقان بجرّ على نفسه الشر ، فأغرى بأبناء عمه من هجاءهم ، واضطر الحطيثة إلى أن يدافع عن هؤلاء الذين أكرموه وأغنوه ، فكان في دفاعه ما أغضب الزبرقان ، وانتهى بالحطيثة إلى سبعين عمر . أترى إلى هذا الرجل كيف وفي لصاحبه ، واحتمل إعراض امرأته ! وكيف وفي لصاحبه بعد أن تحول عنه ، ولم يهجه إلا كارهاً ! على أنه لم يسرف في هجائه ، وإنما غاظه وأحفظه حين أغرق في مدح خصومه وتفضيلهم عليه .

لا غرابة إذن في أن يكون الحطيثة شيئاً مخوفاً مرهوباً ، ما دامت ظروف الحياة قد اضطرته إلى ما رأينا من سوء الحال . ولا غرابة في أن تشيع عنه الشائعات ، وتكثر من حوله الأساطير ، ويصوره الرواة في هذه الصورة البشعة التي نجدها في الأغاني وفي طبقات الشعراء لابن قتيبة وفي طبقات الشعراء لابن سلام . ولست أستبعد أن تكون ظروف الحياة هذه قد غيرت نفس الحطيثة تغييراً ، فجعلته كما يقول الرواة جسعاً ستولاً ملحفاً في السؤال ، طويل اللسان ، مسرفاً في الاعتداء على الناس ، ولكن لا إلى الحد الذي يصوره الرواة ، فهم يزعمون أنه هجا أمه وأخاه وأباه ، وانتهى به الأمر إلى هجاء نفسه ، وهم يروون له في ذلك كله شعراً ، وليس من شك عندي ، في أن المبالغة قد أثرت في هذه الأحاديث آثارها ، ولكنها على كل حال تعطي من الحطيثة صورة كان القدماء ينفرون منها أشد النفر ، ولكنني أعطف عليها أشد العطف ،

فهي لا تدل إلا على أن الخطيئة كان بائساً شقيماً ، غريباً في هذا الطور الجديد من أطوار الحياة العربية ، كأنما ارتحل العصر الجاهلي ونسيه وحيداً في العصر الإسلامي ، فهو ضائع الرشد ، ضائع الصواب ، قد فقد محوره ، إن صح هذا التعبير . ولى على هذا دليلان : أحدهما : أن أكثر ما يروى عن الخطيئة من النوادر وغريب الأحاديث إنما يروى عنه في الإسلام لا في العصر الجاهلي ، فما بقي لنا من أخباره في العصر الجاهلي لا يصوره شاذاً ولا غريباً ولا مضطرب النفس ، إنما اضطربت نفسه في الإسلام ، لأن سماحة هذا الدين لم تمس قلبه الجاهلي العريق في جاهليته . والآخر أن أكثر ما يروى من النوادر عن الخطيئة ، لو حاولنا تأريخه ، يكاد يرجع إلى أيام عمر وأوائل أيام عثمان ، أى إلى هذا العصر الإسلامي الخالص ، الذى سيطر النظام الإسلامى الدقيق فيه على حياة العرب من جميع وجوهها . فلما تقدمت أيام عثمان ، وأقبلت أيام معاوية ، وظهر من سادة قريش وشبابها من عادوا إلى شيء من حياة فيها غير قليل من بقايا الحياة الجاهلية ، اطمأنت نفس الخطيئة بعض الشيء ، ولعلها ابتسمت للحياة قليلاً ، فقد اتصل الخطيئة بالوليد بن عقبة بن أبي معيط ، عامل عثمان على الكوفة ، وكان الوليد سيداً من سادات قريش ، لم تكد الفرصة تمكنه حتى استأنف حياة أقل ما توصف به أنها لم ترض المسلمين ، وأنها حملت عثمان على عزله عن الكوفة ، بل على أن يقيم عليه حد الشراب ، فيما تحدث الرواة . اتصل الخطيئة بالوليد فمدحه ، ومازلت أذكر حديث الوليد هذا مع لبيد ، فلما عزل الوليد ، كان الخطيئة أسرع الناس إلى مدحه ومواساته والثناء عليه ، في هذه الأبيات التى عبثت بها الشيعة فيما بعد ، فبدلتها تبديلاً ، وصرفتها عن موضعها . وسمع هذه الأبيات ، فسرى فيها وفاء الخطيئة للوليد ، وسرى فيها أيضاً صورة للمثل الأعلى عند الخطيئة للرجل الكريم :

شَهَدَ الْخَطِيئَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ	أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَذْرِ
خَلَعُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ	تَرَكَوْا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي
وَرَأَوْا سَمَائِلَ مَا جِدَّ مُتَبَرِّعٌ	يُعْطَى عَلَى الْمَيْسُورِ وَالْمُسْرِ
فَنَزَعَتْ مَكْدُوبًا عَلَيْكَ وَلَمْ	تُرَدِّدْ إِلَى عَوَزٍ وَلَا قَمَرٍ

ويقول المنفصل الضبي ، فيما يروى ابن الشجري ، إن من الرواة من يروى هذه الأبيات على نحو آخر ، وهو عندي وعندك ، فيما أذكر ، من تجنى الشيعة على الحطيئة والوليد أيضاً ، وهذه هي الرواية الأخرى :

شَهَدَ الْحَطِيئَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعَدْرِ
 نَادَى وَقَدْ كَمَلَتْ صَلَاتُهُمْ أَأَزِيدُكُمْ تَمَلًّا وَمَا يَدْرِي
 لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ فَعَلُوا لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّفْعِ وَالْوَتْرِ
 فَأَبَوْا أَبَا وَهْبٍ وَلَوْ فَعَلُوا زَادَتْ صَلَاتُهُمْ عَلَى الْعَشْرِ
 كَفَوْا عِنَانِكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ خَلَوْا عِنَانِكَ لَمْ تَرَلْ تَجْرِي

فليس من شك عندك ولا عندي في أن الرواية الأولى هي الصادقة ، وفي أنها تمثل حزن الحطيئة لما أصاب الوليد . على أنا نرى الحطيئة راضياً بعض الرضا أو كله ، حين تقدمت به السن ، ودنت به الأيام إلى القبر ، نراه عند سعيد بن العاص وإلى معاوية على المدينة ، وهو كالوليد بن عقبة سيد من سادات قريش ، قد اتخذ لنفسه ولن يلوذ به من الناس حياة فيها كثير من المحافظة التي تذكر بعبادات الجاهليين ، ومن التجديد الذي كانت تقتضيه سنن الاسلام ، فهو كريم يطعم الناس ، ويشهد عشاءهم بنفسه ، ونحن نرى الحطيئة عنده في ليلة من هذه الليالي التي كان يعشي فيها الناس ، وهو يتحدث بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، يسمر بذلك ويجد في السمر به لذة ، إليه يلجأ الفرزدق حين يريد زياد أن يعاقبه لاحتفاظه بعبادات الجاهلية وإسرافه في الهجاء ، وإليه يقصد الحطيئة نفسه ويمدحه بهذه الأبيات التي تصور شاعراً جاهلياً حقاً ، يمدح شريفاً من أشرف الجاهلية ، لا عظمياً من عظماء الإسلام . وعند سعيد بن العاص يلقي الحطيئة شاعراً شاباً هو الفرزدق ، ويسمع منه مدح سعيد فيعجب به ويثنى عليه ، ويراه صاحب لواء الشعر الجديد ، وكأنه يطمئن إلى ما سيلقاه من الموت قريباً حين يعلم أن الشعر لا بأس عليه . أليس قد زعم الرواة أن الحطيئة حين حضره الموت وسأله من حوله أن يوصي ، أوصاهم بالشعر خيراً ! واسمع هذه الأبيات التي يقوفاً في مدح سعيد :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَمْسَى عَلَى الْأَمْرِ سَائِسٌ
جَرَى عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ صَدْرُهُ
سَعِيدٌ وَمَا يَفْعَلُ سَعِيدٌ فَإِنَّهُ
سَعِيدٌ فَلَا تَغْرُزُكَ خَفَةُ لَحْمِهِ
إِذَا خَافَ إِصْعَابًا مِنَ الْأَمْرِ صَدْرُهُ
إِذَا غَابَ عَنَّا غَابَ عَنَّا رَبِّعُنَا
فَنَعْمَ الْفَتَى تَعَشُّوا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
بَصِيرٌ بِمَا ضَرَّ الْعَدُوَّ أَرِيبٌ
وَلِلْفَاحِشَاتِ الْمُنْدِيَاتِ هَيُوبٌ
نَجِيبٌ فَلَاهُ فِي الرَّبَاطِ نَجِيبٌ
تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وَهُوَ صَالِمٌ
عَلَاهُ فَبَاتَ الْأَمْرُ وَهُوَ رَكُوبٌ
وَنُسِقَى الْغَمَامَ الْغُرَّ حِينَ يَتُوبُ
إِذَا الرِّيحُ هَبَّتْ وَالْمَكَانُ جَدِيبٌ

ولم يكاد يفرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات ، فقد كان شديد الإعجاب بها ، لا يلقى البيت حتى يعيده ، ويطيل في تحليله والثناء عليه ، فلما فرغ بعد لأى من هذا الشعر وهم أن يمضى في حديثه ، قلت له : حسبك ! فما رأيت كالיום محامياً عن شاعر قديم . قال : إنك لتريد أن تقفنى عن الحديث ولما أبدأ ، فإني أتحدث عن شعر الخطيئة . قلت : فتحدث عنه إن شئت في الأسبوع المقبل .

ساعة مع الخطيئة^(١)

وما كاد يستقر بصاحبي مجلسه عندي حتى ابتدئني بالسؤال ، وهو يتسم ابتسامة فيها شيء من سخرية . فقال : أتعلم لماذا أحب الخطيئة ؟ قلت : ومن أعلمني ذلك ؟ إنما أعلم أنك تحبه وتغلو في حبه ، فأما تعليل هذا الحب فأمره عندك ، وقد أنبأتني بأنك ستبين لي عنه إذ التقينا اليوم ، فقل ما عندك ، فأني مستمع لك . قال : إنما أحب الخطيئة يا سيدي لأنه عبد من عبيد الشعر ، لا سيد من سادته ، فليس أبغض إلى ولا أثقل على من هؤلاء الذين يؤثرون أنفسهم ، ويزعمون لها القوة والتفوق ، ويتحكمون في الفن كأنهم قد ملكوا أعنته ، وهم لا يتخرجون من أن يقولوا ذلك ويجهروا به ، أليس من القول المستفيض في أحاديث الناس حين يتكلمون ، وفي رسائلهم حين يكتبون ، وفي نقدهم وتقريظهم حين ينقدون ويقرظون : إن فلاناً قد ملك أعنة البيان ؟ فأني أبغض هذا الذي يملك أعنة البيان ، وأزعم أنه إن كان صادقاً فبيانه أكذب البيان ، وأدبه أسخف الأدب ، وإنتاجه أسمح الإنتاج ، وهو لا يعدو أن يكون مشعوذاً متكثراً ، يقول عن غير علم ، ويصدر عن هذه الطبيعة السهلة التي لا تكلف صاحبها جهداً ولا عناء ، ولا تحمله مشقة ولا نصيباً ، وإنما تستجيب له كلما دعاها ، وتدفعه إلى الإنتاج دون أن يسألها الإنتاج ، فهي خليقة أن تغريه وتغويه ، وأن تخدعه عن نفسه وتخدع الناس عنه ، وأن تخيل إليه أن سهولة إنتاجه آية من آيات الخصب ، ومظهر من مظاهر الثروة والغنى ، على حين أنها ليست في أكبر الظن إلا آية من آيات الثثرة ، ومظهراً من مظاهر التفهيق الذي لا خير فيه . إنما الأديب عندي هو الذي يصنع أدبه ، ويعمله عملاً ، ويتهيأ له ، فيطيل التهيؤ ، ويفكر فيه فيمعن في التفكير ، ويتكلف لذلك من الجهد والمشقة مما يرضيه ويعنيه ، فيوفق حيناً ، ويخطئه أحياناً التوفيق ، ويشقى بما يلقي من الجهد والكد ، وينعم بما يتاح له من الإصابة والتوفيق .

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ١٧ أبريل سنة ١٩٣٥ .

هذا الشاعر الذي يغترف من بحر لا يعجبني ، لأنه قد يغترف فيصيب الجليد ويصيب الردىء ، ولأنه حين يغترف من بحر لا يعدو أن يكون أداة يعبث بها شيطان الشعر ، فينطقها بما يشاء كما يشاء ، لا متخيراً ولا مجوداً ، أما الشاعر الذي ينحت من صخر ، فهو الذي يعجبني ويرضيني ، لأنه لا يقول الشعر وإنما يعمل ، كما تحدث شاعرك الفرنسي الذي فتنتك فتوناً ، ولأن الشعر لا يصدر عن طبعه وحده ، وإنما يصدر عن طبعه وعقله وإرادته ؛ وأنا يا سيدي إنسان أكره أن أكون أداة ، وأحب أن أشعر بأني أريد ، وبأني لا أقول ولا أعمل إلا حين أريد ، وهذا الخطيئة الذي يتحدث عن نفسه لأنه كان يعوى في أثر القوافي كما يعوى الفصيل ، والذي يقول الأصمعي عنه : « إنه كان من عبيد الشعر » ، أحب إلى ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الذين تنهال عليهم القوافي انهبالاً ، وينثال عليهم الكلام انثيالاً ، وتواتبهم المعاني والألفاظ دون أن يطلبوها أو يلحوا عليها في الطلب ، وهو أحب إلى ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الأحرار الذين يتصرفون في القول ، كما يتصرف المالك في ملكه ، دون أن يتصرف القول فيهم قليلاً أو كثيراً . نعم يا سيدي ! إنى لا أخاف أحداً على الأدب كما أخاف هؤلاء الأدباء المطبوعين ، وهؤلاء الشعراء الموهوبين ، الذين يرسلون أنفسهم على سجيئتها ، ثم يفرضون علينا ما تجرى به ألسنتهم ، وتجيش به نفوسهم من الجليد والرديء على أنه عفو الخاطر ، ونتاج البديهة ، قد برىء من التكلف ، وسلم من التصنع ، وارتفع عن العمل والاحتتيال ، وليس معنى هذا أن الشاعر المتكلف المتصنع المحتال كما أفهمه أنا ، وكما فهمه الخطيئة وأمثاله ، ليس مطبوعاً ولا مرسلًا نفسه على سجيئتها ، كلا ! إنما هو مطبوع ، ولكن لأنه يريد أن يكون مطبوعاً ، وهو مرسل نفسه على سجيئتها ، لأنه يريد أن يرسلها على سجيئتها ، وهو ينتهي إلى الإجابة بعد البحث والدرس ، وبعد التحقيق والتحصيص ، وبعد الاجتهاد الطويل في اختيار الجليد ، وإسقاط الرديء ثم الاجتهاد الطويل بعد ذلك في اختيار أجود الجليد وإسقاط ما عداه ، هو رقيب نفسه قبل أن يراقبه غيره ، وهو ناقد فنه قبل أن ينقده غيره ، وهو منته إلى حيث انتهى الخطيئة ، وهو ملزم للأصمعي وأشباه الأصمعي أن ييرثوا شعره من العيب ، ويرفعوه عن كل ابتذال ؛ لهذا كله يا سيدي أحب الخطيئة وأكبره ، وأتخذته لي أستاذا وإماماً لو أتى موكل بقول الشعر ، ولكنني أتخذته

لى أستاذاً وإماماً فيما أحاول من كتابة النثر أحياناً ، فقانون التجويد الأدبي ليس مقصوداً على الشعر وحده ، بل هو يتناول الشعر والنثر جميعاً ، بل قانون التجويد والجد فيهِ والحرص عليه لا يتناول الأدب وحده ، وإنما يتناول الفن كله . وما أشد إعجابي بهذه الأبيات التي يضيفها القدماء إلى الخطيئة ، سواء أرضيت أنت نسبتها إلى الخطيئة أم أنكرتها عليه ! فهي تمثل مذهبه ، ومذهب أستاذه وأصحابه ، أصدق تمثيل وأنفعه :

الشَّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلْمُهُ إِذَا ارْتَسَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحَضِيضِ قَدَمُهُ وَالشَّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَطْلُمُهُ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهُ مَنْ يَسِمُ الْأَعْدَاءَ يَبْقَى مِسْمُهُ

وإذا لم تعجبك هذه الأبيات التي تعجبني ، فما أشك في أن أبيات كعب تعجبك وترضيك ، وهي أصدق تمثيلاً لمذهب المدرسة في الشعر ، وطريقتها في قوله أو في عمله إن أردت التدقيق . وقرأ هذه الأبيات ، فهي إلى أن تكون تصوراً لمذهب من المذاهب ، أدنى منها إلى أن تكون مفاخرة ودفاعاً عن شاعر من الشعراء :

مَنْ لِلْقَوَافِي شَانَهَا مَنِ يَحُوكُهَا إِذَا مَا تَوَى كَعْبٌ وَفَوَزَ جَرُولُ
كَفَيْتِكَ لَا نَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا تَنْخَلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا نَنْخَلُ
نُنَقِّفُهَا حَتَّى تَلِيْفَ مُتُونَهَا فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَنْ يَتَمَثَّلُ

فهم يتنخاون الشعر ويصفونه ، ولا يرسلونه إرسالا ، ولا يهملونه إهمالا ، وهم يقومون الشعر تقويماً ، ويثقفونه تثقيفاً ، يحاولونه ويزاولونه ، ويديرونه في عقولهم ، ثم يديرونه فيما بينهم ، ثم لا يذيعونه في الناس حتى يرضوا عنه ويطمئنوا إليه ، ومن هنا تستطيع أن تقرأ ما أحببت من شعر الخطيئة في المدح والهجاء ، وفي الوصف والرثاء ، وفيما يعرض له من الغزل القليل ، فلن تنكر منه شيئاً ، قد اختار لك شعره قبل أن تحتاج أنت إلى الاختيار . وقرأ معي هذه الأبيات التي كانت مصدر امتحان عمر بن الخطاب له بالسجن ، ثم حدثني أين ترى فيها العيب ، أو تحس فيها النقص ؟ وأي بيت منها تحتاج إلى أن تسقطه أو تلغيه :

والله ما معشر لاموا امرأ جُنباً في آل لآي بن شماس بأ كياس
 لقد مررتكم لو أن درتكم يوماً يجي بها منحي وإساي
 وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم كما يكون لكم منحي وإمراي
 وقد نظرتكم أبناء صادرة للخمس طال بها حوذى وتنساي

فانظر إليه كيف بدأ هذه الأبيات بلوم آل الزبيرقان لأنهم أنكروا عليه تحوله إلى آل شماس ومدحه إياهم ، ثم أراد أن يبين عذره فيما صنع من ذلك ، فأبان عن غرضه في أجمل صورة وأروعها وأدناها إلى أفهام هؤلاء الناس من أهل البادية ، حين مثل حاله معهم بحاله مع الناقة ذات اللبن القليل ، أو غير ذات اللبن ، يريد أن يخلبها فلا تدر له شيئاً ، فما يزال يمرى ضرعها ويمسه ويمسحه ، يتكلف من ذلك ما يريد وما لا يريد ، لعله يظفر بشيء ، ولكنه لا يصيب شيئاً ، ثم هو ينتظر وينتظر فلا يفيد الانتظار شيئاً . وانظر إلى كل ما قصد إليه من التشبيه والتمثيل ، فلن ترى شيئاً غريباً ، وإنما هي كلها معان قريية ، ألوفة يراها الأعراب ويعيشون عليها ، كلها معان لا تعدو حياة الأعرابي حين يبتغي اللبن عند ناقته ، أو حين يبتغي الماء مستقيماً من البئر ، أو حين ينتظر ، فإذا هو بوقت انتظاره بما تعودت العرب أن يوقتوا به في حياتهم اليومية ، من إيراد الإبل وإصدارها حين يوردون ويصدرون ، وهو في هذا كله يتبع زهيراً ويسير على نهجه ؛ فإنني لم أنس بعد ذلك التمثيل البديع الذي ذهب إليه زهير حين أراد أن يصور اضطراب عبس وذبيان بين الحرب المهلكة والسلم المدخولة ، فشبّه هذا كله بما يكون من رعى الإبل ، ثم ورودها إلى الماء ، ثم انصرافها إلى المرعى ، كذلك فعل الخطيئة فأحسن الإحسان كله ، لأنه إنما يقول شعره ، أو يصنعه للأعراب ، فلا بدّ من أن يفهم عنه الأعراب قبل أن يفهم عنه غيرهم من الناس ؛ والظريف الجميل الرائع أننا نحن نفهم عنه كما فهم عنه الأعراب ، ونعجب به كما أعجب به الأعراب ، وأى الناس يستطيع أن يحدد جمال هذه التشبيهات الرائعة الساذجة ، التي تكسب روحها من هذه الساذجة نفسها ! ثم اقرأ معي هذين البيتين :

لَمَّا بَدَأَ لِي مِنْكُمْ غَيْبُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي مِنْكُمْ أَمِي

جَمَعْتُ يَا سَأْمُرِيحًا مِنْ نَوَالِكُمْ وَلَنْ تَرَى طَارِدًا لِلْحَرِّ كَالْيَاسِ

أترى إلى البيت الأول ، وإلى الشطر الثاني من هذا البيت خاصة ، وإلى تشبيه الفم والبؤس والحاجة بالجرح ، وإلى تشبيه العطاء الذي يذود الفقير ويدفع البؤس ويرضى الحاجة بطبّ الطبيب الذي يأسو هذه الجراح ، أترى أيسر من هذا التعبير ، وأدنى إلى الفهم ، وأحسن وقعاً في النفس . وأبلغ تأثيراً في القلب ! ثم انظر إلى هذا اليأس المريح الذي انتهى إليه في البيت الثاني ، ثم انظر إلى قوله « ولن ترى طارداً للحر كالياس » . كيف أرسله مثلاً صادقاً خالداً على اختلاف الأزمنة وتباين الظروف ، وكيف جعله مصدر ثروة للشعراء الذين افتنوا بعده في اليأس وإراحته للباثسين ! ثم اقرأ معي :

مَا كَانَ ذَنْبٌ بَغِيضٍ أَنْ رَأَى رَجُلًا ذَا فَاقَةٍ حَلَّ فِي مُسْتَوْعِرٍ شَاسٍ
جَارًا لِقَوْمٍ أَطَالُوا هُونَ مَنْزِلِهِ وَغَادِرُوهَ مُقِيمًا بَيْنَ أَرْمَاسٍ
مَلَوْا قِرَاهُ وَهَرَّتْهُ كَلَابُهُمْ وَجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَاسٍ

أترى إليه كيف يدفع عن بغيض لوم اللاتمين ، وإنكار المنكرين ! فبغيض لم يزد على أن رأى رجلاً بائساً قد أقبل مستجيراً فلم ير من جاره برّاً ولا عطفاً ولا كرمًا ، وإنما نزل عندهم منزلاً وعرّاً ، وأحسّ منهم مللاً وسأماً ، ثم صدوداً وإعراضاً ، ثم جاءت منهم الملامة ، وانتهى إليه التقريع والتعنيف ، فعطف عليه بغيض فواساه وآسى جراحه ، وأرضى نفسه وحفظ كرامته ، وأحسن منزله ، أفيلام صاحب البرّ لأن غيره أبى أن يكون برّاً ؟ أفيلام المعترف بالحميل لأنه أبى أن يكون جاحداً كئوداً ؟ ثم اقرأ معي :

لَا ذَنْبَ لِي الْيَوْمَ إِنْ كَانَتْ نَفْسُكُمْ كَفَارِكِ كَرِهَتْ ثَوْبِي وَإِلْبَاسِي
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِإِبْغِيَّتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

وتستطيع أن تمضي في القصيدة كلها فلن تجد فيها بيتاً واحداً ينبو كله ، أو ينبو جزء من أجزائه ، أو يستحق إسقاطاً أو إلغاء ، وليس من شك في أن

الخطيئة نفسه قد أسقط من هذه الأبيات ما أسقط ، وألغى منها ما ألغى ، ولم يدع إلا ما رجح أنه خليق بالبقاء .

ولو أنك تركت هذه القصيدة إلى داليتة المشهورة ، ولم تقرأ منها إلا هذا المدح الخالد الذي يبقى على الدهر ، لما كان تأثرك بجمال هذا الشعر وروعته ، وصدقه ودقته ، وصفاء لفظه ، وارتفاع معناه ، بأقل من تأثرك بما رأيت في هذه القصيدة التي ننصرف عنها الآن . وقرأ هذه الأبيات :

وَإِنَّ التِّي نَكَبَّتْهَا عَنْ مَعَاشِرٍ غَضَابٍ عَلَىَّ أَنْ صَدَدْتُ كَمَا صَدَّوْا
أَتَتْ آلَ شَمَّاسٍ بِنِ لَأَى وَإِنَّمَا أَتَاهُمْ بِهَا الْأَخْلَامُ وَالْحَسَبُ الْعِدُّ
فَإِنَّ الشَّقَى مِنْ تَعَادِي صُدُورِهِمْ وَذُو الْجَدِّ مِنْ لَانُوا إِلَيْهِ وَمَنْ وَدَّوْا
يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنَاتُهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْخَفِيظَةُ وَالْحَدُّ

أليس من هذا البيت الأخير قد أخذ الأخطل ؟ أو أليس بهذا البيت الأخير قد تأثر الأخطل حين قال بيته المشهور :

شُمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَفَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَّرُوا
ثم اقرأ :

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيْبِكُمْ مِنْ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا
أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ كَانَتْ النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدَّوْا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جُلٍّ حَادِثٍ مِنْ الدَّهْرِ رُدُّوا بَعْضَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا
وَتَعَذَّلْنِي أَفْنَاءَ سَعْدٍ عَلَيْهِمْ وَمَا قَلْتُ إِلَّا بِالَّذِي عَلِمْتُ سَعْدُ

•••

لا تخدع نفسك ، ولا يخدعك غيرك عن الحق ، فقد كان الخطيئة بهذه القصيدة — ما روينا منها وما لم نرو — أستاذ الأخطل وإمامه حين مدح بني أمية بشعره الخالد في رائيته المشهورة .

وللحطيئة في هؤلاء الناس شعر كثير . له دالية أخرى مطلعها :

آثرتُ إدلاجي على ليلِ حُرّةٍ هَضِيمُ الحِشَا حُسَانَهُ المِتَجَرِّدِ
 إذا النّومُ ألهَاها عن الرّادِ خِلْتَهَا بُعِيدَ الكَرَى باتتْ على طيِّ مُجَسَّدِ
 إذا ارتفعتْ فوقَ الفِراشِ تَخَالُهَا تخافُ أنبِتاتِ الخَصْرِ ما لم تَشَدِّدِ
 عميقةٌ ما تحتَ النّطاقِ وَفوقَهُ عَسِيبٌ نَمّا في ناضِرٍ لم يُخَصِّدِ
 تراها تُغضُّ الطّرفَ دوني كما تَصَمَّنَ عَيْنَها قَدَى غيرِ مُفْسِدِ
 وتُفَرِّقُ بِلِمدْرِ أُنْبِئًا نَباتَهُ على وَاضِحِ الدَّفْرَى أُسَيْلِ المُقَلِّدِ
 تَصَوِّعَ رِيّاها إذا جِئتَ طارِقًا كَرِيحِ الخِزَامِي في نَباتِ الخِلالِ النَّدِي
 لها طيبَ رِيّا إن نَأْتَنِي وإن دَنَتِ دَنَتِ وَعَثَّةٌ فوقَ الفِراشِ المُمَهَّدِ

وإنما أقرأ هذه الأبيات عليك لتجد نفحة يسيرة من غزل الحطيئة الذي يقدمه بين يدي ما يقصد إليه من المدح والهجاء ، وإنك لتوافقتي ، من غير شك ، على أن الحطيئة ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى الغزل ، كما أنه ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى غيره من الفنون .
 وهل تذكر هزيمته التي أوّلها :

ألا قالت أمانة هل تعزّي فقلتُ أمامَ قد غلبَ العزاه

فما أشك في أن هذه القصيدة الرائعة قد تأثرت بقصيدة زهير التي مطلعها :

• عَفَا من الِ فَاطِمَةَ الجِوَاهِ •

والتي كثر فيها كما تقول خلط الرواة ، ولكن قصيدة الحطيئة هذه لم يفسدها الخلط ، ولشدّما أحب أن أقرأها عليك ، وأن أقف معك عند بعض أبياتها . قلت مبسّما : وهل تظن أني لم أقرأ هذه القصيدة ، ولم أقف عند أبياتها جميعاً ؟ ل : هذا قاصح ، لقد فتنني الحطيئة ، وأنساني أني أتحدث إليك ، وخيل إليّ أني أكتب فصلاً لصحيفة من الصحف ، أو ألقى محاضرة على جماعة من الطلاب ، ومع ذلك فإني أحب أن تسمع مني هذه الأبيات التي قالها الحطيئة يفضل فيها صاحبه علقمة بن علاثة على عامر بن الطفيل ،

فإني أرى في هذه الأبيات جدالة وصلابة ومتانة وارتفاعاً ، وأجد فيها جمالا
لا أعرف كيف أصوره ولكنه يملك على أمرى ، ولو أنى أطعت نفسى لقلت :
إني أجد في هذه الأبيات رجولة الشعر . ثم اندفع ينشد :

يا عامٍ قد كنتَ ذا باعٍ ومكرمةٍ لو أن مسعاةً من جاريتَهُ أممُ
جاريتَ قرمماً أجادَ الأحوصانِ به طلقَ اليدينِ وفي عرنيتهِ شممُ
لا يصعبُ الأمرُ إلا ريثَ يركبهُ ولا يبيتُ على مالٍ له قسمُ
ومثله من كلابٍ في أرومتها يُعطى المقليدَ أو يرُمى له السلمُ
هابتَ بنو مالكٍ مجداً ومكرمةً وغايةً كانَ فيها الموتُ لو قدّموا
وما أساءوا فراراً عن مجليّة لا كاهنٌ يمتري فيها ولا حكمُ

وله قصيدة أخرى يمدح بها علقمة وأولها

قلت : حسبك ! فإني أفهم أن ألح عليك أنا في رواية هذا الشعر لأحملك
على حب الشعراء القدماء ، فأما أن تستحيل داعية ، وقد كنت مدعوًا . فهذا
غريب .

ساعة مع عنتره^(١)

قلت لصاحبي : تحدث أنت عن عنتره إن شئت ، فإنني لا أعرف من أمره شيئاً ، أولاً لا أكاد أعرف من أمره إلا أن الناس كانوا يذكرونه ويتحدثون بحسن بلائه في الحرب ، وقل أنت في عنتره ما أحببت ، فإنني حسن الاستعداد للاستماع لك ، والرضى عما تقول ، والتصديق لما تقص من الأحداث والأنباء ، ولقد كثرت الحديث عن هذا البطل الجاهلي القديم ، كما لم يكتر عن أحد من الأبطال الذين عاصروه ، وقل مع ذلك ما يمكن الاطهئنان إليه من هذه الأحاديث التي ملئت بها الأسفار الضخام ، والتي أعانت الناس قروناً ، وما تزال تعينهم ، على أن يتخففوا من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها إذا أقبل الليل وفرغوا لأسمارهم فلا بأس بأن نقبل باسمين ما يروى عنه من الأخبار والأساطير ، ومن يدري ! لعل ما يرفضه العقل من أحاديث الأجيال الماضية ، أجدر أن يقبل ، وأحرى أن يصدق ، من هذه الأشياء التي يراها العقل حقائق ثابتة ، وأوراً لا يستطيع الشك أن يعرض لها ، فهذه الحقائق الثابتة التي تحمل اليقين ، أو ما يشبه اليقين ، إلى الناس ، كثيراً ما تحمل إليهم الحزن اللاذع واليأس الممض ، وكثيراً ما تصرفهم عن الخير صرفاً ، وتدفعهم إلى الشر دفعاً ، وتفسد في نفوسهم صور ما كانوا يحبون من الآمال العراض والمثل العليا ، وتمحوا من قلوبهم أثر ما كانوا يحرصون عليه من الثقة بالنفس ، والاطمئنان إلى الناس . قال صاحبي وهو باسم كالعابس : إن شكك المظلم هذا ليغيظني ويحفظني ، وإن إغراقك في طلب الحق ، والتحفظ حين تروى لك أنباء القدماء وأحاديثهم ، خلقي أن يرد قلبك إلى شيء من القسوة الساخرة ، أو من السخرية القاسية لا أحبه لك ، ثم انجلي العبوس عن وجهه وأشرق الابتسام في ثغره ، وقال : ولست أدري ماذا تنكر من أمر عنتره ! وما الذي تشك فيه من أنبائه أخباره ! لقد كان شجاعاً مقداماً ، وأى غرابه في أن يكون رجل من الناس شجاعاً مقداماً !

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ٨ مايو سنة ١٩٣٥ .

لقد كان يفعل الأفاعيل ، ويملاً قلوب خصومه فرعاً وربعاً ، ويغير من حوله كل شيء . وأى غرابة في هذا كله أو بعضه ! صدقتي أن العقل الإنساني يغر نفسه فتغتر ، ويخدع نفسه فتخدع ، وهو مغرور حين يصدق ، وهو مغرور حين يكذب ، وهو مغرور في حالي الشك واليقين جميعاً . وإن بين المعاصرين الذين نلقاهم فنسمع منهم ، وتحدث إليهم ، وتقص علينا أباؤهم وآثارهم ، فيما يحيط بهم من الأشياء ، ومن يحيط بهم من الناس ، لقوماً ستنكر الأجيال المقبلة من أمرهم ما تنكره أنت من أمر عنزة ، ولو أنهم عاشوا منذ قرنين أو قرون لأنكرتهم ولشككت فيهم ، كما تنكر عنزة وتشك فيه ، وهل تظن أن الأجيال المقبلة ستصدق ما سيؤثر لها عن عنزة هذا العصر الحديث ! ألسنت ترى أنهم سيلقونه بمثل ما تلقى أنت به عنزة العرب الجاهليين من الشك والإنكار ، ومن السخرية والدعابة ، ومن الاستماع لأحاديثه مبتسماً ، وإظهار التصديق لهذه الأحاديث في كثير من الرفق والإشفاق ، وأنت تضمص التكذيب العنيف البغيض ! قلت : ومن عسى أن يكون عنزة هذا العصر الحديث ؟ قال : فابحث إن كنت لا تعرفه عن أعظم الناس المعاصرين حظاً من البطولة وأحسنهم بلاء ، كلما ألمت ملمة أو ادلم خطب ، وأشدهم صرفاً للناس إلى نفسه وحديثه عن كل شيء ، وعن كل إنسان ، وعن كل حديث ، وأحقهم أن يستقبل بحديثه الليل إذا آن أوان السمر وأراد الناس أن يتخففوا كما نقول من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها ويتسلوا عن آلامها ، باللذيد الطريف من هو الحديث . قلت : ما أرى إلا أن يكون وزير التقاليد ، قال : هو هذا ، أفنتظن أن الأجيال المقبلة ستصدق من أخباره ما يذاع ويشاع ، وما تصدقه أنت الآن كل التصديق ؟ ألسنت ترى أن وزير التقاليد إذا بعد به العهد ، وطال عليه الزمان سيصبح أسطورة من الأساطير ، وقصة من القصص ، وسينكر الناس من أمره وأحاديثه مثل ما تنكر أنت من أمر عنزة وأحاديثه ! فقد كان القدماء يرون عنرتهم معجبتين به مصدقين لأخباره ، كما تعجب أنت بوزير التقاليد وتصدق أخباره ، وتتخذ مثلاً أعلى في كل ما يمكن أن تتخذ فيه المثل العليا ! ثم بعد العهد وطال الزمن ، فذهب القدماء ، وذهب معهم بطلهم العظيم ، وأخذت أنت وأمثالك تشكون فيهم وفيه ، وسيبعد العهد ، وسيطول الزمن ، وسيخلف خلف من الناس لا ينظرون إلى وزير التقاليد ، إلا كما

تنظر أنت إلى عنتره ، ولا يعجبون بوزير التقاليد ، إلا كما تعجب أنت بعنتره ، ولا يصدقون ما يروى لهم عن وزير التقاليد ، إلا كما تصدق أنت ما روى لك عن عنتره ، ومع ذلك فهل تستطيع أن تشك في هذا البلاء الحسن الخالد العظيم الذى أبلاه وزير التقاليد فى الجامعة ، وفى وزارة المعارف ، وفى فروع التعليم ، وفى مدارس الصناعة والزراعة ، وفى معاهد التمثيل ؟ كلا ليس إلى الشك فى هذا البلاء من سبيل الآن ، ولكن سيكون إلى الشك فيه بعد حين ألف سبيل وسبيل .

وأنت تشك فيما يضاف إلى عنتره القديم من الشعر ، وتزعم أن الرواة قد صنعوه صنفاً ، وحملوه عليه حملاً ، فسيخلف من الناس خلف يشكون فيما يضاف إلى وزير التقاليد من الخطب والمقالات والأحاديث ، ومن يدري ! لعلهم يزعمون أن قد كان فى عصر وزير التقاليد من الموظفين الموصولين به والمنقطعين إليه ، من كانوا يصنعون الخطب والمقالات والأحاديث ، ينفقون فيها بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا استقامت له أذاعوها فى الناس ، وحملوها على الرجل حملاً ، وهو منها برىء كل البراءة ! ومن يدري لعلهم يمارون فيما قد يروى لهم من الشعر الرائع الذى يوصف فيه الدجاج ، وتصور فيه الأرناب ، ويزعمون أن وزير التقاليد لم يعرف أرناب ولا دجاجاً ، ولم يقل فيها شعراً ولا نثراً ، وإنما هو كلام حمل عليه حملاً ، وأضيف إليه إضافة ، وذهب به أصحابه مذهب الدعاية والمزاح ؟

لا تسرف فى الشك إذن ، ولا تغل فى المراء ، ولا تستقبل أحاديث عنتره وشعره بهذا الاستخفاف ، فإن لكل عصر عنترته ، والرجل العاقل هو الذى يجتنب الغرور ما استطاع اجتنابه ، ويطرح الشك ما استطاع اطراحه ، ويصدق ما يقوله الناس دون إغراق فى البحث والاستقصاء ، وفى التحقيق والتحصيص ، ومع ذلك فما الذى يعينك من أحاديث عنتره إن صحت أو لم تصح ! وما الذى يعينك من شعر عنتره إن ثبت أو لم يثبت ! ألم نتفق منذ أخذنا فى هذه الأحاديث على أننا لا نلتمس فيها تحقيقاً ولا تمحيصاً ؟ وإنما ندع التحقيق والتحصيص للجامعيين فى جامعتهم ، ولتلمس هذا الجمال الفنى الذى يعجب القلوب ، ويلذ العقول ، ويرد إلى النفوس أملاً بعد يأس ، وإبهاناً بعد اكتئاب ، ونشاطاً بعد فتور ! فهل تستطيع أن تنكر أن أحاديث عنتره وما يضاف إليه

من الشعر مملوءة كلها بهذا الجمال الفنى الذى أَرْضَى الناس وأمتهم قروناً طويلاً ،
وسيرضيهم ويمتعمهم قروناً طويلاً أخرى ؟ وهؤلاء اليونان الذين فنتت بهم فتوناً ،
وجنتت بهم جنوناً ، كانوا يعجبون بهوميروس وأبطاله وأحاديثه ، وكانوا يؤمنون
بوجود هذا الشاعر ووجود أبطاله ، وصدور أحاديثهم عنهم ، كما صورها فى
شعره الخالد ، ثم جاء العقل الحديث ، فغير هذا تغييراً ، ورفضه رفضاً ،
فهل قلّ من أجل ذلك إعجاب الناس بهوميروس وشعره ، وبأبطال هوميروس
وأساطيرهم !

قلت : فىنى لا أفهم فيم كل هذا الحديث الطويل ، ولم أنكر شيئاً ،
ولم أمار فى شيء ، وإنما دعوتك إلى ما تحب من الحديث ، وأعلنت إليك
استعدادى لما ترغب فيه من الاستماع . قال : فىنى لا أحب هذه السخرية ،
ولا أَرْضَى منك هذا الترفع الذى يملك على إظهار ما تظهر من عطف وإشفاق
على القدماء وأحاديث القدماء ، وعلى المحدثين الذين يصدقون هذه الأحاديث
ويطمئنون إليها . قلت : فىنى لا أترفع ولا أظهر عطفاً ولا إشفاقاً ، وإنما أنا
مخلص كل الاخلاص فيما أعلن إليك من حبي لعنترة وأحاديثه ، وحرصى
على أن أسمع لما ستقص على من هذه الأحاديث ، ولما ستظهر لى من جمال
ذلك الشعر الجميل . قال : ومن زعم لك أنى قد استحلت قصاصاً يحدث
بأحاديث عنترة ، كما يفعل المتحدثون فى هذه القهوات الوطنية ! هذه أشياء
أحبها وأكلف بها ، ولو استطعت لأنفقت وقتى كله فى الاستماع لها ، والاختلاف
إلى مجالسها ، ولو استطعت لانصرفت عن أكثر هذا الجلد الذى أنفق فيه وقتى ،
إلى قراءة هذه الكتب التى تقص أنباء عنترة وسيف وأبى زيد ومن يشبههم من
الأبطال ، نعم ! هذه أشياء أحبها وأكلف بها ، وأرى فيها المتاع كل المتاع ، ولكن
لا أحسنها ، ولا أجيد التحدث بها ، كما يجيده أصحابها ، إنما أحب أن أتحدث ،
أو نتحدث إن شئت ، عن هذه القصيدة المطوّاة التى تضاف إلى عنترة وتعدّ
بين السبع أو بين العشر المطوّلات ، والتى مهما تنكرها وتشك فيها ، فلن تستطيع
أن تنكر أنها قصيدة قديمة ، كان القدماء ينشدونها ، ويتغنون بكثير من
أبياتها فى القرن الأول للهجرة ، وكان علماءهم يرضون عنها ويعجبون بها ،
ويسجلونها بين روائع الشعر العربى القديم فى القرن الثانى والثالث للهجرة .
قد لا يكفيك هذا ، ولكنه يكفينى ، ويجب أن تكفى به أنت حين تخرج

من طور المحقق الممحص ، إلى طور الفنان الذى يلتمس المتعة والجمال ، وأنا أعرف أنك لا تطمئن إلى ما فى هذه القصيدة من سهولة ولين ، قلما يوجدان فى الشعر النجدى القديم ، ولكنك تطمئن إلى شعر الحطيمته وهو من نجد ، وفى شعره مثل ما فى هذه القصيدة من هذه السهولة التى لا تخلو من فخامة ، ومن هذا اللين الذى لا يبرأ من جزالة ، ولست أدرى ما بالك قد وكلت بإنكار الشعر القديم كلما ظهرت فيه سهولة ، أو بدا فيه لين ، مع أنك تريد أن تحجب إلينا الشعر القديم ، وهل تظن أن شيئاً يستطيع أن يحب إلينا هذا الشعر ويزينه فى قلوبنا ، ويحملنا على أن نسمعه ونتبعه ونحفظه وننشده ونتغناه ، كما يستطيع ذلك ما قد يظهر فيه من سهولة ويبدو فيه من لين ؟ إنك تحب قصيدة لبيد ، وأنا أيضاً أحبها ، ولكنك تستطيع أن تكتب فى نقد هذه القصيدة وإطرائها فصولاً طويلاً دون أن تظفر بتحببها إلى نفوس الشباب ، لأنها أضخم وأفخم من هذه النفوس الرقيقة المترفة ، إنما يحب الشباب قصيدة لبيد حين تترجم لهم ترجمة ، وتفسر لهم تفسيراً ، وتعرض عليهم صورها الشعرية الرائعة فى لغتهم السهلة المألوفة ، فأما قصيدة عنتره هذه فاقرأها على الشباب ، فسيفهمون منك أكثرها ، لا يحتاجون إلى تفسير ، ولا إلى ترجمة ، لأنها واضحة جليلة ، ولأنها سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين نفوسهم حجاب من هذه الجزالة التى تكاد تبلغ الغرابة ، ومع ذلك فقد ذهب صاحب هذه القصيدة مذهب غيره من الشعراء القدماء فسار سيرتهم ، واتبع سنتهم ، وذكر الديار كما ذكروها ، ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والجود والنجدة ، كما افتخروا بكل هذه الخلال ، ولكنه أسهل ولم يحزن ، ويسر ولم يعسر ، وارتفع عن الإسفاف والابتذال ، دون أن يتورط فى الغلظة والإغراب ، وانتهى إلى معان قلما انتهى إلى مثلها غيره من الشعراء ، وما أرى أن ابن سلام قد أخطأ حين قال إن هذه القصيدة نادرة فهى نادرة حقاً ، ولست أدرى أتحمس حين تقرأ هذه القصيدة مثل ما أحس ، وتجد مثل ما أجد ! فإني أحس كأن القصيدة طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، ولكن فيها نغمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة إلى أن تنتهى ، تظهر واضحة حيناً وتحسبها النفس ، وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر . وهذه النغمة التى تكون وحدة هذه القصيدة كما كوّنت الوحدة فى قصيدة

ليبد ، هي حديث الشاعر إلى صاحبتة ، واستحضر صورها في نفسه منذ
ابتدأ إلى أن انتهى ، ولكن بين هذه النغمة في قصيدة عنتره وقصيدة لبيد فرقاً
واضحاً جداً ، فهي في قصيدة عنتره حلوة رقيقة ، تمازج النفس فتمترج
بها ، لأن عنتره فيما يظهر قد كان حلواً النفس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة ،
جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد رقى ، فهو قد تألم في طفولته
وصباه ، واحتمل الأذى في شبابه وأى أذى ! هذا الذل يداخل النفس ،
ويختلط بها اختلاطاً ، فيصنئ عواطفها تصفية ، ويلطف مزاجها تلطيفاً ،
على حين تجد هذه النغمة من لبيد غليظة بعض الشيء ، لا تخلو من خشونة
وجفاء بدوى ، فليبد يتحدث عن صاحبتة في أول القصيدة ، ويذكرها في
أثناء القصيدة ولا ينساها ، ولكنه ليس مهالكاً عليها ، ولا فانياً فيها ، ولا متحرجاً
من الإعراض عنها ، وجزاها بمثل ما تجزيه به من الهجران والصدء ، فهو يلتق
قطيعة بقطيعة ، ونأياً بنأى ، أما عنتره فيقول لصاحبتة :

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فَلَا تَطُئِي غَيْرَهُ مِثِّي بِمَنْزِلَةِ الْمَحَبِّ الْمُكْرَمِ

وفي عنتره تحجب إلى صاحبتة ، وتهالك عليها ، وحين متصل إليها ،
فهو إذا فخر لا يفخر على صاحبتة ، وإنما يفخر لها ، يريد أن يقنعها بأنه
خليق أن تحبه وتميل إليه ، وليست رقة عنتره مقصورة على صاحبتة ، بل هو
رقيق بالقياس إلى عدوه الذى يقتله ويمثل به ، أليس يقول :

فَشَكَّتْ بِالرُّمْحِ الطَّوِيلِ ثِيَابَهُ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحْرَمِ

بل هو رقيق على فرسه ، يألم لألمه ، ويشقى لشقائه ، ويرى بكاءه ،
ويسمع توجعه حين تعث به رماح الأعداء ، ويجعل نفسه ترجماناً له ، فيقول :

فَاذْوَرَّ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلْبَانِهِ وَشَكَاَ إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمِ
لَوْ كَانَ يَدْرِى مَا الْمَحَاوَرَةُ اشْتكى وَلَسَكَانَ لَوْ عَامَمَ الْكَلَامَ مَكْلَمِي

وفي عنتره معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق دون أن تنهى الرقة
به إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنهى الشدة به إلى العنف ، وهو صاحب
شراب ، دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب

صو ، دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عنيف إذا قسمت الغنائم ، وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي الكريم ، فيذكر هذه الخصال التي أشرت إليها ، ثم يحس كأنه لم يحظ بخلاله كلها ، وأخلاقه كلها ، فيقول هذا الشطر الرائع :

• وَكَأَعْلَمَتِ شِمَائِلِي وَتَكَرَّمِي •

وكثير جداً من أبيات هذه القصيدة قد ظفر بحظ عظيم من الإيجاز والامتلاء ، والبراءة من اللغو والفضول ، حتى جرى مجرى الأمثال ، فأى الناس لا يتمثل قوله :

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى وَكَأَعْلَمَتِ شِمَائِلِي وَتَكَرَّمِي
وأى الناس لا يتمثل قوله ؟ :

يُنْذِبُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنِّي أَغْشَى الْوَعْيَ وَأَعِيفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
وأى الناس لا يتمثل قوله ؟ :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمَوْتٍ وَلَمْ تَدْرُ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي صَمَّعَمَ
وأى الناس لا يتمثل قوله ؟ :

الشَّائِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمُهُمَا وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ الْقَهْمَا دَمِي
أليس من هذا الشطر الأخير أخذ جميل بيته المشهور :

فَلَيْتَ رَجَالًا فِيكَ قَدْ نَدَرُوا دَمِي وَهَمُّوا بِقَتْلِي يَا بُيْتِينَ لَقُونِي
وأى الناس لا يتمثل قوله :

إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمِ

كل هذه القصيدة ، أو أكثر هذه القصيدة ، يجرى مجرى المثل ، وينشد على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، فلا يمل إنشاده ، ولا

تحسن النفس نبواً عنه أو نفورا منه ، وإنما تحسن كأنها تجرى فيه ،
وكأن هذا الشعر مرآة صافية صادقة لكل نفس كريمة ، ولكل قلب ذكى ،
ولكل خلق نقي . تستطيع أن تقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها ، فستجد فيها
هذا المعنى الذى أشرت إليه ، لافرق فى ذلك بين غزل ووصف ، وفخر ووعيد .
ولا أكاد استثنى إلا هذه الأبيات القليلة التى ذكر الشاعر فيها ناقته ، ومع
ذلك ، فإن هذه الأبيات إن لم تجر مجرى الأمثال ، وإذا كانت كغيرها
مما قال الشعراء فى وصف الإبل ، فإنها لا تخلو من شىء طريف . انظر إلى
هذا البيت الذى يشبه فيه الظلم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه
الإبل ، وانظر إلى هذا التعبير الطريف عن العبد الأسود الذى لا يحسن الإعراب
عما يريد :

تأوى له قُلُوصُ النَّعَامِ كَمَا أَوَتْ حِرَاقُ يَمَانِيَّةٍ لِأَعْجَمَ طِعْمِمْ

وهل يمكن أن أهمل هذه الأبيات التى كان القدماء يحبونها ويعجبون بها
أشد الإعجاب ، وهى هذه التى يصف فيها ثغر صاحبه بالجمال وطيب النشر ،
فيذكر فأرة المسك ، ويذكر الروضة الأنف التى ألح عليها الغيث حتى
زكا نبتها ، وحتى كثر فيها الذباب مبهجاً نشوان ، متغنياً بما يجنى من طيباتها :

وَكَانَ فَأَرَةً تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ سَبَقَتْ عَوَارِضُهَا إِلَيْكَ مِنَ النَّعْمِ
أَوْ رَوْضَةً أَنْفًا تَضْمَنَ نَبْتَهَا غَيْثٌ قَلِيلُ الدَّمَنِ لَيْسَ بِمُعْلَمِ
جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بَكْرٍ حُرَّةٍ فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدَّرِّهِمْ
سَحًّا وَتَسْكَابًا فَكُلَّ عَشِيَّةٍ يَجْرِي عَلَيْهَا الْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ
وَخَلَا الذَّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِحِ غَرْدًا كِفْعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَسِّمِ
هَزَجًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ قَدَحَ الْمُسْكَبِ عَلَى الزَّنَادِ الْأَجْدَمِ

وانظر معى إلى هذه الأبيات الأربعة ، فلست أعرف أبلغ منها فى تصوير
الحنين والحب واليأس معاً :

حِيَّتِ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمَّ الْهَيْمِمْ

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَى طِلَابِكِ ابْنَةَ مَخْرَمٍ
 عَلَّقَتْهَا عَرَضًا وَأَقْتَلُ قَوْمَهَا زَعَمًا لَعَمْرُ أَيْكَ لَيْسَ بِمَزْعَمٍ
 وَلَقَدْ نَزَلَتْ فَلَا تَطْمَئِنِّي غَيْرَهُ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحِبِّ الْمَكْرَمِ

كل القصيدة جيدة، وكل أبياتها خليق أن نطيل الوقوف عنده ، والتفكير فيه ، والإعجاب به . قلت : فإني لا أنكر عليك من هذا شيئاً ، ولكني لم أفهم إقحامك لوزير التقاليد في هذا الحديث . قال : فإني يا سيدي رأيتك فأتراً عن حديث عنبرة القديم ، فأردت أن أثير فيك النشاط بذكر عنبرة الحديث .

ساعة مع سويد بن أبي كاهل^(١)

قلت لصاحبي وهو يتهيأ لقراءة إحدى المطولات المعروفة : أريح نفسك وأرحني اليوم من هذه المطولات ، فقد أكثرنا القول فيها ، وتعال نقرأ مطولة أخرى ، ليست شائعة ولا ذائعة في هذه الأيام ، وإن أذاعتها المطبعة في غير كتاب ، وإن كانت في العصر القديم شائعة ذائعة يحبها العرب ، ويكلفون بها ، ويتمثل الخطباء المحيّدون بأبياتها ، ويحرص الرواة على روايتها ، ويؤثرونها على كثير من الشعر ، ويزعمون أن العرب كانت تسميها اليتيمة . قال صاحبي : وما عسى أن تكون هذه القصيدة ؟ قلت : هي عينية سويد بن أبي كاهل ، وهو كما تعلم شاعر جاهلي أدرك الإسلام وعمر فيه غير قليل ، وجعل الرواة أكثر أمره ، ولم يعرفوا عنه إلا أنه كان مختلط النسب ، ينتسب في ربيعة حيناً ، وفي مضر حيناً آخر . وقد اجتهد الرواة في تعليل هذا الاختلاط ، فزعموا أنه ولد في قيس من مضر ، ثم تزوجت أمه أثناء طفولته رجلاً من ربيعة فانتسب إليه وإلى قبيلته .

والشاعر على كل حال يمدح الربيعين في قصيدته هذه التي سنقرؤها ، ويهجوهم ويمدح المضربين في قصيدة أخرى . ، أو في قصائد أخرى .
ويحدثنا الرواة أن هذا الشاعر كان هجاء فاحش اللسان ، وأن أميراً من أمراء الكوفة حبسه في الهجاء فأطال حبسه ، ولم يخرج من السجن إلا جماعة من عبس ، وهي قبيلة قيسية مضرية كما تعلم ، وإنما أعانته هذه القبيلة لما أهدي إليها من المدح والثناء ، فهي قد عرفت له يده عندها . ولا يكاد الرواة يعرفون بعد هذا من أمر الشاعر شيئاً إلا أن شعره كان يجري مجرى المثل على السنة الخطباء والأمراء والشعراء ، فقد تمثل به عبد الله بن الزبير ، وتمثل به الحجاج ، وتمثل به الفرزدق أيضاً ، وتمثل به غير هؤلاء من أعلام الناس . وكان الأصمعي - فيما روى أبو الفرج - يعجب بعينيته هذه إعجاباً شديداً ؛

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ .

وكان ابن سلام يزعم أن له شعراً كثيراً ، ولكن هذه العينية امتازت منه وبرزت عليه ، ثم حاول ابن سلام أن يروى له شيئاً من هذا الشعر الكثير فلم يزد على بيت واحد . وروى أبو الفرج له أبياتاً متفرقة من قصائد مختلفة ؛ ولم يرو له ابن قتيبة حين أراد أن يترجم له إلا أبياتاً من هذه العينية الرائعة .

وأظنني قد ألمت بأكثر ما عرفه القدماء من أمر هذا الرجل ، فهم كما ترى لم يعرفوا منه إلا هذه القصيدة ، وهي خليقة أن تعرف وتحفظ حقاً ، ولست أدري كيف لم ترو بين هذه المطولات التي كثر فيها الكلام وانتشرت حولها الأساطير ، ولكن في الشعر القديم قصائد أخرى جيداً ليست أقل جودة ولا روعة من هذه المطولات السبع أو العشر ، وهي مع ذلك لم تظفر بمثل ما ظفرت به المطولات من العناية وكثرة الذكر والرواية ، وليس عبث الحظ مقصوراً على الناس ، فهو ينال الأشياء أيضاً ، وهو ينال الشعر والنثر فيما ينال .

وأظنك ستوافقتني على أن هذه المطولة البديعة من أروع الشعر العربي وأرقاه ، ومن أعذبه وأحسنه موقعاً في السمع ومسلكاً إلى النفس ، وإذا كان شعر صاحبها قد ضاع ، فإنها تكاد تغني عما ضاع من شعره ، لأنها تصوّر مذهبه في الشعر ، وحظه من إجادته تصويراً قوياً واضحاً . ذلك لأنها جمعت ألواناً من فنون الشعر التي كان يطرقها القدماء ، وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التي كان يطرقها سويد نفسه ، ففي القصيدة غزل طويل مكرر ، وفي القصيدة وصف ، وفيها فخر بقومه ، وفيها فخر بنفسه ، وفيها بعد ذلك هجاء لخصومه ومنافسيه ، وما أظنه طرق فنا آخر غير هذه الفنون ، إلا أن يكون المدح الذي يغني عنه الفخر أحسن الغناء .

وشاعرنا كما سترى قوى الحسّ جداً ، دقيق الشعور جداً ، وهو كذلك مالك لأمر الشعر ، يصرفه كما يحب ، لا يجد في تصريفه مشقة ولا جهداً . وإذا جاز أن نتخذ قصيدته هذه نموذجاً لشعره الذي ذهب عنا ، فقد كان الشاعر مطيلاً ، لأن قصيدته هذه قد نيفت على المائة ، وقد كان الشاعر سهل اللفظ في غير إسفاف ولا ابتذال ، وقد كان الشاعر لا يتحرج من اصطناع الكلمات التي تغرب بعض الشيء ، إذا أطال القصيدة ، أو دفعته القافية إلى شيء من البحث والتفتيش عن الألفاظ .

وسرى حين تقرأ القصيدة أن الشاعر كان يحسن بناء قصيدته ، فلا يضطرب فيها ، ولا يختلط عليه الأمر ، وإنما يتصور الأغراض التي يريد أن يقول فيها الشعر ، ثم يلائم بينها ملاءمة حسنة ، ثم يتمثل قصيدته كما يتمثل المهندس صور البناء الذي يريد أن يقيمه ، ثم يندفع في إنشاد القصيدة فلا يكف حتى يتم ما كان يريد أن يقول :

وهو في هذه القصيدة يقصد إلى غرضين واضحين ، فأما أولهما فهو الفخر بقومه من بنى بكر بن وائل ، وأما الآخر فهو الفخر بنفسه خاصة ، ومهاجمة الذين كانوا يعيبونه ويريدونه بالسوء ، ولكنه لا يسرع إلى هذين الغرضين إسراعاً ، وإنما يسعى إليهما متمهلاً ، كأنه مالك لوقته كله لا يدفعه دافع ، ولا يعجله معجل ، وإنما هو يسعى متروّضاً متترها في جنات الشعر ، يتغنى بما يثور في نفسه من العواطف والأهواء والخواطر . والغزل أول شيء يثور في نفسه ، فهو يتغزل ويظليل في غزله ، حتى إذا شفى نفسه من ذكر صاحبته ، شخصها أولاً ، وخیالها بعد ذلك ، انتقل من الغزل إلى الوصف ، فوصف البيداء ، ووصف السراب ، ووصف الخليل التي يقطع بها البيداء ، ثم انتهى إلى قومه فوصفهم وفخر بهم ، مستأنياً مجوداً ، حتى إذا بلغ حاجته من الفخر بقومه ، لم يثب إلى الفخر بنفسه وثوباً ، ولم يندفع إليه اندفاعاً ، وإنما تمهل واستأنى ، وأستأنف الشعر من جديد ، كأنه يريد أن يقول قصيدة أخرى غير قصيدته الأولى ؛ فهو يصرّح كما تعود الشعراء التصريح في المطالع ، وهو يستأنف الغزل بصاحبته مرة أخرى ، فإذا أتم حظه من الغزل ، استأنف الوصف ، فوصف ناقته ، واتخذ وصفها سبيلاً إلى وصف الصيد وكلابه ، وسهام الرماة ، وما يكون بين الثور الذي يشبهه به ناقته وبين الكلاب من طراد ، فيه فزع ومكر ، وفيه كيد وإقدام ، وفيه ثقة بالنفس وإشفاق من الخصم . ثم يفرغ من هذا كله لما أراد إليه من الفخر بنفسه ، وإحصاء ما يستطيع إحصاءه من مفاخره ومآثره ، ثم ينحى على عدوه ومنافسيه فيهاجمهم أشد مهاجمة ، ويأخذهم أخذاً عنيفاً ، ثم يتختم قصيدته بهذا البيت ، الذي يملؤه بما شاء من التحدى والتصدى ، والمخاصمة والمقاومة ، وانتظار من يجروء على لقاءه ومناهضته بقول أو عمل :

هَلْ سُوَيْدٌ غَيْرُ لِيْ خَادِرٍ ثَلَدَتْ أَرْضٌ عَلَيْهِ فَانْتَجَعْ

قال صاحبي : ما رأيت كالأيوم ناقداً يأخذ الشعر من آخره ، ويبدأ القصيدة من حيث انتهت . قلت : لا تعجل إنما أردت أن أقيم بين يدك هذا ، السمرة التي أقامها الشاعر لنفسه ، وجعلها آخر قصيدته ، كأنما أراد أن تبقى في نفس الذين يسمعون ويقرءونه ، فلا يقع في نفوسهم منه إلا هذا التأثير القوي ، تأثير الليث العزيز الأبي ، الذي يستقر إلا أن يهيجه هائج ، والذي يطمئن في الأرض ما اطمأنت به الأرض ، فإذا ضاقت به ، أو فسدت عليه ، أو سيم فيها ما لا يجب ، تحول عنها إلى أرض أخرى ملائمة له لا يلقى فيها شراً ، ولا يسام فيها ضيماً . وإذا كنت متعجلاً إلى قراءة القصيدة من أولها ، فانظر معي إلى هذا الغزل ، واقرأ معي هذه الأبيات ، واعجب معي بما ستجد فيها من سداجة حلوة ، قد اتخذها الشاعر وسيلة إلى وصف أشياء قد أكثر الشعراء من وصفها ، فحببها إليك ، ونفى عن نفسك ما قد يعترها من الملل ، إذا نظرت في أشياء طالما عرضت عليها .

بَسَطَتْ رَابِعَةَ الْحَبْلِ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا أُتْسَع

فهو لا يشكو من صاحبه شيئاً ، لا يضيق بها لأنها لم تضيق به ، ولا يزور عنها لأنها لم تزور عنه ، وإنما وصلته فوصلها ، وآثرته فأثرها ، ووصفا لها العيش ما استقامت لها الحياة . فإذا كان هناك فراق آذاه ، ونأى أضناه ، فصاحبه لم ترغب في فراق ، ولم تعتمد إلى النأى ، وإنما هي خطوط الأيام ، وصورف الأحداث . ولكن انظر إلى هذا المطلع كيف ذهب فيه مذهب المثل ، ومذهب المثل البدوي الساذج القريب ؟ فشبه ما يكون بين الحبيين المتواصلين في مودة وإسماح ، بالحبل قد أخذ بطرفيه شخصان لا خصومة بينهما ولا مقاومة ولا مشادة ، وإنما هي الساحة واللين . ثم انظر إليه كيف يصف صاحبه فيقول :

حُرَّةٌ تَجَلُّوْ شَتِيْتًا وَاضِحًا كَشُعَاعِ الشَّمْسِ فِي النِّعَمِ سَطَعِ

ويعجبني من هذا البدوي تشبيه ما يكون من صفاء الثغر النقي الواضح الناصع بين الشفتين بشعاع الشمس حين يظهر أثناء الغيم . وليس أدل على بداوة هذا الشاعر وبعده عن تكلف المترفين ، من هذا البيت الذي يأتي بعد ذلك ، والذي يصور صاحبه معنية بأسنانها ، تصقلها وتجلوها بالسواك الناعم الناضر حتى يظهر ناصعاً نقياً :

صَقَلْتَهُ بِقَضِيبٍ نَاضِرٍ مِنْ أَرَاكِ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعُ
أَبْيَضَ اللَّوْنِ لَذِيذًا طَعْمُهُ طَيِّبَ الرِّيقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعُ

وانظر إلى قوله : « إذا الريق خدع » فهو أيضاً يصور سذاجة الشاعر وبدأوته ، وبعده عن تكلف المترفين ، فصاحبه معنية بالنظافة لا تهمل ثغرها ، فهي لا يفسد فيها إذا فسدت الأفواه ، ولا يتغير ريقها إذا تغير الريق . وواضح أن هذا كلام لا يقوله المترفون ، وإنما يهملونه ويتجافون عنه ، ولكن صاحبنا بدوى يصور بيثة بدوية ، ثم انظر إليه كيف أراد أن يصف صورتها ؛ فلم يصفها مباشرة ، وإنما عكسها في المرأة ، وزعم أن صاحبه تمنحها للمرأة منحاً ، فقال :

تَمْنَحُ الْبِرَّاءَةَ وَجْهًا وَاضِحًا مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي الصَّحْوِ أُرْتَفَعُ
صَافِي اللَّوْنِ وَطَرَفًا سَاحِيًا أَكْحَلَ الْعَيْنَيْنِ مَا فِيهِ قَمَعُ
وَقُرُونًا سَافِيًا أَطْرَافَهَا غَلَّتْهَا رِيحٌ مِسْكِ ذِي فَنَعُ

وهذا كله شعر جميل ، ولكنه مألوف تحبه النفس ، وتستطرفه لسذاجته وجمال لفظه لا لشيء آخر . فانظر بعد ذلك إلى هذه الأبيات التي يتحدث فيها عن الخيال :

هَيَّجَ الشَّوْقَ خَيْالٌ زَائِرٌ مِنْ حَبِيبٍ خَفِرٍ فِيهِ قَدَعُ

ولا تخفك كلمة « القدع » هذه فعناها الخياء ، وأحسب القافية هي التي دعته فجاءت غير مستكرهة ، ولا نافية بالبيت :

شَاحِطٌ حَازَ إِلَى أَرْحُلِنَا عُصَبَ الْغَابِ طَرُوقًا لَمْ يَرُعْ

فهذا الخيال الذي فيه خضر وحياء ، لم يمنعه خضره وحيאוؤه أن يجتاز الآماد البعيدة ، وأن يقتحم عصب الغاب في غير خوف ولا روع ليزور الشاعر ؛ وإذن فكلمة « القدع » هنا لها معناها وقيمتها .

أَنْسُ كَانَ إِذَا مَا أَعْتَادَنِي حَالَ دُونَ النَّوْمِ مِنِّي فَاَمْتَنَعُ

وفي الشطر الثاني لهذا البيت أصل المعنى الذي جوّد فيه بشار في بيته المشهور :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَمَمْ وَتَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ الْمَمْ

وظاهر جداً أن بشاراً قد زاد في هذا المعنى ، ولكن زيادته ليست مبتكرة ابتكاراً ، وإنما هي موجودة بالقوة - كما يقول النلاسة - في الأبيات التي ستقرؤها ، والتي يصف فيها الشاعر طول الليل ، وثناقله وإبطاءه في الحركة ، ورجوعه كلما ظن الشاعر أنه قد انقضى ! ذلك أن شاعرنا إنما يصف طول الليل ويلج فيه ، بعد أن ذكر الأرق الذي دفعه إليه إمام الخيال به دفعاً ، فالطول إذن ليس محققاً في نفسه ، وإنما هو يأتي من أرق الشاعر ، وعجزه عن النوم ، وضيقه بالليل ! فالليل في حقيقة الأمر لم يطل ، وإنما أرق الشاعر فاستطاله واستثقله ، وهو المعنى الذي قصد إليه بشار ، بعقله الفلسفي المتحضر ، وبصيرته النافذة ، وبراعته في الإيجاز . ولكن انظر معي إلى هذا البيت ، فستعجب بصدوره عن هذا البدوي :

وَكَدَاكَ الْحُبُّ مَا أَشَجَعَهُ يَرْكَبُ الْهَوْلَ وَيَعْصِي مَنْ وَرَعُ

ألست ترى في إضافة الشجاعة إلى الحب ، وفي وصف الحب بركوب الهول ، وعصيان الوازع ، تعليلاً رائعاً جميلاً ، لإقدام الخيال هلى هذه الزيارة البعيدة المخوفة ، مع ما فيه من الخفر والحياء ! وكان الحق أن يتقدم هذا البيت فيأتي قبل البيت الذي سبقه ، وأكبر الظن أن الشاعر قد وضعه هذا الموضع ولم يتأخر إلا في أفواه الرواة :

وانظر بعد ذلك وصفه لطول الليل :

فَأَبَيْتُ اللَّيْلَ مَا أَرْقَدُهُ وَبَعَيْنِي إِذَا النَّجْمُ طَلَعُ
وَإِذَا مَا قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى عَطَفَ الْأَوَّلُ مِنْهُ فَرَجَعُ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نَجُومًا ظُلْمًا فَتَوَالِيهَا بَطِيئَاتُ التَّبَعِ
وَبُرْجِيهَا عَلَى إِبْطَائِهَا مَغْرَبُ اللَّوْنِ إِذَا اللَّوْنُ أَنْشَعُ

وأنا معجب جداً بقول الشاعر « وبعيني إذا النجم طلع » وإن كان بعض الرواة يغير هذه الرواية فيفسد البيت فيما أظن حين ينشد « وبعيني إذا النجم طلع » .

ولكن ما ترى في هذه الصورة التي يعرضها الشاعر عليك ، فيزعم لك أن الليل قد طال وطال ، حتى كأن كل قطعة منه إذا مضت في طريقها أمداً ، عادت إلى حيث كانت ، وأستأنفت طريقها مرة أخرى ؟ وما ترى في هذه الصورة الثانية التي يعرضها عليك ، فيزعم لك أن الليل يقود النجوم ، وأن هذه النجوم تمشي متناقلة مبطنّة ، كأنما أدركها الظلّع الذي يدرك الإبل فيعوقها عن المشي السريع ، المستقيم وهي مبطنّة ، وتواليها مبطنّة أيضاً ، ومن ورأها الصبح يحدوها ، دون أن يستطيع أن يدفعها أمامه دفعاً سريعاً ، كما أن الليل يقودها دون أن يستطيع أن يحملها على أن تسرع من ورائه . فهي بليدة على قائدها ، وهي بليدة على سائقها ! أما أنا فأرى في هذا شعراً جميلاً رائعاً ، وأنا أعلم أن الشعراء قد أكثروا في هذا المعنى ، ولكنني أحب سداجة الشاعر في تصويره وهدوئه ، وبعده عن التكلف في عرضه ، وأحب هذه الحياة التي يبعثها الشاعر في الليل والصبح ، والنجوم بين الليل والصبح ، بل أحب هذا التشخيص الذي يحمل الشاعر على أن يجعل الليل قائداً ، والصبح سائقاً ، والنجوم إبلا تقاد وتساق .

ويمضى الشاعر في تصوير حبه لصاحبته ، وفي تصوير ما لحديثها من جمال ، وفي تصوير هذا السحر الذي اختبله وملك عليه أمره ، حتى ينتهى إلى وصف الطريق والخيل فيقول :

وَفَلَاةٍ وَاضِحٍ أَقْرَابُهَا بِأَيَاتٍ مِثْلُ مُرْفَتِ الْقَرْعِ

ولا ترعك هذه الألفاظ التي تظهر غريبة ، فالمعنى الذي قصد إليه الشاعر واضح جميل ، فهو يريد أن هذه الفلاة على بعدها واضحة النواحي ، بالية قد تفرقت أعلامها ، كما يتفرق الشعر في الرأس الأصلع ، أو كما يتفرق الغيم الضئيل في السماء :

يَسْبَحُ الْآلُ عَلَى أَعْلَامِهَا وَعَلَى الْبَيْدِ إِذَا الْيَوْمُ مَتَعَ
فَرَكِينَاهَا عَلَى مَجْهُولِهَا بِصِلَابِ الْأَرْضِ فِيهِنَّ شَجَعُ

ثم يمضى في وصف الخيل ، حتى ينتهى إلى هذا التشبيه الجميل ، الذي يصور فيه الخيل وهي مسرعة كأنها القطا تنصب من الجوّ إلى الماء لتحسوه :

يَدْرِعْنَ اللَّيْلَ يَهُونَ بِنَا كَهَوَى الكُدْرِ صَبَّحْنَ الشَّرْعَ

ثم ينتهي بعد ذلك إلى قومه بنى بكر ، فانظر إليه كيف يصفهم فيجيد :

لِبَنِي بَكْرِ بِهَا تَمَلَكَةٌ مَنظَرٌ فِيهِمْ وَفِيهِمْ مُسْتَمَعٌ
بُسْطُ الْأَيْدِي إِذَا مَا سُئِلُوا نَفْعُ النَّائِلِ إِنْ شَيْءٌ نَفَعُ
مِنْ أَنَاسٍ لَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ عَاجِلُ الفَحْشِ وَلَا سُوءُ الجَزَعِ

وهو يمضى فى هذا الفخر بقومه ، كأحسن ما تعود الشعراء أن يحمضوا ، فيصفهم بالشجاعة والإباء ، وبالكرم والجد ، فى أحسن لفظ وأمتنه ، وفى أجمل أسلوب وأرصنه ، حتى إذا شفى نفسه من ذلك ، استأنف شعره وابتدأ الغزل من جديد فقال :

أَرَقَ العَيْنَ خَيَالٌ لَمْ يَدْعُ مِنْ سُلَيْمَى فَقَوَّادِي مُنْتَرَعٌ
حَلَّ أَهْلِي حَيْثُ لَا أَطْلُبُهَا جَانِبَ العَضْرِ وَحَلَّتْ بِالْفَرَعِ
لَا الْأَفِيهَا وَقَلْبِي عِنْدَهَا غَيْرَ إلمَامٍ إِذَا الطَّرْفُ هَجَعَ

ثم يمضى فى هذا الغزل الجميل الهادئ ، الذى يصور شوقاً حزيناً هادئاً ، حتى ينتهى إلى الوصف ، فيشبه ناقته بثور يسبح فى الآل ، وقد أوجس خيفة لأنه أحسن نبأة من صائد ، وأحسن كلاب الصيد ، فهو يعدو غير جاد فى العدو لأنه واثق بنفسه ، مقدر أنه سيسبق الكلاب وإن لم يسرف فى العدو ، والكلاب على جشعها تعدو فى أثره ، متناقلة بعض الشيء لأنها تخاف أن يكر عليها فيصيبها بقرنيه ، ويسفك من دماها غير قليل ، فهى تسعى غير مهالكة ، وهو يعدو غير مسرف ، حتى إذا أحس قربها منه جدد فى العدو ، ثم ينتهى من هذا الوصف إلى استئناف الفخر بقومه وبنفسه ، وانظر إلى هذه الأبيات الحسان :

كَتَبَ الرَّحْمَنُ وَالْحَمْدُ لَهُ سَعَةَ الْأَخْلَاقِ فِينَا وَالضَّلَعُ
وَإِبَاءٌ لِلدَّيَّاتِ إِذَا أُعْطِيَ المَكْتُورُ ضِيماً فَكَنَعُ
وَبِنَاءٌ لِلتَّعَالِي إِيمَاءٌ يَرْفَعُ اللهُ وَمَنْ شَاءَ وَضَعُ

لا يُريدُ الدهرَ عنها حِولاً جُرِعَ الموتِ والموتِ جُرِعَ
 نَعْمَ اللهُ فينا ربّها وصنيعُ اللهُ واللهُ صنعَ
 كيفَ باستقرارِ حرٍّ شاحطٍ ببلادٍ ليسَ فيها مُتسعٌ

نعم كيف باستقرار حرّ شاحط ببلاد ليس فيها متسع ، ولا سببا حين يكثُر
 من حولك الأعداء ، وتنتشر الحصومات ، ويسعى بك الساعون ، ويكيد لك
 الكائدون ! وما أعرف شعرا أجمل ولا أروع ، ولا أبلغ في تصوير الرجل الشجاع
 ذى القلب الذكى ، والنفوس الأبية ، يصبر للعدو ، ويتحداه غير حافل به ،
 ولا آبه له ، من هذه الأبيات التى تمثل بها الحجاج ذات يوم :

رُبَّ مَنْ أَنْضَجَتْ غَيْظًا قَلْبَهُ قَدْ تَمَنَّى لِي مَوْتًا لَمْ يُطْعَ
 وَيَرَانِي كَالشَّجَا فِي حَلْقِهِ عَمِيرًا مَخْرَجُهُ مَا يُنْتَزَعُ
 مُزِيدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرِنِي إِذَا أَسْمَعْتُهُ صَوْتِي أَنْتَمَعُ
 بِنَسْمَا يَجْمَعُ أَنْ يَغْتَابَنِي مَطْعَمٌ وَخَمٌّ وَدَالٌ يُدْرَعُ
 وَيُحْيِيَنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعُ

ثم يمضى فى هذا الفخر الجميل بنفسه ، وفى هذا الوصف الرائع لعدوه ،
 حتى ينتهى إلى هذه الأبيات ، التى يصور فيها انهزام خصمه له ، وقد أعبته
 الحجة ، وعمجز عن الخصام فيقول :

قَرٌّ مِنِّي حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ مُوقِرَ الظَّهِرِ ذَلِيلَ الْمُتَضَعِ
 وَرَأَى مِنِّي مَقَامًا صَادِقًا ثَابِتَ التَّوْطِينِ كَتَامَ الْوَجَعِ
 وَلِسَانًا صَيْرَفِيًّا صَارِمًا كَحُسَامِ السَّيْفِ مَا مَسَّ قَطَعُ

وعلى هذا النحو الجزل السهل الرصين الرائع يمضى الشاعر ، حتى يتم
 قصيدته بذلك البيت الذى تملؤه الهيبة والروعة ، والذي ابتدأت به هذا التحليل .
 وأحسب أن هذه القصيدة ليست قصيدة واحدة ، وإنما هى تأتلف من

قصيدتين ، قيلت أولاهما في الجاهلية ، وقيلت أخراهما في الإسلام ، أو هي قصيدة واحدة بدئت في الجاهلية ، ثم أضاف إليها الشاعر في الإسلام هذه الأبيات التي يكثر فيها ذكر الله والتحدث بنعمته ، وتصور فيها الغيبة على نحو ما صورت في القرآن الكريم .

قال صاحبي : مهلا ، لا تدفع نفسك إلى هذا النحو من التحقيق ، فليس يعنيني منه شيء . ولكن ألسنت ترى أن هذه القصيدة خليقة أن يرويها الشبان ، ويؤدّبون بها تاديباً ؟ ففيها يجدون الرجولة الكاملة ، والمرورة التي تعلمهم كيف يشبتون للأيام ، ويحتملون المكروه ، ويلقون عداء العدو ، وكيد الكائدين . قلت : وما يمنع أن يرويها الشبان ، وأن تفسر لهم ، وأن يؤخذوا بحفظها وفهمها ! فهي أيسر عليهم ، وأدنى إليهم ، من كثير مما يحفظون ويدرسون .

ساعة مع المثقب العبدى (١)

قال صاحبي وهو يضحك حين ذكرت له هذا الشاعر : ومن يكون هذا المثقب العبدى ؟ إنك لتبحث لى عن النكرات ، وتقف لى عند شعراء لم أسمع بهم ، أو لا أكاد أعرف من أمرهم شيئاً . قلت متصاحكاً : لا تقل هذا ، فإن المثقب شاعر معروف ، كان القدماء يذكرونه ويروون شعره ، ويعجبون به أشد الإعجاب ، روى له المفضل الضبي ثلاث قصائد ، وحفظ الرواة له ديواناً كاملاً ، ولكنهم مع ذلك كانوا مثلك ومثلى ، لا يعرفون من أمره شيئاً ، أستغفر الله ! بل كانوا يعرفون لقبه هذا ويفسرونه بيت من الشعر ، كما فسروا لقب النابغة ، وكانوا يختلفون فى اسمه ، فيسميه بعضهم محصن ، ويسميه بعضهم عائذ بن محصن ، ويسميه بعضهم عائذ الله بن محصن ، وكانوا يحفظون له نسباً فى عبد القيس من قبائل ربيعة التى كانت تسكن البحرين ، وكانوا يتحدثون أنه اتصل بعمر بن هند ومدحه ، وأنه مدح النعمان بن المنذر ، وأظن أنهم لم يكونوا يعرفون من أمره أكثر من هذا ، وهو كما ترى قليل ، أو هو كما ترى ليس شيئاً ، وكانوا يقولون إنه مات فى الجاهلية ، ولم يدرك الإسلام ، والمشغوفون بالتوقيت والتحديد يزعمون أنه مات سنة سبع وثمانين وخمسمائة للمسيح . ولعلك توافقنى على أن هذا التحديد لا يخلو من إسراف تخفيف .

ومع هذا كله فلست أكره أن نقضى ساعة مع هذا الشاعر الذى نجعله أو نكاد نجعله ، أو قل لا أكره أن نقضى ساعة مع هذا الصدى الضئيل المتصل الذى يتردد فى أثناء الزمن لشاعر قد نسيه الزمن ، أو كاد ينساه ، فى المتحدث إلى الصدى ، وفى إطالة الوقوف عنده ، والاستماع له ، شعر لا أدرى أتذوقه أم لاتذوقه ، ولكنى أراه جميلاً ، شديد التأثير فى النفوس ، يثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة ، التى لا تخلو من أن تثير لذات شاحبة حزينة مثلها ، وما رأيك فى صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهى به إليك ، وحتى

(١) نشرت بمجريدة الجهاد فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ .

تنتهي به إلى من بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتدين جرسه ونغمه ،
وتتبعه متراجعاً مع هذه القرون ، حتى إذا انتهيت إلى آخرها أو إلى أولها ،
تجد شخصاً بيناً ، وإنما وجدت شخصاً شائعاً ، أو لم تجد إلا هذا الصوت
نفسه ، يتردد في الصحراء ، أو يتردد على ساحل الخليج الفارسي ، فقد كانت
قبيلة هذا الرجل تضطرب في هذه الناحية من بلاد العرب .

ويعجبني الشعر الذي لا تستطيع أن تنتهي به إلى شاعر معروف واضح
الخصال بين الشخصية ، يعجبني لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذي يخفي
علينا مصدره إخفاء ، ويخيل إلينا أنه صوت الصحراء ، أو صوت الساحل ،
أو صوت جيل بأسره من أجيال الناس ، كان قويا ملحا ، فطبع نفسه على
الزمن ، وفرض نفسه على ذاكرة الأجيال فرضاً .

يعجبني أن أقف عند هذا الشعر الذي بقي وثبت ، وأكره الرواة على روايته ،
والشراح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا منه
كلمات كانوا يجهلونها ، ومذاهب في النحو لعلمهم لم يكونوا ليهتدوا إليها ، لو لم
ينقل لهم الزمن هذا الصدى الضئيل النحيل المتصل الملح . ويعجبني أن يذهب
الخيال مذاهب مختلفة في تصوير هذا الشاعر ، وما كان يحيط به من الظروف ،
وما كان يعرض له من الأحداث ، وما كان يدفعه إلى قول هذه القصيدة أو
تلك دون أن يستطيع الخيال أن يقف عند مذهب من المذاهب ، أو ينتهي
عند غاية من الغايات . وأمثال المثقب بين قدماء الشعراء من العرب كثيرون ،
لم يكن القدماء يحفلون بشخصياتهم الضائعة ، وإنما كانوا يرضون كل الرضا
إذا ظفروا من آثارهم بشيء قليل أو كثير ، ولم يكن القدماء يشكون في
وجودهم ، أو ينكرون شخصياتهم ، كما يفعل العلماء المحدثون في هذه الأيام
بالقياس إلى كثير من الشعراء القدماء عند العرب أو غير العرب من الشعوب ،
وإنما كانوا يطمثنون إلى ما يروى لهم وينقل إليهم ، فكانوا يريحون ويستريحون .
وسترى حين تقرأ شيئاً من شعر هذا المثقب العبدى ، أن صوته ليس ثقيلاً
ولا بغيضاً ، وأنه مهما يكن شخصه ، سواء أكان شاعراً جاهلياً من عبد القيس
أو من غير عبد القيس ، أم كان راوية إسلامياً ، من أهل الكوفة أو من أهل
البصرة ، فقد كان خفيف الروح ، عذب الحديث ، قوى النفس شديد الحزم ،
يكاد ينتهي إلى شيء من الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك ، يكاد بدوب رقة ولبناً .

وهذه القصيدة التي سنبدأ بقراءتها كانت فيما يقول الرواة محببة إلى القدماء جدا ، حتى لقد كان أبو عمرو بن العلاء يقول : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس أن يتعلموه . والحق إنك تقرأ هذه القصيدة فترومك معانيها ، وترومك ألفاظها في كثير من المواضع ، وتعجبك ألفاظها لمئاتها وجزالتها ، في غير غرابة ولا عنف ، حين يصف ناقته . فشاعرنا — كغيره من الشعراء القدماء — محافظ على المذهب المعروف ، يبدأ قصيدته بالغزل والحنين ، ثم يتخلص إلى وصف الناقة والبيداء ، ثم ينتهي إلى ما أراد من العتاب في هذه القصيدة . وأكبر الظن أن القصيدة قد اقتضبت اقتضاباً ، وضاع منها جزء غير قليل ، لم يصل إلى الرواة ، أو لم يصل إلى المفضل الضبي على أقل تقدير . فشاعرنا يطيل شيئاً في غزله وعتاب صاحبه ووصف الطعائن ، وهو يطيل كذلك في وصف الناقة والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذي يريد أن يعاتبه لم يطل في العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة ، وحسب الزمان أنه روى لنا من هذه القصيدة ما روى ، ونقل إلينا من هذا الصوت الخلو الحازم ما نقل . واقرأ معي أول هذه القصيدة فسرى أن صاحبنا قد كان رقيق النفس ، ولكنه مع ذلك حازم حتى مع صاحبه التي لا يحسن معها الحزم ، إلا أن يكون الشاعر صاحب طبع لا يخلو من غلظة وجفاء . هو في ذلك مثل لبيد ، ومثل غير لبيد من شعراء البادية ، الذين رأيناهم غير مرة يتقاضون خليلاتهم الود والوصل ، دون أن يلحوا عليهن فيما يطلبون إليهن من الود والوصل ، بل دون أن يظهروا لهن تهالكاً على ما يبتغون عندهن من اللذة والمتاع :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ مَتَّعِيْنِي وَمَنْعُكَ مَا سُئِلْتُ كَأَنْ تَبِيْنِي
فَلَا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيَّاحُ الصَّيْفِ دُونِي
فَإِنِّي لَوْ تُخَالَفَنِي شِمَالِي خِلَافَكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِيْنِي
إِذَا لَقَعْتَهَا وَلَقْتُ بِيْنِي كَذَلِكَ أَجْتَوِي مَنْ يَجْتَوِيْنِي

فهو منذ البيت الأول قليل الرفق بصاحبه ، هو حريص على أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر والحديث والتحية ، ولكنه لا يطلب إليها ذلك فيما ينبغي أن يكون عليه العاشق من الرفق ، وهذا الإلحاح الذي لا غلظة فيه ولا عنف

إنما هو يطلب إليها ذلك في شيء من الجدال المنطقي العنيف . ألسنت تراه يزعم لها أنها إن منعت ما سألتها ، فكأنها قد ارتحلت عنه ، وكأنما انقطعت بينها وبينه الأسباب ! فقربها منه وجوارها له لا يغنيان عنها شيئاً إذا لم يصحبهما الوصل ، وصاحبنا متعجل ملح مشفق من خيبة الأمل ، لا يطمئن إلى الوعد ، ولا يستريح إلى الأمل :

فَلَا تَعِدِي مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيحُ الصَّيْفِ دُونِي

ثم هو ينتقل من الطلب الملح ، والتشدد المشفق ، إلى الوعيد والنذير ، فهو لا يرضى من صاحبه هذا المظل ، ولا يحب منها هذا الخلاف ، وهو قد صبر وصابر ، على قلة حبه لهذا النحو من الصبر والمصابرة ، فلو أن إحدى يديه خالفته كما تخالفه فاطمة هذه ، لما وصل بها يده الأخرى ، بل لقطعها قطعاً ، ولقال لها : اذهبي إلى غير رجعة ، فإنني أكره من يكرهني ، وأتحوّل عن من يتحوّل عني . ولا بدّ من أن نصف الشاعر ، فهو ينشئ قصيدته في العتاب ، وهو يفكر من غير شك في صاحبه الذي سيعاتبه حين ينتمى إليه ، أكثر مما يفكر في صاحبه التي يطلب إليها المتاع ، فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ، ووجه إليها هذا النذير الحشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً صارماً ومتشديداً قاطعاً ، لا يحب الموادة ولا اللين . على أنه قد رقّ بعض الشيء بعد هذه المقدمة العنيفة ، حين نظر إلى هذه الإبل وهي ترتحل ، وقد حملت من كان يجب . فانظر إليه كيف كان يقول :

لَمَنْ طُعُنَ طَطَّالٌ مِنْ ضُبَيْبٍ فَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْوَادِي لِحِينٍ
مَرَّرْنَ عَلَى شَرَافِ فِدَاتِ رَجُلٍ وَنَسَكَبْنَ الذَّرَائِحَ بِالْيَمِينِ
وَهُنَّ كَذَلِكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلَجًا كَانَ مَحْمُولَهُنَّ عَلَى سَفِينِ

أترى إليه وقد نظر إلى الإبل مرتحلة بمن كانت تحمل ! فهو متفجع متوله ، يسأل عن تحمل الإبل ، كأنه لا يصدق أنها ترتحل عنه بمن يجب . ثم لا ترعك هذه الأسماء التي يذكرها الشاعر ، والتي لا تدل في نفسك على شيء ، فقد كانت تدل في نفس الشاعر وسامعيه على شيء كثير ، كأن ذكر هذه الأماكن خير ما يستطيع الشعراء أن يعتمدوا إليه ، ليصوروا ما يملأ

نفوسهم من الالهفة واللوعة والحنين لفراق المسافرين ، وفي تسمية هذه الأماكن تصوير لما يجده من اتباع نفسه للمسافرين في رحلتهم الطويلة بعد أن عجز طرفه عن أن يتبعهم ، فهم الآن في هذا المكان ، وهم بعد ساعات في ذلك المكان ، وهم الآن ينحرفون إلى شمال ، وهم بعد حين ينحرفون إلى يمين ، وسل نفسك حين تودع من تحب ، وحين يمضى به القطار ، وتستقر بك الدار ، أليست تصوره لك خواطرك ، وقد انتهى به القطار إلى هذه المدينة أو تلك ؟ أليست تحب أن تتبعه أو أن تسايره ؟ أليست تقول : إنه الآن هنا ، وإنه الآن هناك ؟ أليست سعيداً ما استطعت اتباعه ومسايرته على علم ، فإذا انتهى إلى غايته ، ولم تستطع أن تتبعه فيما يأتي من حركات ، وفيما يضطرب فيه من مكان ، فأنت محزون ملتاع ؟ فكذلك كان الشعراء الأولون ، يتبعون أحياءهم ما استطاعوا ، ملحين في هذا الاتباع ، مصورين ما يسلكون من طريق .

على أن شاعرنا قد رأى الإبل أو تخيلها من بعيد ، وهي تحمل الهوادج وتمضى في الصحراء كأنها السفين ، فلما انتهى إلى هذا التشبيه الشائع المألوف لم يرد أن يذهب فيه مذهب الشعراء بل أنكره إنكاراً ، ونفاه نفياً ، وآثر أن يحتفظ بالإبل على أنها إبل ، فقال :

يُسَبِّهَنَّ السَّفِينَ وَهِنَّ بُنْتُ عُرَاضَاتُ الْأَبَاهِرِ وَالشُّؤُونِ

ليس فيهن شيء من السفن ، وإنما هي إبل ضخام جسام . ثم يدع الإبل إلى من تحمل الإبل ، فانظر إليه كيف يصفهن في هذا الشعر الجميل :

وَهِنَّ عَلَى الرَّجَائِزِ وَإِكْنَاتُ قَوَاتِلُ كُلِّ أَشْجَعِ مُسْتَكِينِ
كَفَزْلَانَ خَدْلَنْ بَدَاتِ ضَالٍ تَنْوُشُ الدَّانِيَاتِ مِنَ الْعُضُونِ
ظَهْرَانِ بِكَلِيَّةٍ وَسَدْلَانِ أُخْرَى وَتَقْبِنُ الْوَصَاوِصَ لِلْعُمُيُونِ
وَهِنَّ عَلَى الظَّلَامِ مُطَلَّبَاتُ طَوِيلَاتِ الدَّوَابِّ وَالتُّرُونِ
وَمِنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ عَلَى تَرِيبِ كَلُونِ الْعَاجِ لَيْسَ بِذِي عُضُونِ

فانظر إلى البيت الأول من هذه الأبيات ، وقد شبه فيه الطعائن بالطير المستقرة في أعشاشها ، وذكر مع ذلك اختلابهن للناس بما يرمين من لخط ،

ثم انظر إلى البيت الثاني ، وقد عرض لمن فيه هذه الصورة الحلوة ، صورة الغزلان الفاترات وقد تخلفن عن القطيع وأقمن في الكنس حائيات على أطفالهن ، يرفعن رءوسهن من حين إلى حين ، ويمددن أعناقهن ليجتنبن ما يتدلى عليهن من أثمار هذه الأغصان الدانية . ثم انظر إلى هاتين الصورتين الجميلتين يعرضهما في البيت الثالث ، فأما الصورة الأولى ، فصورة الهواج وقد ألقيت عليها كلة لتسترها ورفعت عنها كلة أخرى ليظهرن من ورائها لمن يجنبن أن يرينه وأن يراهن . وأما الصورة الثانية ، فصورة هذه الوصاوص ، ولا تسؤك هذه الكلمة ، فقد كان الشاعر يتكلم بلغته ، والوصاوص هنا البراقع ، فانظر إلى هذه البراقع المحكمة المتقنة الضيقة وقد ثقت لتستطيع العيون أن ترى من ورائها . وبهذا البيت سمى صاحبنا المثقب فيما يقول الرواة ، وأى غرابة في هذا ! فمن ثقب البراقع خليق أن يعرف بهذا التثقيب .

ثم يمضى الشاعر في غزله على هذا النحو حتى يستيس من يحب ، ويزمع كما يزمع غيره من الشعراء أن يتسلى عن هذا الحب العميق بالأسفار ، فيصف ناقته وصفاً رائعاً من أدق ما عرف الناس من وصف الإبل . ولكنى لا أشق عليك برواية هذا الوصف وتفسيره ، فهذا شرح المفضليات بين يديك تستطيع أن تنظر فيه ، إنما أقف بك عند هذه الأبيات لأنها خليقة بأعظم الإعجاب وأقواه حقاً :

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ تَأَوَّهَ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي أَهْذَا دِينُهُ أَبَدًا وَدِينِي
أَكُلُّ الدَّهْرَ حَلًّا وَارْتِحَالَ أَمَا يُبْقِي عَلَيَّ وَمَا يَبْقِيَنِي

أترى إليه وقد نهض آخر الليل ليرحل ناقته ويهيئها للسفر ، فلما رآته عرفت ما يريد فصاقت به ، وشكت منه ، وتأوهت آهة الرجل الحزين المدعن الذي لا يجد مردا للقضاء النازل ، ولا منصرفاً عن المكروه الملم ! ثم أترى إليه وقد دنا من ناقته يمد لها الحزام ، وهي تتمثل ما ينتظرها من جهد ، لأنها ملت أمثال هذا الجهد ، وهي تصور في حركاتها ولحظاتها وزفرتها حزنها وشكاتها ! والشاعر يعرب لنا عن هذا الحزن أحسن الإعراب . أليست الناقة

تشكو وكأنها تقول : أهذا دأبه أبداً ودأبي ! أما ينقضى يوم إلا ونحن في حلّ ورحيل ! أما في نفس هذا الرجل شيء من إشفاق يعطفه علىّ ، ويحمّله على أن يرحمني ، ويحبنى بعض ما أجد من هذا العناء ! ما تقول في رفق هذا الشاعر بناقته ، ووجه لها ، وفهمه إياها ، وإعراجه عما يضطرب في نفسها المحزونة ؟ أما أنا فأرى أنه من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات أيضاً . ويفرغ الشاعر من وصف ناقته الطويل الجميل لصاحبه عمرو الذي يريد أن يعاتبه ، فيقول هذه الأبيات المشهورة التي لم يحفظها الناس إلا لأنها راعتهم ، وأعجبهم حقاً :

إلى عمرو ومن عمرو أتدني أخى النجدات والحلم الرصين
فإما أن تكون أخى بحق فأعرف منك غشى من سميني
وإلا فأطرحني واتخذني عدواً أتقيك وتثقيني

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين تنتهى عندهما القصيدة في المفضليات فسرى فيهما صورة من أجمل الصور وأروعها لجهل الناس بما تضمّر لهم الأقدار :

وما أدرى إذا يمتت أمراً أريد الخير أيهما يليني
أألخير الذي أنا أبتغيه أم الشر الذي هو يبتغيني

وانظر إلى هذا البيت الأخير خاصة كيف صور الشاعر فيه أجمل تصوير مكر الأقدار بالناس ، فهم يبتغون الخير حين يقصدون إلى أمر من الأمور ، ولكن الشر كامن لهم ، يرصدهم حيناً ، ويسعى إليهم حيناً آخر ، وهم لا يدرون أينتهون إلى ما يريدون من خير أم يقعون فيما يريدون من شر .

قال صاحبي : صدق أبو عمرو بن العلاء : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس جميعاً أن يتعلموه ، ولو كان شعر القدماء كله كهذه القصيدة لما عدلت به شيئاً آخر .

قلت لصاحبي : ولشاعرنا في رواية المفضل غير هذه القصيدة قصيدتان أخريان ، فأما أولاهما : فيمدح بها النعمان بن المنذر ، وهي متينة رصينة ، وقد تفيد المؤرخين ، فهي تصور خصومة كانت بين قبيلة الشاعر وبين الملك ،

فأدبها الملك تأديباً عنيفاً ، وأسر جهرتها ، والشاعر يستعطفه ويطلب إليه المن على هؤلاء الأسرى .

وانظر من هذه القصيدة إلى هذه الأبيات :

فَإِنَّ أَبَا قَابُوسَ عِنْدِي بَلَاؤُهُ جَزَاءً بِنُعْمَى لَا يَحِلُّ كَنُودُهَا
رَأَيْتُ زِنَادَ الصَّالِحِينَ يَمِينَهُ قَدِيمًا كَمَا بَدَأَ النُّجُومَ سَعُودُهَا
وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْجِبَالَ عَصِينَهُ لَجَاءَ بِأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُهَا
فَإِنَّ تَكُّ مَنَا فِي عُثْمَانَ قَبِيلَهُ تَوَاصَّتْ بِإِجْنَابٍ وَطَالَ عُنُودُهَا
فَقَدْ أذْرَكَتْهَا الْمُدْرِكَاتُ فَأَصْبَحَتْ إِلَى خَيْرٍ مَن تَحْتَ السَّمَاءِ وَفُودُهَا
إِلَى مَلِكٍ بَدَأَ الْمُلُوكَ فَلَمْ يَسْعَ أَفَاعِيلَهُ حَزْمُ الْمُلُوكِ وَجُودُهَا
وَأَيُّ أَنَاسٍ لَا أَبَاحَ بِغَارَةِ يُوَازِي كُبَيْدَاتِ السَّمَاءِ عَمُودُهَا

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ الْجِبَالَ عَصِينَهُ لَجَاءَ بِأَمْرَاسِ الْجِبَالِ يَقُودُهَا

فسترى فيه أصلا من أصول المبالغة التي يألفها الشعراء ، ويكرهها بعض النقاد ، ويجبها أرسطاطاليس .

وأما القصيدة الأخرى : فيمينة مشهورة ، يكثر الناس روايتها أو رواية طائفة من أبياتها ، وأولها في رواية المفضل :

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تَرُدْ تُبَيِّمُ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ نَعَمْ
حَسَنُ قَوْلُ نَعَمٍ مِّنْ بَعْدِ لَا وَقَبِيحُ قَوْلُ لَا بَعْدَ نَعَمْ
إِنَّ لَا بَعْدَ نَعَمٍ فَاحِشَةٌ فَبَلَا فَبَدَأَ إِذَا خَفَتِ النَّدَمُ
فَإِذَا قُلْتَ نَعَمَ فَاصْبِرْ لَهَا بِنَجَاحِ الْقَوْلِ إِنَّ الْخُلْفَ ذَمٌّ

قال صاحبى : ليت هذه الأبيات تروى للوزراء والكبراء وأصحاب الجاه كلما أصبحوا وكلما أمسوا ، لعلهم أن يحتنبوا التخلص بالوعد من إلحاح الملحين ،

وهم يابون الوفاء ، أو يعجزون عنه . قلت : وليتك أنت تم القصيدة فما بقي
منها أجمل وأجدى من هذه الأبيات التي تميل كل الميل إلى اعتقاد أنها مولدة
مصنوعة لم تصدر عن شاعر قديم . قال صاحبي : سأتم القصيدة ، ولكن
على أن نقرأ في الأسبوع المقبل لشاعر مجهول كهذا الشاعر المجيد .

الغزلون^(١)

قيس بن الملوّح ، أو مجنون بنى عامر ، أو مجنون ليلي

أعلم أني مدين لك بطائفة من أحاديث الأربعاء شغلتنى عنها هذه الرحلة التي انصرفت إليها عن القراءة والكتابة ، بل عن التفكير حيناً طويلاً ، ولكني أعلم أنك تبيح لمن تكلف عنا القراءة والكتابة والتفكير سنة وبعض سنة في غير راحة ولا ترفيه على النفس ، أن يستريح شهراً وبعض شهر ، وأنا مع ذلك مجتهد في أن أعوّض عليك ما فقدت من هذه الأحاديث ، وأرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد وما أريد . واعلم أني أغضبت طائفة من أدبائنا الذين أجلتهم وأكبرهم وأقدر رأيهم في الأدب العربي حين كتبت عن بشار فلم أحبه ولم أمل إليه ، ووصفته بشيء من ثقل الروح ، ولؤم الطبع ، وشدة الغرور والافتتان بالنفس . أعلم ذلك ، وأراني مع الأسف الشديد مضطراً إلى أن أغضب هؤلاء الأدباء مرة أخرى ، وأؤكد لهم أني لا أتعمد ذلك ، ولا أرغب فيه ، وإنما يضطرنني إليه البحث اضطراراً ، وتكرهني عليه مناهج النقد لإكراها ، وما زلت منذ بدأت أحاديث الأربعاء أغضب طبقات من الناس حتى أصبحت لا أدرى أي الطبقات يرضى عما أكتب ويطمئن إليه ، أولئك يغضبون لأنني أصف العصر العباسي بالحبون والشدة ، وهؤلاء يغضبون لأنني أقدم أبا نواس والحسين بن الضحاك على بشار ، وسيغضب قوم آخرون لأنني سأنكر وجود طائفة من الشعراء ، أو سأجحد شخصيتهم ، وسأزعم أن هؤلاء الشعراء بين اثنتين : إما أن يكونوا أثراً من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعاً ، وإما ألا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم ، وإنما عظم الخيال أمرهم وأضاف إليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا ، واخترع حولهم من القصص ألواناً وأشكالاً جعلت لهم في الأدب العربي هذا الشأن العظيم الذي لا يكاد يقوم على شيء .

(١) نشرت بجريدة « السياسة » في ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

نعم ، سأنكر طائفة من الشعراء ، أو سأنكر شخصيتهم ، وأنا أعلم أن فريقاً غير قليل من الذين يعنون بالأدب لا يحبون هذا النحو من البحث الذي ينتهى إلى الإنكار أو إلى الشك ، وإنما يريدون أن يكون البحث كله إثباتاً و يقيناً ، وأن ينتهى البحث كله إلى إثبات و يقين . وليس الباحث الماهر عند هؤلاء أن ينتهى البحث به إلى إنكار المخنون أو الشك فيه ، فهذا الباحث هادم للمجد العربى ، معتد على الأدب العربى ، وإنما الباحث الماهر حقاً عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل ، وينتهج كل طريق ، ويتكلف كل حيلة ، ليثبت وجود المخنون ، ويزيل أسباب الشك فيه ، ليضيف إلى المجد العربى مجداً ، وليثبت أن الأدب العربى يمتاز بالألوان الفنية التى لا تحصى .

إن أردت أن ترضى هؤلاء الناس فتملق حبههم للعرب وإسرافهم فى هذا الحب ، وأضف إلى العرب ما قالوا وما لم يقولوا ، وما عملوا وما لم يعملوا ، واجعل أممهم أشرف الأمم ، ولغتهم أشرف اللغات ، وأدبهم أرقى الآداب ، لا تحسب فى ذلك حساباً ، ولا تنهى فيه إلى مقدار ، ولا تعترف للأمم الحديثة بشئ إلا أن تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنها نقلاً . اسلك فى الأدب لترضى هؤلاء الناس مسلك قوم فى السياسة ، واتخذ الحقائق الأدبية موضوعاً للتضليل كما يتخذون المنافع السياسية ، تفرز بما شئت من تصفيق وإعجاب ، وبما أحببت من حمد وثناء ، ولكنك تسيء إلى العلم وتعتدى عليه ، فاختر بين رضا العلم ورضا الجماهير .

أما أنا فأعترف - لسوء الحظ أو لحسنه - أنى أوتر رضا العلم والضمير على رضا الناس وإعجابهم وتصفيقهم ، ولهذا أتقدم بهذه النظرية فى غير تلطف ولا احتيال ، فأزعم أن هذه الطائفة من الشعراء الذين أسميهم « الغزلين » لم يكن لهم فى تاريخ الأدب العربى من الشأن ما يظنه الناس إلى الآن ، وإنما هم فى حقيقة الأمر ينقسمون إلى قسمين متميزين ، لى فى كل منهما رأى : الأول الشعراء « العذريون » لا لأنهم ينتسبون إلى « عذرة » بل لأنهم يتخذون هذا الغزل العذرى مذهباً فى الشعر ، ومنهم المخنون ، وقيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، وجميل بن معمر . والثانى « المحققون » وأريد بهم هؤلاء الشعراء الذين انقطعوا للغزل ، أو كادوا ينقطعون له ، ولكنهم لم يلتمسوا الحب فى السحاب ، ولم يتخذوا العفة المطلقة مثلهم الأعلى ، وإنما عبثوا وطوا واستمتعوا بالحياة ، وتغنوا

هذا العبث واللهو وقصروا شعرهم عليهما ، أو جاوزوهما إلى فنون أخرى من الشعر ، ولكنهم لم يبلغوا منها ما بلغوا من الغزل ، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ، ومعه نفر آخرون قد أحدثك عنهم بعد أن أفرغ من العذريين .

لست أشك في أن عمر بن أبي ربيعة شخص تاريخي ، وفي أن أكثر الشعر المنسوب إليه صحيح صدر عنه حقاً ، وفي أن شخصيته كانت في عصره كما نتمثلها نحن الآن ، أو على نحو ما نتمثلها الآن ، وكذلك قل في «كشيشر» وكذلك قل في «عبيد الله بن قيس الرقيات» ، ولكني أشك الشك كله في أن يكون قيس بن الملوّح شخصاً تاريخياً وجد وعرفه الناس واستمعوا إليه ، وفي أن يكون هذا الشعر المنسوب إليه صحيحاً قد صدر عنه حقاً ، وأزعم أن قيس ابن الملوّح خاصة إنما هو شخص من هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب لتمثيل فكرة خاصة ، أو نحو خاص من أنحاء الحياة ، بل ربما لم يكن قيس بن الملوّح شخصاً شعبيّاً «كجحا» وإنما كان شخصاً اخترعه نفر من الرواة ، وأصحاب القصص ليلهو به الناس أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية سنعرض لها بعد قليل .

وهنا أعتذر إلى الكاتب الأديب الذي خصص في الشهر الماضي صحيفة من صحف «السياسة» لدرس المجنون وتحليل شعره والبحث عن عواطفه ، فأحسن البحث وأجاد التحليل ، أعتذر إليه - بعد الثناء عليه - من أن أقول إنه أجهد نفسه في غير طائل ، ولو أنه سلك مسلكاً آخر في البحث لأفاد وانتفع ، ولاستطاع أن يكتب صحيفة من صحف «السياسة» يقصرها على المجنون ويثبت فيها لا أن المجنون كان أرق الناس شعراً ، وأصدقهم حباً ، وأرقاهم عاطفة ، بل أنه كان رمزاً لطائفة من الآراء ، وألوان من العواطف ، وفن من فنون الشعر والنثر ظهر في العصر الأموي ، وكاد ينتهي إلى غايته لولا أن العصر العباسي أقبل بلهوه وشكه ومجونه فأفسد على الناس كل شيء .

وقبل أن نتمتع في بسط هذا الرأي ، وإثباته نريد أن نريح الكاتب الأديب وأصحابه الذين يؤمنون بالمجنون من هذه الخرافة ، ونبين لهم أن النقد الصحيح لا يستطيع أن يؤمن بوجود هذا الشاعر . وماذا تقول في رجل لا يتفق الناس على اسمه ، ولا على نسبه ، ولا على الخطوب التي امتلأت بها حياته؟ وإنما يختلفون في ذلك الاختلاف كله ! بل ماذا تقول في رجل لا يتفق الرواة على أنه

وجد ولا يروون ما يضاف إليه من الأخبار إلا متحفظين ؟ بل ماذا تقول في رجل يريد أبو الفرج الأصبهاني أن يروى أخباره لأن شروط كتابه تضطره إلى ذلك ، فيعلن ويبالغ في الإعلان أنه يخرج من عهدة هذه الأخبار ويتبرأ منها ، ويضيف هذه العهدة إلى الرواة الذين ينقل عنهم . وأنت تعلم أن رواة العرب — لا نتحدث الآن عن رواة السنة ، وإنما نذكر رواة القصص والسير — لم يكونوا يتشدّدون في الاحتياط ولا يبالغون في الحذر ، وكثيراً ما كانوا يروون غير الصحيح ويثبتون غير الحق ، فإذا كانوا على هذا الإهمال والضعف ينكرون وجود قيس بن الملوّح ، أو يشكون فيه ، أو لا يتفقون على اسمه وصفته وصروف حياته ، أفلا يكون من الحق علينا أن نحفظ كما تحفظوا ، ونشك على نحو ما شكوا ؟ إذا لم يكن من الحق علينا أن نتخذ تحفظهم وشكهم دليلاً على أن أخبار قيس بن الملوّح إنما هي نوع من الأساطير .

الرواة يختلفون في وجود قيس ، فأما الثقات منهم فقد أنكروا وجوده ، أو تحفظوا فيه ، ولست أريد أن أطيل عليك في هذا ، وإنما أحيلك إلى كتاب الأغاني في جزئيه الأوّل والثاني لترى من ذلك ما يغنيك . ولقد بالغ بعض الرواة في إنكار وجود قيس حتى زعموا أن بنى عامر أغلظ أكباداً من أن يعث بهم الحب إلى هذا الحد ، وإنما ذلك شأن اليمانية الضعيفة قلوبهم ، السخيفة عقولهم ، أما النزارية فلا . وتحدّث راوية آخر أنه مرّ ببني عامر بطناً بطناً وسألهم عن المجنون ، فأنكروه ولم يعرفوه ، وتحدّث راوية آخر أنه سأل أعراييناً من بنى عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين ، وروى لكل واحد منهم شعراً ، إلا قيس ابن الملوّح فإنه أنكره ولم يعرفه .

ثم اختلف الرواة الذين آمنوا بوجود المجنون في تسميته ، فهو قيس عند بعضهم ، ومهدى عند بعضهم الآخر ، وهو الأقرع عند فريق ، والبحترى عند فريق آخر ، ثم اختلفوا في نسبه واسم أبيه ، ثم اختلفوا في أنه كان مجنوناً حقاً ، فزعم ذلك منهم فريق ، وأنكره فريق آخر ، وقال الأصمعي لم يكن مجنوناً ، وإنما كانت به لوثة كلوثة أبي حسيّة النُصميريّ ، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله دعى المجنون ، فزعم بعضهم أنه كان مجنوناً حقاً ، وزعم بعضهم الآخر أنه دعى المجنون لشعر قاله ، وفيه لفظ المجنون ، كما دعى النابغة بهذا الاسم لشعر قاله ، وكما دعى فريق من الشعراء بأسماء وردت في أشعارهم ، ولم

تكن أسماءهم ، ثم اختلفوا في سبب جنونه ، فزعم بعضهم أنه الحب ، وزعم بعضهم الآخر أن الله انتقم منه لأنه اعترض على قضائه في قوله :

قَضَاهَا لِغَيْرِي وَابْتَلَانِي بِحُبِّهَا فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ كَيْلِي ابْتِلَانِيَا

وزعم قوم أن هذا البيت لم يجرّ عليه الجنون ، وإنما جرّ عليه البرص . ثم أخذ الرواة يجهدون في تعليل هذه الأخبار التي تنسب إلى المجنون ، فرووا في ذلك أحاديث مختلفة ، منها — وهو أهمها — ما ذكره ابن الكلبي من أن فتى من فتيان بني أمية أحب فتاة من بنات أعمامه ، وقال فيها شعراً وكره أن يشهر ذلك ، فاخترع شخص المجنون وصنع أخباره وأضاف إليه ما كان يقول من شعر .

وهناك قوم من الرواة لم تكن لهم صناعة إلا تلهية الناس والتسلية لهم . فكانوا يصنعون لذلك الأخبار والأشعار ويذيعونها في البصرة والكوفة وبغداد من أمصار المسلمين ، وكانوا يفيدون بذلك مالا كثيراً ، بل هناك طائفة من ثقاة الرواة ، أو من الذين نعدهم ثقاة ، كانوا قد برعوا براعة لا حد لها في انتحال الأشعار والأخبار ، وكان الناس قد آمنوا لهم ووثقوا بهم ، فكانوا يأخذون عنهم ما يروون على أنه حق لا شك فيه ، ولم يكن يشك في روايتهم إلا نفر قليلون قد علموا علمهم وشاركوهم فيما كانوا فيه من عبث وطو .

ولست أذكر من هؤلاء الرواة إلا اثنين : أحدهما حماد الرواية ، والآخر خلف الأحمر . كلا هذين الرجلين أنحل العرب أخباراً وأشعاراً لا تحصى ، وكلاهما كان يتكلم العربية ويجيدها خيراً مما يتكلمها ويجيدها الأعراب ، وكلاهما كان متهما في دينه محبباً للهو عاكفاً على العبث ، وكان من الشعراء المعاصرين لهما من يشاركهما في اللهو والعبث والمجون ، فيضطلع بأسرارهما ويشك في صدقهما ، ومن هنا كان كثير من الشعراء يلجّ على هذين الراويين وأمثالهما في أن يستشهدوا بشعرهم كما يستشهدون بشعر القدماء ، وكانوا يعلمون أن شعر القدماء هذا لم يكن من القدماء في شيء ، وإنما كان يصنعه الرواة صنعة وينتحلونه انتحالاً . وقل مثل ذلك في الأنساب ، وقل مثل ذلك في السير وأخبار الفتوح والغزوات . وانظر إلى سيرة ابن هشام وإلى هذا الشعر الكثير الذي يروى فيها وصفاً للغزوات ، والذي يرويه ابن هشام حتى إذا فرغ منه أضاف إليه هذه الجملة « قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرون هذه القصيدة » .

وجملة القول إن بين العرب والرومان من جهة، وبين الفرس واليونان من جهة أخرى، تشابهاً شديداً: انتصر العرب على الفرس انتصاراً عسكرياً ، وانتصر الفرس على العرب انتصاراً أدبياً ، وكذلك انتصر الرومان على اليونان انتصاراً حربيّاً ، وانتصر اليونان على الرومان انتصاراً أدبياً . وكان مظهر هذا الانتصار الأدبي في روما وفي بغداد واحداً ، وهو أن اليونان والفرس أخذوا الرومان والعرب بأدابهم وحضارتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل عبثوا بالأدب اللاتينية والعربية فأدخلوا فيها وأضافوا إليها ما لم يكن لها به عهد . وكذلك صنعوا بالأنساب ، وكذلك صنعوا بالتاريخ والسير . إذن فمن الحق علينا أن نشك في أخبار هؤلاء الرواة حين يروونها واثقين ، وأن نبالغ في الشك حين يروونها متحفظين ، وأن نشدد في المبالغة حين نراهم يختلفون فيما بينهم اختلافهم في أمر المجنون .

وطريقة أخرى تثبت بها هذا الرأي ؛ ولكنها طريقة فنية ليست من التاريخ في شيء ، وهى طريقة أدبية خالصة نرجو أن يلتفت إليها القارئ وأن يجد فيها مقنعاً . نعتمد في هذه الطريقة على شعر المجنون ، أو على الشعر الذى ينسب إلى المجنون ، فيثبت لنا الشعر نفسه إحدى اثنتين : إما أنه مصنوع متكلف قد اخترع اختراعاً ، فهو لا يعبر عن عاطفة صادقة ، ولا عن حب صحيح ، وإما أنه قد صدر عن أشخاص مختلفين ، ثم خلطه الرواة عمداً أو سهواً وأضافوه إلى شاعر واحد هو المجنون . ولعل الجاحظ لم يخطئ حين قال : ما ترك الناس شعراً فيه ليلى إلا نسبوه إلى قيس بن الملوّح ، ولا شعراً فيه لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح . وفي الحق إن شعراً كثيراً ينسب إلى المجنون وليس من المجنون في شيء ، وإنما قاله شعراء آخرون لم يكونوا مجانين ولم يعث بهم الحب عبثه بهذا المجنون .

وإذا أردت أن تدرس شاعراً من الشعراء فعلى أى قاعدة تعتمد في هذا الدرس؟ على شخصية الشاعر قبل كل شيء . ذلك أن هذا الشاعر يجب أن يتمثل في شعره إلى حد ما . فإذا كان شاعراً مجيداً حقاً فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها، بحيث تستطيع أن تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة وليناً وبتباين عنفاً ولطفاً ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشاعرية التى تتمكنك من أن تقول: هذا الشعر لفلان ، أو هو مصنوع على طريقة فلان . نظن أن هذه

القاعدة لا تقبل الشك في فنّ من فنون الأدب ، ولا سيما الشعر الغنائي الذي هو مرآة النفس ومظهر العاطفة . فهل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بينه في هذه الأشعار الكثيرة المختلفة التي يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة ؟ أما أنا فأزعم أن ليس إلى ذلك من سبيل . ولا أطيل في إثبات هذا الرأي ، وإنما ألخص لك خلاصة ما انتهيت إليه بعد البحث :

كل هذا الشعر الذي يضاف إلى المجنون لا يخلو من أن يكون شعراً قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه إلى المجنون ، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلى فأضافوه إلى المجنون ، أو انتحله الرواة أنفسهم ، أو انتحله المغنون وأصحاب الموسيقى وأضافوه إلى المجنون ، ولقد أجهدت نفسي في البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر في هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك إلى شيء .

وطريقة أخرى نشبت بها رأينا في وجود المجنون ، وهي اختلاف الرواة اختلافاً شديداً في هذه الصلة التي وجدت بين قيس بن الملوح وبين ليلى ، فنشأ عنها هذا الحب الذي ذهب بعقل قيس . يزعم قوم أنهما تعارفا طفلين وكانا يرعيان البهم فنشأت بينهما مودة استحالت مع السن حباً ، ثم شبت الفتاة فحجبت عن الفتى ، فأصابه ما أصابه . ويزعم قوم آخرون أنهما لم يتعارفا طفلين ، وإنما مرّ قيس ذات يوم بفتيات ، فسلم فرددن السلام ودعونه إلى الحديث . فنزل وتحدث وصنع صنيع امرئ القيس فعقر ناقته وأطعمهن ، ولكن فتى آخر أقبل مع المساء فتلاهن به عن قيس ؛ فانصرف قيس مغضباً وقال في ذلك شعراً ، ثم أصبح فتعرض لهن فلم يجدهن ، وإنما وجد ليلى ، فدعته إلى الحديث فنزل وتحدث وصنع كما صنع بالأمس ؛ وأظهرت ليلى إعراضها عنه فاغتم لذلك ، ورأت ليلى هذا منه ففرقت به ، وأعلنت إليه حبه في شعر لم يسمعه حتى خرّ مغشياً عليه . وزعم آخرون أن قيساً كان زير نساء ، وأن ليلى كانت أملح النساء قديماً ، وأجلهن منظراً ، وأحسنهن حديثاً ، وأن فتيات الحى كنّ يختلفن إليها ويجاذبنها أطراف الحديث ، فسمع بها قيس فاختلف إلى مجلسها فكان الحب . ورووا غير ذلك من الروايات . ولكنى أكتفى بهذه الروايات الثلاث لأرى منها أن شخصية ليلى ليست أقلّ اختلافاً وتفاوتاً من شخصية قيس ، فهي في إحدى الروايات راعية ، وهي في رواية أخرى بدوية تتعرض

للشبان وتميل إلى حديثهم ، وهي في الرواية الثالثة أدبية ذات مكانة وصوت يختلف إليها الفتيان كما كانوا يختلفون إلى مجالس النساء الأدبيات في الحواضر العربية . ألا ترى أن هذا الاختلاف وحده يكفي لحملك على الشك في شخصية ليلي ، كما أن الاختلافات الأخرى تكفي لحملك على الشك في شخصية قيس ! ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما هناك ألوان من السخف والتكلف تنتهي إلى هذا الرأي الذي أحاول إثباته . منها هذه الرواية التي تزعم لنا أن أبا ليلي كره تزويج ابنته من عاشقها لا لشيء إلا لأنه أحبها وذكر ذلك في شعره ، فكره الرجل أن يفتضح وأن يفضح ابنته . ونلاحظ أننا نجد هذا المذهب في أخبار طائفة من هؤلاء العشاق تختلف قبائلهم وأخبارهم وأوطانهم ، ويقول الرواة لنا إن هذه كانت خصلة من خصال العرب . ولست أدري : أحق هذا ! ولكنني أرجح أن هذا مذهب اخترعه الرواة ليخلقوا منه أشخاص القصص الغرامية التي كانوا يضعونها لتلهية الجمهور وتسليته ، على نحو هذه المذاهب التي نجدها في أحاديث العامة وأقاصيصهم . فقلما تقرأ أحداثاً من هذه الأحاديث أو طائفة من هذه الأحاديث إلا رأيت فيها مذهباً معيناً منه اخترعت القصة . ولأضرب لك مثلاً أمر الغول في أحاديث هؤلاء الشبان الذين يرتحلون الرحلات الطويلة يسعون إلى أمر عظيم فلا يكادون يجاوزون أوطان الناس حتى تعترضهم غول ، أو وحش يشبه الغول ، وهلم جرا . . .

ومن ذلك ما يتحدث به الرواة من أن السلطان أهدر دم قيس إذا تعرض لليلي بعد أن حجبت عنه ، وهذا مذهب نجده أيضاً في أخبار قيس بن ذريح وغيره من هؤلاء العشاق . ويحق لنا أن نتساءل : أكان الخلفاء قد فرغوا من أعمالهم العامة المختلفة هؤلاء العشاق يهدرون دمهم حيناً ، ثم يعصمون حيناً آخر ؟ وعلى أي نحو من أنحاء الشرع كانوا يعتمدون في إهدار هذه الدماء لا لشيء إلا لأن رجلاً أحب في عفة ، وتغنى جبه في عفة ؟ وإنما هو مذهب في القصص الغرامية كهذا المذهب الذي تقدم ، ومن ذلك ما يذكرون من توحش قيس ، وإمعانه في التوحش ، حتى ألف الأطباء وألفته الأطباء فعایشهن وعایشته ، واضطر مخترع هذه الأحداث إلى أن يحتال حتى يبلغ أراكة كان قيس قد أنس فيها إلى سرب من الأطباء ؛ فلما بلغ هذه الأراكة على غير حس من قيس ، ولا من سره ، احتال حتى ارتقى واختنى بين أعصابها ، ثم أخذ يحدث قيساً

فنفرت الطباء ، وكاد ينفر قيس لولا أن محدثه ذكر اسم ليلى ، فأنس له قيس ومضى في حديثه حتى سنحت له ظبية فتبعها . كل هذا من سخر الرواة ، ما نحسب أن له ظلا من الحق وإنما هو ضرب من المبالغة في تأثير الحب ، كان الرواة يحتاجون إليه حين تفرغ أحاديثهم المعقولة ، وهو آية على أن المخترع ضعيف الحظ من القصص الغرامى يعيه المعقول فيلجأ إلى المحال .

وعلى هذا النحو من النقد استطاع مؤرخو الآداب اليونانية أن يفرقوا بين فصول « الإلياذة » وأناشيدها المختلفة ، فما كان منها محالا مفعما بالمبالغات أضافوه إلى شاعر ضعيف قليل الحيلة ، وما كان منها معقولا ، أو كالمعقول لا يلمس اللذة الفنية في الإحالة والإغراق ، أضافوه إلى شاعر بارع واسع الحيلة .

أظن أن هذا كله يكفى للشك في شخصية الحنون ، إن لم يكف لإنكار هذه الشخصية ، ولكن الشك والإنكار عقبان بطبعهما ، وليس من الخير أن ينتهى عندهما الباحث إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وبين يدينا أخبار وأحاديث تصف عاشقاً آلمه العشق ، وأودى بعقله وحياته ، بل تصف عاشقاً مختلفين عبث بهم الحب هذا العبث ، وهذه الأخبار والأحاديث تشترك في أشياء ، وتختلف في أشياء ، تشترك مثلا في أن الأشخاص جميعاً من أهل البادية ، وفي أن حبهم كان عفيفاً بريئاً ، وفي أنهم قد لقوا في هذا الحب جهداً عظيماً ، وفي أنهم قد تغنوه في الشعر الجيد ، وتنفق في وصف هذا الحب وأساليبه ، والمصاعب التي قامت دونه ، وتدخل الخلفاء أو الولاة فيه إلى حد ما ، وتختلف في أشخاص العشاق والعشيقات وقبائلهم وأساليبهم في الحب والشعر وألوان العناء الذى تكلفوه ، كما تختلف في انتهائها ، فمنها ما ينتهى إلى شر ومنها ما ينتهى إلى خير . فلا بد من أن يكون هناك مصدر لهذا الاتفاق ، ومصدر لهذا الاختلاف ، ولا بد للباحث المحقق الذى ينتهى به البحث إلى إنكار قيس بن الملوّح والغض من شخصية قيس بن ذريح من أن يقيم مكان هؤلاء الأشخاص أشخاصاً آخرين أو أشياء أخرى ، وإلا كان بحثه عقياً وكانت نتائجه أثراً من آثار التحكم الذى لا خير فيه ، وأنا أريد أن أقيم مكان قيس بن الملوّح ، وقيس بن ذريح ، وجميل بن معمر ، وعروة بن حزام ، أشياء لا أشخاصاً ، أو بعبارة أدق : أريد أن أقيم

مكانهم شيئاً واحداً هو فن القصص الغرامية الذي أعتقد أنه ظهر ، أو على أقل تقدير ، قوى وعظم أمره أيام بني أمية ، وأخذ ينظم شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون فناً مستقلاً على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامية في الأدب الحديث . فليس يعينني أن يكون شخص قيس بن الملوّح تاريخياً ، أو غير تاريخي ، وإنما الذي يعينني أن هناك قصة غرامية هي قصة قيس بن الملوّح ، وقصة غرامية أخرى هي قصة قيس بن ذريح ، وقصة غرامية ثالثة هي قصة جميل بن معمر وهلم جرا . . .

أنا إذن بإزاء قصص غرامية اخترعها الخيال ، لا بإزاء عشاق . فإذا أردت أن أبحث ، فلست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لا يعنونني ، وإنما أبحث عن واضح هذه القصة ، وقيمتها ومقدرته في الشعر والنثر ، أبحث عن هذا الفن الأدبي الذي لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية ، والذي ظهر بعد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول . نعم ! أنا أعلم حق العلم أن هناك صعوبات كثيرة تحول بيني وبين إتقان هذا البحث . أول هذه الصعوبات أن هذه القصص الغرامية لا تنسب إلى كاتب بعينه ، ولا إلى كتاب معروفين ، فلسنا ندرى من واضح قصة الخجنون ، أو قصة قيس بن ذريح ، وإذن ، فقد نتكلف كثيراً من العناء في البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون أن ننتهي إلى نتيجة ، وقد يكون كل ما ننتهي إليه أننا أنكرنا أشخاصاً معروفين دون أن نصل إلى أشخاص آخرين ، أنكرنا أشخاص الشعراء ، دون أن نصل إلى أشخاص القصاص . ومع ذلك فلم نتكلف البحث عن أشخاص القصاص إذا لم يكن إليهم سبيل ! أليس يكفينا أن نثبت ما بين هذه القصص من التفاوت والاختلاف ، وما يمتاز به بعضها من بعض من الجودة والإتقان والمهارة القصصية والبراعة الشعرية ! أليس يكفينا أن نصل بوجه ما إلى تحديد هذا الفن الأدبي وتبيين صفاته الخاصة التي تميزه من غيره من الفنون ! ثم أليس يكفينا ما قد نوفق إليه من إظهار الأسباب الأدبية والخلقية والسياسية التي دعت إلى ظهور هذا الفن أيام بني أمية ، ومن إظهار الأسباب الأخرى التي دعت إلى ذبوله ، ثم إلى فنائه أيام بني العباس ! ألسنا إن وفقنا إلى هذا كله أو بعضه ، نكون قد استكشفتنا في الأدب العربي فناً كان الناس يجهلون ويغفلون عنه ؟ ثم ألسنا بالكشف عن

هذا الفن ووصفه وإظهار خصاله، أنفع للأدب العربي ومجد الأمة العربية من هؤلاء الذين يقصرون بحمهم على الأشخاص، ولا يتخذون لبحمهم غاية إلا تملق أنفسهم وتملق الجمهور ! نعتقد أن في هذا النحو من البحث نفعا عظيما ، ولهذا نريد أن نمضى فيه حتى نتمه في الفصول الأخرى .

البوليجين ، في ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون والغزل (١)

نشأته وأسبابها — فن القصص الغرامى

لذيذة جداً قراءة الأغاني فى أرض ما أحسب أنه قرىء فيها قبل اليوم ، فى أقصى الغرب الفرنسى . نعم ! فقد اصطحبت معى هذا الكتاب ، وما قرأت فيه يوماً إلا ذكرت قصة ذلك الرجل القديم الذى كان كلما ارتحل اصطحب أجمالاً تحمل له ما يحتاج إليه من الكتب فى رحلته ، فلما ظهر كتاب الأغاني استغنى عن تلك الأجمال وما كانت تحمل من أسفار ، واكتفى باصطحاب هذا الكتاب . أذكر هذه القصة كلما قرأت فى كتاب الأغاني ، وليس يعينى أن تكون القصة صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أؤكد أن فى هذا الكتاب ما يغنى عن الأجمال وعمما يمكن أن تحمل من أسفار ، وإن من اليسير جداً أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ . ولكن شأن الأغاني فى هذه الأيام كشأن غيره من كتب الأدب والتاريخ التى تركها لنا القدماء ، فهو — كهذه الكتب — فى حاجة شديدة جداً إلى أن يقرأ ، وإلى أن يفهم ، وإلى أن يستخلص منه العلم على النحو الذى يلائم العقول فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ولقد يكون من الحق إن كثيراً من الشبان والشيوخ فى مصر وفى غيرها من البلاد الشرقية يستطيعون أن يقرءوا هذا الكتاب وغيره من كتب الأدب والتاريخ دون أن يستفيدوا منها فائدة قيمة ، بل ربما كانت قراءة هذه الكتب بعيدة كل البعد عن أن تنفعهم أو تجدى عليهم . ذلك أن اختلاف العصور شديد الأثر فى العقول وفى حاجاتها وفى استعدادها للفهم والدرس ، فقد كان القدماء يجدون فى أخبار أبي الفرج وفى أخبار الطبرى ما يكفيهم ويسد حاجتهم إلى الحفظ والرواية ، وكان ما كتب أبو الفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملائماً كل الملاءمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبتغون من

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

الأدب مثلما نبتغي نحن الآن ، والذين كانوا يستطيعون أن يتركوا عقولهم ومنطقهم إذا عرضوا لقراءة مثل هذه الكتب ، وألا يعتمدوا على هذه العقول ولا على هذا المنطق إلا إذا عرضوا للفلسفة أو الكلام أو الفقه أو نحو ذلك من العلوم التي تحتاج إلى النظر وتدعو إلى الجدل . كانوا يعتمدون في قراءة الأدب والتاريخ على الرواية من جهة ، وعلى الذوق من جهة أخرى ، وكانوا يرضون الرضا كله إذا رويت لهم الأخبار عن هؤلاء الثقات الذين اعتمد عليهم القدماء في نقل السير والأخبار ، كما كانوا يرضون الرضا كله إذا وقعت إليهم القصيدة الجيدة أو المقطوعة المختارة فلامت أذواقهم ومثلهم الأعلى في الفن .

أما نحن فأشدّ من هؤلاء القدماء طمعاً وأكثر منهم تحفظاً ، لا تكفيننا أسماء الثقات من الرواة ، ولا يكفيننا جمال القصيدة وجودة المقطوعة ، وإنما نريد أن نتخذ كل شيء موضوعاً للبحث والنقد والتحقيق والتحليل ، ولا نكاد نفرق في ذلك بين الأدب والعلم . ونحن محقون ، لأننا لا نبتغي من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ، ولا إرضاء الذوق والميل الفني ، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم ، وسبيلاً إلى فهم حياتها العقلية والشعرية ، وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة . وإذن فنحن أشد طمعاً من القدماء ، وأكثر منهم حرصاً على التحقيق وميلاً إلى التحليل ، وإذن فليس يكفيننا أن نقرأ الأغاني ، وتاريخ الطبري ، وإنما نريد أن نفهم هذين الكتابين وأمثالهما على الوجه الذي يلائم طريقتنا في الفهم ، ومنهجنا في الدرس والتحليل ، ومن هنا لا يجد القراء جميعاً لذة ولا مقنعاً في قراءة كتب القدماء ، لأنهم جميعاً لا يملكون مناهج البحث القيم عن آثار القدماء ، ومن هنا كان من الحق أن نقول : إن كتاب الأغاني وتاريخ الطبري ، وأمثالهما ليست كتب أدب وتاريخ ، وإنما هي مصادر للأدب والتاريخ . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية تخلو إلى اليوم ، وستخلو ، من كتب الأدب والتاريخ إلى أن يتيح لها الله كتباً في هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة ، وتحقق أطاعنا الحديثة ، وترضى حاجاتنا العلمية والفنية .

ولكن مالى ولهذا النحو من الكلام ، وأنا إنما ابتدأت هذا الفصل لأنحدث إليك عن الغزلين وأخبارهم ، أو لأنحدث إليك عن القصص الغرامية أيام بني أمية ! وكيف استبحت لنفسى أن أجاوز هذا الموضوع المحدّد إلى هذا النحو

من نقد كتب القدماء والحكم عليها أولها ! ذلك أني أريد أن أنتقل من هذا النقد إلى تفسير هذه المواقف المختلفة التي أقفها من كتب القدماء ، وآداب القدماء ، وأحكام القدماء ، والتي يدهش لها كثير من المعاصرين ، ويسخط عليها كثير من المتعصبين ، فأنا لا أفهم الأدب العربي كما كان يفهمه القدماء وكما لا يزال يفهمه أنصار القديم من أدباء اليوم ، وأنا لا أحكم على الظواهر الأدبية كما كان يحكم عليها القدماء ، وكما لا يزال يحكم عليها شيوخ الأدب في أيامنا ، وإنما أفهم الأدب العربي وأحكم على ظواهره كما ينبغي أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش في القرن العشرين ، ويفهم كما يفهم أهل هذا القرن ، ويطمع في مثل ما يطمع فيه أهل هذا القرن ، ويرى كيف يفهم الأوروبيون أدب اليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة ، وهو لا يقلدهم تقليداً ، ولا يتكلف محاكاتهم ، وإنما كذلك فطر ، وعلى هذا النحو وحده يستطيع أن يفهم ، فليس عليه لوم ولا جناح ، إذا لم يستطع أن يأخذ روايات القدماء كلها على أنها نقد رائع كما يقول الفرنسيون ، ولا أن يصدق هذه الروايات ، لا لشيء إلا لأن الثقات قد رووها ، فهو يعتقد أن هؤلاء الثقات قد يخطئون في الرواية ، وقد يخطئون في الفهم ، وقد يكون من الحق إنهم عاشوا في عصرهم دون أن يفهموه ، كما يعيش كثير منا في عصرنا دون أن يفهموه . وإذن فمن حق عليك ألا تسرف في لومي إذا رأيتني أنكروا ما يروى من أخبار الخنون ، وقيس بن ذريح وجميل وغيرهم من الغزلين ، بل الحق عليك أن تمضى معي في هذا السبيل التي أنتهجها ، والتي ينبغي أن تكون سبيلك إذا أردت أن تعيش في عصرك حتى تنتهي معاً إلى أقصاها ، فيما أن نتفق ، وإذن فهو الخير ، وإما أن نفرق وإذن فلا بأس عليك ولا على .

أنا إذن أرى في العصر الأموي رأياً يخالف آراء الناس ، كما رأيت في العصر العباسي رأياً يخالف آراء الناس ، أرى أن الرواة والأدباء لم يفهموا عصر بني أمية على وجهه ، وإنما تورطوا بالقياس إليه في ألوان من الخطأ مصدرها في أكثر الأحيان أنهم لم يحكموا العقل والنقد ، وإنما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة ، ولست أريد أن أجاوز موضوع البحث إلى أكثر من هذا الحد . فلنعد إذن إلى حيث ابتدأنا من أمر الغزلين .

أذكر أني عرضت في السنة الماضية للغزل أيام بني أمية فقسمته ثلاثة

أقسام مختلفة : الأول غزل العذريين الذين كانوا يتغنون في شعرهم هذا الحب الأفلاطوني العنيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والجنون . والثاني غزل الإباحيين الذين أسميهم « المحققين » وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبي ربيعة . والثالث الغزل العادي الذي ليس هو في حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين ، أريد به الغزل الذي لا يقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق ، وإنما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ؛ إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها ، أريد به هذا الغزل الذي كان يبتدىء به الجاهليون قصائدهم والذي ظل يبتدىء الإسلاميون به قصائدهم إلى اليوم ، وهو الغزل الذي تجده في شعر جرير والفرزدق والراعي وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر ، وما أزال أحتفظ بهذا التقسيم دون أن أغير منه شيئاً ، ولكني لست في حاجة اليوم لأعرض لهذا الغزل العادي الموروث ، فقد يكون خضع للتطور في العصر الإسلامي كما خضع للتطور غيره من فنون الشعر ، وقد نعرض لهذا في يوم من الأيام . وإنما أعني عناية خاصة بالقسمين الأولين : غزل « العذريين » من جهة ، وغزل « المحققين » من جهة أخرى ، وأحاول أن التمس الأسباب المختلفة التي أنشأت هذين الفنين في أيام بني أمية ، فألاحظ شيئاً أحب أن يلتفت إليه القراء ، وهو أنا لا نجد هذين النوعين من الغزل في الشام ، ولا في العراق ، ولا في مصر ، وإنما نجدهما في الحجاز ، وما يليه من البلاد العربية الخالصة . أما الشام والعراق ، وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية ، إذ كانت الشام مستقر الخلافة ، وكان العراق مستقر المعارضة . أقول : أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر : أحدهما الشعر العادي من مدح وهجاء ووصف . والثاني الشعر السياسي الذي كانت تتناضل فيه الأحزاب . وإذن فما تفسير هذه الظاهرة ؟ وما بالثنا لا نجد الغزل بقسميه إلا في الحجاز ، وما يليه من البادية ؟

ثم هناك ملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القراء أيضاً ، وهي أن هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين ، أريد أن العذريين والإباحيين كانوا جميعاً في الحجاز وما يليه ، ولكنهم لم يكونوا يعيشون في بيئة واحدة ، وإنما كان فريق منهم يتحضر ، وفريق منهم يبدو . فأما المحققون

أو الإباحيون ، فكانوا يتحضرون ، يعيشون في مكة والمدينة ، وأما العذريون فكانوا يبدون في بادية الحجاز أو نجد . وفي الحق إن عمر بن أبي ربيعة كان مكياً قضى حياته كلها في مكة ، وإن الأحوص بن محمد كان مدنياً قضى حياته في المدينة ، وفي الحق أيضاً إن جميلاً كان بدوياً في وادي القرى ، وإن قيس ابن ذريح كان بدوياً يعيش في بادية المدينة ، وإن المجنون — إن صحّت أخباره — كان نجدياً يعيش في بادية نجد ، وإذن فالغزل بقسميه عربي خالص ، ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام ، وإنما أريد معناه الجغرافي ، أى إن هذا الغزل بقسميه قد نشأ في جزيرة العرب خاصة . فأما عفيفه فكان في البادية ، وأما القسم الآخر ، فكان في الحاضرة .

وملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القراء أيضاً ، وهى أنا إذا درسنا أخبار الغزليين المحققين أو الإباحيين ، رأيناهم كلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتصلين اتصالاً قوياً بأبناء المهاجرين والأنصار ، وإذا درسنا أخبار العذريين رأيناهم من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم في الإسلام ، وإنما هى محتفظة احتفاظاً شديداً ببدائها القديمة ، وعاداتها الجاهلية الموروثة . أفلا نستطيع أن نستخلص من هذه الملاحظات كلها شيئاً ؟ بلى . ولكنى أريد أن أضيف إليها قبل الاستنتاج ملاحظة أخرى ، وهى أنا نجد في الحجاز ، وفي مكة والمدينة خاصة فناً آخر نشأ مع هذا الغزل الإباحي ، وهو فن الغناء . ولست في حاجة إلى أن أثبت لك أن الغناء نشأ في الحجاز ، وأنه أزهى في مكة والمدينة ، وأنه لم يكن في دمشق إلا غريباً ، كان يرتحل إليها من الحجاز حين كان يطلبه الخلفاء . فإذا نستطيع أن نستنتج من هذا كله ؟ نستطيع أن نستنبط أن بلاد العرب — بعد أن تم الفتح للمسلمين ، وبعد أن جاهدت في الاحتفاظ بالسلطان السياسى ، وأخفقت في الجهاد فشلاً شنيعاً ، وانتقل مركز الحكم منها إلى الشام ، كما انتقل مركز المعارضة منها إلى العراق — انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك في الحياة العامة ، وفرغت للحياة الخاصة ، فانكبت على نفسها وأحست شيئاً من اليأس والحزن غير قليل ، فهى كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التى أخضعت الأرض ، وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة ، ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض ، ثم هى ترى نفسها جردت من كل شيء ، فانتقلت

عاصمة الخلافة إلى الشام ، وانتقل جهاد الأحزاب السياسية إلى العراق ، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب ، فعاملوها معاملة شديدة قاسية ، وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف .

ثم لم تكن هذه البلاد العربية خاضعة لليأس وحده ، وإنما كانت خاضعة أيضاً لشيء آخر يناقض اليأس أشد المناقضة ، أو قل يلائم اليأس أشد الملاءمة ، أريد به الثراء ووفرة المال ؛ فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار في مكة والمدينة مثرين ، وكانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا النوى الذى أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ، ويمثلون الأرسطراطية العربية ، ثم كان الخلفاء يصانعونهم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية ، كانوا يكرمونهم إكراماً مادياً : كانوا يدرّون عليهم الأموال ، ويوسعون عليهم فى العطاء مراعاة لمكانتهم واصطناعاً لهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية . وإذا اجتمع اليأس من الحياة العملية إلى الثروة والغنى ، فإذا عسى أن ينتجا ؟ اللهو والإسراف فيه والعكوف عليه . وكذلك أنتج اليأس والثروة فى مكة والمدينة ؛ فلها هؤلاء الشبان الأشراف الأغنياء اليائسون ، وأسرفوا فى اللهو ، وتعزّوا به عن هذه الحياة التى أصابتهم فى الحياة العامة . ومن هنا نشأ عمر بن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة ، ونشأ الأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة ، ونشأت حولهم هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاح .

وإلى جانب اليأس والثروة وآثارهما فى مكة والمدينة ، نستطيع أن نضيف مؤثراً آخر عمل فى بادية الحجاز وما يليها من البلاد العربية . ونحن قبل أن نذكر هذا المؤثر نعلن أنه فى حاجة شديدة إلى الدرس ، وأنه قد أظهر آثاره فى مظاهر مختلفة ، وأنه قد يجد صعوبة شديدة من شيوخ الأدب فى هذه الأيام . وما نحسب أنهم يقرون رأينا فيه ؛ ولكنه مع ذلك حق لا سبيل إلى الشك فيه ، وهو نتيجة اليأس مع الفقر ، نريد به الزهد وشيئاً يشبه التصوف .

كان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء فلهم كما يلهو كل يائس . وكان أهل البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام ، وبالقرآن خاصة ، فنشأ فى نفوسهم شيء من التقوى ليس بالحضري الخالص ، وليس بالبدوى الخالص ، ولكن فيه سداجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء

الناس عن حروبهم وأسباب لهُم الجاهلي ، كما انصرفوا عن الحياة العملية في الإسلام إلى أنفسهم ، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نعمة لا تخلو من حزن ولكنها نعمة زهد وتصوّف . وأنا أعلم أن لفظ التصوّف هنا لا يؤدي معناه الذي أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شيء من المثل الأعلى في الحياة الخلقية . وظهر هذا الزهد أو هذا الميل إلى المثل الأعلى في مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما الزهد الديني الخالص الذي قد تجد له صدى في أشعار هؤلاء الخوارج الذين كانوا يتركون هذه البوادي لينضموا إلى جيوش الخوارج في بلاد الفرس ، والذين يظهر في شعرهم شيء من الزهد والتقوى وشدّة الإيمان وسداجته لا نجده في شعر غيرهم من الشعراء . والآخر هذا الغزل العفيف الذي هو في حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى في الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التي كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى . وإذن فهذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية في أيام بني أمية . اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل وأوقعت في قلوبهم اليأس ، ولكنها أغنت قوماً فلهوا وفسقوا ، وأفقرت قوماً آخرين فزهّدوا وعفّوا وطمحوا إلى المثل الأعلى . كذلك أفسر ظهور هذين الفنين من الغزل .

ثم لا ينبغي أن أنسى مؤثراً آخر أثر في هذين الفنين تأثيراً عظيماً ، وهو الغناء . فليس من شك في أن المغنين كانوا يتخذون أشعار الإباحيين من أهل مكة والمدينة ، والعذريين من أهل البادية ، موضوعاً للحن والغناء . ولكن هذه الأشعار التي كانت تصدر صدوراً طبيعياً عن الفريقين كانت بطبيعتها أقل من أن تكفي حاجة المغنين وهذه الألوان المختلفة التي كانوا يتخذونها من اللحن والغناء . وإذن فقد كان هؤلاء المغنون أنفسهم يصطنعون ضروراً من الشعر الإباحي والعذري يغنون فيها . وربما كان هناك شعراء يصنعون لهم هذه الضرور من الشعر ويضيفونها إلى أهل البادية حيناً وإلى أهل الحاضرة حيناً آخر . ومن هنا تجد في هذه الأشعار التي تضاف إلى الفريقين من الغزلين ألواناً مختلفة من الشعر ، منها ما لا تشك في أنه فطري قد صدر عن الطبيعة دون تكلف ولا تصنع ؛ لأنه يصف عاطفة قوية أو يمثل شعوراً حاداً أو يحتفظ بيداوة لا تحتمل الشك . ومنها ما تظهر فيه الصنعة ويلبس فيه التكلف لمساً ، وتشعر حين تقرأه أو تسمعه أنه قد عمل ليغنى فيه لايصف عاطفة ولا يمثل شعوراً .

نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سياراة من الوضوح نشأة النسيب أيام بني أمية والأسباب التي دعت إليها . وقد أطلنا في هذا وتعمدنا الإطالة ؛ لأنه سيعيننا على فهم الموضوع الذي ندرسه ، وهو القصص الغرامى أيام بني أمية .

نعتقد - ونرجو ألا يغضب المحافظون من الأدباء - أن القصص الغرامى أثر من آثار الغزل بقسميه ، لا أن الغزل أثر من آثار هذا القصص . نعتقد أن الشعراء من أهل البادية والحاضرة في البلاد العربية تأثروا بكل هذه المؤثرات التي ذكرناها ، فقالوا ما قالوا من الشعر العفيف وغير العفيف وغنى فيه المغنون ، ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس إلى تفسيره ووصل بعضه ببعض ؛ فنشأت لإرضاء هذه الحاجة هذه الأقاويص الغرامية التي يمتلئ بها كتاب الأغاني وغيره من كتب الأدب . وقد يميل الباحث إلى أن يفترض عكس ما قدمنا فيقدر أن هذه الأقاويص أنشئت بادئ بدء لتلهية الناس وتسليتهم ، وأن القصص نحلوا هذا الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحلية لقصصهم ومبالغة في تعظيم شأنها . ولكن هذا الافتراض بعيد عن أن يلائم الحق ؛ فهو يستلزم أن يكون كل شيء في هذه القصص وفي هذا الشعر متكلفاً مصنوعاً . وقد قدمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية في البلاد العربية . والأشبه هو ما ذهبنا إليه من نشأة الغزل بقسميه أولاً ، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانياً .

على أننا لا ننكر أن كثيراً من هذا الشعر قد نحله القصص وتكلفوه تحلية لقصصهم وتزييناً لها ، وتعليلاً لما ورد فيها من الأخبار . ويكفى أن تقرأ أخبار هؤلاء الشعراء في الأغاني وغيره لتبين من هذا الشعر شيئاً كثيراً .

وخلاصة القول في هذا الموضوع أنا لا نشك في أن شعراء من أهل البادية والحاضرة في الحجاز قد انقطعوا لهذين النوعين من الغزل فأجادوهما وأكثروا منهما ، ثم نشأت حول أشعارهم قصص ليس لها غرض إلا تفسير هذه الأشعار ووصلها واتخاذها وسيلة إلى تسلية الناس . واذن فلسنا ننكر وجود جميل ، بل لسنا ننكر أنه أحب بثينة ، ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح ، بل لسنا ننكر أنه تغزل في لبنى . ولكننا نزعم أن هذه الأخبار التي تروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولبنى مصنوعة متكلفة في أكثر الأحيان ، وأن تكلفها أحدث

إلى جانب هذين الفئتين الشعريين اللذين ذكرناهما فننا نثرياً جديداً هو فن القصص الغرامى .

والآن يحسن أن نتخذ هذه القصص أنفسها موضوعاً للبحث فى فصل نقارن فيه بينها ، ونبين ما لها من مزايا ، وما لها من عيوب ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك عمدنا إلى الشعر الغزلى نفسه فاتخذناه موضوعاً للبحث . وسيكون هذا كله موضوع الأحاديث المقبلة .

البوليجين ، فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون وأخبارهم (١)

تحدث الأصمعي قال : « سألت أعرابياً من بني عامر بن صعصعة عن
الجنون العامري فقال : عن أيهم تسألني ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون . فعن
أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذي يشب بليلي ؛ فقال : كلهم كان يشب
بليلى . قلت : فأنشدني لبعضهم ؛ فأنشدني لمزاحم بن الحارث الجنون :

ألا أيها القلبُ الذي لَجَّ هَامِئاً وليداً بليلى لم تُقَطِّعْ تَمَامَهُ
أفِقْ قَدْ أَفَاقَ الْعَاشِقُونَ وَقَدْ أَنَى لَكَ الْيَوْمَ أَنْ تَلْقَى طَبِيباً نَلَامَهُ
أَجْدَكَ لَا تُنْسِيكَ لَيْلَى مُلَمَّةٌ تُبْلِمُ وَلَا عَهْدٌ يَطُولُ تَقَادُمَهُ

قلت : فأنشدني لغيره منهم ؛ فأنشدني لمعاذ بن كليب الجنون :

ألا طالما لَاعَبْتُ لَيْلَى وَقَادَتِي إِلَى اللَّهِوِ قَلْبُ لِلْحِسَانِ تَبُوعُ
وَطَالَ أَمْرَاهُ الشَّوْقِ عَنِّي كَلَمَا نَزَفْتُ دُمُوعاً تَسْتَجِدُّ دُمُوعُ
فَقَدْ طَالَ إِمْسَاكِ عَلَى الْكَيْدِ التِي بِهَا مِنْ هَوَى لَيْلَى الْغَدَاةَ صُدُوعُ

قلت . فأنشدني لغير هذين من ذكرت فأنشدني لمهدى بن الملوح :

لَوْ أَنَّ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا عُدِلَتْ بِهِ سِوَاهَا وَلَيْلَى حَائِلٌ عَنكَ بَيْنُهَا
لَسَكُنْتُ إِلَى لَيْلَى فَقِيْرًا وَإِنَّمَا يَقُودُ إِلَيْهَا وَدُّ نَفْسِكَ حَيْنُهَا

قلت له : فأنشدني لمن بقى من هؤلاء . فقال : حسبك ! فوالله إن في
واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم .

ولو سألت الأصمعي أعرابياً آخر غير هذا الأعرابي من قبيلة أخرى غير
قبيلة بني عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب بليلى أو ببشينة أو بلبني أو بعزة

(١) نشرت بجريدة «السياسة» في ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

أو برياً ، لأجابه الأعرابيّ هذا الجواب أو شيئاً يشبهه ، ولأنشده شعراً كثيراً لشعراء كثيرين كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وجدت حقاً أو اخترعها خياله اختراعاً .

ذلك أن الأمر كما قلت لك في الفصلين الماضيين ، من أن عصراً قد مرّ على الحجازية : بدوهم وحضرم ، تأثروا فيه بتلك المؤثرات التي فصلتها ، فظهر فيهم الغزل بقسميه : العفيف وغير العفيف . ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يغيروا رأياً في هذا الأمر ، وهو أن الكثرة من هؤلاء الشعراء ، ومن الفتيات اللاتي كانوا يتغزلون بهنّ ، إنما هم جميعاً رموز لا حقائق ، فقيس بن الملوّح أو المحنون مثل من أمثلة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتغزلون : لأن مؤثرات مختلفة عبثت بنفوسهم وعواطفهم فأحدثت فيها شيئاً من الرقة واللين لم يكن مألوفاً ، وأحست هذه النفوس حاجتها إلى الحب ، وإلى تغنى الحب فنطقت بهذا الشعر العذب الذي نسميه النسيب .

ولست أدري أوجدت ليلي العامرية حقاً أم لم توجد ؟ ولكني أعلم أن ليلي عند العرب في ذلك العصر كانت شيئاً يشبه « هيلانة » عند اليونان في عصر الأبطال ، وكذلك قل في لبني وبثينة وعزة وريا وغيرهنّ من النساء اللاتي ألهمهنّ هؤلاء الشعراء المجهولين غزلهم ونسيبهم ، على أني مضطر أن ألاحظ حقيقتين متناقضتين ولكن فهمهما يسير :

(الأولى) أن هذا الشعر العذري الذي وصفت لك أسباب ظهوره في العصر الأمويّ جيد في جملة حقاً يمتاز بخصلتين : إحداهما البداوة التي تكسب لفظه رصانة في غير عنف ولا جفوة ، وتكسب معناه سذاجة في غير سخف ولا إسفاف . والثانية الصدق في وصف العاطفة وتمثيلها ، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفاً ولا منتحلاً ، وإنما كان رجلاً يألم حقاً ويصف ألمه وصفاً صادقاً . أو قل : كان رجلاً يألم وكان ألمه يصف نفسه . وانظر إلى هذه الأبيات :

وَلَمْ أَرَ لَيْلَى بَعْدَ مَوْقِفِ سَاعَةٍ بَبَطْنٍ مَنَى تَرْمِي جِجَارَ الْمُحَصَّبِ
وَيُبْدِي الْحَصَى مِنْهَا إِذَا قَدَفَتْ بِهِ مِنْ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخْضَبِ
فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةَ كَنَاطِرٍ مَعَ الصَّبْحِ فِي أَعْتَابِ نَجْمٍ مُعَرَّبِ

أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ صَدَىٰ أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

وحدثني ، أتجد في هذا الشعر لفظاً حوشياً أو مبتذلاً ؟ أتجد فيه معنى جافاً أو خفيفاً ؟ أأست تحسّ في لفظه جلالاً ، وفي معناه رقة وليناً ، وفي روحه ألماً ولوعة ؟ انظر إلى هذا الشاعر كان يحج ، وما أحسب أنه كان يعرف ليلي هذه أو يتعشقها من قبل ، ولكنه ذهب يؤدي الفريضة الدينية وفي نفسه ما تعلم مما وصفت لك من هذا الشوق إلى الجمال ، والطموح إلى المثل الأعلى ، والميل الذي أسميه تصوّفاً ، لأنني لا أجد لفظاً آخر أطلقه عليه .

ذهب هذا الشاعر إلى الحج ، وكان المجتمع بمنى ، فرأى فيمن رأى هذه المرأة الجميلة التي خلبتة ، وصادفت هوى نفسه إلى الجمال وطموحها إلى الأنا ، ولكنه لم يستطع أن يدنو منها ، ولا أن يتحدث إليها ، ولا أن يتبين من أمرها شيئاً . ثم انصرف الناس فلم يبق في نفسه من هذه المرأة ، أو قل من هذا الأمل القوي الذي هزّ نفسه ، إلا ذكرى أعقبته ياساً ولوعة ، وردته إلى ما كان فيه قبل أن يراها من غلة يتحرّق لها دون أن يستطيع لها شفاء . أليس هذا هو الذي تحسه في هذا الشعر ؟ أأست تعجب معي بهذا القصد في اللفظ والمعنى ؟ لم ير ليلي بعد موقف ساعة بمنى حين كانت ترمى الجمار ، أو حين كانت حركاتها الحلوة الرقيقة المحتشمة تعبت بنفسه ، حين كان رميها الجمار يظهر أطراف أصابعها الحسان ، وقد طمع في هذه المرأة وطمحت نفسه إليها ، ولكنها فاتته فليس له فيها أمل ، فهو ينظر إليها كما ينظر إلى النجم يهوى آخر الليل وليس من سبيل إلى إدراكه ، وقد وقع من نفسه اليأس موقعاً شديداً فسلبها قوتها وثباتها وقدرتها على المقاومة ، فهي أداة تعبت بها الأهواء ، وتتنازعها العواطف والميول :

أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ صَدَىٰ أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

وانظر معي إلى هذه الأبيات :

وخبرك الواشون أن لن أجيبكم	بلى وستور الله ذات المحارم
أصدّ وما الصدّ الذي تعلّمينه	شفاء لنا إلا أجبراع العلاقم
حياءً وبقياً أن تشيع بميمة	بنا وبكم ، أف لأهل النائم

فما تقول في هذا اللفظ الجيد ، وفي هذه العاطفة الصادقة ، وفي هذا المعنى الذى برئ من كل إسراف ، وفي هذه الصراحة التى برئت من كل نفاق ؟ زعموا لك أننى لا أحبك لأنى لا أزورك ولا أصلك . كذبوا ، وإنك لتعلمين أنهم كاذبون . وإنك لتعلمين أنى أتكلف هذا الصدّ وأتجشم فيه الأهوال إبقاء عليك وعلىّ ، وحرصاً على شرفك ، فأفّ لأهل النائم . مثل هذا الشعر لا يمكن أن يوصف بالكذب ، ولا أن يعاب بالغموض أو الابتذال . ثم انظر إلى هذا الشاعر نفسه يمضى فى قصيدته ، تجد تصديق ما قدّمت لك من أن سلطان المرأة على نفوس هؤلاء الأعراب كان قد انتهى إلى منزلة لاتعدلها منزلة :

وَإِنَّ دَمًا لَوْ تَعَلَّمِينَ جَنَيْتِهِ عَلَى الْحَيِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمٍ
أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكَ أَرَقَلْتَ إِلَيْهِ الْقَنَا بِالرَّاعِفَاتِ الْهَازِمِ
وَلَكِنْ لَعَمْرُ اللَّهِ مَا كُلُّ مُسْلِمٍ كَعَرِّ الثَّنَائِيَا وَاضِحَاتِ الْمَعَاصِمِ
إِذَا هُنَّ سَاقَطْنَ الْحَدِيثَ لِذِي الْهَوَى سِقَاطَ حَصَى الْمَرْجَانِ مِنْ كَفِّ نَاطِمِ
رَمِينَ فَأَقْصَدْنَ الْقُلُوبَ فَلَمْ نَجِدْ دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَوَى فِي الْحِيَازِمِ

انظر إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة التى يقسم فيها الشاعر ما أهدر دماء المسلمين شىء كما يهدرها الحب . وانظر إلى هذين البيتين الأخيرين اللذين يمثلان تأثير حديث النساء فى نفوس الفتيان . إذا تحدثن إلينا قتلنا بهذا الحديث الذى ينثره كما ينثر اللؤلؤ من العقد ، قتلنا ولكن لم يسفكن دماءنا ، فأنت لا ترى هذه الدماء تسيل ، وإنما أيقظن جوى يضطرم بين الضلوع .

ولو أنى أردت أن أضرب لك الأمثال التى تثبت جمال هذا الشعر وبهجته وروعته وصدقه لأطلت وأسرفت فى الإطالة . على أنى سأعود فأخصص له فصلا أو فصولا . وإنما ضربت ما ضربت من هذين المثليين لأثبت لإحدى هاتين الحقيقتين اللتين ذكرتهما ووصفتها بالتناقض منذ حين . قلت إن هذا الشعر العذرى جميل جيد ؛ ولكن هناك حقيقة أخرى ، وهى أن أخبار العذريين أو القصص التى نسجت حول أشعارهم ليست شيئا يذكر بالقياس إلى هذه

الأشعار : فيينا تجد في هذه الأشعار من صدق اللهجة وحرارة العاطفة وحدة الشعور ما يملك عليك نفسك ، لا تجد في هذه الأخبار التي تروى حول هذا الشعر إلا تكلفاً وتصنعاً وإسرافاً في المبالغة وانتهاء إلى السخف . فكيف تستطيع أن تفسر هذا ؟ كيف تستطيع أن تلامم بين سخف هذه الأخبار وجوده هذا الشعر؟ وهل يمكن أن تلهم الحوادث السخيفة الفاترة شعراً جيداً حاراً؟ كلا ! ... إنما أنت مضطر إلى أن تذهب مذهبي ، وهو أن هذا الشعر قد صدر صدوراً طبيعياً عن قوم كانوا يشعرون ويألمون ، ويصفون آلامهم ويمثلون شعورهم ؛ وأن هذه القصص قد أنشئت فيما بعد ، أنشأها رواة هادئون لم يكونوا يجدون في أنفسهم ما كان يجد هؤلاء الشعراء من لوعة وأسى ، ومن ألم وحسرة على آمال يطمعون فيها ويطمحون إليها دون أن يظفروا منها بشيء . وبعبارة واضحة : كان شعر هؤلاء الغزلين يصف نفوسهم ، وكانت أقاصيص هؤلاء الرواة لا تصف شيئاً إلا طمع أصحابها في إرضاء الجماهير . ومع ذلك فإننا نجد بين هذه القصص ضروراً من الاختلاف وضروراً من التشابه ، لا بأس بالوقوف عندها حيناً ، فقد نستفيد منها أشياء كثيرة .

وأحب أن ألاحظ قبل كل شيء أن هذه القصص جميعاً تشترك في خصلة واحدة لا تمتاز بها عن غيرها من الأخبار ، وهو هذا الجمال الفني اللفظي الذي تجده في القصص وفي سياق الرواية . ولست أغلو إن قلت إن قطعاً من هذه الأخبار تصلح نماذج يحسن أن يتأثرها الكتاب الذين يحرصون على الإجابة . وسأروى لك من هذا أمثالا . ولكني أعود فأقول : إن هذه ليست ميزة لهذا النوع من القصص ، وإنما هي لغة الرواة في ذلك العصر ، كان لها حظ من الصفاء والجلودة والسداجة البدوية والخلو من التكلف اللفظي قلما تجده عند الكتاب المتأخرين . وأحسب أن من خير ما ينبغي أن يقرأ الكتاب ، الذين يحرصون على الإجابة ، نثر هؤلاء الرواة في الأغاني وفي تاريخ الطبرى وما يشبههما من كتب الأدب والتاريخ .

لا أعرض في هذا السبيل إلا لثلاث من هذه القصص : قصة المحنون ، وقصة قيس بن ذريح ، وقصة جميل . وإذا أردت أن أحكم على هذه القصص فأنا مضطر إلى أن أسجل أن أشدها سخفاً وأكثرها غلوً وإحالة ، وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد ، قصة المحنون . فلست تجد في هذه القصة شيئاً

يبين لك شخصية هذا الرجل الذى اتخذ لها بطلا ، بل كل ما تجده ألوان من المبالغات وضروب من الإسراف .

• • •

قيس بن الملوّح رجل أحب ليلي حين كانا طفلين ، أو أحبا حين كانا على حظ من الشباب ، ولكن هذا الحب يظهر دائماً مظاهر غريبة غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة الإنسانية حتى طبيعة العشاق المدلّين . فلست أعرف عاشقا أغمى عليه كما أغمى على قيس بن الملوّح . ولست أعرف عاشقاً شقياً وزفر كما شقّ قيس بن الملوّح وكما زفر . كان يكفى أن تتحدث إليه ليلي بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشياً عليه . وكان يكفى أن يذكر له شيء عن ليلي يدل على أنها تحبه ، أو يدل على أنها تعرّضت لمكروه ، ليسقط على وجهه مغشياً عليه . بل كان يكفى أن تتحدث إليه عن ليلي ليسقط على وجهه مغشياً عليه . كان يقضى حياته كلها أو أكثرها ساقطاً على وجهه مغشياً عليه ، أو قل إنه كان يقضى حياته كلها إما ساقطاً على وجهه وإما هامئاً على وجهه ، فهو لم يعرف أو لم يكد يعرف الحياة الهادئة العاقلة ، وإنما كانت حياته كلها اضطراباً ، كانت حياته مقسمة بين إغماء وجنون .

هذه هى الصورة التى تستطيع أن تستخلصها من قصة المجنون ، وإذا كان المجنون قد أنفق حياته بين الجنون والأغماء ، فليس يسيراً أن تتبين شخصيته ولون نفسه ، ولا أن تتميز عواطفه وخصاله . فليست له عاطفة ولا خصلة ، وإنما هو مريض ، إما مغشياً عليه وإما مجنون ؛ أو قل : إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحدّدان شخصيته . مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون حقيقة ؛ وإن كان حقيقة فلا يمكن أن يصدر عنه شعر متقن كبعض هذا الشعر الذى نقرؤه ، ولا يمكن أن يكون بطلا لقصة صادقة ، وإنما هو رجل خليق بالبيمارستان ، بل هو لا يصلح بطلا لقصة خيالية منحولة ، فن الخير أن يخترع الكاتب وأن يتخيل ، ولكن من الحق عليه أن يجتهد فى ألا يكون خياله سخفاً واختراعه محالاً ، ذلك أنه يتعرّض بهذا إلى أن يكذبه الناس ويسخروا منه ومن خياله ، وقد سخر الناس من واضع قصة المجنون وكذبوه ، فقد ذكرت لك فى غير هذا الفصل أن الثقات من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه أو يختلفون فى أمره اختلافاً عظيماً . والغريب — أو المعقول —

أنهم لا ينكرون قيس بن ذريح ولا جمبلا ولا يشكون فيهما ولا يكادون يختلفون في أمرهما . فلم هذا ؟ لأن قصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة ، لا يستطيع الناس أن يؤمنوا لها أو يطمئنوا إليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف تريدني على أن أومن لهذا الخبير الذي يزعم أن المجنون وقف يتحدث إلى ليلى وفي يده نار فأخذت النار تحرق برده حتى أتت عليه ونالت من جسمه وهو لا يشعر ! ثم كيف تريدني على أن أصدق أن هذا الرجل جنّ وانتهى به الجنون لا إلى أن يهيم على وجهه ، بل إلى أن يستأنس الوحش ويعيش معها كما كان يعيش مع الإنسان أما أن يؤثر هذا الوحش فقد نفهمه ، ولكن من فيلسوف لا من مجنون ! وأما أن تؤثره الوحش وتأنس إليه فشيء يحسن أن نسأل عنه علماء الحيوان . ومع هذا فأحب أن تقرأ من أخبار هذا المجنون القصة التي يرويها رجل من بني مرة ويصف فيها موت المجنون وأثر موته في قومه . فستجد في هذه القصة لفظاً عذباً وأسلوباً متيناً ؛ وتجدها في الجزء الثاني من الأغاني (صحيفة ١٤ جزء ثان طبعة بولاق) .

• • •

أما قصة جميل فلست أدرى بم أصفها ! فيها تخف كثير ، وفيها إحالة كثيرة ، وما أحسبها أصدق من قصة المجنون . ولكن جمبلا رجل تاريخي وجد حقاً وشعره واضح الدلالة على شخصيته ، ولم يكن مجنوناً ولا مذهوباً به ، بل لم يكن ذاهلاً . ومن هنا خلعت قصته من هذه الألوان التي ننكرها في قصة المجنون ؛ خلعت من هذه الألوان وامتألت بألوان أخرى أقل ما توصف به أنها تناقض الحب العذرى ، ولا تلائم هذا الهوى الذي يحزن النفس ويملأ القلوب حسرة . ولست أذكر لك من هذه الألوان إلا لونين اثنين : أحدهما يدل على أن واضع القصة كان رجلاً متكلفاً ميالاً إلى المخاجاة ، فإنك تجد في غير موضع من أخبار جميل ضرباً من الرمز والإلغاز بين هذين العاشقين حين كانت تتصل بينهما الرسائل . وأرى أن أروى لك أحد هذه الألغاز لتشعر معي أنه متكلف من غير شك ، ولتغنيني عن الاستدلال . تحدث كثير قال : « لقيت مرة جميل فقال لي : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أبي الحبيبة ، أعني بثينة ؛ فقال : وإلى أين تمضي ؟ قلت إلى الحبيبة ، أعني عزة ؛ فقال : لا بدّ من أن ترجع عودك على بدئك فتستجدي لي موعداً من بثينة ، فقلت :

عهدي بها الساعة ، وأنا أستحي أن أرجع ! فقال : لا بد من ذلك . فقلت له : فتي عهدك ببثينة ؟ فقال : في أول الصيد وقد وقعت سخابة بأسفل وادي الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فلما أبصرتني أنكرتني ، فضربت بيديها إلى ثوب في الماء فالتحفت به ، وعرفتني الجارية ، فأعادت الثوب في الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ؛ وسألها الموعد فقالت : أهلى سائرون ؛ وما وجدت أحداً آمنه فأرسله إليها . فقال له كثير : فهل لك في أن آتي الحى فأنزع بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوّة بها ؟ فقال : ذلك الصواب ؛ فأرسله إليها ، فقال له : انتظرني . ثم خرج كثير حتى أناخ بهم ؛ فقال له أبوها : مارذك ؟ قال : ثلاثة أبيات عرضت لي فأحببت أن أعرضها عليك ؛ قال : هاتها ؛ قال كثير : فأنشدته وبثينة تسمع :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ أَرْسِلْ صَاحِبِي إِلَيْكَ رَسُولًا وَالْمَوْكَلُ مُرْسِلُ
بِأَنْ تَجْعَلِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا وَأَنْ تَأْمُرِي نِي مَا الَّذِي فِيهِ أَفْعَلُ
وَأَخِرُ عَهْدِي مِنْكَ يَوْمَ لَقِيْتِنِي بِأَسْفَلِ وَادِي الدَّوْمِ وَالثُّوبُ يُغْسَلُ

قال : « فضربت بثينة جانب خدرها ، وقالت : اخسأ ! اخسأ ! فقال أبوها : مهسيّم يا بثينة ؟ قالت : كلب يأتينا إذا نوّم الناس من وراء الرابية ! ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له ؛ فقال كثير : أنا أعجل من ذلك . فراح إلى جميل فأخبره ؛ فقال له جميل : الموعد الدومات ... » (الأغاني ص ٨٦ جزء ٧ طبعة بولاق) .

فما رأيك في هذه القصة ، وفي هذه المصادفة البديعة التي أتاحت لكثير أن ينصرف من عند أبي حبيبة جميل إلى حبيسته هو ، وأن يلتق جميلاً في هذه الساعة ؟ ثم في هذه الأبيات السخيفة المتكلفة ؟ ثم في جواب بثينة « كلب يأتينا إذا نوّم الناس من وراء الرابية » ... ؟ جعلت صاحبها كلباً ، ثم في صمت أبي بثينة وانخداعه إلى هذا الحد ؟ أظن أني لست في حاجة إلى أن أقول : إن هذه القصة نوع من هذه النوادر التي كان يندّر بها الناس على الأعراب .

اللون الثاني : شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما

نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بئينة أذاعوا في الناس أن جميلاً لا ينسب بابنهم ، وإنما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه القالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بئينة والتقىا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل أن تضحج ، فما نعت ثم قبلت ، فاضجعت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته ففضى ، وأصبح الناس فرأوا بئينة نائمة في غير بيتها ، فلم يشكوا في أنها كانت مع جميل . وقال جميل في ذلك شعراً . أنتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً ، وأن رجلاً كجميل كان يحب بئينة حباً كالذي نجده في شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة !

وهناك لون آخر يحسن أن أشير إليه ، وهو أن صانع هذه القصة كان فيما يظهر متأثراً بشعر امرئ القيس من جهة ، وعمر بن أبي ربيعة من جهة أخرى ، فأنت تذكر قصيدة امرئ القيس التي أولها :

* الأعم صباحاً أيها الطلل البالي *

وأنت تذكر أن امرأ القيس يحدثنا في هذه القصيدة بقصته مع صاحبة حين زارها ففضى معها الليل ، وذكر زوجها فسخر منه واعتز بسيفه وسهامه فقال :

يَعْطُ غَطِيطَ الْبَكْرِ شُدَّ خِنَاقَهُ لَيَقْتُلَنِي وَالْمَرْءَ لَيْسَ بِقَتَالِ
أَيَقْتُلَنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرُقٍ كَأَنْبَابِ أَغْوَالِ

وأنت تذكر قصيدة عمر بن أبي ربيعة التي أولها :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكَرُ غَدَاةَ غَدٍ أُمُّ رَاحٍ فَمُهَجَّرُ

والتي ذكر لنا فيها قصته حين زار صاحبة ففضى معها الليل ، ثم أسفر الصبح وأراد أن ينصرف ، فأشفقت عليه صاحبة من الحى فقال :

فَقَلْتُ أَبَادِيهِمْ فَإِنَّمَا أَفْوَتْهُمْ وَإِنَّمَا يَنَالُ السَّيْفُ تَاراً فَيَمَارُ

ولكنها أشفقت عليه وكرهت هذه المخاطرة ودعت أختها وتشاور القوم وانتهوا إلى أن اقتنع عمر وخرج بينهم كأنه إحداهن ، وقال :

فَكَانَ مَجْتَنِي دُونَ مَا كُنْتُ أَتَقِي ثَلَاثُ شُخُوصٍ : كَاعِبَانَ وَمُعْصِرٍ

كان واضح هذه القصة متأثراً بشعر هذين الرجلين ، فهو يمثل لنا جميلا في أكثر الأحيان عند بثينة ليلا ، ثم يسفر الصبح ، أو يكاد ، فتشفق بثينة وتأمّر صاحبها أن ينصرف خوفاً عليه ، فيأبى معتزاً بسيفه وسهامه ، ولكن بثينة تلح عليه وتذكر أنها تخشى الفضيحة ، وحينئذ ينصرف جميل .

والغريب أن جميلا مثل في هذه القصة ما ذكره عمر بن أبي ربيعة ، ولكن في صورة أشدّ إنجالا وخزياً مما ذكره عمر . زعموا أنه لقي حى بثينة في بعض سفرهم ، وكان الليل قد تقدّم فرمى حصاة لينبه بثينة ، فأصابت الحصاة صاحبة لها فاضطربت وجزعت وما شككت في أنه جنى ، وأقرتها بثينة على ذلك ، وهى تعلم أن هذا الجنى هو جميل . فلما انصرفت هذه المرأة خلت بثينة إلى جميل فتحدثتا ليلهما ، ثم اضطجعا فأخذهما النوم ، وأسفر الصبح وأقبل غلام زوجها يحمل إليها صبوحتها من اللبن فرآها مضطجعة إلى جانب جميل ، فانصرف مذعوراً يريد أن ينبئ سيده ، ولقيته صاحبة لبثينة فاستوقفته وعلمت علمه - وكانت صديقة لبثينة شفيقة على حبا - فاحتجزت الغلام وتلطفت في إرسال جارية لها لبثينة تحذرها ، وفعلت الجارية ، وأمّرت بثينة وجميل ماذا يصنعان . فأما جميل فأراد أن يلقي القوم واعتز بسيفه وسهامه . وأما بثينة فأشفقت عليه من سيوف قومها وخافت على نفسها الفضيحة ؛ وما زالت به حتى أقعته فنام ووضعت عليه من الوسائد والأحمال ما أخفاه ، ثم جاءت صاحبها فاضجعت إلى جانبها وأظهرتا النوم ، وأقبل زوجها وأبوها وأخوها فلم يروا جميلا وإنما رأوا امرأتين مضطجعتين ، فانصرفوا خجلين ؛ وقضى جميل يومه مع بثينة .

وأخبار جميل من هذا النحو كثيرة ، وهى لا تدل إلا على أن واضح هذه القصة كان مقلداً قليل البضاعة يلتمس أخباره حيث وجدها دون أن تكون له شخصية قوية .

وفي الحق إن قصة جميل تخلو خلواً تاماً من النفع والفائدة . أحب جميل بثينة وخطبها فأبؤها عليه وزوجها غيره . واشتد هيامه بها وهيامها به ، فكانا يتواعدان ويلتقيان ، وأمضى هو حياة يقول فيها الشعر . وبطبيعة الحال تدخلت الحكومة في أمر جميل كما تدخلت في أمر هؤلاء العشاق جميعاً ، فأهدرت

دمه ، فاضطر إلى أن يضرب في الأرض ، فذهب إلى اليمن وذهب إلى الشام ، وذهب إلى مصر وفيها مات .

والغريب من أمر جميل أن الرواة يذكرون اتصاله بالخلفاء من بني أمية ، فيزعم بعضهم أنه اتصل بمروان بن الحكم ، ويزعم آخرون أنه اتصل بالوليد ابن عبد الملك ، ويقول : إن بثينة نفسها دخلت على عبد الملك ، وكان بينها وبينه مزاح . فكيف مع هذه الصلات أهدر السلطان دم جميل حتى اضطر إلى أن يهرب في أقطار الأرض ويموت غريباً ! . . .

كل هذه الأخبار متكلفة منحولة قد وُصل بعضها ببعض تفسيراً لشعر جميل وتلهية للناس ، ولكن هذه القصة كما قلت لا تدل كقصة المخنون على براعة صاحبها أو أصحابها ؛ وإنما هناك قصة أخرى هي خير هذه القصص . لها قيمتها ، وليست هذه القيمة قليلة ولا ضئيلة . وأحسب أن هذه القصة هي خير ما حفظ لنا من القصص الغرامية أيام بني أمية : أريد بها قصة ابن ذريح . ولكنني لا أحدثك عنها اليوم فربما احتاجت لفصل خاص .

الغزلون (١)

قصة قيس بن ذريح

أما هذه فقصّة جيّدة حقّاً ، لا ينبغي أن تقرن إلى هذا السخف الذي تحدّث الرواة به عن الحنون ، ولا إلى هذا الفتور الذي ذكروا به حب جميل . وما أظنّ إلا أن واضع هذه القصّة قد امتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشيء من الإجادة والبراعة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ؛ فيها ما في غيرها من القصص من هذه الصفات المشتركة التي لا يكاد يخلو منها حب عذري : فيها مثلاً تدخل الحكومة بين العاشقين ، أو بين العاشق وبين حبيبته ، وفيها هذه المبالغات التي لا بدّ منها والتي تشرف بالعاشق على الموت وتكلفه ألواناً من الخطوب وتعرّضه لضروب من المرض . ثمّ فيها هذه الأحاديث الكثيرة التي لا رأس لها ولا ذيل — كما يقول الفرنسيون — والتي إنما اخترعت اختراعاً لتفسير شعر جميل وقع إلى الراوية فأراد أن يجد له تأويلاً . فيها كل هذا ، فهي من هذه الناحية تشبه قصة الحنون وتشبه قصة جميل وتشبه غيرهما من القصص .

ولكنّ فيها شيئاً تمتاز به ، وتستمد منه قيمتها ونفعها وانفرادها بالجوّدة والإتقان ، وهو أنها قصة إنسانية ؛ أريد أن الخيال لم يخرعها اختراعاً وإنما ألفها تأليفاً . والفرق بين الاختراع المطلق والتأليف واضح ، فقد يستطيع الكاتب أن يخرع أشياء يضيف بعضها إلى بعض دون أن يكون لهذه الأشياء أصل في الحياة الواقعة ، وهو إذن يخيف حقّاً . وقد يستطيع أن يؤلف بين أشياء مختلفة يأخذها من الحياة الواقعة ولكنه لا يوفق إلى موضع الصلة بين هذه الأشياء فتخطئه الإجادة ويتورّط في الخطأ أو سوء الذوق أو رداءة التأليف . وأنت تجد هذين النوعين في قصة الحنون وفي قصة جميل .

أما هذه القصّة التي نحن بإزائها فقد وفق صاحبها إلى حسن التأليف وحسن

(١) نشرت بجريدة السياسة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

الدوق ، ووصف فيها أشياء تجدها في الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها ، حتى إن قصته لتجد في نفسك صدى قوياً وتحملك على أن تقول : إن هذا لحق ، وإن هذا بلحيد . ذلك أنه لم يلمس أخباره وحوادثه في السماء ولا في الهواء ، وإنما التمسها بين الناس في حياتهم اليومية ، وفي صلاتهم المألوفة ، وفي عواطفهم التي تمثل ما يجدون من حسّ وشعور .

وأى شيء غريب أو محال في أن تنشأ العداوة بين امرأة وزوج ابنها ! وأى شيء غريب أو محال في أن تغضب الأم أشدّ الغضب لأن ابنها قد شغل عنها بامرأته ! ثم أى شيء غريب أو محال في أن تفتن هذه الأم المحزونة المحنقة وتلمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين ابنها وزوجه ، وتنغص الحياة على هذه المرأة الغريبة التي أقبلت فاحتكرت الابن احتكاراً وصرفته عن أمه وأبيه واختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ؛ ثم أى شيء غريب أو محال في أن يشتدّ حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها وقصورها عن الإفساد بين الزوجين ! فيبعثها ذلك على أن تحتال في قطع الصلة بينهما ، تسلك إلى ذلك ما استطاعت من سبيل ، رفيقة حيناً وعنيفة حيناً آخر ، ناصحة مرة وغاشة مرة أخرى ؛ ليس في ذلك شيء من الغرابة ولا الإحالة ، وإنما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير .

ونحن نعلم أن الخصومة قديمة عنيفة بين الأمهات وزوجات أبنائهم فالأم بطبيعتها شديدة الميل إلى أن تستأثر بحب ابنها ووده ، وحريصة كل الحرص على ألا ينازعها في ذلك منازع . وهي تتردد بين عاطفتين متناقضتين لا تكاد ترى ابنها شاباً قوياً يستقبل الأيام في روعة شبابه وعنفوان قوته حتى تشعر بالميل الشديد إلى أن تراه زوجاً وزعم أسرة ، فتسعى في تزويجه وتجد فيه ؛ وهي بذلك سعيدة حقاً مغتبطة أشدّ الاغتباط ؛ حتى إذا تم لها ما تريد ورأت ابنها زوجاً ، وأحست أنه بهذه الحياة الجديدة سعيد ، انتقلت من هذه العاطفة الأولى إلى عاطفة أخرى تناقضها أشدّ مناقضة ؛ فندمت على ما كان من تزويج ابنها ، وأسفت على ما فاتها من عطف هذا الابن ووده ، وكرهت هذه المرأة الجديدة التي أقبلت فشاركتها في حب ابنها وعطفه ومودته ، ثم لا تلبث أن تحسّ الميل إلى الخصومة وأن تجد في سيرة هذه المرأة الجديدة ما تنكره عليها وتنقمه منها . ويجب أن ننصف الأم ، فهذه العاطفة عندها ليست قائمة

على الأثرة وحدها ، وإنما هي قائمة على الإيثار أيضاً . فالأم تريد أن تنفرد بحب ابنها والعطف عليه ، تريد أن تكون هي الوحيدة التي تراءم ابنها وتحسن إليه . هي أثيرة في إيثارها . ثم يجب أن ننصفها من جهة أخرى ؛ فليست الزوج أقل أثره من الأم ، بل هي أشدّ منها أثره وأقلّ منها إيثاراً ، ولا تكاد الزوجة تستقر في حياتها الجديدة حتى تنزع بطبيعتها إلى الاستئثار بزوجها والانفراد بحبه وعطفه ، وحتى تجتهد - عالمة أو جاهلة - في صرفه عن كل إنسان غيرها وعن كل شيء سواها . وإذن فليست الأم وحدها هي الراغبة في الخصومة الميالة إليها ، وإنما الزوج أيضاً تعين على هذه الخصومة وتزيد نارها اضطراباً .

كل هذا شيء مألوف لا ينكره الناس ولا يعجبون له ، وإنما يعجبون أن تحسن الصلة بين الأم وزوج ابنها ، كما يعجبون أن تحسن الصلة بين الزوج وأم امرأته . فعداوة الأعمام والأصهار شيء يوشك أن يكون طبيعياً . وهذا الشيء الذي يوشك أن يكون طبيعياً هو الذي اتخذه واضع هذه القصة أساساً لقصته ، فأحسن وأجاد وبلغ من الإتيان حظاً عظيماً .

ثم يجب أن نلاحظ شيئاً آخر وهو أن الرجال يختلفون في مثل هذا الموقف اختلافاً شديداً ، فمنهم الرجل القوي الأسر الذي لا يفكر إلا في نفسه وسعادته ، والذي يستطيع أن يقاوم هذا التنازع بين امرأتين مخلصتين في حبه ، ولكنهما مختلفتان لإخلاصهما نفسه . يستطيع أن يقاوم فيعدل بين أمه وزوجه ، وينصف وتلك دون أن ينحاز إلى إحداهما ، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه من قبيل الحب الزوجي فتصرفه عن أمه وتضطره إلى العقوق ، ودون أن تستطيع الأخرى أن تأخذه من قبل الأمومة فتستغلّ ضعفه من هذه الناحية وتفسد عليه حياته المنزلية ، وتضطره إما إلى أن يسىء العشرة في بيته وإما إلى الطلاق . ولكن هذا الرجل ليس مثلاً شائعاً وإنما هو مثل نادر . والكثرة مع الأسف ضعيفة من إحدى الجهتين ، فإما أن ينحاز الرجل إلى زوجه فيتورط في العقوق ويسىء إلى أبويه مؤثراً المستقبل على الماضي ، مؤثراً نفسه على من منحه هذه النفس . وإما أن يضعف فينحاز إلى أبويه ويشقى بأسرته وتشقى به الأسرة .

وقد كان بطل هذه القصة من هؤلاء ؛ فقد استطاع أبواه أن يغلباه على أمره ويضطرّاه إلى الطلاق .

من هذا كله تتبين أن قصة قيس بن ذريح أبعد القصص عن الإحالة

والمبالغة ، وأنها قصة إنسانية كما قلت آنفاً . ولكن هذه القصة تمتاز بما اختص به بطلها من عاطفة قوية ، وحب لا يعدله حب ، وحرص على الوفاء شديد . وحول هذه العاطفة وهذا الحب وهذا الوفاء تدور القصة من أولها إلى آخرها . فإذا أردنا أن نختصرها أو أن نتلمس لها صيغة تقوم عليها استطعنا أن نقول : إنها جهاد بين البرّ والحب . . . رجل يريد أن يكون برّاً بأبويه ووفياً لزوجته ، فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين ، فيضحي بإحدهما في سبيل الأخرى . ولكن هذه التضحية تنغص عليه حياته كلها ، وتضطره إلى ألوان من الهول ، وضروب من الألم لا تكاد تحصى . فقصتنا إذن قصة نفسية خلقية بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين .

تمتاز هذه القصة أيضاً بأن أشخاصاً ممتازين قد لعبوا فيها دوراً كما يقولون ، فاكسبت من هؤلاء الأشخاص شيئاً من الجلال غير قليل ، ثم اكتسبت من هؤلاء الأشخاص أيضاً شيئاً يملك على أن تنزلها منزلتها الحقيقية ، وتعتقد أنها قصة خيالية مخترعة أكثر من أن تكون قصة حقيقية واقعة ، فليس من اليسير أن نتصور تدخل الحسين والحسن ابني علي رضي الله عنهم في عشق فتى من فتيان البادية لفتاة من فتيات البادية ، وليس من اليسير أن نتصور تدخلهما مع نفر من أشرف قريش في التفريق بين الزوجين ليرضوا عاشقاً ملتاعاً .

• • •

أحب قيس بن ذريح لبني لأنه رآها وتحدث إليها في بعض أسفاره ، وأراد أن يتخذها زوجاً له فوجد من أبيه ممانعة شديدة ، لأن أباه هذا كان مثرياً ، وكان يكره أن تنتقل الثروة من قومه إلى قوم آخرين ، وكان يريد أن يصهر ابنه إلى شريف من أشرف قومه ، فلما أيس منه قيس لجأ إلى الحسين ابن علي - وكان أخاه في الرضاعة - فتوسل إليه أن يتوسط بينه وبين أبي لبني في هذا الزواج ، وقبل الحسين ذلك وأسرع إليه ، فركب مع قيس إلى البادية حيث كان حياً لبني ، فلما رأى الشيخ ابن رسول الله قد أقبل يزوره ، أكرمه واحتفى به . وتحدث الحسين إليه بهذه الخطبة ؛ فقبل الشيخ ولكنه ذكر للحسين أنه عربي وأن للعرب عادات وأخلاقاً ليس من اليسير تجاوزها ، وأن الوجه في هذا الأمر أن يأتي أبو قيس فيخطب إليه ابنته ، وأنه يكره أن يزوج

ابنته من هذا الفتى الغنى الشريف على غير رضا من أبيه فتحدثت العرب بما لا يحب ؛ وقبل الحسين من الشيخ هذا العذر فرجع أدراجه مع قيس ، ثم ارتحل مرة أخرى إلى البادية حيث كان يقيم حتى قيس . فلما رأى أبو قيس ابن رسول الله مقبلاً إليه نهض فأكرمه وأجل مكانه . وتحدثت الحسين إليه بأمر هذه الخطبة ! فأذعن الشيخ وكره أن يرد لابن رسول الله أمراً ، وما هي إلا أن ارتحل إلى حيث أبو لبني ، فخطب إليه ابنته لابنه وكان الزواج .

وكان قيس بهذا الزواج سعيداً معتبطاً أحسن حظاً من المحنون وجميل وغيرهما من أبطال هذه القصص الغرامية . ذلك أن الدهر قد أتاح له ما لم يتح هؤلاء الأبطال فلم يحل بينه وبين حبه ، ولم يستطع أهل لبني أن يقولوا مقالة أهل ليلى وبثينة ، ولا أن ينكروا هذا الزواج مخافة العار ، فأى الفريقين نصدق ؟ أنصدق الذين كانوا يزعمون أن العرب كانوا من القسوة والغلظة في عاداتهم ونظمهم البدوية بحيث يحولون بين المحبين إذا ظهر حبهما مخافة الفضيحة وسوء القالة ، أم نصدق الذين تحدثوا إلينا أن حتى لبني لم يكره تزويج هذه الفتاة من حبيبها برغم هذا الحب الذي ظهر وتحدثت به الناس ؟ نعم ! إن هناك سبيلاً للتوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، وهو أن تدخل الحسين بن علي في هذه الخطبة وفي هذا الزواج هو الذي أتاح لقيس سعادته ، وأكره أهل لبني على أن يقبلوا هذا الزواج ويخالفوا ما توارثت العرب من عادة ونظام .

ومهما يكن من شيء فإن واضح هذه القصة قد وفق إلى اختراع بديع حين اخترع تدخل شخص عظيم المكانة كالحسين بن علي في هذا الزواج ليجتنب هذه العقبة الكئود التي أقامها القصاص حتى أصبحت سنة لا تبيح للعاشقين أن يلتقيا .

كان قيس بن ذريح سعيداً بهذا الزواج حقاً ، ولم تكن لبني أقل منه سعادة واغتباطاً ، فقد كان العشق بينهما مشتركاً ، كما كان مشتركاً بين جميل وبثينة ، وكما كان مشتركاً بين قيس بن الملوّح ولبلى العامرية .

ولست في حاجة إلى أن أحدثك بأن هذين العاشقين لم يكادا يلتقيان حتى انصرفا إلى عشقهما عن كل إنسان وعن كل شيء . وقد ذكرت لك أن هذا الزواج قد وقع على كره من أهل قيس ، لأنهم كانوا يأبون أن تنتقل الثروة

إلى حىّ أجنبي . فليس غريباً ألا يتلقوا لبني لقاء حسناً . وليس غريباً أن تنزل منهم منزلة البغيض . وأنت تعلم الخصومة بين الأمهات وزوجات أبنائهن . فإذا أضفت إلى ذلك أن الزوجين كانا مسرفين في جهما منصرفين به عن كل شيء وعن كل إنسان، فهمت في سهولة ويسر ما تحدثت به الرواة من أن أم قيس نكرت ابنها ونقمت منه أنه أهملها وقصر في ذاتها ولم يمحض في ملاحظتها ومودتها على ما كان عليه قبل الزواج ، فوجدت على لبني وأضمرت لها الشر . ولكنها امرأة ، وكيد النساء عظيم ، وهي أمهر وأحذق وأشدّ فطنة من أن تجاهر ابنها بالأمر فتعاتبه وتلومه وتنكر عليه تقصيره في ذاتها . فهي إن فعلت ذلك لم تصل إلا إلى إحدى اثنتين : إما أن ينصفها فيعود إلى برّها وملاحظتها ويمسك لبني ، وهي لا تريد ذلك ، وإنما تريد الطلاق . وإما أن يكون ابنها جافياً ، عاقباً ، فلا يزيد عتاب أمه وتعللها لإحباطاً للبناء وحرصاً عليها ، وهي لا تريد ذلك وإنما تريد الطلاق . لهذا انصرفت الأم عن ابنها فلم تلمه ولم تتعلل عليه ولم تظهر له شيئاً ، وإنما أقبلت إلى الشيخ والتزمت أذنه ، فما زالت به تحرضه وتغريه حتى وصلت إلى ما كانت تريد . ولم يكن هذا عسيراً ، فأنت تعلم أن الشيخ قد خطب هذه الفتاة كارهاً . وأنت تعلم أنه كان يضمن بثروته الضخمة على حىّ لبني ، فأخذته زوجه من هذه الناحية الضعيفة ، وزينت له أن هذه المرأة عقيم ، وأن قيساً إذا أمسكها وحدها فلن يعقب ؛ وإذن فستنتقل الثروة بعد قيس إلى لبني وحدها ، وستنقطع نسل الشيخ ويصبح وجوده عقيم لغوا لا خير فيه ، فإما أن يطلق لبني ويتخذ له زوجاً أخرى تعقب له ، وإما أن يمسك قيس لبناء إذا كان يهواها إلى غير حدّ ، ولكن على أن يتزوج أخرى تعقب له حتى لا ينقطع النسل ولا تنتقل الثروة .

وقبل الشيخ من الشيخة هذا الكلام واطمأن إليه . وكيف لا يقبله ولا يطمئن إليه ؛ أليس طبيعياً أن يحرص الإنسان على الخلود واتصال النسل ! أليس طبيعياً أن يحرص الإنسان على أن يحتفظ بثروته في قومه ويكره انتقالها إلى قوم آخرين ؛ قبل الشيخ كلام امرأته ودعا ابنه وجمع له مشيخة قومه وتحدثت إليه بما أوحى به إليه امرأته . وكان قد انتهز لذلك فرصة صالحة ، فقد كان قيس اعتل وأشرف على الموت ، فلما برىء تحدثت إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه ، ذكر له علته وإشرافه على الموت وأنه لا عقب له، وأن

هذه المرأة غير ولود ، وطلب إليه أن يتزوج امرأة أخرى لعلّ الله يرزقه منها ولداً يرثه ويرث ثروته ، فأبى قيس عليه ذلك وكره أن يسوء امرأته أو يتخذ لها ضرة . قال أبوه : فتمسّر بالإمام . فأبى قيس وكره أن يسوء امرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنالك غضب أبوه وانتهى من الأمر إلى أقصاه ، فأقسم على ابنه ليطلقن امرأته ، وأبى قيس ذلك . واشتدّ الحصام بينهما حتى أعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يخير أباه بين خصال ثلاث : عرض عليه أن يتزوج هو لعلّ الله أن يرزقه ولداً آخر يخلد اسمه ويرث ثروته . قال الشيخ : فما فيّ فضلة ؛ فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه ومعه لبنى ، وأن يفترض أن ابنه قد مات في علته التي برىء منها . قال الشيخ : لا أرضى . قال قيس : فأترك عندك لبنى وارتحل وحدي لعلّ أسلوها . فأبى الشيخ وأقسم لا يمكنه سقف بيت أبداً حتى يطلقها .

وهذا أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب . انظر إلى قيس تتنازعه هاتان العاطفتان القويتان : حب زوجته ، والبر بأبيه . وقد مثل الرواة لنا هذا الجهاد قوياً عنيفاً حقاً ، فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرّض للشمس لا يظله منها شيء ، وأقبل ابنه فأظله بردائه ، وتلقى هو حر الشمس ، ولم يزل كذلك حتى يبيء الشيء ؛ حينئذ ينصرف إلى لبنى فيعتنقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع ، ويقول له لبنى : احذر يا قيس أن تطيع أباك فهلك نفسك وتهلكني ؛ فيؤكد لها وفاءه وولائه وصبره ومضيه في المقاومة .

كم أنفق قيس من الدهر في هذا الجهاد وهذه المقاومة ؟ يختلف الرواة . والغريب أن أبا الفرج ينكر أقرب الروايات إلى الحق وأدناها من المؤلف . ذكر بعض الرواة أن قيساً قاوم أربعين يوماً ثم ألقى السلاح . ولكن أبا الفرج لا يرضى ، لأن أربعين يوماً ليست شيئاً يذكر ، وهو أميل إلى إحدى الروايتين الأخريين اللتين تزعمان أن قيساً قاوم سنة أو سبع سنين .

مهما يكن من شيء فإن البر انتصر على الحب ، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضي في عقوق أبيه . ولا تنس أن قيساً كان أخا للحسين في الرضاعة ، أي أنه كان يعيش في أول عهد الناس بالإسلام ، فكان شديد التأثير بالدين ووصاياه . وأمر الدين في البر بالوالدين صريح قاطع لا يحتمل تردداً ولا التواء ،

فضحى قيس بامرأته ابتغاء مرضاة أبيه . انتصر البر . ولكن انتصاره لم يكن كاملاً بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكورة . فلم يكد قيس يطلق لبني حتى طلق معها عقلة وأمنه وسعادته . وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الدهول ، فلم يصدق أنه طلق لبني ، وخيل إليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التي أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمن العرى . فلما قضت لبني عدتها وأقبل أهلها فاحتملوها أنكر قيس ذلك ، وكأنه حاول ممانعة أهلها فرُدَّ إلى الصواب ، ثم أخذ يتبع ركبها حتى أنذر ، فوقف وأخذ يتبعها ببصره حتى غابت عنه ، ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبلها ويمرغ خده في ترابها ويسكب دموعه عليها وينشئ في ذلك أجمل الشعر وأعذب وأرقه .

من ذلك الوقت أخذت قصة قيس تشبه قصة المخنون ، ولكن دون أن تبلغ السخف أو المحال ، وتشبه قصة جميل ، ولكن دون أن تبلغ الكلف أو الغدر أو الإلغاز الذي أشرت إليه في الفصل الماضي ، وإنما هي قصة إنسانية مؤلمة ينظر لها القلب حزناً ولوعة ؛ لأنها لا تبعث على عجب ولا تحمل على دهش ، وإنما بين أيدينا إنسان أكره على طلاق من يحب ، ثم تبعت نفسه هواه ، وقد حيل بينه وبينه ، فهو يبكيه ويتحسر عليه ويلتاع له ، وهو يجهد كما يجهد كل عاقل أريب في أن يسلو ويتعزى دون أن يجد إلى السلو أو العزاء سبيلاً ؛ بل كلما حاول سلواً أو عزاء ناله من الحب لون لم يكن يعرفه من قبل . وانظر إلى هذه الأبيات ولا تقل إنها مصنوعة متكلفة ، فأنا أيضاً أرى أنها مصنوعة متكلفة . ولكن ألم أقل لك إن القصة كلها موضوعة مصنوعة ؛ وإذن فهذه الأبيات التي أروها لك تمثل ما أشرت إليه من عجز قيس عن السلو ، وافتنانه في ألوان من الحب كلما قضى منها لوناً أقبل عليه منها لون آخر ، وهذه هي الأبيات :

أَحْبَبُّكَ أَصْنَافاً مِنَ الْحَبِّ لَمْ أَحِدْ	لَهَا مَثَلاً فِي سَائِرِ النَّاسِ يُوصَفُ
فَمِنْهُمْ حُبٌّ لِلْحَبِيبِ وَرَحْمَةٌ	بِمَعْرِفَتِي مِنْهُ بِمَا يَتَكَلَّفُ
وَمِنْهُمْ أَلَّا يَعْرِضَ الدَّهْرُ ذِكْرَهَا	عَلَى الْقَلْبِ إِلَّا كَادَتِ النَّفْسُ تُتَلَفُ
وَحُبٌّ بَدَأَ بِالْجَسْمِ وَاللَّوْنِ ظَاهِرٌ	وَحُبٌّ لَدَى نَفْسِي مِنَ الرُّوحِ الطَّفُ

وقد عرض عليه أهله ، كما عرض أهل المجنون على المجنون وأهل جميل على جميل ، أن يتزوج فأبى ، كما أبى المجنون وكما أبى جميل . وقد أصابه ما أصاب المجنون من مرض لم يبلغ به الجنون ، ولكن أشرف به على الموت . واجتهد أهله كما اجتهد أهل المجنون في تسليته وشفائه ، فأغروا به النساء والفتيات ، ودعوا إليه الأطباء ، فعجز النساء والفتيات عن استصباذه ، وعجز الأطباء عن شفائه . ولم يبلغ منه وعظ أبيه إياه . وقد اجتهد في الرحلة والتسلي عنها بالأسفار فلم يظفر من ذلك بشيء ، وإنما كان كما قال المجنون أو جميل أو كثير أو هو :

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَيْفَ تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ

ثم أخذ فيما كان قد أخذ فيه المجنون وجميل وغيرهما من العشاق من طلب لبني والتعرض لحبها واختلاس الأوقات والفرص يخلص فيها إليها ؛ فكره أهلها ذلك ، كما كره ذلك أهل ليلي وأهل بئينة ، وشكوا ذلك إلى السلطان كما شكاه أهل ليلي وبئينة ، وتدخل السلطان كما تدخل في أمر ليلي وبئينة ، فأهدر دم قيس بن ذريح ، كما أهدر دم قيس بن الملوّح ، وكما أهدر دم جميل .

ولكن القصة هنا تثب وثبة لم نألفها في قصة جميل ولا في قصة قيس بن الملوّح ، فقد نجد في هاتين القصتين وغيرهما أمراً عجيباً ، نجد هؤلاء العشاق يكلفون بنساء يكلفن بهم أيضاً ، ولكن هؤلاء النساء قد خضعن لأهلهنّ فتزوجن ، وهنّ وفيات لأزواجهن يصلنهم وينلنهم ما يتحرّق عليه العاشقون حسرة ولوعة ؛ حتى كان أهل هؤلاء العاشقين يتخذونهم موضوعاً للهزء والسخرية ، ويعيرونهم الحب والألم لنساء يخدعنهم ويمنحن حبهن وودّهن لرجال آخرين ، وحتى استطاع المجنون أن يقول هذا البيت الذي يختصر هذه الحال العجيبة :

قَصَّاهَا لِيغَيِّرِي وَابْتَلَانِي بِحَبِّهَا فَهَلَّا بِشَيْءٍ غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلَانِيَا

أما قصة قيس فلم يكن بدّ من أن تنتهي إلى هذا الموقف الذي توارثته القصص الغرامية ، أي لم يكن بدّ من أن تتزوج لبني رجلاً غير قيس ، حتى يصبح قيس كجميل والمجنون هائماً بامرأة يتسلط عليها رجل آخر . ولكن واضح هذه القصة امتاز من سعة الحيلة ولطف المدخل بما لم يمتز به أصحاب

الخبون وجميل . ذلك أنه تخيل هذه الحيلة ، وهي أن معاوية أهدر دم قيس ؛ فأخذ قيس يضرب في الأرض يلتمس العزاء والسلوان ، فرجى من بني فزارة ورأى فتاة صبيحة وضيئة تشبه لبني فتحدث إليها وسألها فإذا اسمها لبني ، فاضطرب لذلك والتاع له . وكان لهذه الفتاة أخ لم يلبث أن عرف قيساً فألح عليه في أن يتزوج أخته ، وما زال به حتى ظفر بالرضا وتزوج قيس هذه الفتاة متورطاً من جهة ، ومحاولاً أن يجد فيها لبناء من جهة أخرى ، ولكنه لم يكدم الزواج ويخلو إلى امرأته الجديدة حتى قامت لبناء القديمة بينه وبين زوجه ، فلم يستطع أن ينظر إليها ولا أن يدنو منها ، ثم ارتحل وتركها على أن يعود إليها ولكنه لم يعد .

أريد قبل أن أنتقل من هذه الحيلة البديعة أن ألفتك إلى أن هذا الاختراع كثيراً ما تجده في القصص الغرامية الحديث ، وكثيراً ما تجد في الفن الحديث عشاقاً حيل بينهم وبين عشيقاتهم ، فأخذوا يلتمسونهن في نساء آخر يشبهن شيئاً قليلاً أو كثيراً . ومهما يكن من شيء فقد وصل خبر هذا الزواج إلى لبني ، وكانت لبني من الألم والوجد والحрман على مثل ما كان عليه قيس ، وكانت قد رفضت الزواج كما رفضه قيس ، فامتازت بهذا من ليلي وبثينة .

قال الرواة : إن معاوية لما أهدر دم قيس أشار على أبي لبني أن يزوج ابنته من رجل سماه له ، وكانت لبني تأتي الزواج ، فلما بلغها ما كان من أمر قيس مع الفزارية أخذتها الغيرة والحقن فأرادت أن تجزيه بمثل خيانتها فقبلت وتزوجت هذا الرجل ، وارتحلت معه إلى المدينة فأقامت فيها ، وبلغ الخبر قيساً فاضطرب له واعتل وأخذ من أجله حزن شديد .

فأنت ترى كيف تلتطف واضع القصة في الانتهاء بقيس إلى هذا الموقف الموروث ، موقف من يعشق امرأة متروجة . ومن ذلك الوقت تغير وجه قيس فأخذ لا يطلب لبني في البادية ، وإنما يطلبها في المدينة .

وللرواة في ذلك أحاديث لذيذة ، منها قصة الناقة . فقد زعموا أن قيساً أراد أن يدنو من لبني فاقتطع قطعة من إبل أبيه ، وزعم لأهله أنه مرتحل إلى المدينة فبائع هذه الإبل فتمتار لهم . وعرف أبوه دخيلة أمره فلامه ؛ ولكن قيساً لم يسمع له ، وذهب إلى المدينة . فبينما هو يعرض إبله أقبل عليه رجل فسأومه ناقة فاشتراها منه ، وواعده بيته ليقبض ثمنها ، وقبل قيس وكان هذا المشتري

زوج لبني ، وكان قيس لا يعرفه ولم يكن هو يعرف قيساً . فلما كان من الغد ذهب إلى دار صاحبه يلتمس ثمن الناقة فصوت بالخدام لتبنيء سيدها بمكانه . قال الرواة : وعرفت لبني نغمته . فلما دخل أمرت الخدام أن تسأله ما باله أشعث أغبر ؟ فأجاب قيس : هذه حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة . قالت لبني للخدام : سليه يحدثنا حديثه ؛ فأخذ قيس يقص قصصه ؛ وما هي إلا أن رفعت لبني سترها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك . قالوا : فبهت قيس ، ثم انفجر باكياً ونهض مسرعاً فاغترز رحله ومضى لا يلوى على شيء ، وصاحب البيت يدعوه فلا يجيب . قالوا : فقالت لبني لزوجها : ويحك ! هذا قيس ! قال : ما عرفته .

ومنها قصة هذه المرأة التي تسمى بريكة ، والتي كانت زوجاً لرجل من قرينش شريف في المدينة ، فقصدها إليها قيس وتوسل إليها أن تصل بينه وبين لبني ؛ فتلطفت في ذلك حتى جمعت بينهما ؛ فتحدثتا وتعاتبا وأقسم قيس لصاحبه أنه لم يملأ عينه من الفزارية ولا كانت بينه وبينها صلة ؛ ثم تركته على أن تعود إليه ، ولكنها لم تفعل فانصرف عن المدينة .

وأخبار أخرى كثيرة تصف لنا حال قيس وحال لبني لا أذكر منها إلا خبراً واحداً يمثل لنا وفاء لبني لصاحبها بعد الزواج ، كما كانت وفية له قبل الزواج . زعموا أن شعر قيس شاع وتناقله الناس وتغنى فيه المغنون في المدينة فأكثروا ، وتأذى لذلك زوج لبني فتنكر لامرأته ولا معها . قال الرواة : فأجابته جواباً عنيفاً ولفنته إلى أنها لم تتزوجه رغبة فيه ولا فيما عنده ، وإنما تزوجته حين أهدر السلطان دم قيس مخافة على قيس أن يعرض فيقتل . ثم ذكرت له أنها لم تخف عليه من أمرها شيئاً وأنه يستطيع فراقها متى أحب . قالوا : فأخذ منذ ذلك الوقت يتلطف لها ويترضاها ، وبالغ في ذلك حتى لقد كان يُحضر الجوارى يغنيها شعر قيس فيها .

كل ذلك يمثل لك ما تمتاز به قصة قيس بن ذريح من الجودة والإتقان والفائدة . فأولها قيم ، لأنه يعتمد على أساس متين . وسياقها كله قيم ، لأنه بعيد من المبالغة يكاد يخلو مما لا يقبله العقل . أما آخرها ففيه قولان ، كما يقول الأزهريون ، ذلك أن من الناس من أراد أن تكون آخرة قيس بن ذريح كآخرة جميل والمجنون ، وأنت تذكر أن المجنون وجد ميتاً في بعض الأودية ،

وأن جميلاً مات غريباً في مصر ، كلاهما قتله الحب ، فيجب أن يقتل الحب قيس بن ذريح ، كما قتل صاحبيه ، وكما قتل عروة بن حزام من قبله ، ومنهم من أراد أن تنتهي هذه القصة انتهاء آخر ، فيه انتصار الحب وظفر العدل ، وفيه اطمئنان الإنسان إلى أن العشق الطاهر البريء ليس كمدأ كله .

وقد اتفق أولئك وهؤلاء على أن قيساً بعد أن لقي لبني وتحدث إليها انصرف عن المدينة فارتحل إلى الشام يريد أن يطلب إلى السلطان إلغاء الأمر الذي أهدر به دمه . قالوا : فلتطف إلى يزيد بن معاوية حتى لقيه وطلب إليه ما كان يريد ؛ فظفر له يزيد من أبيه بإلغاء هذا الأمر .

ومن الرواة من زعم أن يزيد بالغ في الرفق بقيس حتى عرض عليه أن يكتب إلى والي المدينة ليحمل زوج لبني على تطليقها ؛ ولكن قيساً أبي ذلك وقد ألغى السلطان إهدار دمه ، وأباح له أن يذهب وأن يقيم حيث شاء .

وهنا يختلف الرواة ، فأما أكثرهم فيزعم أن قيساً قضى بقية حياته يتتبع لبني فيدنو من المدينة حيناً ، وينأى عنها حيناً ، حتى ماتت لبني وتبعها حزناً عليها أو مات قبلها . وأما غير هؤلاء فيزعمون أن ابن أبي عتيق — ولا بد من أن نخصص في يوم من الأيام فصلاً لابن أبي عتيق — سعى بعد تأمين قيس إلى الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وجماعة من أشرف قريش فقال لهم : إن لي حاجة عند رجل أخشى أن يأبأها عليّ وأريد أن أتوسل إليه فيها بجاهكم وأموالكم ؛ قالوا : ذلك لك منا مبتذل ؛ فواعدهم يوماً اجتمعوا إليه فيه . ثم ذهب معهم إلى زوج لبني وهم لا يعرفون ما يريد ، فتلقاهم الرجل لقاء حسناً . فقالوا : إن هذا يتوسل بنا إليك في حاجة له عندك . قال : هي مقضية كائنة ما كانت . فاستعاده ابن أبي عتيق ، فأعاد قوله . قال ابن أبي عتيق : فحاجتي أن تطلق لبني . فطلق الرجل امرأته ، واستخزى هؤلاء الأشراف من قريش ، لأنهم ما كانوا يقدرون أن ابن أبي عتيق يتوسل بهم للفرق بين الزوجين .

وتزوج قيس لبناء ، وقال يمدح ابن أبي عتيق :

جَزَى الرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الْإِحْسَانِ خَيْرًا مِنْ صَدِيقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعًا فَمَا أَلْفَيْتُ كَابْنَ أَبِي عَتِيقِ

سَعَى فِي بَجْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعِ
 وَأُطْفَأَ لَوْعَةً كَانَتْ بِقَلْبِي
 وَرَأَى حِدْتِ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ
 أَغْصَنِي حَرَارَتُهَا بِرَبِيقِ

فقال له ابن أبي عتيق : يا حبيبي ، أمسك عن هذا المديح ، فما يسمعه
 أحد إلا ظنني قواداً .

شعر الغزليين (١)

وإنما أقصر حديث اليوم على هؤلاء الغزليين من أهل البادية لا أجاوزهم إلى أولئك الغزليين من أهل الحاضرة كعمر بن أبي ربيعة والأحوص وغيرهما ، بل لست أتناول في هذا الحديث طائفة من شعراء البادية قالوا الغزل وتأنقوا فيه ، وظفروا بإجادته وإتقانه ، ولكنهم لم يكونوا عشاقاً ، أو لم يريدوا أن يكونوا عشاقاً ، كما كان جميل وقيس بن ذريح والجنون ، أو كما أرادوا أن يكونوا ؛ وإنما كانوا أصحاب لذة وعبث ، وأهل دعاية ومجون ، فلم يقصر الله اللذة والعبث والدعاية والمجون على أهل الحاضرة ، وإنما وفر منها حظوظاً مختلفة لأهل البادية ، فإذا كان عمر بن أبي ربيعة ممثلاً للهوشبان الحضري في الحجاز ، فقد نرى في يوم من الأيام أن يزيد بن الطثرية كان يمثل هو شبان البدو .

وخلاصة القول أنا نستطيع أن نقسم الغزل في ذلك العصر إلى ثلاثة أقسام : (الأول) : هذا الغزل العفيف الذي يمثله شعر جميل وقيس بن ذريح والجنون ، والذي هو بدويّ خالص ، والذي نتخذه موضوعاً لحديثنا اليوم . (الثاني) : هذا الغزل الذي يمثل هو الحضري وعبث أهله ، والذي يمثله عمر والأحوص والعرجي وغيرهم من شعراء مكة والمدينة . (الثالث) : هذا الغزل الذي ليس بالعفيف إلا في لفظه والذي يمثل هو أهل البادية وعبث شبابهم ، على نحو من البداوة والسداجة يذكر بالعصر الجاهلي ويخالف أشدّ المخالفة ما نجد في مكة والمدينة بعد الإسلام ، ومن زعماء هذا الغزل يزيد بن الطثرية وغيره ممن سأحدثك عنهم في غير هذا الفصل .

أما هذا الفصل فقد قلت إنني أريد أن أقصره على شعراء القسم الأول من الغزل ، على العذريين وأصحاب النسيب العفيف ، وفي الحق إنه ليس من اليسير أن نتيين هؤلاء الشعراء شخصيات متميزة متباينة . فكلهم قد نسي نفسه أو فني في موضوعه فناء محاً شخصيته وأخفاها على مؤرخي الآداب إخفاء تاماً .

(١) نشرت بجريدة « السياسة » في أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ومن هنا اختلط أمرهم على الرواة اختلاطاً شديداً ، فهم يضيفون إلى المخبون شعر جميل وقيس بن ذريح ، وهم يضيفون إلى قيس بن ذريح شعر جميل وشعر المخبون ، وهم يضيفون إلى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوّح . ماذا أقول ! بل هم يضيفون إلى كل واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يُتبحر لأسمائهم الخلود ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر . ولعلك تذكر ما رويت لك في حديث مضى عن الجاحظ من أنه كان يقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذكرت فيه ليلي أو لبني إلا نسبوه إلى المخبون أو إلى قيس بن ذريح . وتستطيع أن تقول أنت : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه إلى جميل أو إلى كثير . بل تستطيع أن تقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر عفرأ إلا نسبوه إلى عروة بن حزام . وعلى هذا النحو تستطيع أن تمضي .

والحقيقة التي ما أحسب أنها تعرّض للشك هي أن ليلي ولبنى وعزة وبثينة وعفرأ وهنداً ودعداً وسعاد ، كل هذه أسماء ما أظن أنها تعين مسميات ممتازات ، وإنما هي أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذي كانوا يلتمسونه ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون الحب ، سواء منهم في ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلي ولبنى وبثينة بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه « هيلانه » بالقياس إلى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين ، لسنا ندرى أو وجدت حقاً ! بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنما هي المثل الأعلى في الجمال والحب واللين والرقّة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التي يتغناها الغزلون .

هنالك حقيقة أخرى ما أحسب أنها تعرّض للشك أيضاً وهي أن المجهولين من هؤلاء الشعراء الذين اصطنعوا الغزل العفيف وأكثروا القول فيه وظفروا بإجادته وإتقانه أكثر من المعروفين . بل أكاد أعتقد أنهم لا يكادون يحصون . بل أكاد أعتقد أن الكثرة من شباب الأعراب في ذلك العصر كانوا يصطنعون هذا النوع من الغزل فيتغنون الحب وحسان العذارى . ولكن دواوين الرواة وذاكرتهم ضاقت بهذه الأسماء الكثيرة التي لا يبلغها الإحصاء ، فلم تثبت منها إلا قليلاً . وليس من شك أيضاً في أن هذا الفن الذي ظهر ظهوراً طبيعياً في هذا العصر ؛ لأنه كان يترجم عن ميل عام وعواطف مشتركة هؤلاء

البدو . أقول : ليس من شك في أن هذا الفن لم يكد يظهر ويفتن به الناس حتى تخصص له شعراء قصروا حياتهم عليه واتخذوه لأنفسهم صناعة وحرقة ، فهؤلاء الشعراء هم الذين أخفوا غيرهم من الأعراب المجهولين ، وهم الذين بقيت أسماؤهم فحفظها الرواة واجتهدوا في أن يخلقوا حولها من القصص والأحاديث ما كان موضوعاً لبحثنا في الفصول الماضية . إذن لم يكن جميل وقيس بن ذريح والجنون وغيرهم من هؤلاء الشعراء عشاقاً بالمعنى الذي يريد الرواة أن يخلوه إلينا ، وإنما كانوا شعراء ، أو كان الذين وجدوا منهم شعراء قد اختصوا بهذا النوع من الشعر ووقفوا عليه حياتهم ؛ لأنه كان فناً رائعاً في البادية حيثئذ ، اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء ؛ لأن الحياة الاجتماعية كانت تدعو إلى أن يختص به الشعراء ، وكما اختص غيرهم بالمدح ؛ لأن الحاجة كانت تدعو إلى أن يختص به شعراء ، وكما اختص غيرهم بالشعر السياسي ، وكما اختص غيرهم بوصف الخمر وهلم جرا .

ومن هنا كان من الحق أن نلاحظ أن الحياة الأدبية ليست من السهولة واليسر والسذاجة بحيث نطن أو بحيث كان يعتقد الرواة ، وإنما هي معقدة أشد التعقيد ، غامضة أشد الغموض ، محتاجة إلى ألوان من البحث والعناء فيه لنستخلص شيئاً من حقائقها المجهولة ، فن الخطأ الفاحش أن نطن أن أكثر هذا الشعر الذي يروى لنا عن شعراء العصر الأموي الإسلامي قد صدر عن الفطرة والسليقة صدوراً طبيعياً من غير تكلف ولا صنعة ، كما يتفجر ينبوع عن الماء دون أن يكون للإنسان في تفجيره عمل . ليس هذا حقاً ، وإنما الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء كانوا عمالاً صناعاً يكدون في فنونهم ويكدحون ويخضعون لما يخضع له غيرهم من العمال والصناع وأهل الفن من هذه القوائين الطبيعية والاجتماعية المختلفة .

ومهما يكن من شيء ، فنحن مضطرون إلى أن نقسم هذا الغزل العفيف نفسه إلى قسمين : أحدهما هذا الغزل الذي قاله شعراء مجهولون ذهب أسماؤهم ، إما لأنهم لم يكثروا من الشعر ولم يتخذوه صناعة ، وإما لأن حظهم من الإجداد لم يكن كحظ غيرهم من هؤلاء الذين بقيت أسماؤهم . والآخر شعر هؤلاء الشعراء المعروفين الذين اتخذوا الغزل صناعة وفنا .

ولا بدّ من أن نجتهد في بيان الأسباب التي نشأ عنها هذا الفن في البادية

العربية . ولعلك لم تنس ما قدّمناه في غير هذا الفصل من حال هؤلاء الأعراب بعد أن استقر الأمر للمسلمين . فقد قلنا إنهم كانوا في شيء من اليأس والفقر غير قليل ، وإن هذا اليأس والفقر قد أحدثا في البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى في الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعري . ولكن يأس البادية وفقرها أحدثا هذا الغزل العفيف على حين قد أحدث يأس الحاضرة وغناها هذا الغزل العابث الماجن . يكفى أن توازن بين حياة البدو بعد الإسلام وقبله ، لترى أن هناك فروقا عظيمة بين هذين النوعين من الحياة . ولكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها . فلم تكد الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام ، وإنما كانوا في ظل الخلفاء كما كانوا في عصر الجاهلية : يخضعون لقوانين البداوة ويقاسون من شظفها وخشونتها مثل ما كانوا يقاسون في العصر الجاهلي . وربما أتيح لهم شيء من سعة الحياة ، ولكنه لم يكن كثيراً ولا موفوراً . ذلك لأنهم لم يكونوا يشتركون في الحياة السياسية . فإن فعلوا فلم يكونوا يحتفظون بالحياة البدوية . أريد أن البدويين الذين كانوا ينتظمون في الجيش أو يتصلون بالخلفاء والأمراء والعمال لم يكونوا يحتفظون بحياة البداوة ، وإنما كانوا يتحضرون فيستقرون في العراق أو الشام أو مصر أو غيرها من بلاد المسلمين . أما الذين كانوا يبقون في الجزيرة العربية فقد كانوا لا يكادون يستمتعون بشيء من هذه الثروة الضخمة التي أفاءها الإسلام على المسلمين .

وربما كان من الحق أن نلاحظ أن هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء في الإسلام لم يكونوا يتحملونها في الجاهلية ، أريد أعباء الصدقة والزكاة . فقد كانوا قبل الإسلام أحراراً لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم . أما بعد الإسلام فقد ضربت عليهم الضرائب وأخذوا بالصدقات في سائمتهم . ولعل ما كانوا يظفرون به بعد الكدّ من ثمرات الأرض لم يكن بآمن من العشر . وإذن فقد ضيقت الحياة الجديدة عليهم بعض التضييق . أضف إلى هذا شيئاً آخر، وهو أن الإسلام قد أخذ على هؤلاء الناس شيئاً من طرق الكسب التي كانت مألوفاً في الجاهلية ، لأن الإسلام أقرّ السلام بين القبائل البدوية وحال بينها وبين ما كانت تتخذه مجداً وشرفاً ومكسباً من الغزو وضروب الإغارة . فلم يكن يتاح للقبائل بعد الإسلام أن تتغازى ويغير بعضها على بعض ، كما كانت

الحال في الجاهلية . وإذن فهذا نوع آخر من التصيق أحدثه الإسلام لهؤلاء الناس ، ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام في الحياة العربية ، فقيد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة . وإذن فقد كانت الحياة المادية عند أهل البادية بعد الإسلام شراً مما كانت عليه قبل الإسلام ، ولهذا لم تدم الحياة الإسلامية المنظمة في البادية عسراً طويلاً ، ولم يكد يضعف سلطان الخلفاء أو لم يكد الخلفاء ينصرفون إلى تدبير البلاد المفتوحة حتى انتهز أهل البادية هذه الفرصة ، فاستأنفوا ما كانوا فيه أيام الجاهلية من غزو وإغارة وحرب وخصومة ، بل لم يدع أهل البادية فرصة تمكنهم من الفرار من أداء الصدقات والضرائب إلا انتهزوها واستفادوا منها ، وربما كان من اللذيد أن ندرس في يوم من الأيام أثر هذا في شعر أهل البادية .

لم تتغير إذن حياتهم المادية في جملتها ، بل ظلوا يلقون من الضيق ويقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون ويقاسون في العصر الجاهلي . أما حياتهم العقلية والمعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيراً شديداً . وحسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التي كان يتأثر بها الجاهليون ، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام ، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوي المسلم في أول عهد الناس بالإسلام ونفسية البدوي الجاهلي . كان هذا الفرق عظيماً وكان التوازن مختلفاً بين الحياة العقلية والحياة المادية ؛ تغيرت الأولى تغيراً تاماً ، ولم تتغير الأخرى أو لم ينلها من التغير إلا شيء قليل . ومن هنا نشأ في نفوس هؤلاء الناس شيء من اليأس الذي أشرت إليه آنفاً ووصفته وصفاً مفصلاً في غير هذا الفصل ، شيء من اليأس في الحياة المادية تبعه شيء من الأمل في حياة أخرى ليس واضحاً في هذه النفوس الساذجة ووضوحه في نفوس أهل الحضرة . ومن هذا اليأس والأمل تكوّن لهؤلاء البدو مزاج خاص لا هو بالبدوي الغليظ ولا هو بالحضري الرقيق ، وإنما هو شيء بين بين .

ولعل أوضح ما يمتاز به هذا المزاج ميله إلى أن ينكبّ على نفسه انكباباً خاصاً، فيتعرف أسرارها ودخائلها ، ويحاول أن يستكشف فيها هذه الحاجات الغريبة التي تشعر بها دون أن تستطيع لها إرضاء أو شفاء . لعلّ أوضح ما يمتاز به هذا المزاج شيء من الحزن الساذج المؤلم غير المحدود ولا البين ، هذا الحزن

العام الغامض الذى نستطيع نحن بوجه من الوجوه أن نتبين أسبابه فى هذا اليأس وفى هذا الفقر وفى هذه العزلة التى كانت تحول بين هؤلاء الناس وبين العمل السياسى وغير السياسى . نستطيع نحن أن نتبين أسباب هذا الحزن فنفهمه ونفسره . أما أولئك الناس فلم يكونوا يتبينون هذه الأسباب ولا يشعرون بها . بل لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذا الحزن نفسه ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الشعوب المختلفة التى أحدثت أعظم الأحداث وخضعت لضروب من الثورات المادية والعقلية العنيفة ، حتى إذا هدأت العاصفة وأخذت الأمور تستقر فى نصابها ، نظرت هذه الشعوب فإذا هى لم تجن من هذه الثورات والاضطرابات العنيفة شيئاً أو لم تكد تجنى منها شيئاً ، فما أسرع ما يأخذها اليأس ويملكها الحزن، وتنشأ فيها فنون أدبية جديدة ما كانت لتنشأ فيها لولا هذه الثورات وما أحييت من أمل قوى تبعه يأس قوى ، وما لنا نذهب بعيداً والمثل قائم بين أيدينا لا تزال له حياته وقوته ! أريد الشعب الفرنسى بعد الثورة ، والأدب الفرنسى بعد أن أخفقت الثورة والإمبراطورية الأولى ، والعقل الفرنسى فى هذا العصر الذى يقع بين الإمبراطورية الأولى والإمبراطورية الثانية والذى أنتج هذا النوع من الأدب الحزين البائس بل اليائس الذى نقرؤه فى (شاتوبريان) و (لامارتين) و (موسيه) و (فينى) . أتظن أنا كنا نقرأ هذه الآثار المخزونة المؤلمة التى تركها هؤلاء الكتاب والشعراء لو لم يحدث الشعب الفرنسى هذه الثورة العنيفة التى كانت على روعها وفضاعتها مفعمة بالآمال ثم انجلت عن «واترلو» ؟ كلا ! وما كنا لنقرأ شعر جميل والمجنون وابن ذريح لو لم تحدث الأمة العربية هذه الثورة العنيفة التى اضطرت لها العالم القديم وتغير لها فيه كل شيء ، والتى كانت مملوءة آملاً والتى استتبع ألواناً من الفظائع والآثام فيما أحدثت من فتن وما شنت من حروب ، والتى انتهت بالقياس إلى هؤلاء البدو إلى ما وصفت لك من هذه الحياة الحاملة الضيقة الحسنة الغليظة التى كان يحياها الأعراب فى صحارى جزيرة العرب ؛ حينما كان الخلفاء والأمراء ومن إليهم يستمتعون بالملك والحجد والثروة وألوان الترف .

إن الشبه لشديد جدا بين أثر الثورة الفرنسية فى نفوس هؤلاء الشعراء والكتاب الذين ذكرتهم ، أثر الثورة العربية فى نفوس جميل وقيس بن ذريح ومن إليهما من الشعراء الغزلين فى البادية . الشبه شديد ، ولكن على أن تلاحظ الفرق بين

الأمة الفرنسية التي كانت متحضرة مترفة عالمة بارعة في الفن حينما أحدثت ثورتها ، والأمة العربية التي كانت بادية ساذجة جاهلة خشنة العيش حينما أحدثت ثورتها أيضاً .

مهما يكن من شيء ، فإن حركة عقلية وشعورية أنشأت في أهل البادية من العرب— بعد أن انتهت الفتوحات والفن— فناً أدبياً يشبه من بعض الوجوه هذا الفن الذي أحدثته في فرنسا هذه الحركة العقلية الشعورية التي نشأت بعد فشل الثورة والامبراطورية الأولى . والغريب أنك تجد في هذين الفنين العربي والفرنسي وجهين مختلفين في مظهرهما متفقين في أسبابهما ، تجد عند العرب وعند الفرنسيين شعراء يشعروا بالحب وتغنوا في غير فجور ولا مجون ، وآخرين يشعروا بالهوى وأسرفوا في اللهو وتغنوا لهوهم وإسرافهم . ولو أن أولئك وهؤلاء وجدوا من الحياة العملية ما يحول بينهم وبين اليأس ، ويصرفهم عن أنفسهم إلى الحياة وعقباتها ومصاعبها لما تركوا لنا من الآثار ما تركوا . أظن أن جميلاً وعمر بن أبي ربيعة— وهما يمثلان هذين اللذين من اليأس— كانا يقضيان حياتهما في حزن عميق يمثل هذا الغزل العفيف أو هذا اللهو المبسم ، لو أنهما وجدا من الحياة العملية ما يصرفهما عن أنفسهما إلى هذا الجهاد الحصب المنتج الذي كان يمعن فيه أهل العراق والشام !

أظن أن الأسباب التي أثرت في نشأة هذا الغزل واضحة جلية الآن . وأظن أننا نستطيع أن نتقل منها إلى شيء آخر ، إلى هذا الغزل نفسه وإلى خصائصه ومميزاته .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن هذا الغزل كان يستطيع أن يكون أحصب وأغنى منه في حقيقة الأمر لو لم تحط به هذه الظروف الخاصة التي أنشأته وأشرفت على حياته . أريد أن هذه البداوة وما استتبعته من سذاجة وجهل حالت بين هذا الغزل وبين أن يكون خصباً غنياً حقاً ، وجعلت من اليسير أن نستغنى ببعضه عن بعض وأن نحكم ببعضه على بعض ، وحالت بين هؤلاء الشعراء وبين أن تكون لهم شخصيات قوية بارزة كهذه الشخصيات التي نجد لها لشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الأباطوريين . فإنك تستطيع أن تستغنى بجميل عن قيس بن ذريح أو بقيس بن ذريح عن جميل ، بل تستطيع أن تستغنى بواحد من هؤلاء الشعراء عن الشعراء الآخرين جميعاً ، لأنهم طرقتوا موضوعاً بعينه هو

الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ . فما أسرع ما انتهوا إلى أقصى ما كان يمكن أن يصلوا إليه ! وما أيسر ما تشابهت ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ! حتى إنك لتضيف إلى أحدهم ما قاله غيره دون أن يحول بينك وبين ذلك حائل فني ما . كلهم أحب امرأة أو زعم أنه أحب امرأة . وكلهم اتخذ هذه المرأة مثالا أعلى للجمال المادى والمعنوى . وكلهم وصفها بما يتصف به هذا المثل الأعلى من صفات الحسن والكمال . وكلهم اعتمد في تكوين هذا المثل الأعلى وفي وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التي سبقهم إليها الشعراء الأولون أو التي تواضع عليها الناس فيما بينهم ، كلهم شبه صاحبتة بالشمس والقمر . وكلهم وصف أجزاء صاحبتة بما كان يصفها به غيرهم من الشعراء . وكلهم استعمل أو كاد يستعمل نفس الألفاظ ونفس المعاني التي كان يستعملها الشعراء من قبل .

فبم امتازوا عن هؤلاء الشعراء ؟ بشيئين اثنين فما أعتقد : أحدهما أنهم قصروا حياتهم الفنية على الغزل . وكان الشعراء في العصر الجاهلى يعنون بالغزل كما يعنون بغيره من الفنون ، وربما اتخذوه وسيلة في أكثر الأحيان لا غاية . أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة . ولم نعرف أنهم مدحوا أو عنوا بغير آخر من فنون الشعر إلا ما كان يضطرهم إليه الغزل . فنحن نعلم مثلا أن جميلا هجا وفاخر ، ولكننا نعلم أنه لم يهج رغبة في الهجاء ، ولم يفاخر رغبة في الفخر ، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجريز ؛ وإنما هجا لأن غزله اضطره إلى الهجاء ، وفاخر لأن غزله اضطره إلى الفخر . هجا قوما كانوا يعيونه ويهجونه لغزله ونسيبه ، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم ، ولو لم يعرضوا له لما فاخر ولا هجا ، ونحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر ، وقد أضيفت إليه أبيات مدح بها ابن أبى عتيق ؛ ولكننا نعلم أن هذه الأبيات مصنوعة من جهة ، وأنها - إن صححت - فلم يقلها قيس إلا لأن ابن أبى عتيق جدّ في وصل الحبل بينه وبين لبنى .

والآخر أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرقى بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان مادياً خالصاً في حين كان في غزل الإسلاميين شىء غير المادة . وأظن أن هذا يحتاج إلى شىء من الإيضاح .

ما الذى كان يعنى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزلوا وذكروا

النساء؟ لم يكونوا يعنون بذكر الحب وتأثيره في النفس ولا بهذه الآلام المختلفة التي تنشأ عنه، أى لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم، وإنما كان الغزل عندهم ضرباً من الوصف، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل. وقلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصاً على تمثيلها، فإن وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراء؛ لأنها كانت عاطفة مادية غليظة إن صح هذا التعبير. كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات وإثارة اللذة قبل كل شيء. ومن هنا تجد عند امرئ القيس والنابغة مثلاً هذا الوصف المادى الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفاً تفصيلياً يختلف حظه من العفة قوة وضعفاً؛ ولكنه مادي قبل كل شيء. فاذا تركوا هذا الوصف وانصرفوا إلى أنفسهم يصفون ما تعانى من الحب وما تلقى من آلامه، فهم يعرضون لذلك كما يعرضون لوصف اللذات وحاجتهم إليها ورغبتهم فيها، يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصيد ولذة الحرب. ومن قبل ذلك قلنا: إنهم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل، كذلك كان الغزل في الجاهلية، كان وسيلة وكان مادياً. أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة وإنما كان غاية، ولسنا نستطيع أن نقول إنه برىء من المادة وخلا منها خلواً تاماً، فذلك غير صحيح، ولم يستطع الأدب العربى في وقت من الأوقات أن يبرأ من المادة، وإنا نستطيع أن نقول: إن الغزل الإسلامى العذرى أضاف إلى المادة شيئاً آخر جعله قوام الشعر، نريد به الحب نفسه وما يترك في القلب من أثر، وما يبعث في النفس من عاطفة، وما يسبغ على المحب من كآبة وحزن، وما يحى فيه من أمل ورجاء، لسا نشك في أن جميلاً وقيس بن ذريح والمجنون قد وصفوا أجساماً بشينة ولبنى وليلى، بل وصفوا هذه الأجسام وصفاً مفصلاً لا يخلو من دقة وتحقيق، ولكننا لا نستطيع أن نشك في أن هذا الوصف المادى لم يكن الغرض الذى كان يرمى إليه هؤلاء الشعراء، وإنما كان وسيلة إلى الغرض الذى كانوا يرمون إليه، وهو وصف النفس وما تلقى بالحب من شقاء أو سعادة ومن بؤس أو نعيم.

انتقل إذن موضوع الغزل في الإسلام، كان في الجاهلية جسم المرأة فأصبح في الإسلام نفس العاشق، ومن هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل، ولم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون

لذة الصيد ، وإنما كانوا يصفون المرأة كما ينبغي أن يصفها إنسان يشعر وبحس
ويمتاز بشئ من الشعور والحس لا يخلو من رقة ورقى معا . لم تكن المرأة عند
هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيئاً يطمع فيه ، وإنما كانت شطرا من النفس
لا تطيب للنفس حياة إلا به . ولعلك تقرنا على أن هذا رقى عظيم ، وعلى أن العقل
العربي والشعور العربي عند ما بلغا هذا الطور من تصور المرأة والحكم عليها
والميل إليها ؛ كانا قد جاوز كل المجاوزة طور الوحشية التي كان يعيش فيها
الجاهليون . وليس غريباً أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما
القرآن ، وأثر القرآن في نفوس المسلمين عظيم .

وأريد أن أضرب لك أمثالا تشخص هذا التطور تشخيصا ظاهرا قويا ،
فأبدأ بهذه الأبيات من شعر جميل وألفتك إلى أنها مادية في أولها ولكنها لا تلبث أن
ترك المادة إلى المعنى ، وأن تتناول الصلة بين العاشقين في رقة ولطف وحنان
ما كان ليجدها قلب كقلب امرئ القيس ، وأحب أن تلتفت إلى أن هذا
الشعر كغيره من شعر جميل وأصحابه لا يخلو من أبيات مصنوعة دسها المغنون ،
ولكن شيئاً من الفقه الأدبي يمكنك في يسر من أن تفرق بين المطبوع والمصنوع :

وَكأنَّ طَارِقَهَا عَلَى عِلَلِ الْكِرَى	وَالنَّجْمُ وَهنا قَدْ دَنَا لِتَعَوُّرِ
يَسْتَأقُ رِيحَ مُدَامَةٍ مَعْجُونَةٍ	بِذِكِّي مَسْكَ أَوْ سَحِيقِ العَنْبَرِ
إِنِّي لِأَحْفَظُ غَيْبِكُمْ وَيَسْرُي	إِذ تَدْكُرِينَ بِصَالِحِ أَنْ تَدْكُرِي
وَيَكُونُ يَوْمٌ لَا أَرَى لَكَ مُرْسَلًا	أَوْ نَلْتَقِي فِيهِ عَلَيَّ كَأَشْهُرِ
يَا لَيْتَنِي أَلْتَقِيَ المَنِيَّةَ بَعْتَةً	إِنْ كَانَ يَوْمٌ لِقَائِكُمْ لَمْ يَقْدِرِ
أَوْ أَسْتَطِيعُ تَجَلُّدًا عَن ذِكْرِكُمْ	فَيُفِيقُ بَعْضُ صَبَابَتِي وَتَفْكَرِي
لَوْ قَدْ نُجِنُ كَمَا أُجِنُ مِنَ الهَوَى	لَعَدَرْتَ أَوْ لَطَلَمْتَ إِنْ لَمْ تَعْدِرِ
وَاللهُ مَا لِلقَلْبِ مِنَ عِلْمٍ بِهَا	غَيْرَ الظُّنُونِ وَغَيْرِ قَوْلِ المُخْبِرِ
لَا تَحْسَبِي أَنِّي هَجَرْتُكَ طَائِعًا	حَدَثُ لَعَمْرُكَ رَائِعٌ أَنْ شُهَجَرِي
فَلْتَبْكِينِي البَاكِياتُ وَإِنْ أُبْحُ	يَوْمًا بِسِرِّكَ مُعْلِنًا لَمْ أُعْذِرِ

يَهْوَاكِ مَا عَشْتُ الْفُؤَادُ فَإِنْ أُمْتُ يَتَّبِعُ صَدَائِي صَدَاكَ بَيْنَ الْأَقْبَرِ

فهل ترى ألدّ من هذه النجوى وأعذب من هذا الحديث؟ وهل تقدّر هذا الجمال الفنى الذى يمثله هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ثم من الخطاب إلى الغيبة، كلما دعا إلى ذلك موضوع الحديث؟ ثم هل تعلم أرق من هذا الكلام عاطفة وأرقى منه شعوراً؟

وانظر إلى هذه الأبيات التى قالها بعد أن حاول لقاء بثينة فلم يوفق إليه، فرجع كئيباً، وأخذ نساء الحى يلمنه ويعرضن له بجهن ووصلهن:

أُبَيِّنُ إِنَّكَ قَدَّمَلَكْتِ فَاسْجَحِي	وَحُدَى بِحُظِّكَ مِنْ كَرِيمٍ وَاصِلِ
فَلَرُبَّ عَارِضَةٍ عَلَيْنَا وَصَلَهَا	بِالْحِدِّ تَخْلِطُهُ بِقَوْلِ الْهَازِلِ
فَأَجَبْتُهَا فِي الْقَوْلِ بَعْدَ تَسْتُرِ	حُبِّي بُثَيْنَةَ عَنْ وَصَالِكَ شَاغِلِي
لَوْ كَانَ فِي صَدْرِي كَقَدْرِ قَلَامَةٍ	فَضلاً وَصَلْتِكَ أَوْ أَتَتْكَ رَسَائِلِي
وَيَقُلْنَ إِنَّكَ قَدَرَضِيتَ بِبَاطِلِ	مِنْهَا فَهَلْ لَكَ فِي اجْتِنَابِ الْبَاطِلِ
وَلِبَاطِلٍ مِمَّنْ أَحِبُّ حَدِيثَهُ	أَشْعَى إِلَيَّ مِنَ الْبَغِيضِ الْبَازِلِ
لِيُرَازَنَّ عَنْكَ هَوَايَ ثُمَّ يَصِلَنِي	وَإِذَا هَوَيْتُ فَمَا هَوَايَ بِزَائِلِ
صَادَتْ فُؤَادِي يَا بُثَيْنُ حِبَابِكُمْ	يَوْمَ الْحَجُونَ وَأَخْطَأْتُكَ حَبَائِلِي
مَنْيَتِنِي فَلَوَيْتَ مَا مَنْيَتِنِي	وَجَعَلْتِ عَاجِلَ مَا وَعَدْتِ كَأَجَلِ
وَتَنَاقَلْتِ لَمَّا رَأَتْ كَلْفِي بِهَا	أَحْبِبِ إِلَيَّ بِذَلِكَ مِنْ مُتَنَاقِلِ
وَأَطَعْتِ فِي عَوَازِلَ فَهَجَرْتِنِي	وَعَصَيْتُ فَيْكَ وَقَدْ جَهَدَنَ عَوَازِلِي
حَاوَأَنِي لِأَبْتِ حَبْلِ وَصَالِكُمْ	مَنِي، وَلَسْتُ وَإِنْ جَهَدَنَ بِفَاعِلِ
فَرَدَدْنَهُنَّ وَقَدْ سَعَيْنَ بِهِجْرِكُمْ	لَمَّا سَعَيْنَ لَهُ بِأَفْوَقِ نَاصِلِ
يَعْضَضْنَ مِنْ غَيْظِ عَلَيَّ أَنَامِلًا	وَوَدِدْتُ لَوْ يَعْضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ
وَيَقُلْنَ إِنَّكَ يَا بُثَيْنُ بِخَيْلَةٍ	نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ ضُنِينِ بَاخِلِ

رويت لك هذه الأبيات على علاقتها في رواية أبي الفرج مع تغيير قليل جداً في ترتيب الأبيات الأولى لم يكن منه بد لاستقامة المعنى . ولست أشك في أن هذه الأبيات وغيرها من شعر الغزلين تروى في كتاب الأغاني وقد فقدت ترتيبها الطبيعي ؛ لأنّ أبا الفرج لا يلتفت إلا إلى الغناء وأصوات المغنين ، فأما النظام الطبيعي للقصيدة فلا يحفل به ، وعندى أنّ هذه الأبيات التي نحن بإزائها قد رويت معكوسة وأن آخرها يجب أن يقع في أولها . وشيء من التأمل يقنعك بهذا . ولكن لهذا البحث موضعاً آخر . أما الآن فأنا ألفتك إلى الأبيات الأولى من هذا الشعر وإلى لطف هذا التخلص من تلك التي كانت تتبع جميلاً وتطمعه، تريد أن تصرفه عن صاحبه إلى نفسها . ثم ألفتك أيضاً إلى هذا الجمال الفني الذي يمثله الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، وإلى هذه الحمل المعترضة التي يأتي بها الشاعر إما للتأكيد وإما للتلطف في حديث صاحبه . ثم ألفتك إلى هذه السهولة في اللفظ والمعنى . فكل هذه الخلال التي تجدها في أكثر شعر جميل تبعده كل البعد عن شعر الجاهليين وغزلهم .

• • •

ولأنّ نقل بك من جميل هذا البدوي المتحضر في شعره إلى رجل آخر احتفظ في شعره بالبداءة دون أن يخطئه الجمال الفني أو يقلّ حظه من الرقة وشرف العاطفة، وهو قيس بن ذريح . وأروى لك من شعره الجميل هذه الأبيات :

أَقْصَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَالْمَعْنَى	وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمَّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ	لِيَ اللَّيْلِ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةٌ	كَأَنَّ رَسَخَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ
أَحَالَ عَلَى الْهَمِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ	وَدَامَتْ قَلَمٌ تَبْرَحُ عَلَى الْفَوَاجِعُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعٌ	فَهَلْ جَزَعِي مِنْ وَشْكَ ذَلِكَ نَافِعٌ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةٌ	بِنَا وَبِكُمْ مِنْ عِلْمِ مَا الْبَيْنُ صَانِعُ
وَأَهْجُرُكُمْ هَجْرَ الْبَغِيضِ وَحُبُّكُمْ	عَلَى كِبْدِي مِنْهُ شُؤُونَ صَوَادِعُ

وَأَعْمِدُ لِلْأَرْضِ الَّتِي لَا أُرِيدُهَا
وَأُسْفِقُ مِنْ هِجْرَانِكُمْ وَتَرَوْعُنِي
فَمَا كُلُّ مَا مَنَنْتَكَ نَفْسَكَ خَالِيًا
لَعَمْرِي لَمَنْ أَمْسَى وَلُبْسَى ضَجِيعُهُ
فَتَلَّكَ لُبَيْتِي قَدْ تَرَخَى مَزَارُهَا
وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَاوَلَ اللَّهُ جَمْعَهُ
فَلَا تَبْكِينَ فِي إِثْرِ لُبِّي نَدَامَةً
لِتَرْجَعَنِي يَوْمًا إِلَيْكَ الرَّوَاجِعُ
مَخَافَةٌ وَشُكِّ الْبَيْنِ وَالشَّمْلُ جَامِعُ
تُلَاقِي ، وَلَا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ
مِنَ النَّاسِ مَا اخْتَبَرْتَ عَلَيْهِ الْمَضَاجِعُ
وَتَلَّكَ نَوَاهَا غَرْبَةً مَا تَطَاوَعُ
مُسْتٌ وَلَا مَا فَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ
وَقَدْ نَزَعَتْهَا مِنْ يَدَيْكَ النَّوَازِعُ

أما أنا فأرى أن هذه القصيدة آية من آيات الغزل العربي ، فيها جمال اللفظ ورسائنه ؛ وفيها جلال المعنى ومثانته ، وفيها جمال هذه النفس التي تألم هذا الألم الشريف ، وتدعن لقضاء الله وقدره هذا الإذعان الشريف .
وأحب أن تقدر معي جمال هذا البيت وما فيه من صدق وسداجة طبيعية وجودة للتشبيه :

لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَوَدَّةٌ كَمَا رَسَخَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

انظر إليه ! أراد أن يشبه ثبوت حبه ومثانته ، فلم يلتمس التشبيه بعيداً من نفسه، وإنما وجده فمدَّ إليه يده أو لم يمدّها ، وجده في يده « كما رسخت في الراحتين الأصابع » . ثم أحب أن تلتفت إلى هذا اليأس والإذعان اللذين ذكرتهما في أوّل هذا الفصل . أحب أن تلتفت إلى هذا البيت وتحدّثني أيمثل اليأس والإذعان تمثيلاً صحيحاً :

وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَاوَلَ اللَّهُ جَمْعَهُ مُسْتٌ وَلَا مَا فَرَّقَ اللَّهُ جَامِعُ

أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ؛ فإنك لا تجد فيها نفس الشاعر وحده إنما تجد فيها نفس هؤلاء الغزلين جميعاً . بل تجد فيها نفس البادية العربية في هذا العصر . أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها وأن تقرأ أمثالها من شعر قيس وجميل وغير قيس وجميل ؛ فإنك ستجد في هذا الشعر ما تسكت به الذين يزرون الأدب العربي ويحخدون مكانه الشعر العربي ويخدعون .

بجمال الشعر الإفرنجي ، والله يعلم أنهم ما فهموه ولا ذاقوه ، فيزعمون أن العرب لم يحدثوا شيئاً ولم يفهموا الجمال ولم يقدره : إنهم ليزعمون ذلك ، وإنهم ليتحدثون به إلى الشباب ، وإنهم ليكتبونه في الصحف والكتب ، والله يعلم ما زعموه ولا كتبوه ولا تحدثوا به إلا عن جهل فاحش للأدب العربي والإفرنجي جميعاً .

ولكني أشعر بأني أشطّ عن موضوع هذا البحث ، فلا أعدّ إليه ولا أختمه بهذه الأبيات القليلة التي قالها مجهول ونسبت إلى المخنون ، والتي تمثل بداوة الغزل العربي ناصعة خلابة في جمالها الساذج الطبيعي وهي :

تَمْرُ الصَّبَا صَفْحًا بِسَا كُنِ ذِي الْعَضَا وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهَبَّ هُبُوبُهَا
إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّمَالُ فَإِنَّمَا جَوَايَ بِمَا تُهْدِي إِلَى جَنُوبُهَا
قَرِيبَةٌ عَيْدٍ بِالْحَبِيبِ ، وَإِنَّمَا هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا
وَحَسْبُ اللَّيَالِي أَنْ طَرَحْنَاكَ مَطْرَحًا بَدَارِ قَلِي تُمْسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا
حَالًا لِلَّيْلِ شَتْمُهَا وَأَنْتِقَاصُهَا هَنِئًا ، وَمَغْفُورٌ لِلَّيْلِ ذُنُوبُهَا

ألفتك إلى هذه البداوة في قوله : « وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهَبَّ هُبُوبُهَا » وفي قوله : « بَدَارِ قَلِي تُمْسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا » يريد وأنت غريب فيها . ثم ألفتك إلى هذه المعاني الساذجة الحلوة الخلابة لا لشيء إلا لأنها ساذجة . ألفتك إلى هذا كله . وأودّ لو تقرأ وتقرأ ما لم أستطع أن أرويهِ لك من شعر هؤلاء الغزلين ؛ وهو كثير ، كثير بحيث يمكننا من أن نتصور هذه النفس اليائسة البائسة الهائمة في طلب المثل الأعلى وإن كان قليلاً جداً بالقياس إلى ما ذهبت به الأحداث .

والآن وقد ألمنا بالغزلين وأشعارهم وأخبارهم إلمامة قصيرة ولكنها نافعة ، فقد نستطيع أن نتنقل منهم إلى طائفة أخرى من الشعراء في الفصول المقبلة .

عود إلى الغزلين^(١)

وضّاح اليمن

كنت أريد أن أنصرف عن الغزلين إلى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموي ، ثم بدآ لي ، فأثرت العودة إليهم ، لأتم البحث ، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضرة ليسوا أقلّ حظاً في الإجابة من أولئك الغزلين من أهل البادية ، بل ربما كان درس الغزلين الحاضرين أعظم نفعاً وأشدّ غناء من درس الغزلين البادين . ذلك لأنّ الغزلين من أهل الحضرة يمثلون نحواً من أنحاء الحضارة التي عاشوا فيها . ومن الخير أن نلّم بهذه الحضارة الإسلامية في أوّل عهدها بالظهور والإزهار . وقد يعيننا درس هذا الغزل الحضريّ وما يتصل به من ألوان الحياة في أيام بني أمية على أن نفهم هذا العبث الذي نجده مستأثراً بالحياة الأدبية أيام بني العباس ؛ فإن السنة الشعرية لم تنقطع بين هذين العصرين : عصر دمشق وعصر بغداد .

ثم قد نجد من درس الغزلين الحاضرين أيام بني أمية ما يمكننا من تحديد الفروق الفنية والنفسية بين هؤلاء الشعراء الأمويين الذين كانوا أشدّ تأثراً بالحياة العربية القديمة ، وهؤلاء الشعراء العباسيين الذين كانوا أشدّ تأثراً بالحياة الفارسية الجديدة . ولكل هذا نفعه وقيّمته ، ثم إنّ هؤلاء الشعراء الحاضرين لهم شخصياتهم البارزة وآثارهم القوية في تكوين الأدب الإسلامي والنفس العربية الإسلامية ، فلا بد من درسهم والإلمام بأطرافهم من حياتهم وآثارهم . وكيف نستطيع بعد أن درسنا جميلاً وقيس بن ذريح والمجنون أن نهمل الأحوص والعرجي وعمر بن أبي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات ! على أني لا أحدثك اليوم عن واحد من هؤلاء ، وإنما أحدثك عن رجل آخر لست أدري في الحق أو وجد بالفعل أم لم يكن إلا خيالاً اخترعه القصاصون اختراعاً وانتحلوا شعره انتحالاً ،

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ونسجوا ما حوله من الأحاديث والأخبار ما فيه لذة وممتعة وما يدعو درسه إلى تأمل وتفكير؟

أريد أن أحدثك عن هذا الشاعر الذى يلقبونه وضّاح اليمن ، والذى فتن به بعض أساتذة الأدب المحدثين حتى خيل إليهم أنه اخترع الشعر التمثيلي وأضافه إلى تراثنا الأدبي القديم . اخترع الشعر التمثيلي لا لأنه وضع قصة تمثيلية شعرية ، ولا لأنه تصوّر شيئاً يشبه القصص التمثيلية أو يقاربا ، بل لأن قصيدة من شعره فيها شيء من الحوار ؛ فخيّل إلى هؤلاء الأدباء أنه قد اخترع التمثيل منذ أدخل الحوار فى الشعر ، ونسوا أن الحوار ليس هو التمثيل ، وإنما هو أصل من أصول التمثيل ، ونسوا أيضاً أن هذا الحوار الذى يجدونه فى شعر وضاح والذى سأظهرك عليه بعد حين قد سبق إليه الشعراء جميعاً فى جاهليتهم وإسلامهم فحاور امرؤ القيس عشيقاته ، وحاور ابن أبي ربيعة أخدانه ، وحاور جميل بثينة ، وحاور كثير عزة ، وحاور ابن ذريح لبني ، ومهما يكن من شيء فليس عسير أن ننكر ما زعم هؤلاء الأساتذة المحدثون لوضاح اليمن من استكشاف التمثيل الشعرى ، وأن نبين أن مصدر هذا الزعم إنما هو أن هؤلاء الأساتذة يجهلون التمثيل من جهة ، ويريدون أن يضيفوا إلى الأدب العربى ما فيه وما ليس فيه ، حتى لا يظهر فضل للأدب اليونانى أو الأدب الأوروبى على أدبنا العربى .

الجهل من ناحية ، والغرور من ناحية أخرى ، هما اللذان أحدثا هذه الفكرة السخيفة فى نفس طائفة من أدبائنا .

إنما العسير حقاً هو أن نقطع بشيء فى أمر هذا الشاعر : أو جد أم لم يوجد؟ أقال هذا الشعر أم لم يقله؟ أوقعت له هذه الأخبار أم لم تقع؟ مسائل عسيرة ولكن حلها ليس مستحيلاً .

أنا أشك فى وجود هذا الشاعر شكاً قوياً ، وحسبك أن رواته يختلفون فيه اختلافاً كثيراً ، فمنهم من يزعم أنه عربى حميرى ، ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس الذين جاءوا اليمن مع سيف بن ذى يزن ليردوا عنها غارة الحبشة ، ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين ، فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلاً ، فتزوجت أمه رجلاً من سلالة هؤلاء الفرس الذين كانوا يسمون « الأبناء » وشب الطفل فى حجر هذا الفارسى ، ثم جاءت

عمومته تطلبه فادعاه الفارسي ، وكانت حول الغلام خصومة رفعت إلى الحاكم فقتضى للعرب على الفارسي ، قالوا : وكان الغلام بارع الجلال فأعجب به الحاكم فمسح على رأسه وقال له : أنت وضّاح اليمن ؛ فغلب عليه هذا اللقب . غير أن هذه القصة المتكلفة ، وهذا التوفيق الغريب بين الروايتين لا يثبتان أمام شيء نجاهه في أخبار وضّاح ، وهو أنه بينما كان في دمشق متصلاً بقصر الوليد بن عبد الملك - كما سترى بعد حين - تلقى كتاباً من اليمن فيه نعي أبيه وأخيه ، فرثاهما بقصيدة قافية طويلة يرويها أبو الفرج . وإذن فلم يمت عنه أبوه وهو طفل ، وإنما مات عنه وهو رجل في عتفوان قوته قد سما به الحجد حتى اتصل بقصور الخلفاء .

ثم لا يختلف الرواة في أمر وضّاح وحده ، بل يختلفون في أمر عشيقته الأولى - فله عشيقتان - : أفارسية هي أم عربية .

فكل هذا الاضطراب لا يحمل على الاطمئنان إلى وجود وضّاح . ولكن هناك شيئاً آخر يحمل على الشك في وجود وضّاح ، وهو أن الغزلين الذين بعد صوتهم في القرن الأول والثاني للهجرة مضرين كلهم أو أكثرهم ، سواء في ذلك منهم البادون والحاضرون . فمن كان من بينهم يمانياً كالأحوص الأنصاري ، فإنما هو يمانى النسبة ليس غير ، قد اشتد اتصاله بالمصرية عامة وقريش خاصة ، حتى لم يأخذ بحظه من العصبية اليمانية التي كانت قاعدة الحياة السياسية وآفتها في ذلك العصر . وقد حاولت اليمانية أن تدعى جميلاً ولكنها لم توفق ، لأن النساين اشتد اختلافهم في نسب قضاة قبيلة جميل ، حتى إن جميلاً نفسه كان يزعم ويعلن أنه من معدّ .

كان الغزلون كلهم أو أكثرهم مضرين . وكانت العصبية بين المصرية واليمانية قد عظم أمرها وأخذت تحدث في الحياة السياسية العربية آثارها المنكرة المعروفة . فكانت المصرية لا تفتخر بشيء إلا حاولت اليمانية أن تفتخر بما يعدله أو يفضله ، وقد افتخرت المصرية بالغزلين من شعرائها في الإسلام ، وكانت السنة المتصلة أن الغزل يمان ، لأن امرأ القيس هو الذي مهد طريقه في الجاهلية ، فلم يكن من اليسير على اليمانية أن تحتل هذا الخذلان ، وأن تسلم للمصرية بهذا التفوق الشعري الذي اغتصبته اغتصاباً وظفرت به في غير حق ولا وراثة . وإذن فلا بدّ من أن يكون لليمانية شعراء

غزلون تفقههم أمام الشعراء الغزلين من المضربة . وليس وضاح هذا - فيما أرجح - إلا تجربة من هؤلاء الشعراء الذين كان اليمانيون يخترعونهم اختراعاً في القرن الثاني للهجرة ليفاخروا بهم المضربين .

اخترعت ايمانية وضاحا وشعره - فيما أعتقد - حتى لا يقال إنها خلت من شاعر غزل في الإسلام . وهبه قد وجد حتماً ، وقال الشعر واتصل بالخلفاء ووقعت له هذه الأخبار المعروفة كلها أو بعضها ، فليس من سبيل إلى الشك في أن الكثرة المطلقة من هذا الشعر الذي يضاف إليه منحولة مصنوعة لم يقلها ولم يعلم بها .

ولماذا ؟ لأن هذا الشعر الذي يضاف إلى وضاح لا يمكن أن يكون قد صدر عن شاعر مات قبل أن ينتهي القرن الأول للهجرة .

أنت قد قرأت شعر الغزلين من أهل البادية وعرفت أنه يمتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب . وهذه المسحة البدوية التي إن لم تكن شديدة الخشونة فليست شديدة النعومة . وأنت قد قرأت وستقرأ شعر الغزلين من أهل الحاضرة ، وسترى أن هذا الشعر إذا برىء من خشونة البادية قليلاً أو كثيراً فهو عربي ، عربي برىء من الابتذال والسقوط وهذا اللين الذي يحملك على أن تقسم ما قال هذا الشعر عربي ، وإنما هو صنعة مولد ضعيف .

شعر وضاح لين مسرف في اللين ، سهل مفرط في السهولة ، هو شعر مخنث إن أذنت لي باستعمال هذا اللفظ . ثم هو على لينة وخنوثته لا يخلو من تكلف منكر قد يخرج أحياناً عن أصول النحو . ثم هو على هذا كله لا يخلو من تكلف آخر في القافية لم يكن يذهب إليه الشعراء الأولون . تراه يتكلف قافية شينية مثلاً ويريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليه ، فيضطر إلى أن يصطنع جيد اللفظ وخيفه ؛ لأنه مفلس ، ولأنه يريد أن يظهر مظهر الموسر . وانظر إلى هذه القصيدة فقد تغنيك عن إطالة القول :

طَرِبَ الْفُؤَادُ لَطِيفِ رَوْضَةِ غَاثِي وَالْقَوْمُ بَيْنَ أَبَاطِحِ وَعِشَاشِ
أَنِ اهْتَدَيْتِ وَدُونَ أَرْضِكَ سَبَسَبُ قَفَرٌ وَحَزْنٌ فِي دُجَى وَرَشَاشِ
قَالَتْ تَكَالِيفُ الْمُحِبِّ كَلِفَتْهَا إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا أُخِيفَ لَمَاشِي

أَدْعُوكِ رَوْضَةَ رَحْبٍ وَأَسْمِكَ غَيْرُهُ
شَفَقًا وَأَخْشَى أَنْ يَشِي بِكَ وَاشِي
قَالَتْ فَزُرْنَا قُلْتَ كَيْفَ أَزُورُكُمْ
وَأَنَا أَمْرُؤُا إِخْرُوجِ سِرِّكَ خَاشِي
قَالَتْ فَكُنْ لِعُمُومَتِي سَلَمًا مَعًا
وَالطُّفَّ لِإِخْوَتِي الَّذِينَ تَمَاشِي
فَقَزُورُنَا مَعَهُمْ زِيَارَةَ آمِنِ
وَالسَّرُّ يَا وَضَّاحُ لَيْسَ بِفَاشِي
وَلَقِيمَتِهَا تَمَشِي بِأَبْطَحِ مَرَّةً
بِخَلَاخِلِ وَبِحِلَّةِ أَكْبَاشِ
فَظَلَّتْ مَعْمُودًا وَبَيْتُ مُسَهَّدًا
وَدُمُوعُ عَيْنِي فِي الرَّدَاءِ غَوَاشِي
يَارَوْضُ حُبِّكَ سَلِّ جِسْمِي وَأَنْتَمَحِي
فِي الْعَظْمِ حَتَّى قَدْ بَلَغَتْ مُشَاشِي

أترى إلى هذه القصيدة في ألفاظها ومعانيها وقوافيها ؟ ولنبدأ فلنلاحظ أن معنى هذه القصيدة أقرب إلى ما نجده في حياة المدن أثناء العصور المتأخرة منه إلى ما نعلم من أخلاق العرب في العصور الأولى . فهذه المرأة التي تريد وضاحاً أن يزورها ، فإذا ذكر لها عسر ذلك أغرته بأن يتلطف لأعمامها وإخوتها حتى تكون الصداقة بينه وبينهم ، فتسهل عليه زيارتها معهم دون أن يتعرض لخطر أو أن يذاع سرهما . أقول : إن هذه المرأة أقرب إلى أن تكون بغدادية من الطبقات المنحطة في أهل بغداد منها إلى أن تكون عربية يمانية أو مصرية قريبة عهد بأخلاق البادية وما فيها ، لا أقول من عفة وطهارة ، ففي البادية فحشها وفجورها ، بل أقول من كرامة وسداجة وترفع عن مثل هذه الدنيات . وأما القافية فقد لاحظت من غير شك مطلع القصيدة الذي يقول فيه :
• طرب الفؤادُ لطيف رَوْضَةَ عَاشِي • وما أحسبك في حاجة إلى أن أنبهك إلى موضع « عَاشِي » من العسر والحرج ، وفطنت إلى قوله : « إن المُحِبَّ إذا أخيف كَاشِي • وفطنت إلى قوله : « وأخشى أنْ يَشِي بك وَاشِي » دون نصب الفعل ، وفطنت إلى غير ذلك مما تشتمل عليه القصيدة من مهلهل اللفظ وردى القافية .

ولست أريد أن أطيل برواية الكثير من شعر وضاح ؛ فقد تجد ذلك في كتاب الأغاني . وأنا أوصيك بالقافية التي يرى بها أباه وأخاه . وأروى لك

هذه الأبيات التي يجزع فيها على أم البنين وقد أخذتها علة :

حَتَّامَ نَكْمُكُمْ حُزْنَنَا حَتَّامًا وَعَلَامَ نَسْتَبْقِي الدُّمُوعَ عَلَامًا ؟
 إِنَّ الَّذِي بِي قَدْ تَفَاقَمَ وَأَعْتَلَى وَنَمَّا وَزَادَ وَأَوْزَثَ الْأَسْقَامَا
 قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْبَنِينِ مَرِيضَةً نَخْشَى وَنُشْفِقُ أَنْ يَكُونَ حِمَامَا
 يَا رَبِّ أُمَّتِنِي بِطُولِ بَقَائِهَا وَأَجْبُرْ بِهَا الْأَرْمَالَ وَالْأَيْتَامَا
 وَأَجْبُرْ بِهَا الرَّجُلَ الْغَرِيبَ بِأَرْضِهَا قَدْ فَارَقَ الْأَخْوَالَ وَالْأَعْمَامَا
 كَمْ رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ وَبُؤْسٍ عَصِمُوا بِقُرْبِ جَنَابِهَا إِعْصَامَا
 بِجَنَابِ ظَاهِرَةِ الثَّنَا مَحْمُودَةٍ لَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا إِعْظَامَا

فمن زعم أن هذا الشعر عربيّ قد صدر عن قائلة في القرن الأول للهجرة ،
 فلنأى أزعج أنه لم ينشأ في القرن الأول ولا في الثاني ، وإنما أنشأه ناظم جاهل
 لاحظ له من قوة ، ولا نصيب له من فن القرن الثالث أو الرابع للهجرة .
 ويحدثنا أبو الفرج أن كتاباً غثاً مصنوعاً كان في أيدي الناس عن الوضّاح ،
 وأنه كره أن ينقل منه شيئاً . وإذن فوضّاح اليمن هذا بطل غرامى من أبطال
 العامة ، لا من أبطال الخاصة كأولئك الذين درسنا أخبارهم في الفصول الماضية .

على أن اللذيذ من أمر الوضّاح ليس شعره ولا نسبه ، وإنما هو هذه القصة
 الغرامية التي أنشئت حوله ، والتي اشتركت في تكوينها عناصر مختلفة : منها
 السياسى ومنها العصبى ومنها المبالغات العامية ، والتي ما زالت تصلح موضوعاً
 لقصة غرامية موسيقية حديثة على نحو ما يسميه الفرنج بالأوبرا .

زعموا أن وضّاحاً أحب في أول أمره امرأة يقال لها روضة ، يمانية أو
 فارسية ، وزعموا أنها أحبته ، وزعموا أن حبهما ذاع بين الناس ، فلما خطبها
 أبى عليه أهلها ما أراد على نحو ما هو معروف في القصص الغرامية لذلك
 العهد ، ولكن هذه القصة اختزلت اختزالاً ، فلم يستطع الشاعر أن يحتفظ
 بغرامه ويتعرّض لأخطار الحب ، ولم يتح للسلطان إهدار دمه كما هي العادة
 في القصص الغرامية . ذلك لأن « روضة » أصابها الجذام فلم تصبح أهلاً للعشق ،
 وإنما أصبحت أهلاً للرحمة ، وقد رحمها الشاعر وعطف عليها ، ومع أن أكثر

شعر وضاح إنما هو في روضة هذه، فإن قصته الحقيقية التي عبثت بحياته بل عصفت بها، والتي أشرت إليها آنفاً إنما هي سيرته مع أم البنين.

أم البنين هذه بنت عبد العزيز بن مروان، وزوج الوليد بن عبد الملك. كانت جميلة فاتنة، يشهد بذلك شعر عبيد الله بن قيس الرقيات فيها. وقد استأذنت زوجها في الحج فأذن لها، فبلغت مكة في جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن، وكن سافرات يتعرّضن للغزلين من أهل الحجاز. وكان الوليد قد توعد الشعر إن تغزلوا بالملكة أو إحدى وصائفها. ولكن الملكة كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر ابن عبد العزيز، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين، وكما تغزلوا ببنت معاوية من قبل، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وردت مكة، لا يريدون بذلك إثماً ولا نكراً، وإنما يذهبون في ذلك مذهب المدح والدعابة. فطلبت إلى كثير وإلى وضاح أن يذكرها، فأما كثير فخاف الخليفة وأراد أن يرضى الملكة، فذكر جارية لها يقال لها غاضرة، وأما وضاح فتغزل بالملكة نفسها، ولم ينقل الرواة إلينا ما قال فيها، ولكنه نعى إلى الوليد فحتم عليه واغتاله.

هذا ما يمكن أن يكون صحيحاً من القصة، وهو الموضوع الذي نسجت حوله هذه القصة المتقنة التي سأوجزها في أسطر، والتي قلت أنها تصلح موضوعاً لمأساة موسيقية حديثة.

زعموا أن أم البنين أحبت وضاحاً وأحبها وضاح، وكانت بينهما دعابة ثم جاوز الأمر الدعابة إلى ما هو شرٌّ منها. قال: وأهدى إلى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه إلى أم البنين؛ فأرسله إليها مع خادم له ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحاً. قال: فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها، ثم أخذت الجواهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها، وأراد أن يستغل ما يعلم، فطلب إليها أن تمنحه حجراً من هذا الجواهر؛ قالوا: فأبت عليه ذلك وسبته، فانصرف محقّقاً حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى؛ فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل، ثم نهض من فوره فدخل على الملكة، فإذا هي تتمشط، فجلس على الصندوق الذي وصفه له الخادم، وأخذ يتحدث إلى الملكة في ملاطفة حتى سألتها أن تهتدي إليه هذا الصندوق. فلم تستطع ردّه، فأمر بالصندوق فاحتمل إلى مجلسه. ثم أمر فاحتفرت برّ في هذا المجلس، ثم أتى الصندوق

في البئر ، وهيل عليه التراب وسويت الأرض ، ورد البساط إلى مكانه ولم يعرف أحد لوضّاح خبرا ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئا .

قال أبو الفرج : إن هذه القصة مصنوعة ، وضعها أحد الشعوية . وقد كانت بينه وبين «أحوى» ملاحاة أيام بني العباس ، وأكبر الظن أن هذه القصة موضوعة كلها ، ولكنها في نفسها جيدة مؤثرة صالحة كما قلت لأن تكون موضوع مأساة موسيقية .

فأنت ترى أمر وضّاح هذا كله نكر في نكر : فشخصه موضوع شك وشعره منحول ، وأخباره متكلفة ، ومع ذلك فنحن نجد في شعره شيئا لا يخلو من جودة ، وأنا أوصيك باللاميتين اللتين مدح بهما الوليد .

وأختتم هذا الحديث بهذه الأبيات التي أشرت إليها في أوّل الفصل والتي خيلت إلى بعض الأدباء المحدثين أن وضّاحاً قد استكشف الشعر التمثيلي . وإنما أروى هذه الأبيات لأن فيها سداجدة حلوة إن لم تمثل النفس العربية فهي تمثل النفس العامة البغدادية :

قَالَتُ أَلَا لَا تَلِجَنَّ دَارَنَا	إِنَّ أَبَانَا رَجُلٌ غَائِرٌ
قُلْتُ فَإِنِّي طَالِبٌ غِرَّةٌ	مِنْهُ وَسَمِيفِي صَارِمٌ بَاتِرٌ
قَالَتُ فَإِنَّ الْقَصْرَ مِنْ دُونِنَا	قُلْتُ فَإِنِّي فَوْقَهُ ظَاهِرٌ
قَالَتُ فَإِنَّ الْبَحْرَ مِنْ دُونِنَا	قُلْتُ فَإِنِّي سَابِحٌ مَاهِرٌ
قَالَتُ فَحَوْلِي إِخْوَةٌ سَبْعَةٌ	قُلْتُ فَإِنِّي غَالِبٌ قَاهِرٌ
قَالَتُ فَلَيْثُ رَابِضٌ بَيْنَنَا	قُلْتُ فَإِنِّي أَسَدٌ عَاقِرٌ
قَالَتُ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ فَوْقِنَا	قُلْتُ فَرَبِّي رَاحِمٌ غَافِرٌ
قَالَتُ لَقَدْ أَعْيَيْتَنَا حُجَّةً	فَاتِ إِذَا مَا هَجَعَ السَّامِرُ
فَأَسْقُطْ عَلَيْنَا كَسَقُوطِ النَّدى	لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

الغزلون^(١)

العرجي

أريد اليوم أن أحدثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب إلى النفس ، فيه خصال الرجل العربي حقاً ، لا أريد عربيّ البادية ، ولا أريد الحضريّ الفقير ، وإنما أريد العربيّ الذي قضى الله له مولداً كريماً وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغي أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة . فأنت تجد عنده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدراً لكل ما يصدر عن الأرستقراطية من خير وشر . وأنت تجده مثلاً صادقاً لهذه الطائفة من الشباب الحجازي الذي حدثتكَ عنه غير مرة ، وزعمت لك أنه كان حسن المولد ضخيم الثروة قوى المروءة ، عظيم الحظ من الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك ، أو قل كان لذلك نفسه ، مبعداً عن الحياة السياسية العامة ، مضطراً إلى أن ينفق أيامه في اللهو واللعب ، ويبلّ حياته في العبث والمجون .

حدثتكَ عن هذا الشباب غير مرة ، وسأحدثك عنه غير مرة أيضاً ؛ فإن حياة هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأرستقراطية الإسلامية ، سواء أكانت هذه الأرستقراطية معتمدة على الدين أم على المولد أم على الثروة أم على هذه الأشياء جميعاً . أقول إن حياة هؤلاء الشبان خليقة بالدرس والعناية ؛ لأنه كان قد قُدر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم في حياة المسلمين . فلو أن الخلفاء من بني أمية أشركوهم في حديث الأمر كما اشترك آباؤهم في قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسية الإسلامية ، ولقامت دولة بني أمية على الشورى لا على الاستبداد ، ولحليل بين المسلمين وبين الثورات التي مزقت دولهم تمزيقاً . ذلك أن هذا

(١) نشرت بجريدة «السياسة» في ٢٤ أكتو. بر سنة ١٩٢٤ .

الشباب القوى الذكى الحصب كان يستطيع أن يقيم شيئاً من التوازن المتين بين سلطة الخلفاء وسلطة الزعماء ، يمنع هؤلاء الخلفاء من الظلم والإسراف فى الانقياد للعصبيات . ولكن الخلفاء فهموا هذا حق الفهم واستيقنوا أن اشتراك الشباب الحجازى فى أمور الدولة يقبض سلطانهم ويضطربهم إلى شىء من الحكم الدستورى ، مناف كل المنافاة لما كانوا يسمون إليه من الحكم المطلق ، فلم يروا بدءاً من إبعاد هذا الشباب من أمور الدولة واضطراره إلى أرض الحجاز لا يجاوزها إلا بإذن ، ولا يخرج منها إلا فى حاجة ماسة .

ولقد جاهد هذا الشباب الحجازى جهاداً عنيفاً فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرّة ، وما كان خروج الحسين بن على ، إلا مظاهر لهذا الجهاد . ولكن هذا الشباب الحجازى لم يوفق ، وتمت الكلمة للاستبداد الأموى . واضطرب أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين إلى هذه الحياة الفارغة يحونها فى الحجاز . ولم يحل بينهم وبين الاشتراك فى أمور الدولة فحسب ، بل حيل بينهم وبين الحياة فى غير الحجاز من أقطار البلاد الإسلامية ، وتخبر بنو أمية عمالهم أو كثرة هؤلاء العمال من غير هذه الأرستقراطية الحجازية . ورأينا أبناء أبى بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمى مضطربين إلى أن يحبوا فى ضياعهم . فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والحجون ، وأما أقلهم فانصرف إلى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة .

ولعلك تعلم أن هذا الماكن الذى ازدان به الحجاز حيناً ، وهو ابن أبى عتيق ، كان من سلالة أبى بكر ، وأن العرجى الذى أريد أن أحدثك عنه اليوم كان من سلالة عثمان . ولعلك تعلم مكانة عبد الله بن جعفر وهذا الجلال الدينى الذى كان يحيط به ، وأنه لم يكن يكره أن يسمع الغناء ولا أن يتخلف إلى مجالس المغنيات . ليس لهذا كله مصدر ، فيما أعتقد ، إلا أن الخلفاء من بنى أمية حالوا بين هذه القوّة العاملة وبين العمل ، ففسدت لذلك أمور الدولة من جهة ، وأمور هذا الشباب الحجازى من جهة أخرى .

لم يكن بد من أن يكون لأبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية أثر فى الحياة الإسلامية ، وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثروا فى السياسة فأثروا فى الأدب

والحضارة . نعم ، أثروا فيها آثارا باقية ؛ فنحن مدينون لهم بالغزل ، ونحن مدينون لهم بالغناء ، ونحن مدينون لهم بكل هذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإسلامية أيام بنى أمية .

وأحب أن تلاحظ معي أن هذه الناحية الحلوة الظريفة من الأدب الأموي والحضارة الأموية ظلت نقية طاهرة بريئة من الإثم والفحش إلى حد ما ، احتفظ بها الحجاز وزهد فيها خلفاء الشام . فلما جاوزت الحجاز إلى قصور دمشق ، ولما أراد الخلفاء أن يلهوا كما كان يلهو شباب الحجاز ، ولما انتقل الغزل والغناء والعبث من الأرض المقدسة إلى قصور بنى أمية ، ظهر فيها هذا الفساد الذى نكره حين نراه .

أليس مما يلفتك أنك لا تكاد تظفر بشيء من الفحش فى عبث هؤلاء الحجازيين وطوهم ؟ بل إنك ترى الفقهاء والمحدثين وأصحاب الزهد والنسك يستعذبون هذا الظرف الحجارى ويستحبونه ولا يتخرجون من الاستماع له ، بل من الاشتراك فيه ما ظل حجازياً ، حتى إذا انتقل إلى الشام ظهر النفور منه والسخط عليه .

رضى الفقهاء قليلا أو كثيرا عن ظرف ابن أبى ربيعة ، وعبث العرجى ، ومجون ابن أبى عتيق ، ولكنهم أنكروا لى يزيد بن معاوية ، وسخطوا على عبث يزيد بن عبد الملك ، وكفروا الوليد بن يزيد . ومصدر ذلك فيما أظن أن شباب الحجاز كان يلهو بمقدار ، وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من رقابة الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود . أما شباب بنى أمية فلم يكذب يعرف اللهو حتى اندفع فيه إلى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان .

نحن مدينون لهذا الشباب الحجازى ، بدوه وحضره ، بالغزل والغناء . وقد حدثتكم عن غزل أهل البادية ، وأحدثتكم الآن عن غزل أهل الحضارة ، وأبدأ بهذا العرجى الذى كان من سلالة أحد الخلفاء الراشدين .

كان عثمان جده الثانى ، وكان كغيره من أبناء الخلفاء والصحابة غنياً ضخماً الثروة ، يتردد بين مكة وإقطاع له قريب من الطائف يسمى العرج فسبب إليه . وقد حاول أن يكسب لنفسه منزلة تلامم مولده وثروته ، فأبلى فى الغزو بلاء حسناً مع مسلمة بن عبد الملك ، وأنفق فى سبيل الله أموالاً ضخمة . تحدثوا أن ضائقة أصابت الجيش فوقف ثروته على إطعام المسلمين ووكل

غلامين له بقدره يقومان عليه طوال الليل . وتحدثوا أيضاً أن ضائقة أصابت الجيش في بعض غزواته فتقدم العرجي إلى تجار أن يقضوا حاجات المسلمين وأن يرجعوا بذلك عليه ، فرجعوا عليه بعشرين ألف دينار ، وانتهى الأمر إلى عمر بن العزيز فقال : بيت المال أحق بهذا ، وأدّى عن العرجي دينه للتجار . ومع ذلك لم ينفعه عند بني أمية بلاؤه في الحرب ولا سخاؤه بالمال ، كما لم ينفعه عندهم اتصاله بعثمان ، مع أن دولتهم قامت على الثأر لعثمان ، فلم يولوه عملاً ولم يكلوا إليه أمراً ، واضطر إلى أن يعود إلى الحجاز فيحيا فيه يائساً محزوناً ، حياة غيره من أبناء الصحابة والخلفاء .

كان كريماً إذن ، وكان شجاعاً ، وكان — فيما ذكر الرواة — أرمى الناس بالسهم وأبراهم له ، كما كان فارساً شديداً الخدق بالفروسية . وكان ذكي القلب عزيز النفس قوى الفطنة ، وكان مع ذلك مبعداً عن الحياة العاملة . فلم يكن بدُّ هذه الملكات من أن تظهر وتؤتي ثمرها في اللهو والعبث ، إذ حيل بينها وبين هذه وتلك دون أن ينحاز إلى إحداهما ، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه الجدة . وقد أخذ العرجي بحظه من اللهو والعبث فنهج منهج ابن أبي ربيعة . ولكنه خالفه من وجهين : أحدهما أن ابن أبي ربيعة كان هادئاً وادعاً مطمئناً إلى لين الحياة وخفض العيش وحديث النساء ، كان حمامة من حمام الحرم ، كل حظه من الحياة أن يحب وأن يتغنى في الحب . ولهذا استطاع أن يهون على أخيه ، فقد حضرت الوفاة عمر بن أبي ربيعة فجزع عليه أخوه الحارث إشفاقاً عليه من عذاب الله ، فاستطاع عمر أن يهون على أخيه وأن يقسم له ما أتى فاحشة قط . أما العرجي فقد كان فيه فضل من قوة وعنف ، ولم يكن له بدٌّ من أن يصرف هذا الفضل . وقد حاول أن يصرفه في سبيل الدولة ، فأبى عليه الخلفاء ذلك ، فصرفه في سبيل نفسه . وكان أقرب إلى الفاتكين منه إلى أهل الدعة والهدوء . كان ينفق حياته في الصيد والشرب . ولم يكن يكتفي من النساء بالحديث والغزل ، وإنما كان يطلب إليهن أكثر من هذا ، فكان اسمه خطراً أيضاً .

والآخر أن عمر بن أبي ربيعة كان قانعاً في حياته العامة كما كان قانعاً في حياته الخاصة ، فلم تكن له أطماع سياسية ولم يكن له أعداء سياسيون ، وكأنه كان يحتقر السياسة وأهلها ، فقصر شعره على النساء ، وصرفه عن الخلفاء ومن يتصل بهم فلم يمدح أحداً ولم يهجم أحداً .

أما العرجى فقد حاول الحياة السياسية وأراد أن يكون له شأن في أمور الدولة فلم يفلح . وأحسب أنه لم يتعزّز عن هذا الإخفاق ، فأضمر للخلفاء ومن اتصل بهم حقدا وبغضا . وكان هذا الإخفاق قد أثر في نفسه تأثيرا قويا فأصبح سيئ الخلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ما صرفه عنهم اللهو والعبث ، فإذا اضطر إلى مواجهتهم لم يجدوا منه خيرا ، ومن هنا هجا ناسا وعادى ناسا آخرين . وانتهى به عنفه في حياته الخاصة وسوء خلقه في حياته العامة إلى أن ضُرب وشهر وسجن حتى مات في السجن .

ولا بد من ملاحظة هذين الأمرين لفهم شعر العرجى وما روى لنا من أخباره ، فإلى عنفه وفتكه وتهالكه على اللذة يرجع قسم من شعره وأخباره ، وإلى خطئه السياسى وحقده على رجال الدولة يرجع القسم الآخر من هذا الشعر وهذه الأخبار . ولعلك تريد الآن أن تعرف رأينا في شعر العرجى ، وقد قدمنا هذا الرأى في أول هذا الحديث حين قلنا إن العرجى كان ظريفاً خفيف الروح محببا إلى النفس ، فإننا نجد هذه الخلال كلها في شعر العرجى ، وستجدها أنت فيه أيضاً ، وقد اتفق رأينا في هذه المرة مع رأى القدماء ، فقد كان أهل الظرف والأدب منهم ، بل كان الفقهاء والنسك أيضاً ، يحبون شعر العرجى ويكلفون به كلفاً شديداً ، ولم في ذلك أحاديث لا تكاد تظفر بمثلها لشاعر آخر ، ومن هذه الأحاديث ما يضحك ، ومنها ما يرضى ويحمل على الإعجاب .

تحدث مصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتاني أبو السائب المخزومي ليلة بعد ما رقد السامر فأشرفت عليه ، فقال : سهرت وذكرت أنخاً لى أستمتع به فلم أجد سواك ، فلو مضينا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا ! فمضينا فأنشدته في بعض ذلك بيتين للعرجى :

بَاتَا بِأَنْعَمٍ لَيْلَةً حَتَّى بَدَا صُبْحٌ تَلَوَّحَ كَالْأَغْرَ الْأَشْقَرِ
فَتَلَازَمَا عِنْدَ الْفَرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمُ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُغْسِرِ

فقال : أعده علىّ ، فأعدته ، فقال : أحسن والله ! امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما صرنا إليه ، وقف بنا وهو منصرف من ماله يريد المدينة ، فسلم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فَتَلَازَمَا عِنْدَ الْفَرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمَ بِفَضْلِ تَوْبِ الْمُسِيرِ

فالتفت إلى فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة ! فقال :
إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمي
قاضي المدينة يريد مالاله ، على بغلة له ، ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ،
فسلم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فَتَلَازَمَا عِنْدَ الْفَرَاقِ صَبَابَةً أَخَذَ الْغَرِيمَ بِفَضْلِ تَوْبِ الْمُسِيرِ

فالتفت إلى فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت : آنفا . فلما أراد
المضي قلت : أفتدعه هكذا ! والله ما آمن أن يهور في بعض آبار العقيق .
قال : صدقت ، يا غلام ، قيدَ البغلة ، فأخذ القيد فوضعه في رجله ، وهو ينشد
البيت ويشير بيده إليه يريد أن يفهم عنه قصته . ثم نزل الشيخ فقال لغلامه :
يا غلام ، احمله على بغلتي وألحقه بأهله . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته
بخبره ، فقال : قبحك الله ماجناً ! فضحت شيخاً من قريش وغررتني .

وتحدث داود الثقفى قال : كنا في حلقة ابن جريج وهو يحدثنا ، وعنده
جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدة من العراقيين ، إذ مر به ابن نيزن المعنى
وقد اثتر بمترز على صدره ، وهى إزرة الشطار عندنا ، فدعاه ابن جريج
فقال له : أحب أن تسمعني . قال : أنا مستعجل . فألح عليه . فقال : امرأته
طالق إن غناك أكثر من ثلاثة أصوات . فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى
اليمن ! غنى الصوت الذى غناه ابن سريج فى اليوم الثانى من أيام منى على
جمره العقبة ، فقطع طريق الذهاب والى الحائى حتى تكسرت الحامل . فغناه :

* عوجى على فسلمى جبر *

فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ويحك ! أعده .
قال : من الثلاثة ، فلانى قد حلفت ! قال : أعده . فأعاده فقال :
أحسنت ! فأعده من الثلاثة . فأعاده ، وقام ومضى ، وقال : لولا مكان هؤلاء
الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك . فالتفت ابن جريج إلى أصحابه
فقال : لعلكم أنكروتم ما فعلت ! فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه .
قال : فما تقولون فى الرجز ؟ - يعنى الحداء - قالوا : لا بأس به عندنا ! قال :
فما الفرق بينه وبين الغناء ؟

ولذه الأبيات نفسها قصة أخرى مع عطاء وابن سريج ليست أقل من هذه القصة ظرفاً. ولعلك تعلم قصة أبي حنيفة مع جاره الذي كان يسكر ويتغنى في كل ليلة بقول العرجي :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

ثم انقطع الغناء عن أبي حنيفة ليلة، فسأل عن جاره فعلم أن العسس قد أخذه، فجد أبو حنيفة حتى أطلقه من سجنه، ثم قال له: هل أضعناك يا فتى؟ قال: لا والله! قال أبو حنيفة: فعد إلى ما كنت فيه من غناء فليس فيه بأس. وأخبار أخرى تروى عن شعر العرجي ورواجه بين الظرفاء والفقهاء من أهل الحجاز، وتجدها في كتاب الأغاني.

ولم يكن العرجي ظريفاً في شعره وحده، بل كان ظريفاً في سيرته أيضاً، ولا سيما مع النساء. ولست أروى لك من ظرفه هذا إلا قصة واحدة.

قالوا: مر العرجي في بعض نزحته بأمر الأوقص، وهو محمد بن عبد الرحمن الخزومي القاضي، وكان يتعرض لها، فإذا رآها رمت بنفسها وتستر منه، وهي امرأة من بني تميم، بصر بها في نسوة جالسة وهن يتحدثن، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب، فعدل عنها ولقي أعرابياً من بني نصر على بكر له ومعه وطبا لبن، فدفع إليه دابته وثيابه، وأخذ قعوده ولبنه ولبس ثيابه، ثم أقبل على النسوة، فصحن به: يا أعرابي، أمعك لبن؟ قال: نعم، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص، وتوالت من معها إلى الوطيين، وجعل العرجي يلحظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً، وهن يشربن من اللبن؛ فقالت له امرأة منهن: أي شيء تطلب يا أعرابي في الأرض؟ أضاع منك شيء؟ قال: نعم، قلبي! فلما سمعت التيمية كلامه نظرت إليه، وكان أزرق، فعرفته فقالت: العرجي بن عمر ورب الكعبة! ووثبت وسترها نساؤها وقلن: انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك. فضى منصرفاً وقال في ذلك:

أَقُولُ لِصَاحِبِي وَمِثْلُ مَا بِي شَكَاهُ الْمَرْءُ ذُو الْوَجْدِ الْأَلِيمِ
إِلَى الْأَخْوَيْنِ مِثْلِهِمَا إِذَا مَا تَأَوَّبَهُ مُورِّقَةُ الْهُمُومِ
لِحَيْثُنِي وَالْبَلَاءُ لَقِيَتْ ظَهْرًا بِأَعْلَى النَّقْعِ أُخْتِ بَنِي تَمِيمِ

فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ عَيْنَايَ مِنْهَا أَسِيلَ الْخَدِّ فِي خَلْقِ عَمِيمِ
وَعَيْنِي جُوذْرٍ خَرِقٍ وَتَفْرًا كَاوْنَ الْأَقْحَوَانَ وَجِيدَ رِيمِ
حَنًا أُنْرَابَهَا دُونِي عَلَيْهَا حُنُوَّ الْعَائِدَاتِ عَلَى السَّقِيمِ

ولقد كنت أريد أن أروى لك قصة أخرى ظريفة قاسية للعرجي مع أمة يقال لها كلابة ، ولكنني قد أطلت ، ولست أريد أن أسرف في الإطالة ، ولست أكتب هذه الأحاديث لأقول كل ما أريد ، وإنما قصاراي أن أحب إليك قراءة الأدب العربي وأرسم لك نهج هذه القراءة .

كان العرجي كما قلنا عفيفا شديدا بغض لرجال الحكم ، وقد قتله عنفه وبغضه هذان . زعموا أن هشام بن عبد الملك ، لما استخلف ولتي على مكة خاله محمد بن هشام المخزومي . فأخذ العرجي يسرف في هجاء محمد بن هشام . ثم لم يكتف بالإسراف في الهجاء فأخذ يتغزل بأمر الوالي وزوجه ، ويدفع غزله إلى المغنين ، فما أسرع ما تنطلق به الألسنة ! قال في أم الوالي هذه الأبيات المشهورة :

عُوجِي عَلَيْنَا رَبَّةَ الْهُودَجِ إِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلِي تَحْرَجِي
إِنِّي أَنْبَحْتُ لِي يَمَانِيَةَ إِخْدَى بَنِي الْحَارِثِ مِنْ مَذْحِجِ
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كَلَّهُ لَا نَلْتَقِي إِلَّا عَلَى مَنْهَجِ
فِي الْحَجِّ إِنْ حَجَّتْ وَمَاذَا مِنِّي وَأَهْلُهُ إِنْ هِيَ لَمْ تَحْجِجِ

وقال في زوجه جيرة :

عُوجِي عَلَيَّ فَسَلَّمِي جَبْرُ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَنْتُمْ سَقْرُ
مَا نَلْتَقِي إِلَّا ثَلَاثَ مِنِّي حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا النَّفْرُ
الْحَوْلُ بَعْدَ الْحَوْلِ يَتَّبِعُهُ مَا الدَّهْرُ إِلَّا الْحَوْلُ وَالشَّهْرُ

فوجد عليه محمد بن هشام وجداً شديدا ، وأخذ يلتمس العلل للإيقاع به ، فما أسرع ما وجد عليه سبيلا !
كان العرجي عنيفاً فزعموا أنه خاصمه أحد الموالى ، فسبه وبالغ في سبه ،

فرد المولى عليه ، فأمهله العرجى حتى إذا كان الليل هجم في نفر من رجاله على دار المولى ، فأمر أصحابه فأوثقوه وفضحوا امرأته أمامه ثم قتلوه وحرقوه ، فاستعدت المرأة عليه محمد بن هشام ؛ فقبض عليه وضربه وحلق رأسه وصب عليه الزيت وعرضه للناس ، ثم سجنه فظل في السجن تسع سنين ولم يخرج منه إلا ميتا . ثم جاء الوليد بن يزيد فاتخذ قصة العرجى علة للانتقام من خالي هشام ، فضر بهما ثم أرسلهما إلى يوسف بن عمر ، فعذبهما واستصنى أموالهما وأتلفهما ضرباً .
ونختم هذا الحديث بهذه الأبيات التي قالها العرجى في سجنه ، والتي تمثل نفسيته السياسية قبل السجن وبعده :

أضاعوني وأىّ فتى أضاعوا	ليوم كريمةٍ وسدادٍ تغرّ
وصبرٍ عندَ مُعترِكِ المنايا	وقد شرعتُ أسقتها بنجرى
أجرُّ في الجوامعِ كلَّ يومٍ	فيا لله مظلمتى وصبرى
كأنى لم أكن فيهم وسيطاً	ولم تك نسبتى في آل عمرو

الغزلون (١)

عبيد الله بن قيس الرقيات

صاحبنا اليوم شاعر معروف بالغزل ، يذكر مع أصحاب النسيب من قريش وأهل الحجاز عامة . ولكنه ليس كهؤلاء الغرلين الذين اتخذناهم موضعاً لبحثنا إلى اليوم ، فهو لم يقصر جهوده الفنية على الغزل ، وهو لم يقصر حياته على اللهو والعبث ، وإنما تنوّعت حياته وتنوّع حظه من الفن الشعري . فكان في حياته العاملة صاحب لهُ وجدّ ، وكان في حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسي . ويظهر أن النضال السياسي وحده هو الذي ينبغي أن نتخذهُ وسيلة إلى فهم هذا الشاعر في حياته العملية والشعرية . فنحن إذن بعيدون كل البعد عن هؤلاء الشعراء الذين لم تخطر لهم السياسة على بال ، أو الذين لم يحاولوا أن يأخذوا منها بحظ ؛ لأنهم علموا مقدماً أن ليس لهم فيها نصيب ، فوقفوا حياتهم على اللهو واللعب وذكر النساء .

نحن بعيدون عن عمر بن أبي ربيعة وعن جميل وأصحابه ، بل نحن بعيدون عن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا أن تكون لهم منزلة سياسية ، فلما أخفقوا في ذلك اضطربهم اليأس من الحياة العاملة إلى نوع من الحياة ملؤها اللهو والدعابة والمجون، كالعرجي الذي حدثتكَ عنه في الأسبوع الماضي ، وإنما نحن بإزاء شاعر آخر يخالف أولئك مخالفة شديدة . خطرت له السياسة وخبّلت عقله فغرق فيها إلى رأسه ، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئاً كثيراً جداً . وأثر ذلك في شعره وفي حياته تأثيراً ظاهراً غلب على كل شيء من الأشياء التي يمكن أن تعمل في حياة الشعراء . فهو إلى الشعراء السياسيين أقرب منه إلى الشعراء الغزليين . ولكنه مع ذلك كان غزلاً ، ماهراً في الغزل ، أو قل متفوقاً فيه . وربما صح أن يقدم على العرجي والأحوص ، بل قد استباح بعض المتقدمين

(١) نشرت بجمريده «السياسة» في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

لنفسه أن يقرنه إلى ابن أبي ربيعة . وليس يعيننا الآن أن نثبت أنه أشعر من ابن أبي ربيعة ، أو دون ابن أبي ربيعة في الشعر ، وإنما الذى يعيننا قبل كل شيء هو أن نثبت شخصيته وما بينها وبين شعره من صلة : أى أن نثبت الخصائص التى يمتاز بها شعره . حتى إذا فرغنا من ذلك كان من اليسير علينا أن نقدر هذا الشعر وننزله منزلته من أدب الأمويين .

وقد أراد الله أن يجعل هذا يسيرا ، فحفظ لنا مقدارا صالحا من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات يجمعه ديوان مخطوط في دار الكتب المصرية طبعت منه نسخة في « فيينا » . ونستطيع إذن أن نقرأ هذا الديوان ونحكم عليه .

وأنا أحب أن تقرأ أخبار هذا الشاعر في كتاب أبي الفرج ، فستشعر بشيء شعرت به ، وهو أنه حلو النفس ، خفيف الروح ، عذب الشعر ، خصب الخيال قويه . وستشعر بأن أبا الفرج قد قصر في ذات هذا الشاعر ، فلم يرو من شعره إلا أطرافا موجزة مقتضبة ، كل أثرها في نفسك هو أن تستثير الإعجاب والأسف على أن ما حفظ من شعره قليل . ولكن هذا الأسف يزول حين تعلم أن له ديوانا محفوظاً ، وأنت تستطيع أن ترجع إلى هذا الديوان . فإذا رجعت إلى هذا الديوان فستشعر بشيء آخر شعرت به أيضاً ، وهو أن الجيد من شعر هذا الشاعر كثير أكثر مما ينبغى ، إن جاز مثل هذا القول ، وأن الردىء من شعره قليل أقل مما ينبغى ، إن أبيع مثل هذا التعبير .

وأنا أستبيح لنفسى مثل هذا التعبير ؛ لأنى أريد في هذه الأحاديث أن أقدم إليك صورة صادقة ولكنها موجزة من الشعراء الذين أدرسهم . وقد أستطيع أن أقدم إليك صورة صادقة من صاحبنا هذا ، ولكنى أجد مشقة شديدة في الإيجاز . فليس من اليسير أن تختار من شعره ، فكل شعره أو أكثره حرى أن يختار . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أنت مضطر إلى أن تروى له شعرا كثيرا أكثر مما يحتمل هذا الحديث .

وهنا ألاحظ شيئا يكاد يختص به عبيد الله بن قيس الرقيات : وهو أنه كان صاحب لهو وسياسة ، وأنه اتخذ الغزل وسيلة إلى اللهو والسياسة . فكان يتغزل حيناً ليلهو أو ليصف عواطف نفسه حقاً ، وكان يتغزل حيناً آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ، إذ يذكر

نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن . وقد رأينا العرجى يتغزل بجيداء أم محمد بن هشام ، وبجيرة زوج محمد بن هشام ، ليغيظ محمد بن هشام هذا . وكذلك فعل عبيد الله بن قيس الرقيات قبل العرجى ، فسن له ولغيره هذه السنة . وبلغ من هذا الغزل الهجائى ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى . فلم يكن يكتبى بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التى يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجى ، وإنما كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها فى شعره مسرفاً فى تفصيلها إسرافاً شديداً .

لم يكن عبيد الله بن قيس الرقيات شريراً ولا سيئ الدخيلة ، وإنما كان مع الخصومات السياسية التى اندفع فيها اندفاعاً شديداً - محبباً لقومه ، يؤثرهم على الناس جميعاً ويحرص على كرامتهم أشد الحرص . ومن هنا تظهر فى غزله الهجائى خصلة جميلة ، رقيقة مؤثرة ، لا نجد لها عند غيره من الهجائين السياسيين : وهى أنه كان يخاصم الرجال دون النساء ، وكان يتخذ النساء وسيلة إلى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذبا وزورا . بل كان يعضى إلى أبعد من هذا ، كان يريد أن يتملق هؤلاء النساء ، وأن يرضيهن عن نفسه ، وأن يحب اليهن هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبتهن بوجه عام .

كان يخاصم بنى أمية ، فتغزل بأمة البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيظ عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أمية ؛ ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتحجب إليها ، وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب . وأنت تعلم أن النساء فى ذلك العصر - ولا سيما نساء الأشراف والأسرة المالكة - كن يحبين الغزل ويكلفن به ويطلبنه إلى الشعراء . فليس غريبا أن يطمع ابن قيس الرقيات فى إرضاء أم البنين ، وهو يخاصم أباه وعمها وزوجها . وسأروى لك بعد حين قصيدة ذكر فيها أم البنين ذكرا مفصلا تفصيلا ، من شأنه أن يؤذى ويسىء ، ولكنه احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له فى المنام . فكرامة أم البنين موفورة ، وهى خليفة أن تتيه بهذا الجمل الذى أحدث فى نفس الشاعر ما أحدث حتى ملك عليه

يومه ونومه . وإذن فليس على الشاعر نفسه لوم إذا أغرق في الرقاد .
وقد وصل ابن قيس الرقيات من هذا الغزل المهجائي إلى كل ما كان
يريد . فأحفظ بنى أمية عليه أشدّ إحفاظ حتى هدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم
من آواه كما سترى . ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه ، وبلغ منها مبلغاً حسناً ،
حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك .

هذا الغزل المهجائي ، الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق
بالعناية . فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون ،
ولكنه شديد الخطر من جهة أخرى ، لأنه يلبس عليك أمر الشاعر ويجعل
حكّمك على عاطفته عسيراً جدّاً . فأنت لا تكاد تتبين أجادّ هو فى غزله أم
لاعب ؟ أمادح هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها ؟ وأنت مضطر
إلى أن تنظر إلى هذا الغزل من حيث هو فن مجرد من النفسية الصادقة
للشاعر ومن عواطفه الحقيقية . وفى الحق إنك لا تكاد تجد فرقاً بين
غزل ابن قيس الرقيات ، فهما تختلف موصوفاته فهو قوى ، رقيق ،
خلاب شديد الحرارة ، سهل التناول ، سواء أكان الشاعر يتغزل بأمر البنين
يهجو قومها ، أم بإحدى هؤلاء الرقيات اللاتى كان يذكرهن حتى غلب عليهن
اسمه ، أم بأمرأة أخرى كان يحبها أو يرى فيها جمالاً وروعة .

ولقد يكون من الحق أن نقول : إن عبد الله بن قيس الرقيات لم يعرف
هذا الحب العذرى ، بل لم يعرف الحب العادى ، الذى يقصر حياة الرجل أو
شطرًا من حياته ، على امرأة واحدة تلائم هواه ، وإنما كان يحب النساء جميعاً ،
يحبهن حباً قوياً يوشك أن يكون طاهراً ؛ يحبهن ليليلهو بهن بل ليتخذ منهن
مثله الأعلى فى الجمال . ومن هنا نستطيع أن نقول : إنه كان صادق اللهجة فى
كل ما كان يقول من غزل ؛ لأنه كان يحمل فى نفسه صورة من جمال النساء
يخلعها على من أراد أن يذكرها فى شعره لأى سبب . وكانت هذه الصورة
تسمى أم البنين حيناً ، ورؤية بنت عبد الواحد حيناً آخر ، وكثيرة مرة ثالثة ،
وثرياً مرة رابعة ، وسعدة ، وسلامة ، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللاتى لم
يكن خيالاً متكلفاً وإنما كنّ أشخاصاً يستمتعن بالحياة حقاً .

وقد أراد حظ ابن قيس الرقيات أن يحبه النساء كما أنه يحب النساء ،
وأن يحببته لاللهو واللذة ، بل لميل بعيد من اللهو واللذة . وأراد حظه أن يكون مديناً

بحياته لامرأتين . آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويون دمه ، فلبث عندها سنة كاملة وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها ؛ وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ قيس ألا يستطيع لهاتين المرأتين مكافأة إلا بالغزل والنسيب ، فقد تغزل بهما جميعاً . ولسنا نشك في أنه تغزل بكثيرة ليشكرها على ما قدمت إليه من معروف .

وأكاد لا أعرف شاعراً ، أرق لهجة وأعذب لفظاً وأحسن أدباً في مخاطبة النساء وذكرهن ، من ابن قيس الرقيات حين يذكر كثيرة هذه . وانظر إلى قوله فيها :

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرْبِ فَعَيْنُهُ بِالدُّمُوعِ تَنْسَكِبُ
 كَوْفِيَّةٌ نَازِحٌ مَحَلَّتْهَا لَا أُمُّ دَارُهَا وَلَا صَقَبُ
 وَاللَّهِ مَا إِنْ صَبَّتْ إِلَى وَلَا إِنْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا سَبَبُ
 إِلَّا الَّذِي أَوْزَنْتْ كَثِيرَةً فِي الْقَلْبِ وَاللُّحْبُ سَوْرَةٌ مَجْبُ
 لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْعَوَانِي فَمَا يُصْبِحُنَّ إِلَّا لَهْنٌ مُطَلَّبُ
 أَبْصَرَنَ شَيْبًا عَلَا أَلْدَوَابَةَ فِي الرَّأْسِ حَدِيثًا كَأَنَّهُ الْعَطَبُ
 فَهِنَّ يُنْكَرُنَّ مَا رَأَيْنَ وَلَا يُعْرِفُنَّ لِي فِي لِدَائِي اللَّعْبُ

على أني أريد أن أتم ابن قيس الرقيات قبل أن أتم بشعره . فلأوجز لك مذهبه السياسي ، أو قل حياته السياسية .

كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغالياً في نصر الزبيريين ، يحبهم أشد الحب ، ويبغض خصومهم من بني أمية بغضاً شديداً ، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى إن عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له قوله في مصعب بن الزبير ، وقد خرج مع مصعب هذا في العراق على عبد الملك ، ولزمه حتى أحسن مصعب أنه مقتول ، فأذن له في أن ينصرف وجباه مالا كثيراً . ولكن الشاعر أقسم لا يريم حتى يعرف سبيل مصعب ، فما زال معه حتى قتل . ثم فرّ فبلغ الكوفة فلجأ إلى أول دار لقيته ، وفي هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة ،

وكانت تغدو عليه كل يوم فتحببه وتسأله حاجته ولا تسأله عن اسمه، وهو لا يسألها عن اسمها؛ حتى سمع ذات يوم الصائح العام ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى ابن قيس الرقيات، فنزل إلى صاحبه فأنبأها باعترام الرحلة. قالت: لا يرعك هذا الصباح، فنحن نسمعه منذ سنة، ولكنه أصرّ على الرحلة. فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزادا ووهبته عبداً؛ وانصرف عنها وقد أبت أن تنبئه من هي، وإنما علم أن اسمها كثيرة وأنها خزرجية. ففضى حتى بلغ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر، فأجاره وأحسن مثواه، وكتب فيه إلى أم البنين وإلى عبد العزيز بن مروان أبيها، فشفت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان. ثم دخل هو على عبد الملك فمدحه بهذه القصيدة التي قدّمت لك شيئاً من غزلها، وفيها يقول مادحاً:

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا أَسْمُهُمْ يَحْتَلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا
وَأَسْمُهُمْ مَعْدِنُ الْمُلُوكِ فَلَا تَصْلُحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ الْعَرَبُ
إِنَّ الْفَنَيْقَ الَّذِي أَبُوهُ أَبُو الْعَا صَى عَلَيْهِ الْوَقَارُ وَالْحُجُبُ
خَلِيفَةُ اللَّهِ فَوْقَ مَنِيرِهِ جَفَّتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتُبُ
يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

ولكن عبد الملك أبي عليه أن يأخذ عطاءه من بيت المال، فشكا ذلك إلى عبد الله بن جعفر، فعوضه أضعاف ما حرمه عبد الملك. ثم اتصل بعبد العزيز بن مروان، وهو حينئذ أمير مصر من قبل أخيه، فمدحه مدحاً كثيراً جيداً، فيه ذكر لبابليون وحلوان ولليل وسفائنه. وكنت أريد أن أروى لك منه شيئاً، ولكني أريد أن أجنب الإطالة وأنصح لك بقراءته في الديوان. ومدح عبيد الله بن قيس الرقيات عبد الله بن جعفر مدحاً جيداً آية في الإتيان. فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة، اتصل بحزب الزبيريين، وفيهم قال أجود مدحه، واتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد، واتصل بالهاشميين وفيهم أحسن المدح وأجاده؛ ولم يكن مع ذلك متلوناً ولا فاسد الضمير.

وأحسب أني أصيب الحق إن قلت: إنه كان قرشيّاً قبل كل شيء، وإن

له مذهباً سياسياً لم يتغير قط ، وهو أن السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولاً وفعلاً . فإذا كان قد كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية ، وإنما كرههم لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .

شيثان اثنان يختصران الرأى السياسى لابن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش وأن تعتر قريش فيه بمضمر . (والثانى) أن من الإثم والحيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية . وسأروى لك فى آخر هذا الفصل قصيدة طويلة تختصر رأيه السياسى هذا ، وتمثل عواطفه الوطنية القرشية تمثيلاً قوياً صادقاً . ولكنى شديد الحيرة ، فبين يديّ ست عشرة قصيدة مختارة من شعر ابن قيس الرقيات ، وأنا أرى أن ليس بدّ من إظهارها وإذاعتها لتظهر شخصية الشاعر واضحة ، ولتظهر الحياة السياسية فى قريش واضحة أيضاً . ولكن من لى بالصحف التى أنشر فيها هذا الشعر الكثير ! ومن لى بالأ تغضب « السياسة » ولا يحتج أصحابها وكتابها على هذا الاحتلال الأدبى الذى يسرف فى العدوان ! أنا إذن مضطر إلى أن أشير إشارة إلى هذه القصائد ، وألا أروى لك منها إلا أربعا .

أما إحداها فى اللهو ، وهى تمثل لك نفسية الشاعر وفهمه للحياة ، كما أنها تمثل لك خفته الشعرية وميله إلى العبث اللفظى . ولم أروها كلها ؟ يحسن أن أكتفى منها بهذه الأبيات :

بَكَرَتْ عَلَى عَوَازِلِي	يَلْحَيْتَنِي وَأَلْمُهْنَةُ
وَيَقْلُنَ شَيْبٌ قَدَعَلَا	كَوَقَد كَبُرَتْ فَقَلْتُ إِنَّهُ
إِنَّ الْعَوَازِلَ لُمُنَى	وَلَنْ أُطِيعَ أُمُورَهُنَّ
فِيَا أُفَيْدُ مِنَ الْغِنَى	وَاللَّهُ سَوْفَ يَهْمِنُهُنَّ
وَلَقَدْ عَصَيْتُ النَّاهِيَا	تِ النَّاسِرَاتِ جُيُوبَهُنَّ
حَتَّى ارْعَوَيْتُ إِلَى الرَّشَا	دِوَمَا ارْعَوَيْتُ لِنَهْبِهِنَّ

والأخرى قصيدة يتوجع فيها ، وقد جاءته أنباء الحرة ومقتل نفر من إخوانه ،

فيها هذا العبث اللفظي ، وفيها سهولة تفتقر القلب ؛ وما أظن إلا أنها صنعت
للناثحات :

ذهب الصبا وتركت غيبيته ورأى الغواني شيب لمتيه
 وهجرنتي وهجرتهن وقد عنت كرائمها يظفن بيه
 إذ لمتي سوداه ليس بها وضح ولم أفجع بإخوتيه
 الحاملين لواء قومهم والذائدين وراء عورتيه
 إن الحوادث بالمدينة قد أوجعني وقرعن مروتيه
 وجببنتي جب السنام فلم يتركن ريشا في مناكبيه
 وأنى كتاب من يزيد وقد شد الحزام بسرّج بغلتيه
 ينعى بنى عبد وإخوتهم حلّ الهلاك على أقاربيه
 ونعى أسامة لى وإخوته فظلت مستكّا مسامعيه
 كالشارب النشوان قطره سمل الرقاق تفيض عبرتيه
 سدماً يعزيني الصحيح وقد مرّ المنون على كريمته
 كيف الرقاد وكما هجعت عيني ألم خيال إخوتيه
 تبكى لهم أسماء مؤولة وتقول ليلي وا رزيتيه
 والله أبرح في مقدمة أهدى الجيوش على شكّتيه
 حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه

ولندع الآن رثاءه، وإن كان فيه أجود مما رويت لك ، لننتقل إلى هذه
القصيدة التي ذكر فيها أم البنين والتي أشرت إليها آنفاً . وأنا أترك للقصيدة
وصف نفسها، وهي مدح مصعب بن الزبير .

ألا هزأت بنا قرشيّة يهتر مؤكها
 رأت بي شيبه في الرأ س منى ما أغيبها

فقالتُ أبنُ قيسٍ ذا؟ وَغَيْرُ الشَّيْبِ يُعْجِبُهَا
 رأيتني قد مضى مني وَغَضَّتْ صَوَابُهَا
 ومثلكِ قد لَهوتُ بها تمامُ الحُسنِ أُعِيبُهَا
 لها بعلٌ غيورٌ فا عدُّ بالبابِ يُحْجِبُهَا
 يراني هكذا أمشي فيوعدها وَيَضْرِبُهَا
 ظَلَّتْ عَلَى نَمَارِقِهَا أَفْدِيَهَا وَأَخْلِبُهَا
 أَحَدَتْهَا فتو من لي فأصدقها وَأَكْذِبُهَا
 فدع هذا ولكن حا جةً قد كنتُ أَطْلُبُهَا
 إلى أمِّ البنين متى يُقْرِبُهَا مُقْرِبُهَا
 أتتني في المنامِ فقلتُ هذا حينَ أُعْجِبُهَا
 فلما أن فرحتُ بها ومالَ عَلَيَّ أَعْدِبُهَا
 شربتُ بريقها حتى نهلتُ وَبِتُّ أَشْرِبُهَا
 وبتُّ ضجيعها جذلاً نَ تَعْجِبُنِي وَأَعْجِبُهَا
 وأضحكها وأبكيها وَاللَّيْسُهَا وَأَسْلِبُهَا
 أعالجها فتصرعني فَأَرْضِيهَا وَأَغْضِبُهَا
 فكانت ليلةً في النورِ مَ نَسَمُرُهَا وَنَلْعِبُهَا
 فأيقظنا مُنادٍ في صلاةِ الصُّبْحِ يَرْقُبُهَا
 فكان الطيفُ من جنِّيةٍ لَمْ يَدْرَ مَذْهَبُهَا
 يؤرِّقنا إذا نمنا وَيَبْعُدُ عَنْكَ مَسْرِبُهَا

ثم يمضي بعد ذلك في مدح مصعب . وماذا تريد أن أقول لك في هذا
 الشعر؟ وهل تعرف أعذب منه لفظاً وأجود منه معنى وأخف منه روحاً!

وبين يدي قصيدة كافية يتغزل فيها شاعرنا بإحدى زوجات عبد الملك .
ولكني أعدل عنها إلى هذه القصيدة التي وعدتك بروايتها ، والتي قلت إنها
تختصر مذهب ابن قيس في السياسة ، وهي في مدح مصعب ، وهي التي
أحنت عبد الملك على الشاعر ، ولكنها أطول من أن تروى كلها ، فلأجتزئ
منها بأبيات أختارها ، وإن كانت كلها مختارة :

حَبَدًا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعٌ لَمْ تَفْرُقْ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مُلْكِ قُرَيْشٍ وَتَشْمَتَ الْأَعْدَاءُ
أَيْهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءً قُرَيْشٍ يَدِ اللَّهِ عُمْرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنْ تَوَدَّعَ مِنَ الْبِلَادِ قُرَيْشٌ لَا يَكُنْ بَعْدَهُمْ لِحَيِّ بَقَاءُ

ثم يمضي في الفخر البديع بقريش لا يفرق بين أحزابها السياسية، حتى
يصل إلى مصعب، فيقول فيه هذه الأبيات التي غاظت عبد الملك :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ الْأَ هِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلَمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ
يَتَّقَى اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَوْ لَحَ مَنْ كَانَ هُمَّهُ الْإِتْقَاءُ

ولأدع هذه الآية الشعرية كارها، فقد أسرفنا في الإطالة، ولأختم هذا
الحديث بهذه الأبيات الحلوة :

حَبَدَ الْأِذْلالِ وَالْفُنْجِ والتي في طَرْفِهَا دَعَجٌ
التي إِنْ حَدَّثَتْ كَذَبَتْ والتي في وَصْلِهَا خَلَجٌ
تلكَ إِنْ جَادَتْ بِنَائِلِهَا فابنُ قَيْسٍ قَلْبُهُ تَلِجٌ
وترى في البَيْتِ صُورَتَهَا مِثْلَ مَا فِي البَيْعَةِ الشُّرْجُ
حَدَّثُونِي هَلْ عَلَى رَجُلٍ عاشقٌ في قُبْلَةٍ حَرَجٌ

أعيد ما قلته غير مرة من أن في الشعر العربي لهذا العصر كنوزاً خليقة
أن تستكشف وأن تدرس على وجهها ، ولكن كثيراً من الناس لا يعلمون .

الغزلون^(١)

الأحوص بن محمد الأنصارى

حدثتكَ في بعض الفصول الماضية عن أصحاب الغزل من أهل الحاضرة الحجازية، بعد أن حدثتكَ عن أصحاب الغزل من أهل البادية. ولكنني لم أتجاوز، فيما كتبت إلى الآن، الغزلين من قريش وأهل مكة، وسأعود إليهم حين أختَم هذه الفصول بزعم الغزل الحضري في عصر بني أمية، وهو عمر ابن أبي ربيعة.

أما اليوم فأريد أن أحدثك عن رجل ليس قرشياً ولا مكياً، وإنما هو أنصارى مدنى. وسترى من هذا الحديث أن هذا الرجل ليس أقل خطراً من شعراء قريش، وأن جنسيته اليمنية لم تؤثر في شعره قليلاً ولا كثيراً، كما أن الجنسية القرشية المضرة لم تؤثر في شعر القرشيين قليلاً ولا كثيراً؛ لأن هذا الشعر تأثر في حقيقة الأمر بأسباب ومؤثرات أخرى مخالفة كل المخالفة للجنسية وما إليها: تأثر بتلك المؤثرات التي أكثرت ذكرها والإشارة إليها؛ والتي سأكثر من ذكرها والإشارة إليها، لأن الذين يدرسون الأدب العربي لم يقدروها قدرها بعد، وهي خليقة أن تقدر، إذ عليها وحدها تستطيع أن تعتمد في فهم الشعر الإسلامى عامة، وشعر هؤلاء الغزلين من أهل مكة والمدينة خاصة.

لعلك تذكر العرجى وما ذكرت من يأسه السياسى، وما اضطره إليه هذا اليأس من حياة اللهو والعنف والسخط. ولعلك إذا درست الأحوص تشعر بشيء من الميل إلى المقارنة بينه وبين العرجى. وقد كانا في الحق صديقين، وكان بينهما تشابه قوى من بعض الوجوه، وكان بينهما اختلاف أيضاً، أصابتهما محن سياسية متشابهة، فكلاهما ضرب، وكلاهما شهر، وكلاهما أهين علناً، وكلاهما حبس.

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في ٥ نوفمبر سنة ١٩٢٤.

أما العرجي فقد حبس في مكة . وأما الأحوص فقد نفي إلى دَهْلَك . وكلاهما كان صاحب لهُو وعبث ، وكلاهما كان صاحب غزل وذكر للنساء . ولكن لهُو الأحوص كان أفحش من لهُو العرجي ، ولهُو العرجي كان أعنف من لهُو الأحوص ، وكما أن التشابه بين هذين الرجلين يرجع إلى مصدر واحد هو السياسة ، فكذلك الاختلاف بينهما يرجع إلى مصدر واحد هو السياسة أيضاً .

كان الشباب من أشرف مكة والمدينة مضطراً إلى هذا اليأس السياسي الذي ذكرته . ولكن هذا اليأس قد كان متفاوتاً أشدّ التفاوت ، بالقياس إلى شباب قريش وإلى شباب الأنصار . كان الملك في قريش ، وكان الشباب القرشي يستطيع أن يعتز بهذا الملك وإن أقصى عن مناصبه وحيل بينه وبين تصريف أموره . وكانت لهذا الشباب دالة على الخلفاء من أبناء أعمامهم ، وكان الخلفاء مضطرين إلى أن يصانعوهم ويرفقوا بهم تكريماً لصلة القرابة وللعصبيّة القرشية ، ومداراة لهذه الأطماع الخفية الظاهرة التي كانت توشك في كل وقت أن تنفجر فتدبل من دولة لأخرى .

أما شباب الأنصار فقد كان مضطراً إلى يأس مظلم شديد الظلام ليس له إلى الأمل من سبيل قريبة أو بعيدة . لم يكن قرشياً ، ولم يكن الخلفاء حاجة إلى إكرامه والرفق به ولا مداراته ومصانعته ، وإنما كانوا يخشونه ويكرهونه ويفتثون في ظلمه والقسوة عليه ، لا يخشون في ذلك حسيباً ولا رقيباً .

« منا أمير ومنكم أمير » كذلك قال الأنصار حين احتاج المسلمون إلى خليفة ، وكانوا مقتنعين بحقهم في الخلافة ، وكان كل شيء يبيح لهم هذا الاقتناع ، فلم يكونوا أقل بلاء في تأييد الإسلام من المهاجرين ، وربما كانوا أحسن بلاء من المهاجرين ، فهم آووا الإسلام ونزلوا للنبي وأصحابه من قريش عن ديارهم وأموالهم ، وبدلوا في نصر النبي وأصحابه من قريش نفوسهم ودماءهم . وعرف لهم النبي هذا كله ، فأخى بينهم وبين المهاجرين وآخى بين رجالهم ، حتى وجد بين الفريقين حلف أو شيء يشبه الحلف كان من الحق أن يكون أساساً للحياة الإسلامية المقبلة . ومن يدري لعل المسلمين لو قبلوا رأى الأنصار فأقاموا أميراً قرشياً وآخر أنصارياً لعصموا الإسلام من الفتن ، ولأقاموا خلافة دينية حقماً معتمدة على أساس من العدل ، معتزة بشيء من التوازن يحول

دون ظهور العصبية التي أحدثت ما أحدثت من الشرّ في تاريخ المسلمين .
 الأنصار يمانية ، وقريش مصرية . فلو استقام الأمر للأنصار والمهاجرين ،
 على أن يكون لكل من الفريقين أمير ، لأمكن إيجاد التوازن بين المصرية واليمنية
 من جهة ، ولقامت الخلافة المزدوجة على أساس صحيح من الدين يصرف عنها
 أطباع الطامعين ، ويؤخر استحالتها إلى ملك قيصريّ أو كسرويّ .

أكان المسلمون بعد موت النبي يجهلون النظام الروماني حقاً ؟ أم كانوا يعلمونه
 بعض العلم ؟ أما أنا فأرجح أنهم كانوا يلمون به إلاما ما . ولا أستطيع أن أفهم
 هذين المذهبين اللذين ظهرا في أول عهد المسلمين بالحياة السياسية إلا على أنهما
 محاولة لتقليد الرومان في حياتهم السياسية . فقد كان مذهب الأنصار أكثر ميلا
 إلى النظام الجمهوري القنصلي الذي كان في عصر رقيّ الجمهورية الرومانية ،
 يقوم على انتخاب قنصلين ، أحدهما يمثل الأرسوقراطية القديمة : أرسوقراطية
 المولد ، والآخر يمثل الأرسوقراطية الجديدة : أرسوقراطية الثروة والجد والعمل .
 وقد كان مذهب المهاجرين أكثر ميلا للنظام الإمبراطوري ، ولا سيما في
 العصر الأخير الذي كان يجمع السلطة كلها إلى الإمبراطور دون أن يجعله
 ملكا يورثه الملك أبناءه من بعده .

كان مذهب الأنصار أقرب إلى الديمقراطية من جهة ؛ لأنه كان يقوم
 على المساواة والعدل ، وكان أقرب إلى الشيوقراطية من جهة أخرى ؛ لأنه كان
 يكل أمور الدين إلى الذين اشتركوا في إقامة الدين وتأييده .
 أما مذهب المهاجرين فقد كان أقرب إلى الأرسوقراطية وإلى الحكومة
 المدنية معا .

ومهما يكن من شيء فقد فشلت دعوة الأنصار وحيل بينهم وبين الخلافة ،
 وانتصرت العصبية على الفكرة الديمقراطية الدينية ، وأجمع المسلمون أو كادوا
 يجمعون على هذا المذهب الغريب المتناقض الذي يجعل الخلافة وراثية أو غير
 وراثية : وراثية لأنها في قريش ، وغير وراثية لأنهم أبعدها عنها بنى هاشم .
 فشلت دعوة الأنصار ، وظهر الأنصار في ذلك مظهرا خليقا بالعطف
 والإعجاب ، فأذعنوا في غير ملل ولا ضيق صدر ، وطابت نفوسهم عن هذا
 الأمر الذي كان لهم فيه حق ظاهر . ولم يمض منهم في الإباء والمشادة إلا
 رجل واحد هو : سعد بن عبادة ، الذي قتله الجن فيما تزعم الأساطير ، والذي

قتلته السياسة غيلة في حقيقة الأمر ؛ لأن حياته كانت خطراً على النظام السياسي الجديد . وكان هذا الفشل الذي أصاب الأنصار أول عهدهم باليأس السياسي . ولكن الدهر كان يدخر لهم ألواناً أخرى من اليأس . فقد ظهر أنهم لم يجرموا الخلافة وحدها ، بل حرموا أن يكون لهم فيها رأى . وليس أدل على ذلك من عهد عمر بن الخطاب إلى أهل الشورى . فأنت ترى أن هؤلاء النفر الذين عهد إليهم عمر في اختيار الخليفة كانوا جميعاً من المهاجرين : عبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعثمان ، وعلى بن أبي طالب ، كلهم قرشي .

ومهما تكن الأسباب الدينية التي أذيعت يومئذ لتعليل هذا الاختيار ، فإن الحقيقة الواقعة تشهد بأن الأنصار أبعدوا عن الخلافة وعن المشورة في أمرها ، وأن الخلافة أصبحت شيئاً قرشياً خالصاً . ومع هذا فقد طابت نفس الأنصار عن المشورة في أمر الخلافة ، كما طابت أنفسهم عن الخلافة وأذعنوا لرأى الستة ؛ وكانوا ناصحين للخلفاء الراشدين جميعاً . ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم ، كانوا يحسون أنهم مبعدون عن الأمر إبعاداً ، فكان هواهم مع بني هاشم ، أليست قریش قد استأثرت بالأمر لأن النبي منها ؟ فلم لا يستأثر بنو هاشم بالأمر ، وهم أهل النبي ورهطه الأذنون !

على أن غيظ الأنصار لم يظهر حاداً إلا حين استحالت الخلافة الإسلامية إلى ملك قيصري أو كسروي ؛ وحين ظهر الميل من بني أمية إلى أن يستأثروا بالأمر وحدهم دون قریش ، وحين ظهر ميل معاوية إلى أن ينقل الأمر من بعده إلى ابنه يزيد .

في ذلك الوقت ظهر بخط الأنصار واضحاً جلياً ، وأحسه بنو أمية وأرادوا أن يتقوه باللين والعنف ، واستأجروا الشعراء لهجاء الأنصار . ولعلك تذكر هذه الحملة التي حملها عليهم الأخطل في قصيدته المشهورة التي يقول فيها :

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا وَاللُّؤْمُ تَحْتِ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ

ولعلك تذكر احتجاج النعمان بن بشير على هذا البيت عند معاوية واضطراب معاوية لهذا الاحتجاج .

ظهرت معارضة الأنصار ، ولكن معاوية استطاع أن ينتصر عليها كما

انتصر على غيرها من ألوان المعارضة أثناء حياته . فلما صار الأمر إلى ابنه يزيد ظهرت كل هذه المعارضات عنيفة قوية . فأما الأنصار فأنكروا هذه القيصرية ، وأما قريش فنازعت بنى أمية الأمر .

انتقض الأنصار في المدينة ، وانتقضت قريش في مكة بزعامه عبد الله ابن الزبير . وانتقض بنو هاشم في العراق بزعامه الحسين بن علي . واعتزم بنو أمية أن يقمعوا هذه المعارضات قمعا عنيفاً . ولكنهم أسرفوا في العنف بالأنصار وإرهاقهم إسرافاً اضطر كثيراً منهم إلى المهاجرة ، فتركوا بلاد العرب ومضوا إلى إفريقية ، وأخذوا يتبعون فيها الفتوح حتى انتهوا إلى الأندلس . واشتد الخلفاء وعمالمهم على من بقى منهم بالمدينة ؛ فقد كان العمال يأبون أن يتخذوا حرس المدينة وشرطتها من أهل المدينة أنفسهم ، وكانوا يتخذون الشرطة من الأعراب الذين لا تصلهم بالمدينة صلة ما . ويكفي أن تقرأ أخبار الشعراء والظرفاء من أهل المدينة ، وأخبار الولاة والعمال الذين كانوا يرسلون إلى المدينة ، لتستيقن أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يكرهون الأنصار كرها شديداً ، ويسرفون في إساءة الظن بهم ، ويأخذونهم من ضروب العنف والإذلال بما لم يكن يلائم قديمهم في تأييد الإسلام ، بل بما لم يكن يلائم مكانتهم من حيث هم مسلمون .

كانوا يجرمون شباب قريش مناصب الدولة ويمسكونهم في الحجاز ، كما كان قياصرة الرومان في أول الأمر يضيقون على شباب الأرستقراطية الرومانية ويمسكونهم في إيطاليا . ولكنهم كانوا يذلون شباب الأنصار إذلالاً ، فانصرف هذا الشباب عن السياسة وعن الحجد المألوف إلى اللهو أو إلى الفقه . وكان أهل المدينة ظرفاء وفقهاء ، فنفعوا الأدب العربي ونفعوا الإسلام نفسه في محنتهم ، كما نفعوه حين كانوا أعماء .

الآن تستطيع أن تفهم شيئين يوصف بهما الأحوص : أحدهما أنه كان كان شديد الكبرياء مزهواً على الناس ، مزدرباً لهم جميعاً ، بهجومهم ويسرف في هجائهم ، لا يفرق في ذلك بين قومه الأنصار وقريش وغير قريش . أما الأنصار فقد كان يزدرهم ويكره منهم الإذعان والخشوع . وأما قريش فقد كان يحقد عليهم وينقم منها ما هي فيه من سلطان وجبروت . وما أسرع ما اشتد تأثير ذلك في نفسه فأصبح سفيهاً سباباً بهجو حياً في الهجاء ! وقد انتهى به ذلك إلى أن كانت له حادثة ، أعتقد أن الناس لم يفهموها بعد على

وجهها . زعموا أنه كان عند سكينه بنت الحسين فأذن المؤذن ، فلما انتهى إلى قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » قالت سكينه : هذا جدى ، وفخرت بالنبي . ففاخرها الأحوص وذكر جده الذى حمته النحل من المشركين واحتمله السيل حتى لا يصلوا إليه ، وذكر خاله الذى غسلته الملائكة . قالوا : وغضبت سكينه وغضبت غيرها وكفروا الأحوص . واتخذ بنو أمية هذا وغيره وسيلة إلى إهانتة ونفيه . وقد أراد سوء الحظ ألا تبقى من هذه القصيدة إلا هذه الأبيات القليلة :

فَخَرَّتْ وَانْتَمَتْ فَقُلْتُ ذَرِينِي لَيْسَ جَهْلٌ أَتَيْتَهُ بِيَدِيْعِ
فَأَنَا ابْنُ الَّذِي حَمَتْ لَحْمَهُ الدَّبَّ رُقَيْلُ اللَّحْيَانِ يَوْمَ الرَّجِيْعِ
غَسَلَتْ خَالِي الْمَلَائِكَةُ الْأَبْر رَارُ مَيْتًا طُوبَى لَهُ مِنْ صَرِيْعِ

لم يكن الأحوص مجنوناً ولا سخيلاً ، ولم يكن يريد أن يفاخر سكينه ولا أن يضع جده وخاله بإزاء النبي ، وإنما كان رجلاً بائساً محزوناً يريد أن يقول لسكينه : فيم هذا الفخر والأمر في هذه الأيام لقوم آخرين لم يبلوا في الدين بلاء حسناً ؟ فيم هذا الفخر ؟ وهل عصمكم اتصالكم بالنبي من هذه المنكرات التى جناها عليكم بنو أمية ؟ وهل حقن دماءكم ورد إليكم أمركم ؟ ولم نذكر قديماً ونحن نرى أبناء النبي وأبناء أصحابه وأنصاره يزدرون ويسامون ألوان الحسف ؟! لم يرد أن يفاخر سكينه ، وإنما رثى لها ولنفسه وأمثالها ، وهجا بنى أمية . إذن فلم يكفر ولم يتجاوز حدود الأدب والدين ، وإنما كان شاعراً سياسياً ، لا أكثر ولا أقل .

هذه الأبيات التى أفهمها على هذا الوجه تمثل نفسية الأحوص ، كما تمثل نفسية الشباب الأنصارى والقرشى ذلك الوقت . وهى تفسر لنا هذا الشيء الثانى الذى كان يوصف به الأحوص ، وهو الإسراف فى اللهو والاندفاع فى المجون إلى غير حد .

لا ينبغى أن تطلب إلى الناس جميعاً أن يكونوا أصحاب زهد ونسك ودين . ولا ينبغى أن تطلب إليهم جميعاً أن يكونوا من قوة الإرادة بحيث يقاومون اليأس ويحتنبون آثاره المؤلمة .

كان الأحوص رجلاً كغيره من الناس يطمع فيما يطمع فيه أمثاله . فلما رأى أن أبناء المهاجرين والأنصار قد حرموا ثمرة جهاد آبائهم ، وعمولوا معاملة الأسرى والمجبرين ، وانتفع غيرهم بهذا الدين الذي أقاموه ، وبهذا الملك الذي شيده ، حقد فأنكر الناس ، ثم انتهى إلى إنكار الدين نفسه ، ثم لها عن الناس ودينهم وشؤونهم المختلفة بهذه اللذات المنكرة التي كان يتهالك عليها تهالكاً شديداً . وأنا أصدق أنه قال تلك الحملة المنكرة ، التي أخجل أن أرويها في هذا الحديث ، والتي تمثل نفساً فاجرة حقاً لا تحفل بأدب ولا مروءة ولا دين .

كان الأحوص فاجراً بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة ، كان يشرب ويسرف في الشرب ، وكان يحب النساء والغلمان ، وكان يحب شيئاً آخر غير هذا ، وكان بنو أمية معذورين في القسوة عليه وأخذوه بما أخذوه به من شدة ، فينبغي أن نلاحظ أنه ضرب وأهين ونفى أيام سليمان بن عبد الملك . فلما جاء عمر بن عبد العزيز ، وهو رجل عدل منصف صالح ، أتى أن يسمع للأنصار وأمسه في نفيه حتى أطلقه يزيد بن عبد الملك ، لأسباب سياسية سترها بعد حين . ولكني أروي لك قصتين : إحداهما تمثل حلم الوليد بن عبد الملك وتغاضيه عن زلات الأحوص ، والأخرى تمثل رأى عمر بن عبد العزيز فيه . تحدثوا أن الأحوص وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه وأعزّ مكانه وأنزله عنده ، ولكن الأحوص كان يراود غلمان الوليد الحجازيين عن أنفسهم ، ثم أشفق أن يظهر ذلك ، فدرس وكاد لضيف آخر من ضيوف الوليد — هو شعيب بن عبد الله بن عمرو بن العاص — ثم ظهرت جلية الأمر للوليد فغضب على الأحوص وأقصاه ، ولكنه لم يضربه ولم يهينه كما فعل أخوه سليمان . أما رأى عمر بن عبد العزيز فيه فأنقله لك حرفياً من الأغاني : « أتى رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلّموه فيه وسألوه أن يُقدّمه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ، وقد أخرج إلى أرض الشوك ، فنطلب منك أن تردّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ؛ فقال لهم عمر : فمن الذي يقول :

فما هوَ إلاّ أن أراها فُجاءةً فابّهتَ حتى ما أكادُ أُحيبُ

قالوا : الأحوص . فقال : من الذى يقول :

أُدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَثْيَاتِكُمْ مَا دَرْتُ حَيْثُ أَدُورُ
وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنَّ ذَا الْهَوَى إِذَا لَمْ يُزَرَ لَا بَدَّ أَنْ سَيَزُورُ

قالوا : الأحوص . فقال : فمن الذى يقول :

كَانَ لُبْنَى صَبِيرُ غَادِيَةٍ أَوْ دُمَيْةٌ زَيْدَتْ بِهَا الْبَيْعُ
اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْمِهَا يَفِرُّ مِنِّي بِهَا وَأَتَّبِعُ

قالوا : الأحوص . قال : بل الله بين قيمها وبينه . فمن الذى يقول :

سَتَّبَعْتَنِي لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ

قالوا : الأحوص . قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أرده ما كان

لى سلطان .

ولعلك تريد أن تعلم فيمُ عذَّبَ وفيمُ نفي ؟ وليس علم ذلك بالعسير . فقد كان أمره كأمر العرجى سواء بسوء ، كان العرجى عنيماً فاجراً كارها للحكومة هجاء لعامل الخليفة على مكة ، وكان الأحوص فاسقاً ماجناً مخنثاً ، كما سماه عبد الملك بن مروان ، وكان يهجو أشراف الأنصار وقريش ويتغزل بنسائهم ، وكان هذا هو السبب الحقيقي في أنه كان يكره ابن حزم عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ويهجو هجاء صريحاً قبيحاً . فلست أشك في أن هذا الوالى حرّض الناس على الأحوص ، فشكوه اليه وطلبوا منه أن يكتب فيه إلى سليمان ففعل . وكان سليمان شديد الغيرة يكره الغرلين والمغنين ، وأمره مع ظرفاء المدينة مشهور ، فكتب إلى عامله أن يضرب الأحوص ويشهره ، وقيمته للناس في السوق ، ويصبّ على رأسه الزيت ، وينفيه إلى دهلك . وكان موقف الأحوص في هذه المحنة كموقف العرجى جلدناً وصبراً وعزة نفس . وانظر إلى هذه الأبيات التي كان يصيح بها وهو يشهر في السوق :

مَا مِنْ مُصِيبَةٍ نَكَبْتَهُ أُمْنَى بِهَا إِلَّا تُعْظَمُنِي وَتَرْفَعُ شَانِي
وَتَزُولُ حِينَ تَزُولُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ تُحْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ

إِنِّي إِذَا خَرَيْتُ اللَّثَامُ رَأَيْتَنِي كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ

وانظر إلى هذا الشعر يهجو به الوالى :

أَقُولُ وَأَبْصَرْتُ أَبْنَ حَزْمِ بْنِ فَرْتَنِي وَوَقُوفًا لَهُ بِالْمَأْزَمِينَ الْقَبَائِلُ
تُرَى فَرْتَنِي كَانَتْ بِمَا بَلَغَ أَبْنُهَا مُصَدِّقَةً لَوْ قَالَ ذَلِكَ قَائِلُ

وانظر إلى هذا الشعر يقول لسلمان بن عبد الملك فى غير تردد ولا وجل :

سَلِيَانُ إِذْ وَلَاكَ رَبُّكَ حُكْمَنَا وَسُلْطَانَنَا فَأَحْكُمْ إِذَا قُلْتَ وَأَعْدِلْ
يَوْمَ حَجِيحِ الْمُسْلِمِينَ ابْنُ فَرْتَنِي فَهَبْ ذَاكَ حَجًّا لَيْسَ بِالْمَقْبَلِ

وهجاؤه لابن حزم ونعيه على سليمان كثير . ولا تنس أنه كان ثقيلا على قومه ، يتخذ هجاءهم وسيلة إلى اللهو والعبث ، ويتخذ نساءهم موضوعا للغزل ، يعفّ فيه حيناً ، ويفحش فيه حيناً آخر . فلما ولى الأمر يزيد بن عبد الملك عفا عنه وأكرمه وأحسن صلته . ويقول الرواة : إنه فعل ذلك لأبيات قالها الأحوص فيه ودسها إلى جاريتة حبابة ، فغنته إياها ذات ليلة فطرب وأطلق الأحوص . وليس من شك فى أن الأحوص استعطف عمر بن عبد العزيز ، واستعطف يزيد بن عبد الملك . ولكن سيرة يزيد فى أمر الأحوص كانت كسيرة الوليد ابن يزيد فى أمر العرجى . انتقم الوليد للعرجى ، لا حباً فيه بل نكايه بآل هشام بن عبد الملك ، وانتقم يزيد للأحوص ، لا حباً فيه بل نكايه بابن حزم وانتقاما لنفسه .

حج يزيد بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد ، فتزوج فى حجه هذا فتاة هاشمية هى بنت عون بن محمد بن على بن أبى طالب ، وأمهرها مالا كثيرا . وبلغ الأمر الوليد ، فغضب وكتب إلى ابن حزم أن ينقض هذا الزواج ويسترد المال من عون ، فإن رده فذاك ، وإلا فليضربه بالسياط حتى يؤدى إليه هذا المال . وأنفذ الوالى أمر الخليفة بمحضر يزيد . فلما آلت الخلافة إلى يزيد انتقم لنفسه من ابن حزم هذا ، ونقض جميع أعماله ، ومنها نفي الأحوص . وإذا صحت أخبار الرواة فإن الأحوص لم يتنفع بهذه الفرصة ، لأن الظرف أخطأه ،

وملكه حب الانتقام فأهان الخليفة من حيث لا يريد .

قالوا : أمر يزيد أن يحمل إليه الأحوص وابن حزم ؛ فلما بلغا دمشق أذن يزيد للأحوص وظل ابن حزم بالباب ، فلما دخل الأحوص على الخليفة قال : يا أمير المؤمنين هذا ابن حزم الذى سفه رأيك وفسخ نكاحك ؛ فغضب يزيد وقال : كذبت عليك لعنة الله ! كسروا أنفه ؛ فأخرج ذليلاً .

ويظهر أن الأحوص أدركه الطمع فى آخر أيامه وأراد أن يكون مقرباً من يزيد ، فوقف موقفاً آخر لم يشرفه ولم يجن له إلا شراً .

لما قتل يزيد بن المهلب أراد يزيد بن عبد الملك أن يقول الشعراء شعراً فى هجاء آل المهلب ، فاعتذر أكثر الشعراء لأنهم كانوا مدحوا آل المهلب ، فكرهوا أن يكذبوا أنفسهم بهجائهم أثناء الخنة ، ولشد ما أحب أن يقرأ هذا قوم ! ما الأحوص فأجاب وهجا آل المهلب ، ثم كانت منه رحلة إلى فارس حيث العصبية لآل المهلب قوية ، فاحتاط الولى حتى دس إليه نفراً دخلوا عليه ومعهم زق من الخمر ، فصبوه على رأسه ثم قادوه إلى الولى فأنفذ فيه الحد ؛ وجعل يقول الأحوص : ما هكذا تقام الحدود ؟ فيجيبه الولى : نعم ولكن لما تعلم . ثم كتب الولى إلى يزيد معتذراً ، فاضطر يزيد إلى أن يقبل العذر لقوته العصبية الإيرانية فى فارس .

أظنك استطعت الآن أن تتمثل شخصية الأحوص ، وأظننا نستطيع أن نلخص هذه الشخصية فى أنه كان رجلاً ساخطاً ، واضطره السخط إلى الإسراف فى اللهو والفجور والسفه ، جعل للسلطان على نفسه سبيلاً . كان معذوراً فى إسرافه ، وكان السلطان معذوراً فى معاقبته .

ولكنى لم أحدثك إلى الآن عن شخصيته الشعرية ، وهى عزيمة جداً لم ينكرها عليه أحد ، حتى من أشد الناس بغضاً له وحنطاً عليه . لقد اضطرب أبو الفرج إلى أن يشيد بمكانته الشعرية مرتين ، ولقد أبى الفرزدق وجريير أن يهجواه مخافة لسانه ، ولقد كان أشرف الناس يتقونه بالملاطفة حيناً ، وبالذير العنيف حيناً آخر ، ولقد أقسم بعض آل الزبير بمحرجات الأيمان ليقتلنه إن هجا زبيرياً بشعر قليل أو كثير .

كان الأحوص غزلاً ولكنه كان مفتنّاً فى ضروب الشعر كلها ، له الفخر الرائع ، والمدح البديع ، والهجاء المقذع ؛ وذلك لأنه لم يكن متكلفاً ولا محتشماً ،

وإنما كان يرسل نفسه على سبيلها ، وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر ، فكان يكفي أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد .

كان حلو اللفظ متينه ، قوى الأسلوب رصينه ؛ يبلغ الإجادة اللفظية في غير تكلف ولا مشقة ، ولم يكن كغيره من الغزلين المكيين يعنى بالمعنى ويستخف بالألفاظ ، وإنما كان حريصاً على التجويد في لفظه ومعناه جميعاً .

كان إذا أراد وفياً حسن الحديث إلى من يجب ، ولكنه كان عابثاً أيضاً ، وكان يلهو بالغزل كما يلهو بالهجاء ، فكان يكذب على نساء الأنصار فيحرجهن ، ويخرج أزواجهن .

زعموا أنه أسرف في ذكر أم جعفر ، وهي أنصارية عفيفة ، فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو في جماعة من قومه ، فقالت له : اقضني ثمن الغنم التي اشتريتها مني . فأنكر ذلك ، وألحت وصدقتها الناس ، وأخذ هو يخلف ما رآها ولا يعرفها ؛ فكشفت عن وجهها وأصر هو على إنكاره ، وقد اجتمع حولها الناس ؛ فلما بالغ في الإنكار قالت أم جعفر : صدقت : يا عدو الله ! والله ما أعرفك وما تعرفني ، ولكنك تذكرني في شعرك فتقول : قالت لي أم جعفر ، وقلت لها ، ويشيع ذلك في الناس ؛ فخجل الأحوص .

ولست أريد أن أسرف في الإطالة أكثر مما أسرفت ، فلأرو لك هذه القصيدة في شعر الأحوص ، فهي تعطيك صورة من سهولة لفظه ومعناه في جودة ومثانة :

عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجَارَةُ الْجَنْبِ	ثِنْتَانِ لَا أَذْنُو لَوْضَاهِمَا
وَالجَارُ أَوْصَانِي بِهِ رَبِّي	أَمَّا الْخَلِيلُ فَلَسْتُ فَاجِعَهُ
بَعْضَ الْحَدِيثِ ، مَطِيئِكُمْ صَحْبِي	عُوجُوا كَذَا تَذَكُرْ لِعَانِيَةِ
نُذْنِبُ بَلْ أَنْتِ بَدَأْتِ بِالذَّنْبِ	وَتَقُلْ لَهَا فِيمَ الصُّدُودُ وَلَمْ
مِنَّا بِدَارِ السَّهْلِ وَالرَّحْبِ	إِنْ تَقْبِلِي نُقْبِلْ وَنُنزِلْكُمْ
وَأُصَدِّعِي مُتَلَاتِمَ الشَّعْبِ	أَوْ تَذِيرِي تَكْدُرْ مَعِيشَتَنَا

فانظر إلى هذا الماغن الفاجر كيف عفا في هذه الأبيات عن الجارة
وعرس الخليل ! وكيف أحسن الحديث إلى صاحبه في ظرف ورفق وصفاء
طبع ! وانظر إلى قوله « عوجوا كذا » وإلى موضع « كذا » من هذا البيت ،
فهو يختصر الظرف الحجازي كله .
وأنا أوصيك بكل ما قال الأحوص في أم جعفر ، فهو على قلته كثير الغناء .

الغزلون (١)

يزيد بن الطثرية

وكذلك لا أحدثك اليوم عن زعيم الغزلين من أهل الحجاز عمر بن أبي ربيعة ، لأنى أريد أن أستقصى الغزلين ما استطعت إلى هذا الاستقصاء سبيلاً ، ليكون البحث عنهم تاماً مستوفى ، وإذن فلا بد من أن أحدثك عن رجلين ممتازين ، يمتاز أحدهما بأنه يشخص البيئة التي كان يعيش فيها تشخيصاً صحيحاً لذيذاً ممتعاً ، وهو يزيد بن الطثرية . ويمتاز الآخر بأنه كان غزلاً متكلفاً لا يعشق أحداً ولا يعشقه أحد ، وهو مع ذلك متقن للغزل بارع فيه ، وهو : كُثَيِّر .

وليكن يزيد بن الطثرية موضوع حديثنا اليوم . وإن لدى لشيئاً كثيراً أريد أن أذكره عن يزيد بن الطثرية ، ولكنى سأكون في هذا الحديث ناقلاً أكثر منى كاتباً ؛ فنحن بإزاء قصة غرامية ، وإن شئت فقل بإزاء سيرة غرامية بارعة رائعة في لفظها وفي معناها وفي نتائجها ، والخير كل الخير ألا تشوه هذه القصة بالتخليص والتحليل ، وأن نعرض منها عليك ما نستطيع عرضه ، فستجد فيها لذة ونفعا .

ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لسنا بإزاء شاعر من أشرف مكة أو المدينة من أولئك الذين بلأوا إلى الغزل واللهو، حين حالت السياسة بينهم وبين الجدل والعمل . وإذاً فلن نلتمس تفسير شعره وغزله في الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين أيام بنى أمية . ولسنا بإزاء شاعر من أهل البادية الحجازية التي وصفنا حالها في فصولنا الماضية وعرفنا أن غزلها لم يكن لهواً ولا عبثاً ، وإنما كان طموحاً إلى المثل الأعلى المعنوى ؛ مصدرى اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها .

(١) نشرت بمجريدة «السياسة» في ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٢٤ .

لسنا بإزاء شاعر من حاضرة الحجاز ولا من باديته ، وإنما نحن بإزاء رجل آخر بعيد كل البعد عن السياسة وتأثيرها . بل نستطيع أن نقول إنه شديد الاتصال بالحياة البدوية الخالصة التي لم تكد تعرف من الإسلام إلا أنه دين يأخذ الناس بالصلاة والزكاة ، وبواجبات أخرى مادية ثقيلة على هؤلاء الناس الذين عاشوا أحراراً وكانوا يودون لو يعيشون أحراراً .

لم يتصل صاحبنا هذا بالحجاز ولا بالحجازيين ، ولم يعرف ما كان فيه الحجاز وأهله من لُهو ويأس ، كما أنه لم يتصل بالشام ولا بما كان فيه من ضخامة السلطان الأموي ، ولا بما كان يحيط بهذا السلطان من كيد ودس ، ولا بما كان يصدر عن هذا السلطان من بأس وانتقام ، كما أنه لم يتصل بالعراق وما كان فيه من هذه المذاهب السياسية والدينية المختلفة التي كانت تنشأ وتصطدم في الكوفة والبصرة .

لم يتصل بشيء من هذا كله . ونستطيع أن نقول : إنه لم يعلم بشيء من هذا كله ، ولم يفترض له وجوداً . وإذاً فهو لم يتأثر به في شعره ولا في حياته ، ولم يصدر في هذه الحياة ولا في ذلك الشعر إلا عن بدواته الخالصة وطبيعته الصريحة .

على أن هذه البداوة نفسها تأثرت بشيئين مختلفين : تأثرت بالإسلام فسهلت بعد شدة ، ولانت بعد عنف ، وصفت بعد غلظة ، ثم تأثرت في العصر الذي كان يعيش فيه صاحبنا بانتقاض الأمر على بني أمية واضطراب سلطانهم ، وضعف الحكومة المركزية عن أخذ أهل البادية بالطاعة والإذعان للنظام ، فعادوا إلى ما كانوا فيه أو إلى شيء يشبه ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وظهرت بينهم الخصومات وألوان العداة ، فأخذوا فيما كانوا فيه في أثناء العصر الجاهلي من غزو وغارة ، ومن حرب وجهاد متصل . ولا ينبغي أن ننسى أن صاحبنا قد قتل في غزوة من هذه الغزوات أول عهد بني العباس .

هو إذاً يمثل نوعاً آخر من أنواع الغزليين ، يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة في بدواتها الذين كانوا يحيون حياة حرة طليقة لا تكاد تتأثر بشيء خارجي ، وإنما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسله . وليس من شك في أن هؤلاء الفتيان قد كانوا كثيرين جداً ، وفي أن حياتهم كانت خليقة بالبحث والدرس والعناية ، لأنها تمثل لنا حياة البادية العربية الحرة في العصر الإسلامي

من جهة ، وتعيننا على تصور العصر الجاهلى بوجه ما من جهة أخرى . ولكن الرواة شغلوا عن هؤلاء الفتيان بفحول الشعراء وزعمائهم فى العراق والشام والحجاز ، ولم يكادوا يعنون بأهل البادية من هذه الناحية . وكل عنايتهم بالبادية انحصرت أو كادت تنحصر فى أخذ اللغة عن أهلها ، ورواية شئ عنها من غريب الشعر والرجز . فأما حياة فتيانها وكهولها وفتياتها ونسائها فقد انصرف الرواة عنها انصرافاً تاماً .

وماذا كان يعنى الرواة من أمر هذه البادية وأهلها ، وهى بعيدة كل البعد عن أن تؤثر فى الحياة العامة بوجه من الوجوه ، وهى منقطعة إلى حياتها البدوية منغمسة فيها ، لا تكاد تشعر بأن فى الوجود شيئاً آخر غيرها ! أضف إلى هذا أن الرواة كانوا يؤثرون من غير شك أن يحيا فى هذه البلاد السهلة الغنية التى يجدون فيها من اليسر واللين ما يسهل عليهم الحياة ويتيح لهم ما يطلبون من رواية الشعر وتدوين التاريخ .

فقليل جداً من هؤلاء الرواة من كان يجتنب الحجاز والعراق والشام ليقذف بنفسه فى صحارى البلاد العربية ويخالط أحياء هذه الصحارى . ومن هنا ضاعت علينا حياة البادية العربية الإسلامية ، وضاع علينا قسم عظيم جداً من الأدب العربى ، لعله لم يكن أقل ثروة ولا خصباً ولا روعة مما حفظنا .

على أن حياة هذا الفتى العربى البدوى ، الذى نتحدث عنه اليوم ، تعطينا صورة من هذا الأدب ، إن لم تكن قوية مفصلة ، فهى واضحة بعض الوضوح صادقة أشد الصدق .

لم يكن يزيد بن الطثرية غزلاً ليس غير ، وإنما كان فتى من فتيان العرب بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى إنه كان يحيا حياة لهو وعبث وفخر وغزو وكرم وهجاء . كان يستمتع بقوته وشبابه وطبيعته الحرة الطلقة ، فيأنس إلى الحياة ولذاتها فى غير تكلف ولا تصنع ولا استتار . وكان يستمتع بهذه الحياة استمتاعاً طبيعياً ساذجاً لم تفسده الحضارة ولم تكدر صفوه .

ومن هنا لم يكن فاحش اللفظ ولا منكر السيرة . ولست تجد فيما حفظ لنا من شعره وسيرته شيئاً تكرهه ، إلا حواراً واحداً وقع بينه وبين امرأة من أهل البادية لم يخل من تصريح تمقته أذواقنا الخلقية ، ولكنه يضحكنا ويلذنا من الوجهة الأدبية الخالصة .

كان يزيد بن الطثرية من بني قشير من قيس عيلان ، وكان حيه يقيمون في بادية اليمامة . ويقال إن الطثرية هي وإن كانت يمانية من بني جرم ، فلأنها تنهى إلى طيء . وإذا فقد اجتمعت في صاحبنا شدة المضربة وسهولة اليمانية . وكان يزيد من أجمل الناس وجها ، وأحسنهم صورة ، وأرقهم لفظاً وأعذبهم حديثاً ، وكان فتاناً للنساء مفتوناً بهن ، والغريب من أمره أنه كان يفتن النساء ويفتن بهن ، ، وأن الطبيعة أرادت أن تكون الصلة بينه وبينهن أفلاطونية خالصة ، ولم يمنعه ذلك من أن يعشق ، ومن أن يؤله العشق ويرح به ويحشمه خطوباً وأهوالاً .

على أن الذى يعنينا من أمر يزيد بن الطثرية ليس هو يزيد وإنما هي الصلة بين رجال البادية ونسائها ، هذه الصلة التى يظهر أنها كانت تختلف اختلافاً شديداً باختلاف القبائل والأحياء . وقد قلت في أول هذا الفصل : إنى سأكون ناقلاً أكثر منى كاتباً في هذا الحديث ، فلأترك للرواة أن يحدثوك بشيء من خبر يزيد ، وأنا أحب أن تنظر إلى هذا الحديث نظر عناية وتدبر في اللفظ والمعنى جميعاً .

« . . . وأن الناس أمحلوا حتى ذهبت الدقيقة من المال ، وتمتكت الحيلة ، فأقبل صرم من جرم ساقته السنة والجذب من بلاده إلى بلاد بني قشير ، وكانت بينهم وبين بني قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بداً من رمي قشير بأنفسهم لما قد ساقهم من الجذب والحجاعة ودقة الأموال وما أشرفوا عليه من الهلكة ، ووقع الربيع في بلاد بني قشير ، فانتجعها الناس وطلبوها ، فلم يعد أن لقيت جرم قشيراً ، فنصبت قشير لهم الحرب ، فقالت جرم : إنما جئنا مستجيرين غير محاربين ؛ قالوا : ماذا ؟ قالوا من السنة والجذب والهلكة التى لا باقية لها . فأجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفاً من بلادها . وكان في جرم فتى يقال له ميثاد ، وكان غزلاً حسن الوجه تام القامة آخذاً بقلوب النساء . والغزل في جرم جائز حسن ، وهو في قشير نائرة . فلما نازلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح ميثاد الجرمي فغدا إلى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث ، واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعى وما أشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ؛ وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقالت عجائز منهن : والله ما ندرى أرعيم جرم المرعى أم أرعيموهم نساءكم !

فاشتم ذلك عليهم فقالوا : وما أدراكُشَّه ؟ قلن : رجل منذ اليوم ظلُّ مُحْجَرًا لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ! فقال بعضهم : بَيِّتُوا جرما فاصطلموها ، وقال بعضهم : قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم ، وأرعيتموهم مراعيكم وخلطتموهم بأنفسكم ، وأجرتموهم من القحط والسنة ، تفتنون عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا ، ولكن تصبحوا وتقدّموا إلى هؤلاء القوم في هذا الرجل فإنه سفیه من سفهائهم ، فليأخذوا على يديه ؛ فإن يفعلوا فأتّموا لهم إحسانكم ، وإن يمتنعوا ويقرّوا ما كان منه يحلّ لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم . فأجمعوا على ذلك ، فلما أصبحوا غدا نقر منهم إلى جرم فقالوا : ما هذه البدعة التي قد جاورتونا بها ؟ إن كانت هذه البدعة بحية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، فبرّزوا عنا أنفسكم وأذنوا بحرب ، وإن كان افتياتا فغيروا على من فعله ، وإنهم لم يعدوا أن قالوا بلحرم ذلك ، فقام رجال من جرم وقالوا : ما هذا الذي نالكم ؟ قالوا : رجل منكم أمس ظل يجر أذباله بين آياتنا ما ندرى علام كان أمره ! فقهرته جرم من جفاء القشيريين وعجرفيتها ، وقالوا : إنكم لتحسون من نساءكم ببلاء ، ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجلا ورجلا . فقالوا : والله ما نحس من نساتنا ببلاء ، وما نعرف منهن إلا العفة والكرم ولكن فيكم الذي قلتم . قالوا : فإننا نبعث رجلا إلى بيوتكم يا بني قشير إذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلا إلى البيوت ، وتحالف أنه لا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشيء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما في بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشيئاً الماء ، وتخلي لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا تصادق منهما واحداً فيقبل منهما صرفاً ولا عدلاً إلا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها ، قالوا : اللهم نعم . فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من الغد غدوا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعود إلى البيوت منهم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمي إلى القشيريات ، وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى إلى الحرميات ، فظل عندهن بأكرم مظلّل لا يصير إلى واحدة منهن إلا افتتنت به وتابعته إلى المودة والإخاء ، وقبض منها رهنا وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيتها ، فيقول لها : وأى شيء تخافين وقد أخذت مني الموائيق والعهود وليس لأحد من قلبي نصيب غيرك ! حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بفتسخ كثير وبراقع ، وانصرف مدهوناً مكحولاً

شبعان ريان، مَرْجَلِ اللَّمَّةِ . وظل مياد الجرمي يدور بين بيوت القشريات مرجوما مقصيًّا لا يتقرب إلى بيت إلا استقبلته الولائد بالعمد والحنذل . فتهالك هُنَّ وظن أنه ارتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالحنذل ، ورأى اليأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء إلى سمرة قريباً إلى نصف النهار . فتوسد يده ونام تحته نومه حتى أفرجت عنه الظهيرة وفاءت الأظلال ، وسكن بعض ما به من ألم الضرب وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب إلى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تذود غمها في بعض الظعن ، فأخذ برقعها وقال : هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدي القوم ، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فرُدَّ عليها ، وخجل مياد خجلا شديداً . وجاء يزيد مسياً وقد كاد القوم أن يتفرقوا فنثر كفه بين أيديهم ملآن براقع وفتخاً . وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه ، فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم وأمسكوا بأيديهم إمساكة . فقالت قشير : أتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده ؛ فبسط كل رجل يده إلى ما عرف فأخذه وتفرقوا عن حرب ، وقالوا : هذه مكيدة يا قشير . فقال في ذلك يزيد بن الطرية :

فَإِنْ شِئْتَ يَا مِيَادُ زُرْنَا وَرُرْتُمْ وَلَمْ تَنْفَسِ الدُّنْيَا عَلَى مَنْ يُصِيْبُهَا
أَيْذْهَبُ مِيَادُ بِالْبَابِ نِسْوَتِي وَنِسْوَةُ مِيَادٍ صَحِيحٌ قُلُوبُهَا

فقال مياد الجرمي :

لَعَمْرُكَ إِنَّ جَمَعَ بَنِي قُشَيْرٍ جَزَمَ فِي يَزِيدَ لَطَالِمُونَا
أَلَيْسَ الظُّلْمُ أَنَّ أَبَاكَ مِنَّا وَأَنَّكَ فِي كِتَابَةِ آخِرِنَا
أَحَالِفَةُ عَلَيْكَ بَنُو قُشَيْرٍ يَمِينُ الصَّبْرِ أُمُّ مُتَحَرِّجُونَا

ليس لدى من الوقت ولا من المكان ما يمكنني من شرح هذه القصة والتعليق على ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ، فكل ذلك محتاج إلى شرح ، وكل ذلك محتاج إلى تفسير . ولكنني أسرع فأقول : إني لا أقبل هذه القصة على علاقتها ، ولا أصدق ما فيها من تفسير . وأكاد أرجح أن فيها كذباً ونحلاً

مصدره العصبية المضرية .

ولكن هذه القصة في جملتها تمثل شيئاً خليقاً بالعبادة ، وهو أن الصلة بين الرجال والنساء كانت سهلة ميسورة مستحبة في الإمانية ، وكانت عسيرة ممقوته في المضرية ، كما أنها تثبت شيئاً آخر وهو أن يزيد بن الطثرية قد كانت بينه وبين النساء الجرميات صلة ما .

على أننا لسنا في حاجة إلى هذه القصة لنثبت أن يزيد كان على اتصال بالجرميات ، فإن حياة يزيد وشعره يثبتان ذلك إثباتاً لا شك فيه .

ليس من شك في أن الجذب قد اضطرب بنى جرم إلى جوار بنى قشير ، وفي أن الصلة اشتدت بين يزيد وبين الجرميات أو بينه وبين امرأة بعينها من الجرميات يقال لها وحشية ، فكان بينهما حباً ومودة . ونشأت عن هذا الحب قصة كالقصص التي نشأت عن حب جميل وبثينة ، وعن حب قيس بن ذريح ولبنى ، تمتاز بكل ما تمتاز به هذه القصص ، ففيها مرض العاشق وإشرافه على الموت ويأس الأطباء منه ، وفيها احتيال هذا العاشق في زيارات صاحبه واختلاسه هذه الزيارات وتكلفه الأعاجيب ، بل فيها أن يزيد احتال في زيارة صاحبه مرة فراح عليها بين الغم يمشى على أربع ، وقد اتخذ من اللباس ما يقرب الشبه بينه وبين الكباش . وفيها هذه الخصلة الأخرى التي تمتاز بها هذه القصص ، وهي استعداد الحكومة على العاشق وتدخّل السلطان في هذه الأمور الغرامية الخالصة . ولكن الذي نستطيع أن نصدقه من كل هذه القصة هو أن يزيد قد عشق وحشية وعشفته وحشية أيضاً ، وكان بينهما تزاور ، فغضب لذلك « فديك » الجرمي وهو زعيم أسرة وحشية هذه ، وأنذر نساء أسرته إنذاراً شديداً وخوفهن الموت ، فاستل سيفه وضرب به بين أيديهن غلاماً له ترويعاً لمن وتخويفاً . ولكن وحشية لم تخف ولم يأخذها الروع ، فاتصلت المواعيد بينها وبين يزيد ، وعرف ذلك فديك فاتخذ زبية وأضرم فيها ناراً خفيفة وانتظر حتى خرجت وحشية للقاء صاحبها ، فسقطت في الزبية واحترقت رجلها ، وأخذها غلمان فديك فردوها إلى بيتها . ونشأ الهجاء بين فديك ويزيد ؛ فقال فديك :

شَفَى النَّفْسَ مِنْ وَحْشِيَّةِ الْيَوْمِ أَمَّهَا تَهَادَى وَقَدْ كَانَتْ سَرِيحاً عَنِيقَهَا

فَالَا تَدْعُ حَبِطَ الْمَوَارِدِ فِي الدُّجَى
دَوَاهِ طَيِّبٍ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ
تَكُنْ قَمْنَاً مِنْ غَشِيَةِ لَا تَفِيْقُهَا
يُدَاوِي الْمَجَانِينَ الْمَخْلَى طَرِيقَهَا
فأجاب يزيد :

سَتَبْرَأُ مِنْ بَعْدِ الضَّمَانَةِ رِجْلُهَا
عَلَى هَدَايَا الْبُدْنِ إِنْ لَمْ الْأَقِيهَا
وَتَأْتِي الَّذِي تَهْوَى مَخْلَى طَرِيقَهَا
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا فُذَيْكَ بِسُوقِهَا
وَقَدْ ذَهَبَتْ فِيهَا الْكَبَّاسُ وَحُوقِهَا
رَأَتْ مِنْ بَنِي كَعْبٍ غُلَامًا يَرُوقِهَا
تُذِيْقُونَهَا شَيْئًا مِنَ النَّارِ كَلِمَا
وقال يزيد أيضاً :

يَا سُخْنَةَ الْعَيْنِ لِلْجَرْمِ إِذْ جَمَعَتْ
خُبْرُهُمْ عَذَّبُوا بِالنَّارِ جَارَتَهُمْ
يَبْسِي وَبَيْنَ مَرَارٍ وَخَشَةِ الدَّارِ
وَمَنْ يُعَذَّبُ غَيْرَ اللَّهِ بِالنَّارِ

ويظهر أن الأمر اشتد بين يزيد وفديك فاستعدى عليه صاحب الإمامة .
ولكن تدخل السلطان في هذا الحب لم يكن كتدخله في حب جميل وقيس
ابن ذريح ، فلم يهدر دمه ولم ينفه من الأرض ، وإنما تقدم إلى أخيه في
تأديبه ، وكان له أخ يسمى ثوراً - سنعرض له بعد حين - وكان ثور هذا
رفيقاً بيزيد محبباً له ، فلم يتجاوز في تأديبه أن حلق لفته تشويهاً له وصرفاً للنساء
عنه ؛ فقال يزيد في ذلك :

أَقُولُ لِثَوْرٍ وَهُوَ يَحْلِقُ لِمَتِي
تَرْفُقُ بِهَا يَا ثَوْرُ لَيْسَ ثَوَابِهَا
بِحَجْنَاءِ مَرْدُودٍ عَلَيْهَا نِصَابُهَا
بِهَذَا وَلَكِنْ غَيْرُ هَذَا ثَوَابِهَا
أَنَا مِلُّ رَخَصَاتِ حَدِيثِ خِضَابِهَا
إِذَا لَمْ تُفَرِّجْ مَاتَ نَعْمًا صَوَابِهَا
سَلَسِلُ دِرْعٍ لِيُنْهَا وَأَنْسِكَابِهَا
فَرَّاحَ بِهَا ثَوْرُ تَرِفُ كَأَنَّهَا

مُنْعَمَةٌ كَالشَّرْبَةِ الْفَرْدِ جَادَهَا نِجَاهُ الثَّرِيَا هَطْلَهَا وَذِهَابَهَا
فَأَصْبَحَ رَأْسِي كَالصَّخْبَرَةِ أَشْرَفَتْ عَائِيهَا عِقَابُ ثُمَّ طَارَتْ عُقَابِيهَا

على أن الخصومة بين يزيد وغيره من الناس لم تقف عند الحب ، بل تجاوزته إلى شيء آخر . فقد قلت : إن يزيد كان من فتيان العرب ينفق حياته في اللهو والحب ، وكان متلافاً يسرف في الاستدانة ، وكان أخوه يبيح له ماله ، ويحمل عنه دينه . وكأنه أسرف في الدين ، فتقاضاه دائته ، وهو رجل يعرف بالبربري ، وحبسه الحاكم عقبة بن شريك في هذا الدين ، فقال في سجنه :

فَلَوْ قَلَّ دَيْنُ الْبَرَبَرِيِّ قَضَيْتُهُ وَلَسَكَنَّ دَيْنَ الْبَرَبَرِيِّ كَثِيرُ
وَكَنتُ إِذَا حَلَّتْ عَلَيَّ دُيُونُهُمْ أَضْمُ جَنَاحِي مِنْهُمْ فَأَطِيرُ
عَلَيَّ لَهُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ أُدِيَّةٌ مَمَانُونَ وَافٍ نَقْدُهَا وَجَزُورُ
نَحْنُ إِلَى ثَوْرِ فَقِيمٍ رَحِيلُنَا وَثَوْرٌ عَلَيْنَا فِي الْحَيَاةِ صَبُورُ
أَشَدُّ عَلَيَّ ثَوْرٌ وَثَوْرٌ إِذَا رَأَى بِنَا خَلَّةَ جَزَلُ الْعَطَاءِ غَفُورُ
فَذَلِكَ دَأْبِي مَا بَقِيَتْ وَمَا مَشَى لِثَوْرِ عَلَيَّ ظَهْرُ الْبِلَادِ بَعِيرُ

وقد طال عليه السجن وضاق به الحال فاجتهد حتى خلص من سجنه وعمد إلى نجيب لقيه يقال له ابن الكميث ، فركبه ومضى به إلى اليمامة حتى وصل إلى عقبة ، فلما عرفه عقبة أنكر ما فعل من الأمر ، ولكن يزيد مدحه بقصيدة من أجود ما قال أهل البادية ، فعفا عنه عقبة ، وأبرأه من دينه ، ووهب له النجيب وحكمه في ماله ، وإليك بعض هذه القصيدة :

وَمُدَّلَّهِ عِنْدَ التَّبَدُّلِ يَفْتَرِي مِنْهَا الْوِشَاحُ مُحْضَرًّا أُمْلُودَا
نَازَعْتَهَا غَنَمَ الصَّبَا إِنَّ الصَّبَا قَدْ كَانَ مِنِّي لِلْكَوَاعِبِ عِيدَا
يَاللَّرَجَالَ وَإِنَّمَا يَشْكُو النَّسَى مَرَّ الْحَوَادِثِ أَوْ يَكُونُ جَلِيدَا
بَكَرَتْ نَوَارُ مُجْدُ بَاقِيَةِ الْقَوَى يَوْمَ الْفِرَاقِ وَتُخْلِفُ الْمَوْعُودَا

وَلَرُبَّ أَمْرٍ هَوَىٰ يَكُونُ نَدَامَةً وَسَبِيلَ مَكْرَهَةٍ يَكُونُ رَشِيدًا
ثم يقول :

لَا أَتَقَىٰ حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرُّقَى فَعَلَ الدَّلِيلِ وَإِنْ بَقِيَتْ وَحِيدًا
لَكِنْ أُجْرِدُ لِلضَّغَائِنِ مِثْلَهَا حَتَّى تَمُوتَ وَلِلْحُقُودِ حُقُودًا

ومما يتم تمثيل هذه الشخصية البدوية اللاهية العابثة في مزح ورضاء ، هذه القصة التي كانت له مع أخيه ثور :

فقد زعموا أنه راح في إبل أخيه فرّ بنسوة حسان، فطلبن إليه أن يطعمهن لحماً، فسألن سكيناً وعقر لمن ناقة وأقبل عليه أخوه يلومه ويضربه، فقال :

يَا ثَوْرُ لَا تَشْتَمَنَّ عِرْضِي فِدَاكَ أَيُّ فَإِنَّمَا الشَّمُّ لِلْقَوْمِ الْعَوَاوِيرِ
مَا عَقَرُ نَابٍ لِأَمْتَالِ الدَّمَى خُرْدٍ عَيْنِ كِرَامٍ وَأَبْكَارِ مَعَاصِيرِ
عَظْفَنَ حَوْلِي يُسَائِلُنِ القَرَى أَصْلًا وَلَيْسَ يَرْضَيْنِ مِنِّي بِالْمَعَاذِيرِ
هَبْنِ ضَيْفًا عَرَاكُمُ بَعْدَ هَجَمَتِكُمْ فِي قِطْعَةٍ مِنْ سَقِيطِ اللَّيْلِ مَنْشُورِ
وَلَيْسَ قُرْبِكُمْ شَاءَ وَلَا لَبَنٌ أَيَرْحَلُ الضَّيْفُ عَنْكُمْ غَيْرَ مَحْبُورِ
مَا خَيْرُ وَارِدَةٍ لِمَاءِ صَادِرَةٍ لَا تَنْجَلِي عَنْ عَقِيلِ الرَّجُلِ مَنْحُورِ

ولقد أريد أن أفصل القول في شعر يزيد ، وأبين مكانة هذا الشعر من الجودة والمثانة والرقّة التي يمتاز بها شعر أهل البادية في هذا العصر الأموي خاصة ، ولكنني قد أطلت . فانظر إلى هذه الأبيات ؛ فستجد فيها أحسن مثالا ، لا أقول لغزل يزيد وحده ، بل أقول لنفسية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يحيون حياته ويلهون لهوه :

أَلَا حَبْدًا عَيْنَاكِ يَا أُمَّ شُنْبُلٍ إِذَا السُّكْحُلُ فِي جَفَنِيهِمَا جَالَ جَائِلُهُ
فِدَاكَ مِنَ الخُلَانِ كُلِّ مُمَزَّجٍ تَكُونُ لِأَذْنِي مَنْ يَلَاقِي وَسَائِلُهُ
فَرَحْبًا تَلَقَّانَا بِهِ أُمَّ شُنْبُلٍ صَحِيحًا وَأَبْكَاتِنَا عَشِيًّا أَصَائِلُهُ
وَكُنْتُ كَأَنِّي حِينَ كَانَ كَلَامُهَا وَدَاعًا وَخَلِيٌّ مُوْتَقٍ العَهْدِ حَامِلُهُ

رَهِينٌ بِنَفْسِي لَمْ تُعَكِّ كُبُولُهُ
 فَقَالَ: دَعُونِي سَجْدَتَيْنِ وَأُرْزِعِدَتِ
 عَنِ السَّاقِ حَتَّى جَرَدَ السَّيْفَ قَاتِلُهُ
 حِذَارَ الرَّدَى أَخْشَاؤُهُ وَمَمَاصِلُهُ
 عَلَى كِبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ
 وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَيْبَتُهُ
 فَلَا هُوَ يُعْطِينِي وَلَا أَنَا سَائِلُهُ

الغزلون^(١)

كُشِيرٌ

وإنما أعده في الغزلين لأخرجه منهم ، فالناس يُجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين الذين أتاحت لهم الإجابة ، وقسم لهم التفوق في الغزل . وهم يقرنون اسمه باسم جميل فيقولون : كثير عزة ، كما يقولون : جميل بثينة ، وكما يقولون : مجنون ليلي . وهم بهذا نفسه يقدمونه على ابن ذريح ، ويقدمونه على الأحوص والعرجي وغيرهما من أصحاب الغزل في بادية الحجاز وحاضرتهم . والرواة لا يكتفون بهذا بل يقدمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول . فهو مقدّم على ابن أبي ربيعة ، وهو في مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعي . ولست أدري أكان الرواة منصفين في وضعه بين هؤلاء الفحول ، وتقديمه على عامة شعراء العصر الأموي ؟ وليس سبيل إلى الفصل في ذلك ، فقد ضاع شعر كُشِيرٍ كله ولم يبق منه إلا الشيء القليل جداً ، لم يبق منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه . وإذاً فقد يكون شاعراً فحلاً ، وقد يصح أن يقرن إلى الفرزدق وإلى جرير . ولكن شيئاً لا يقبل الشك ، هو أنه ليس من الغزلين المتقدمين ، ولا يصح أن يقرن إلى جميل ، ولا أن يقاس بابن أبي ربيعة ، ولا أن يقدم على ابن ذريح .

ليس هو من هؤلاء كلهم في شيء . وإذا كان له أن يتقدّم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغي أن يكون ذلك لغزله ، وإنما ينبغي أن يكون ذلك لشيء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين .

ستقول : وإذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته إليهم وحشرته فيهم ؟ وقد أجبته على هذا السؤال في أول هذا الحديث ، فقلت : إنى أعده في الغزلين لأخرجه منهم . وهل تظن أن الناس يقبلون بحثاً تناول الغزلين جميعاً وسكت

(١) نشرت بجريدة «السيامة» في ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

عن كثير ، وهم كما قلت لك مجتمعون على أنه غزَلٌ "مقدم بارع في الغزل !
أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين ويستقصيهم أن يزيل هذا الوهم
ويحو آثاره من نفوس الناس !

كل شيء في حياة كثير يدلنا على أنه لم يكن غزلا بطبعه ، ولم يكن
ماهرًا ولا موفقًا في تكلف الغزل ؛ فهو لم يكن صافي الطبع ولا رقيق الحس
ولا دقيق الشعور ولا قويّ العاطفة ولا ذكي الفؤاد ، وإنما كان بريئًا من هذا
كله ؛ وهو لم يكن على براءته من هذا الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة ؛
وإنما كان دميًا قبيحًا بشع المنظر مضحكًا لمن يراه ، مضحكًا لمن يسمعه
ويتحدث إليه أيضاً : كان قصيراً مسرفاً في القصر ، حتى قال بعض الرواة :
« لقد رأيتَه يطوف بالكعبة فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب » .
وكان أحمق مسرفاً في الحمق ضعيف العقل إلى حدّ غريب ، كان الناس
يتخذونه هزواً وخيرية . والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء
ولا يشعر بهذه السخرية ، وإنما كان يصدق كل ما يلقى إليه ، ويسمع المزاح
فيجيب إليه جاداً مقتنعاً .

زعموا أن نفرا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضاً فسألهم : بم
يتحدث الناس ؟ قالوا: يتحدثون بأنك الدجال ، قال: أما إذ قلت هذا فإني
لأجد في عيني هذه المأ منذ أيام . والدجال في الأساطير أعور .
وأشد من هذا غرابة أن أمر كثير لم يكن مقصوداً على الغفلة والحمق ،
وإنما كان يتجاوزهما إلى التيه والخيلاء ، فالرواة يحدثوننا أنه كان من أشدّ
الناس إعجاباً بنفسه ومن أغلام في الكبرياء ، حتى لقد اتخذه معاصروه
ولا سيما أهل المدينة سخرية في هذا أيضاً ، فكانوا يتبعونه في شوارع المدينة
يشتمونه وينالون منه ، لعله يلتفت إليهم فلا يفعل ، وربما غلوا في ذلك فيمدّ
الرجل منهم يده إلى رداء كثير فينتزعه ، فلا يلتفت إليه كثير بل يمضي في
قميص . وكان إلى هذا كله يرى في نفسه الذكاء والفتنة ، وربما رأى فيها القوة
والبأس أيضاً . وقد حفظ الرواة لنا من هذا أخباراً مضحكة :

زعموا أنه لقي الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثير
حين قال للحزين : لست شاعراً وإنما أنت نظام ! فاستأذنه الحزين في أن
يهجوه ، فأذن له ساخراً منه مزدرياً له ، فهجاه الحزين بيت لا نستطيع أن

نرويه ، فلم يكذب يسمع هذا البيت حتى أخذته حفيظة منكراً ، فنهض إلى
الحزين فلكرهه ، ولكن الحزين قال له : لست من هذا في شيء ، ثم مال
إليه فرفعه في يده فإذا هو فيها كالكرة حتى خلص بينهما من حضر .

ومع هذا كله فليس من شك في أن كثيراً قد كان شاعراً مجيداً ، بل
عظيم الحظ جداً من الإجابة . وما أظن أن محمد بن سلام الجمحي قرنه إلى
الفرزدق وجريير تحكماً أو عبثاً .

وقد حدثنا الرواة أنهم كانوا يحفظون له شعراً كثيراً ، ويذكرون بنوع خاص
ثلاثين لامية لم يبق لنا منها إلا أبيات تكاد أو لا تكاد تؤلف قصيدته المشهورة
التي مطلعها :

حَلِيلِي هَذَا رَبْعُ عَزَّةَ فَاغْفِلَا قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ أَبْكِيَا حَيْثُ حَلَّتِ

وكان أبو عبيدة فيما ذكروا يملئ شعر كثيراً بثلاثين ديناراً . ولكننا سنرى
أن إجادته ومنزلته بين الشعراء لم تأتياه من الغزل ، وإنما وفق إليهما من سبيل
السياسة والتقرب إلى الملوك والخلفاء .

كان كثيراً أصغر نفساً وأردأ طبعاً وأشدّ حمقاً وغفلة من أن يتأثر بتلك
المؤثرات المختلفة التي فصلناها في الأحاديث الماضية والتي كونت الغزلين من
أهل الحاضرة والبادية في الحجاز . لم يكن كبير النفس ، ولم يكن له أمل في
الحياة السياسية العامة ، ولا طمع فيما كان يطمع فيه شباب الحجاز من رفعة
وسلطان . بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل كل شيء : من كثيراً ؟
وإلى أي قبيلة من قبائل العرب ينتمي ؟ فقد يظهر أن كثيراً نفسه لم يكن يعرف
من هذا شيئاً ، أو لم يكن يريد أن يعرف من هذا شيئاً ، أو كان يريد أن
يعرف منه أكثر مما ينبغي أن يعرفه صاحب النسب الصحيح .

كان ينتسب في اليمن خزاعياً ، وكان ينتسب في مضر كنانياً ، وكان
اليمانيون والمضربون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه ، وإذن فكيف يطمع في
رفعة المنزلة وعلو المكانة ! وكيف يقرن بهذا الشباب الأرسقراطي الحجازي
الذي عبث به الطمع واليأس فاضطره إلى اللهو والعبث واصطناع الغزل
والغناء . ثم لم يكن كثيراً من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة ، والذين
قلنا : إن إهمال الدولة إيّاهم قد اضطربهم إلى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا

لحياتهم البدوية ، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن خالط نفوسهم وصرف شبابهم إلى هذا الحب البريء وهذا الغزل العفيف ، اللذين ليسا في حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه ، ويطمحون إليه من المثل الأعلى .

ليس كثير من أولئك ولا من هؤلاء ، ليس بدوياً خالصاً ، وليس حضرياً ذا مكانة في الحضر ، وإنما كان يتردد بين البادية والحاضرة ، كان شديد الاتصال بقصر دمشق بمدح بني أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم ؛ وكان كاذباً أحسن الكذب في هذا المدح والتملق ، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك ويحتملونه له ! لأنه كان يحسن مدحهم والنضال عنهم . فإذا ترك دمشق فقد كان يتردد بين مكة والمدينة ، يعاشر أشرافهما ، ويأخذ منهم ما أتيح له من جائزة أو عطاء .

كان ذا مذهب سياسي ، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشدّ التناقض ، يرجعان آخر الأمر إلى مذهب واحد معروف في ذلك الوقت هو النفاق السياسي . كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشبعاً غالباً في التشيع يرى مذهب الكيسانية ، ويقدم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة . وله في ذلك أعاجيب وشعر جيد . وكان فيما بينه وبين الناس نصيراً لبني أمية بمدحهم ويغلو في مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم .

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقاً ولا عسيراً ؛ فهو حين كان يمدح بني هاشم وبني أمية كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معا . ولعلك تذكر أني حدثتك في الصيف الماضي عن شاعر عباسي مسرف في التشيع ، كان يذهب مذهب كثير نفسه ، كان كيسانياً يقدم ابن الحنفية ويؤمن بالرجعة ، وكان مع ذلك يمدح بني العباس ويأخذ جوائزهم ، وكان بنو العباس يغضون له عن تشيعه للعويين ، كما كان بنو أمية يغضون لكثير عن تشيعه للعويين أيضاً . هذا الشاعر هو السيد الحميري الذي كان ككثير يتقرب ببني هاشم إلى الله ، ويرضى بمدحهم عاطفته الدينية ، ويتقرب ببني العباس إلى الدنيا ويرضى بهم حاجته إلى اللذة والبروة .

وكما أن كثيراً كان يتخذ ابن الزبير وسيلة إلى إرضاء الهاشميين والأمويين ؛ لأنه كان خصماً مشتركاً للحزبين ، فقد كان السيد الحميري يتخذ بني أمية

وسيلة لإرضاء بنى على وبنى العباس ، وكما أن كثيراً كان أحمق مغفلاً مسرفاً في الإيمان بالسخف والاطمئنان إليه ، فلم يكن حظ السيد الحميرى من الحمق والغفلة وضعف العقل قليلاً ، حتى إن الرواة ليضيفون إلى كثير شعر السيد ، كما يضيفون إلى السيد شعر كثير . بل هما يشتركان في شيء آخر : كلاهما كان سيء الصلة بأبويه ؛ فقد يحدثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة في مذهب الخوارج ، فكان كارهاً لهما مسيئاً إليهما . وهم يحدثوننا أيضاً أن كثيراً كان يعق أباه ويسىء إليه .

وهما يكاد يشتركان في خصلة أخرى ! لكنها أقوى عند كثير منها عند السيد : كلاهما كان منفراً صارفاً للنساء ، أما كثير فلقبه ودمايته وقصره ؛ وأما السيد فلتن إبطينه .

ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر الحميرى في الرجعة ، وأنا أروى لك الآن شيئاً من شعر كثير فيها . فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التي يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بنى هاشم :

أَلَا قُلْ لِلْوَصِيِّ فَدَتِكَ نَفْسِي أَطَلْتَ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا
أَضْرَّ يَمْعَشِرِي وَالْوَكَّ مِنَّا وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ وَالْإِمَامَا
وَعَادُوا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا مُقَامُكَ عَنْهُمْ سِتِّينَ عَامَا
وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ مَوْتٍ وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظَامَا
لَقَدْ أَوْفَى بِمُورِقِ شَعْبِ رَضْوَى تُرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا
وَإِنَّ لَهُ بِهِ لَمَقِيلَ صِدْقٍ وَأَنْدِيَةَ تُحَدِّثُهُ كَرَامَا
هَدَانَا اللَّهُ إِذْ جُزِّمَ لِأَمْرِ بِهِ وَلَدِينِهِ نَلْتَمِسُ التَّمَامَا
تَمَامَ مَوَدَّةِ الْعَهْدِيِّ حَتَّى تَرَوْا رَايَاتِنَا تَتْرَى نِظَامَا

ولعلك تلاحظ معى أن غياب محمد بن الحنفية إن كان قد أضر بقوم فليس « كثير » من هؤلاء القوم ، فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طرّاً كما يقول ، وإنما عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير .

وانظر إلى هذه الأبيات التي يدافع فيها عن محمد بن الحنفية حين حبسه ابن الزبير ، وأراد تحريق بني هاشم ، وهي من جيد الشعر السياسي :

مَنْ يَرَهُذَا الشَّيْخَ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي	مِنْ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيْرُ ظَالِمٍ
سَمِيَّ النَّسِيِّ الْمُضْطَفِيِّ وَأَبْنُ عَمِّهِ	وَفِكَالُكَ أَغْلَالٌ وَنَفَاعُ غَارِمٍ
أَبِي فَهَوَ لَا يَشْرِي هُدَى بَضَلَالَةٍ	وَلَا يَتَّقِي فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ
وَنَحْنُ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتْلُو كِتَابَهُ	حُلُولًا بِهَذَا الْخَيْفِ خَيْفِ الْمُحَارِمِ
بِحَيْثُ الْحَمَامُ آمِنُ الرَّوْعِ سَاكِنُ	وَحَيْثُ الْعَدُوُّ كَالصَّدِيقِ الْمُسَالِمِ
فَمَا فَرَحُ الدُّنْيَا بَبَاقِي لِأَهْلِهِ	وَلَا شِدَّةُ الْبَلْوَى بِضَرْبَةٍ لَازِمِ
تُخَبِّرُ مَنْ لَا قِيَمَةَ أَنْكَ عَائِدٌ	بَلِ الْعَائِدِ الْمَظْلُومِ فِي سِجْنِ غَارِمِ

وكان ابن الزبير يسمى العائد ، ويزعم أنه يعوذ بالبيت وحرمه .
وانظر إلى هذه الأبيات التي اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم إلى السيد ،
وأضافها بعضهم الآخر إلى كثير ، وهي أبيات مشهورة تخص مذهب
الكيسانية في الإمامة :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ	وَأَلَاَ الْحَقُّ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ
عَلِيٌّ وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ	هُمُ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ لَهُمْ خَفَاءُ
فَسَبَطُ سَبَطُ إِيْمَانٍ وَبِرٍّ	وَسَبَطُ غَيْبَتِهِ كَرُّ بَلَاءِ
وَسَبَطُ لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حَتَّى	يَعُودَ الْخَيْلَ يَتَّبِعُهَا اللُّوَاهُ
تَغَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا	بِرِضْوَانِي عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاهُ

وانظر إلى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف ابن الحنفية به وعطفه عليه
وسؤاله عنه :

أَقَرَّ اللَّهُ عَيْنِي إِذْ دَعَانِي	أَمِينُ اللَّهِ يَلْطَفُ فِي السُّؤَالِ
وَأُثْنِي فِي هَوَايَ عَلَيَّ خَيْرًا	وَسَاءَلَ عَنِّي وَكَيْفَ حَالِي

وَكَيفَ ذَكَرْتُ حَالَ أَبِي خُبَيْبٍ وَزَلَّةَ فِعْلِهِ عِنْدَ السُّؤَالِ
هُوَ الْمَهْدِيُّ خَبْرَانَهُ كَعْبُ أَخُو الْأَحْبَارِ فِي الْحَقَبِ الْخَوَالِي

وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير ، وليس من شك في أن محمد ابن الحنفية كان يحمده لكثير نضاله عنه وهجاءه لابن الزبير ، ولكن البيت الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص ، لأنه يمثل عقلية كثير وأمثاله من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين في غلوهم يستبيحون فيه الكذب ويعتقدون مع ذلك أنهم لا يكذبون ، ذلك أن كثيراً لم يلق كعب الأحبار ، ولا يمكن أن يكون كعب قد خبره بما ذكر من أن ابن الحنفية هو المهدي . وقد سأله بعض معاصريه : أخبرك كعب حقاً؟ قال : لا . قال محدثه : وإذن فكيف قلت ما قلت؟ أجاب : بالتوهم . وكذلك كان السيد الحميرى يتلمس الفرص ويتحلها إذا لم يجدها ، ليذيع فضل بنى هاشم ويثبت حقهم في الإمامة .

على أن شيئاً واحداً يعيننا من أمر كثير مع بنى هاشم ، وهو أنه كان صادقاً في حبهم ، وكان ساذجاً في هذا الحب أيضاً ؛ وكان هذا الحب الصادق الساذج ينتهى به أحياناً إلى شيء من الحنان مؤثر شديد التأثير ، وينتهى به أحياناً إلى شيء من الغفلة مضحك شديد الإضحاك . كان شديد العطف على أطفال بنى هاشم يسميهم : الأنبياء الصغار ، ويقول كلما رآهم : بنفسى الأنبياء الصغار ! وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتاب حيث كان أطفال بنى هاشم فيهب لهم الدراهم .

قال الرواة : وكان مع هؤلاء الأطفال صبي من ولد عثمان ، وكان أخا هؤلاء الأطفال الهاشميين لهم ، وكان يختلف معهم إلى الكتاب ، وكان إذا رأى كثير يفرق الدراهم على إخوته تعلق به وقال يا عم : هب لي ، فيجيبه : لا ، لست من الشجرة .

قلت إن هذا الحب الصادق الساذج لبني هاشم كان ينتهى بكثير إلى الغفلة أحياناً . وكان بنو هاشم يعلمون من كثير وغيره من شيعتهم صدق هذا الحب ، وسداجته فلا يحجمون عن استغلاله والانتفاع به .

ويحدثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية كان يعلم من

كثير هذه السذاجة ويريد أن يمسكه فيها ويحتفظ بسلطانه عليه ، فكان يكلف أرسادا من أصحابه أن يرقبوا كثيراً وينقلوا إليه مختلف أمره ، فإذا حضر كثير مجلسهم قال له : قلت كذا وكذا . وفعلت كيت وكيت . فَيَسْبَهُرُ كثير ، حتى قال له ذات يوم : أشهد أنك رسول الله .

كان بنو هاشم يستغلون حب كثير ، ويقبلون منه نفاقه ومدحه لبنى أمية . ولم لا ! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بنى أمية ويسألونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم ! ثم أى الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغنى في أى عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتاحت لهم السنة طوال وأخلاق مرنة ، فهم ينتفعون وينفعون .

ولذا كان بنو أمية يصنعون مع كثير صنيع بنى هاشم ، فيقبلون منه نفاقه السياسى ويقرونه عليه ، وكانوا يعلمون حتى العلم أنه ليس صادقاً فى مدحهم ولا مخلصاً فى الدفاع عنهم ، وكانوا مع ذلك يجيزونه ويقربونه ويستزيدونه مدحه ؛ ويذيعون هذا المدح فى القصر وفى دمشق وفى العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص .

وهذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين المهرة على استغلال النفاق السياسى .

قالوا : لما خرج عبد الله لحرب مصعب بن الزبير ، لحظ فى عسكره « كثيرا » يمشى مطرقاً وكأنه حزين ، فدعاه فسأله : أتصدقنى إن أنبأتك بما فى نفسك ؟ قال : نعم ! قال : فاحلف بأبى تراب ؛ فحلف كثير بالله ليصدقنه ! قال عبد الملك : لا بد من أن تحلف بأبى تراب ؛ فحلف له بأبى تراب . قال عبد الملك : تقول فى نفسك : رجلان من قريش يلقى أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول فى النار ؛ وما آمن أن يصيبنى سهم فيقتلنى فأكون معهما . قال كثير : ما أخطأت يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك : فعد من قريب ، وأمر له بجائزة . وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثير فى أمر من الأمور لا يرضى منه إلا أن يحلف بأبى تراب .

إذا فقد كان كثير لا يخفى على بنى أمية تشيعه للهاشمين ، وكان مع ذلك يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، أى إنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين ، وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبهجين له . ومن ذا الذى

لا يبتهج بأن يرى خصمه السياسى يهين نفسه ويذلها فيمدحه ويقدمه رغبة في المال ! وكذلك كانت صلة السيد الحميرى بالعباسيين .

أظنك الآن قد استطعت أن تتمثل شخصية كثير ، وما هى بالشخصية الجذابة ولا التى تستهوى النفوس وتستثير العطف .

وإذا كان كثير بغیضا إلى هذا الحد ، فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوى النساء ويستصيهن . وقد برأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق . ومن هنا لا أميل إلى تصديق ما يرويه الرواة من أن نساء المدينة احتفلن بكثير يوم مات . فإن كن قد فعلن شيئا من هذا ، فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيرا كان شاعرا ممتازا وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن . وأظن أن قد آن لنا أن نذكر شيئا عن حب كثير .

فأول شيء نذكره أن كثيرا كان كاذبا في حبه ، كما أنه كان كاذبا في نسبه ، وكما أنه كان كاذبا في موقفه السياسى . وأنا أعتقد أن كثيرا رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هذا الفن كما تعاطاه الغزلون ، تمرينا لقوته الشعرية . وقلنا : كان كثير مغرورا تياها ؛ كان — كما يقول الجاحظ — قصيرا ويزعم أنه طويل ، دميا ويرى أنه جميل ، وقد رأى البدع في أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خلية يذكرها ويهم بحبها ، فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خلية ، فذكر عزة ، وأكثر من الهيام بها . والرواة أنفسهم يقولون : إن كثيرا كان مدعيا للعشق لا عاشقا ، ويروون في ذلك أحاديث تجدها في الأغاني . ولست أستطيع أن أقول : إن هذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أتخذها دليلا على أن حب كثير لم يخدع الناس قديما فلا ينبغي أن يخدعنا الآن .

ليس من الحق إذا أن نقرنه إلى جميل ولا إلى ابن ذريح ، ولا أن نقدمه على أحد من هؤلاء الغزلين . بل ليس من الحق أن نعهه غزلا ، وإنما هو شاعر أراد أن يكون غزلا فعالج الغزل معالجة فنية خالصة ؛ ولعله إن لم يوفق في تكلف الحب وفق في تكلف الغزل ، ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن نرفضه ، لأن ما لدينا من غزل « كثير » أقل من أن يبيح لنا ذلك . ومع هذا فإنى أختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى تكاد تكون وحدها كل ما بقى من غزل كثير ، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ وورصانة الأسلوب

شيئاً كثيراً، ولكنها خالية خلواً تاماً من صدق الهمجة وحرارة العاطفة :

خَلِيلِيْ هَذَا رَسْمُ عَزَّةَ فَاعْفِلَا
وَمَا كُنْتُ أُدْرِي قَبْلَ عَزَّةَ مَا الْبُكَاءُ
فَلَيْتَ قَلْوَصِي عِنْدَ عَزَّةَ قِيدَتْ
وَأَصْبَحَ فِي الْقَوْمِ الْمُقِيمِينَ رَحْلُهَا
فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزُّ كُلُّ مُصِيبَةٍ
أَسِيبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَأَمْلُومَةٍ
يُكَافُئُهَا الْغَيْرَانُ شَتْمِي وَمَا بِهَا
هَيْنًا مَرِيئًا غَيْرَ دَاءِ مُخَامِرِ
تَمَنِّيْتُهَا حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتُهَا
كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ
صَعُوحًا فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ
وَإِنِّي وَتَهْيَامِي بَعِزَّةَ بَعْدَ مَا
لَكَالْمُرْتَجِي ظِلَّ الْغَمَامَةِ كُلَّمَا

قَلْوَصَيْكُمْ أُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حَلَّتْ
وَلَا مُوجِعَاتِ الْقَلْبِ حَتَّى تَوَلَّتْ
بِحَبْلِ ضَعِيفِ بَانَ مِنْهَا فَضَلَّتْ
وَكَانَ لَهَا بَاغٍ سِوَايَ فَبَلَّتْ
إِذَا وَطَنْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ
لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
هُوَآئِي وَلَكِنْ لِلْمَلِكِ اسْتَدَلَّتْ
بِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ
رَأَيْتُ الْمَنَائِبَا شُرْعًا قَدْ أَظَلَّتْ
مِنَ الصَّمِّ لَوْ تَمَشَّى بِهَا الْعَضْمُ زَلَّتْ
فَعَنْ مَلٍّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ
تَخَلَّتْ مِمَّا بَيْنَنَا وَتَخَلَّتْ
تَبَوَّأَ مِنْهَا الْعَقِيلَ أَضْمَحَلَّتْ

زعيم الغزليين^(١)

عمر بن أبي ربيعة

تمهيد

نعم! هو زعيم الغزليين من أهل الحضرة في عصره ، لا يختلف في ذلك الناس . وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزليين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضرة بإزاء جميل من أهل البادية ، فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضري حينما كان جميل زعيم الغزل البدوي . ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً ؛ فلم يبق سبيل إلى المقارنة بينه وبين عمر الذي حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره ، والذي استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته ، فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن فيه رأياً صحيحاً أو مقارباً .

ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة ، فليس من شك في أن عمر بن أبي ربيعة كان مقدماً عليه عند أهل عصره . ويجب أن يظل مقدماً عليه من الوجهة الفنية ؛ لأننا لانعرف شاعراً عربياً أمويّاً افتن في الغزل افتنان عمر . فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعاً لا نستثنى منهم أحداً ، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة . بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزليين في الأدب العربي كله ، على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن .

وليس هذا بالشيء الذي يحتاج لإثباته إلى عسر ومشقة ؛ فإن الغزل العربي الخالص لم يوجد مرتين وإنما وجد مرة واحدة في أيام بني أمية ، ولم يكن له قبل الإسلام وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه

(١) نشرت بجريدة «السياسة» في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

وسيلة شعرية إلى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعراً قصر حياته الشعرية على الغزل ؛ بل قليل جداً عدد القصائد الجاهلية التي لم يتناول فيها أصحابها إلا الغزل وحده .

أما عصر بني العباس فلم توجد فيه مدرسة غزلية ، إن صح هذا التعبير الحديث . ولسنا نجعل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب . ولكننا نزعهم أنهم لم ينقطعوا للغزل ، ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم في هذه الأحاديث ، وإنما كانوا كجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية ، أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد استحدثوا في الأدب العربي شيئاً ، فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول : إنهم انصرفوا عنه إلى شيء آخر ، أو أكاد أقول : إنهم حولوا إلى شيء آخر ، هو العبث والمجون .

أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف ، وقد ذكرته أنا أيضاً ، ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفي أن تقرأ الشعر العباسي لتعلم أنه كان غريباً في عصره ، وأنه « سقط بين كرسيين » كما يقول الفرنسيون ؛ فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بني أمية ، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بني العباس ؛ وإنما جاء فاتراً قلماً يترك في النفس أثراً قوياً ؛ لأن الفن الذي أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره ، وانتهت الأسباب التي أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه .

وإذا كان العصر العباسي قد خلا من مدرسة غزلية خالصة ، فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التي جاءت بعده ، فهي فيما أعتقد لا تستحق عنايتنا الآن .

لم يوجد الغزل في الأدب العربي مرتين كما قلت . وإذا كان عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين في العصر الأموي ، فيجب أن يكون زعيم الغزل في الأدب العربي كله . على أن هناك وجوهاً أخرى تحملنا على أن نؤكد أن الغزل لم يوجد مرتين ، ولست أذكر منها إلا هذا الوجه الفني ، فأنت مهما تقرأ من الغزل العربي ، فلن تجد في هذا الغزل ما تجده في الغزل الأموي من صدق اللهجة وصفاء الطبع ، ومن التمثيل الصادق الصحيح لنفس الشاعر ، بل لنفس الجماعة التي يعيش فيها ؛ ومن إظهار هذه النفس على

ما كانت عليه من سداجة جذابة وسهولة محببة إلى القلوب . لن تجد شيئاً من هذا كله في غزل العباسيين وأهل الأندلس وغيرهم من شعراء البلاد العربية المختلفة . وإنما أنت في هذا الغزل بإزاء فن شعري ظهر فيه التكلف اللفظي والمعنوي ، وعظم فيه أثر الصنعة ، واصطبغ بهذه الصبغة الحضرية التي تحملك دائماً على أن تقرأ الشيء وأنت تقدر أن صاحبه ليس صادقاً فيه ، وأنه يتكلف ويتصنع ليلائم عصره وبيئته ، ليرضى الناس أو يفتنهم .

أما الغزل الأموي فقد كان شيئاً غير هذا كله . ولا تحسبني قد فتننت بهذا الغزل فأنا أسرف في مدحه والثناء عليه ، وأتجاوز الحدّ في تقديمه على غيره من ألوان الغزل العربي . فأنا بعيد كل البعد عن هذه الفتنة ، وأنا مجتهد كل الاجتهاد في أن يكون رأيي صادقاً بريئاً من الهوى . وأنا أجد في هذا الغزل الأموي شيئاً هو الذي يجيبه إلىّ ويحملني على تقديمه ، وهو أنه لم يخلص من السداجة البدوية ، ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة ، ففيه من البداوة سداجة تسخفك وتستصيبك ، وفيه من الحضارة طلاء يبعث في نفسك الميل إلى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كله عذوبة ولذة في هذا المزاج الذي يتألف منه الغزل الأموي ، والذي يمثل لك هذا الشعب العربي البادي وقد أخذ يحضر ويرف ، ويحس على بداوته كما يحس الحاضرون والمترفون .

قلت : إن هذا الغزل الأموي يمثل نفس الشاعر والجماعة التي كان يعيش فيها تمثيلاً صادقاً صحيحاً . ومن هذه الناحية أرى أن عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين الأمويين حقاً ، وأن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التي أتاحت لهم حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعراً إسلامياً استطاع أن يمثل العصر الذي كان يعيش فيه ، والبيئة التي كان يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعاً في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما . تريد أن تدرس العراق في صدر الدولة العباسية ، وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة ، فارجع إلى أبي نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز في صدر الدولة الأموية ، فارجع إلى ابن أبي ربيعة ، وليس من شك في أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعا في درس مسلم بن الوليد ، وفي درس الحسين بن الضحاك ،

وأبي العتاهية ، كما أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعاً في درس العرجي ، والأحوص وابن ذريح . ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبي نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبي ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبي حين يظهر لهم شاعراً أو كاتباً قد انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التي كانت تمتاز بها بيئته ، والتي كانت بعيدة الأثر في عصره . وإنما يظهر هؤلاء الشعراء والكتاب في العصور التي تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة متميزة ، كذلك العصر الأموي في الحجاز ، وكذلك العصر العباسي في بغداد .

تريد أن تشخص الحياة العباسية أيام الرشيد والأمين ، فلن تجد لها تشخيصاً أقوى ولا أظهر ولا أصدق من أبي نواس . فإذا أردت أن تشخص حياة القرن الثالث فلن تجد ذلك عند البحري ولا عند أبي تمام ولا عند شاعر من الشعراء ، وإنما أنت واجد ذلك عند الجاحظ ؛ لأنه الكاتب الوحيد الذي انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التي كان يتأثر بها العقل البغدادى في ذلك العصر ، والتي جاءت من قوة الحياة الأدبية والفلسفية معاً .

ولكنى بعدت بك بعض الشيء عن عمر بن أبي ربيعة . وما بعدت بك عنه إلا لأدنيك إليه ، فأنا أقول : إنه أصدق مثال للعصر والبيئة اللذين كان يعيش فيهما . وإن المؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة الأرستقراطية القرشية في الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر ابن أبي ربيعة قبل أن يلتمسها في أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة . فسيجد في هذا الشعر كيف كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة ، بل سيجد في الشعر ألوان الصلوات المختلفة الحلوة المبتسمة التي كانت تصل بين هؤلاء السراة .

والمؤرخ الذي يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة في هذا القرن الأول ، يجب أن يلتمس هذه الحياة في شعر عمر بن أبي ربيعة ، فلن يظفر في مصدر آخر من مصادر الأدب والتاريخ بمثل ما يظفر به في هذا الشعر ؛ فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة ، تنفق حياتها في هذه الدعة والنعمة اللتين ، على عفتها وطهارتهما ، لا تخلوان من هو ودعابة ، ولا من عبث

وفكاهة . والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر يجب أن يلتبس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد .

لا تلتبس فى شعر عمر بن أبى ربيعة وصفا للحياة السياسية الأموية ، فلن تكاد تظفر من هذا بشيء صريح ، ذلك لأن صاحبنا هذا قد اجتنب السياسة فى حياته اجتناباً تاماً ، وانقطع للحب شطراً من حياته ، وللسك الهادى شطراً آخر ، فلم يغضب حزباً من الأحزاب ولم يوال حزباً آخر ، وإنما كان رجلاً مترفاً من قريش ترك السياسة لأصحابها وانصرف إلى الحياة يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة ؛ حتى إذا استوفى من ذلك حظه وأحس أن الوقار خليق به ، انصرف عن الاضطراب والعبث إلى حياة هادئة مبتسمة تزيناها الذكرى ، حتى فارق هذه الحياة راضياً كما عاش فيها راضياً .

وكان انقطاعه عن السياسة مصدر خير للمؤرخ الذى يريد أن يدرس الحياة الأدبية والاجتماعية فى الحجاز ؛ لأنه لن يجد فى شعره هذه الأهواء السياسية التى تلبس الحق بالباطل أحياناً، وتظهر الخطأ مظهر الصواب أحياناً أخرى . ومع هذا فنحن مدينون للسياسة الأموية بشعر عمر بن أبى ربيعة وما فيه من آيات أدبية خالصة من كدر السياسة . نحن مدينون بهذا الشعر لهذه السياسة الأموية ؛ فلولا أنها وقفت من شباب قريش ومترقى الحجاز هذا الموقف الذى وصفناه لك غير مرة، فحالت بينهم وبين الحياة العاملة، وقصرتهم فى الحجاز على اللهو والترف ، وأوجدت منهم فى مكة والمدينة هذه الجماعات التى جمعت بين ذكاء القلب وحدة الشعور ورقة الحس وشرف المكانة وضخامة الثروة ، لما ظهر شاعر كعمر بن أبى ربيعة . ليس شعره فى حقيقة الأمر إلا خلاصة صادقة لحياة هذه الجماعات الحجازية المترفة . وكذلك تنتفع الحياة الأدبية أحياناً بما لا تجد منه الحياة السياسية إلا شراً ونكراً . فهذا الذكاء القرشى الذى حرمت السياسة العربية منافعه حيناً ، والذى كان من الممكن أن يغير الوجهة السياسية لحياة المسلمين ، لو لم يكره على الانصراف إلى اللهو . هذا الذكاء انصرف إلى ما أريد أن ينصرف إليه فأنتج لنا هذه الحياة الأدبية الباهرة .

كان عمر بن أبي ربيعة من أسرة قرشية عظيمة الحظ من الشرف والمجد ، بعيدة الصوت في آخر العصر الجاهلي ، ضخمة الثروة جداً ، قد أفادت ثروتها الضخمة من التجارة بين الحجاز واليمن . وكان لهذه الأسرة رقيق كثير يذكرونا بما نقرأ في أخبار الأغنياء من اليونان والرومان ، حتى إن من المسلمين من عرض على النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يستعين في بعض غزواته بأحباش ابن أبي ربيعة . وكان عبد الله بن أبي ربيعة أبو شاعرنا من وجوه قريش وأهل الذكاء فيهم ، يقال إنه عمل في ولايات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكن ابنه : الحارث وعمر أقصيا عن السياسة الأموية إقصاء . أما الحارث فقد استعمله عبد الله بن الزبير حين كان الأمر إليه على البصرة . ويقال إن عبد الملك بن مروان أكثر الثناء عليه حين علم باستعمال عبد الله بن الزبير إياه . وكان عمله لابن الزبير قد صرف عنه الأمويين ، فلم يسمع له ذكر في الحياة العامة بعد أن تم النصر لبني أمية ، على أنه لم يعجب أهل البصرة : ونحن نجد في الأغاني شعرا يطلب من ابن الزبير إعفاء البصريين منه .

أما عمر فلم تعرض له السياسة ولم يعرض لها ، وإنما شب في الشعر ومضى في حياة المترفين دون أن يتصل بحزب ، ودون أن يتخذ شعره وسيلة إلى الحصومة السياسية ، كما فعل قرشي آخر هو ابن قيس الرقيات ، وكان يتغزل بالقرشيات جميعاً ؛ كما كان يتغزل بغير القرشيات ، لا تعنيه صلاتهن الحزبية ، بل لا يعنيه منهن إلا شيء واحد هو الجمال .

لعلك تذكر براعة ابن قيس الرقيات تلك التي أشرت إليها حين حدثتك عنه ، والتي أتاحت له أن يتخذ الغزل وسيلة من وسائل الحصومة السياسية ، فاخترع ما سميته الغزل الهجائي ، وكان في هذا الغزل عفيفاً حلو اللسان مؤدباً حسن الثناء ، لا يريد إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نساءهم والتعجب إليهن . أما عمر بن أبي ربيعة فلم يصطنع من هذا كله شيئاً ، وإنما كان صادق اللهجة في غزله كله ، لا يريد بالغزل إلا الغزل ، ولا يذكر النساء إلا لأنه يحب النساء .

وهناك مسألة عنى القدماء بها عناية شديدة ، ولا بد من الإشارة إليها والقول فيها : أكان عمر بن أبي ربيعة صاحب هو وعبث وفتك ، أم كان

شاعراً لا أكثر ولا أقل؟ وبعبارة أخرى: أكان عمر بن أبي ربيعة كالعرجي، أم كان كجميل؟

أما القدماء فيختلفون اختلافاً شديداً، ويرون فيه رأيين متناقضين يضيفونهما إلى عمر نفسه؛ فمنهم من يقول إن عمر كان صاحب عبث وفجور، ثم يزعم أن سائلاً سأله: أكل ما قلته في شعرك فعلته؟ فأجاب: نعم! وأستغفر الله. ومنهم من يزعم أنه كان صاحب عفة وطهر، وأنه كغيره من الشعراء، كان يقول ما لا يفعل، ويزعمون أنه أقسم الأيمان المخرجة ما أقدم في حياته على حرام، ثم يزعمون أنه عند ما أشرف على الموت رأى أخاه الحارث جزعاً مشفقاً فقال له كلاماً هادئاً روعه، وأكد له أنه لم يأت مما قال شيئاً.

وليس بين هذين الرأيين المسرفين فيما نعتقد رأى وسط. فلنكن نحن أصحاب هذا الرأي، لا أستطيع أن أصدق مهما يقسم عمر ومهما يقل الرواة إن هذا الشاعر المترف الذي قضى شبابه في غير نسك ولا زهد ولا تدين، والذي كان كل شيء يتيح له اللهو والعبث، فكانت له الثروة وكان له الجمال، وكانت البيئة كلها بيئته هو وترف - لا أستطيع أن أصدق، أن هذا الرجل قضى حياته طاهراً بريئاً من كل مجون. ثم لا أستطيع أن أصدق، مهما يقل الرواة ومهما يقل عمر نفسه، أن هذا القرشي الشريف ذا المكانة العالية والحسب الرفيع، والذي كان متأثراً كغيره من الأشراف بطائفة من النظم والعادات الخاصة، والذي كان يعيش في ظل سلطان ديني قوي من الوجهة السياسية، إن لم يكن قوياً من الوجهة الخلقية - لا أستطيع أن أصدق أنه أنفق حياته كلها في عبث ووهو، وفي فجور ومجون، وأنه فعل كل ما قال.

ولنلاحظ قبل كل شيء أن الحجاز لم يخل في هذا العصر من شعراء عبثوا ووهوا. وأسرفوا في العبث واللهو مضطرين أو مختارين. ولكن لنلاحظ أن هؤلاء الشعراء لم يعيشوا وادعين كما عاش عمر بن أبي ربيعة، ولم يظفروا بإجماع الناس على إكبارهم وإجلالهم كما ظفر عمر بن أبي ربيعة.

ومهما تكن الأسباب التي اقتضت محنة العرجي والأحوص فقد منحنا وساء بهما ظن فريق من الناس عظيم، وكان أشد الناس بهما حسن ظن لا يرى فيهما من الوجهة الخلقية خيراً.

أما ابن أبي ربيعة فلم ينله سلطان ابن الزبير ولا سلطان بني أمية بمكروه

ولم يرو لنا التاريخ أن الناس غلوا في لومه أو تشددوا في النعي عليه .
وقد يشير بعض الرواة إلى أن أخاه أو غير أخيه لومه وألح عليه ، وإلى أنه سافر إلى اليمن اجتناباً لمكة وتأديماً لنفسه ؛ فحنّ إلى مكة وعاد إليها .
ولكن التكلف في هذه الأخبار ظاهر . وكل ما نستطيع أن نستيقنه منها هو أن ناساً لاموا عمر من جهة ، وأن عمر قد سافر إلى اليمن كما سافر إلى العراق ، وكما كان يسافر إلى المدينة لبعض شؤنه من جهة أخرى .

إذاً لم يجد السلطان السياسي سبيلاً على عمر كما وجد سبيلاً على الأحوص وعلى العرجي . ومع هذا فقد كان أصحاب التقي والمروءة يدعونه الفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى . وكان النساء يداعبنه بهذه الصفة ، وربما وصفته بها جادات أيضاً . وكان أشراف قريش ربما تخرجوا من شعره واحتاطوا في حماية نسائهم من روايته والظهور عليه .

كان هذا كله . ولكن كان من جهة أخرى أن عمر بن أبي ربيعة لم يكذب يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها وأسرف في ذكرها ؛ فقد تغزل بأخت عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وتغزل بعائشة بنت طلحة ، وتغزل بسكينة بنت الحسين ، وتغزل بلبابة بنت عبد الله بن عباس ، وتغزل بزینب بنت موسى الجمحي ، وهند بنت الحارث المرثى ، وتغزل بإحدى بنات محمد بن الأشعث الكندي من أهل العراق ، ونساء غير هؤلاء كثيرات من أشراف مكة والمدينة والشأم والعراق . وكان يتغزل بهن جهرة في غير تكتم ولا استخفاء ، إلا ما يروى من أنه تحفظ بعض التحفظ في أمر فاطمة بنت عبد الملك .

والغريب أنه لم يكن يكتفي بإعلان غزله ، بل كان يستعين عليه نفرًا من أشراف قريش فيعينونه ويجدون في هذه المعونة لذة وغبطة .

وسندكر لك مكان ابن أبي عتيق من غزل عمر بن أبي ربيعة ، سندكر لك مكان هذا الرجل الشريف من قريش من غزل عمر ، لا أقول من لفظه ، بل أقول من حياته الغزلية ، وكيف كان يحرص على التوسط بينه وبين صاحبه الثريا .

ألست ترى أن هذا كله خليق بالتفكير ، وأنا مضطرون إلى أن نتوسط بين الذين زعموا أن عمر كان مسرفاً في الفجور والذين زعموا أنه كان مسرفاً

في العفة ، فترى أنه لم يكن مسرفاً في اللهو كما أنه لم يكن مسرفاً في حسن السيرة ؛ و نرى أنه صادق كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على حرام ، ولكن صدقه هذا مقصور على طائفة من شريفات قریش وغير قریش ، فليس من شك في أن صلته بأخت عبد الملك و بنته و بسكينة بنت الحسين و لبابة بنت عبد الله ابن عباس و عائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من الإثم ، كانت لفظية ليس غير .

بل لست أدري ! أحق ما يروى من أن فاطمة بنت عبد الملك حرصت على أن تراه و احتالت في ذلك إلى آخر ما سنذكره ؟ و أكبر ظني أنه لم يتجاوز أن احتال في رؤيتها ثم تغزل بها ، و أن هذا الغزل وقع من فاطمة موقعاً حسناً ، و لعلها كانت تطمع فيه . و إذن فهو لم يقدم على غرام مع هذه الطبقة من النساء . ولكن أنستطيع أن نقول إن سيرة عمر مع النساء جميعاً كانت كسيرته مع هؤلاء الشريقات ؟ أنستطيع أن نقول إن هذا الرجل الذي لم يعرف الأدب العربي الإسلامي إلى عصره شاعراً و وصف اللهو بالنساء كما وصفه قد أنفق حياته - كما قال بعض الرواة - يصف ولا يقصف و يحوم ولا يرد ؟ كلا ! كان عمر بن أبي ربيعة مسرفاً في وصف اللهو مقتصداً في اللهو نفسه . و من زعم أنه صادق حقاً حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخدوع . و من زعم أنه صادق حقاً في أنه فعل كل ما قال فهو مخدوع أيضاً .

إنما كان عمر يعيش عيشة الرجل المترف الذي أتاحت له أسباب اللهو و وسائله ، ولكنه مع ذلك مقيد بشرفه و مكانته و ما ألفت الناس من الأوضاع الاجتماعية ، فهو يلهو ولكن بمقدار ، وهو يصف ولكن بمقدار أيضاً .

و من هنا كان من الحق أن يكون عمر بن أبي ربيعة بلازاء جميل ، أي إنه كان رئيس مذهب في الغزل الإباحي كما سميناه غير مرة ، لأنه لم يكن يتغزل في الهواء ولا يطمح إلى المثل المعنوي الأعلى ليس غير ، وإنما كان يعيش في الأرض ويستبيح لنفسه من اللذات ما أباح له الدين و ما لم يبيح ، بينما كان جميل زعيم هذا الغزل العذري العفيف ، الذي لم يكن يطمح إلا إلى المثل الأعلى و إلى الجمال من حيث هو ، ولا يبتغي لذة ولا يستبيح شيئاً لم يبيحه الدين و لم ترض عنه الأخلاق .

على أني لم أحدثك إلى الآن إلا بأشياء عامة و لم أعرض بعد لدرس مفصل

دقيق لشعر عمر بن أبي ربيعة . وأنا مضطر إلى ذلك ؛ فليس عمر بن أبي ربيعة الذي يستطيع الباحث أن يدرسه في حديث واحد . ولا بد لي أن أحدثك عنه حديثاً آخر ، وقد أحتاج إلى غير حديث .

أما اليوم فأنا أختَم هذا الفصل بشيء أنقله لك عن القدماء يختصر رأيهم فيه اختصاراً حسناً ، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى ، وقد تناقله عنه رواة العصر العباسى ، وحرصوا عليه فكأنهم يقرونه ، بل قل إنهم يقرونه عليه . وإذا فهذا رأى يستطيع أن تأخذه على أنه رأى القدماء جملة في شعر عمر . ولست أنقل لك كل ما يروى القدماء عن مصعب ، فذلك يقتصر عنه هذا الحديث ، وإنما أروى لك منه جملة صالحة ، فإذا كان الفصل الآتى فسأجهد في أن أفصل بعض التفصيل رأيي في شعر عمر .

قال مصعب : راق عمر بن أبي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجّة ، وترجيح الشك في موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدّق الصفاء ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرى ، وإن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغيره ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغدّ السير ، وحير ماء الشباب ، وسهل وقول ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وحالف بسمعه وطره ، وأبرم نعت الرسل وحذر ، وأعلن الحب وأسرّ ، وبطن به وأظهره ، وألحّ وأسفّ ؛ وأنكح النوم ، وجنى الحديث ، وضرب ظهره لبطنه ، وأذلّ صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، واستبكى عاذله ، ونفّض النوم ، وأغلق رهن منى ، وأهدر قتلاه ، وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فن سهولة شعره وشدة أسره قوله :

فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلَّمْتُ أَشْرَقَتْ
وَجُوهُ زَهَاهَا الْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّعًا
تَبَالَهَنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا رَأَيْتَنِي
وَقَلْنِ أَمْرًا بَاغٍ أَكَلَّ وَأَوْضَعَا

ومن حسن وصفه قوله :

لَهَا مِنَ الرَّيِّمِ عَيْنَاهُ وَسُنَّتُهُ
وَمَخْوَةٌ السَّابِقِ الْمُخْتَالِ إِذْ صَهَلَا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :

عُوجًا مَحْيَى الطَّلَلِ الْمُحْوِلَا
إِسَابِعِ الْبُوبَاةِ لَمْ يَمُدَّهُ
وَالرَّبِيعَ مِنْ أَسْمَاءِ وَالْمَزَلَا
تَقَادُمُ الْعَهْدِ بَانَ يُوهَلَا

ومن قصده للحاجة قوله :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَا سُهَيْلَا
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا أُسْتَقَلَّتْ
عَمَّرَكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
وَسُهَيْلٌ إِذَا أُسْتَقَلَّ يَمَانَ

ومن استنطاقه الربيع قوله :

سَائِلَا الرَّبِيعَ بِالْبَيْلَى وَقَوْلَا
أَيْنَ حَى حَلُوكَ إِذْ أَنْتَ مَحْفُو
هَجَّتْ شَوْقًا لِي الْعِدَاةَ طَوِيلَا
قَالَ سَارُوا فَأَمَعَنُوا وَأَسْتَقَلُّوا
فَبِهِمْ أَهْلٌ أَرَاكَ جَمِيلَا
سَمُونَا وَمَا سَمْنَا جِوَارَا
وَبِرَغْبِي لَوْ قَدْ وَجَدْتُ سَبِيلَا
وَأَحْبَبُوا دَمَانَةً وَسُهُولَا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قَالَ لِي فِيهَا عَتِيقٌ مَنَالَا
قَالَ لِي وَدَعَّ سُلَيْمَى وَدَعَّهَا
فَجَرَّتْ مِمَّا يَقُولُ الدَّمُوعُ
فَأَجَابَ الْقَلْبُ لَا أُسْتَطِيعُ

ثم يمضى مصعب في الاستدلال بالأبيات من شعر عمر على ما قدّم من وصفه فيما رويت لك ، وذلك أطول من أن أتم روايته ، فاقراه في الجزء الأول من الأغاني إن شئت ؛ بل أنا أشير عليك أن تقرأه لتمثل رأي القدماء في عمر ، ووجهتهم في نقده قبل أن نأخذ نحن في درسه منذ الأسبوع الآتي .

خاتمة القول في الغزلين^(١)

الحب في شعر ابن أبي ربيعة

أظنك لم تنس حديثنا الماضي عن عمر بن أبي ربيعة . وأظنك تذكر ذلك الرأي الذي ختمت به ذلك الحديث ، وقلت إنه يمثل رأى القدماء في زعيم الغزلين ، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى تناقله الرواة على اختلافهم وتباين أهوائهم وأعجبوا به ، وحفظه لنا صاحب الأغاني ، فكان هذا كله مرآة لرأى هذه الطبقات في عمر بن أبي ربيعة ، بحيث نستطيع أن نقول إنه يمثل رأى القرن الثانى والثالث فى هذا الشاعر .

أعترف بأنى قرأت حديث مصعب بن عبد الله هذا مع شىء من اللذة كثير ، وأحسست شيئاً عظيماً من الغبطة لأن صاحب الأغاني استطاع أن يرويه فى جملته ، حتى يخيل إليك وأنت تقرؤه أنه فصل كامل من كتاب ، أو أنه نص كامل لمحاضرة ألقاها هذا الأديب . ومن ذا الذى لا يغتبط حين يظفر بشىء كهذا ! ولست أريد أن أنقد هذا الرأى ولا أن أناقشه ، وإنما نقلته لك لترى كيف كان القدماء من أصحاب اللغة والأدب ينظرون فى الشعر ويحكمون عليه ، وكيف كانوا يقدرون عمر بن أبي ربيعة ويعجبون به إلى غير حد .

وأنا أعلم حق العلم أن طريقة القدماء فى فهم الشعر والحكم عليه لا ترضينا ولا تقنعنا ، ولا تلائم ذوقنا الحديث وأطماعنا العلمية الواسعة ، فهم كانوا يتعجلون الحكم تعجلاً ، ويحترزونه اجتزاءً ، ويعممون فى غير موضع للتعميم ، وهم كانوا لا يستطيعون أن يتصوروا أن لشعر الشاعر وحدة يجب أن تدرس ، ويجب أن يتبين فيها الناقد شخصية الشاعر وقوته . وهم كانوا يجهلون أو يكادون يجهلون هذه الشخصية ، وينظرون لا إلى القصيدة ولا إلى المقطوعة بل إلى البيت أو البيتين ، فيحكمون بأن الشاعر أشعر الناس فى هذا المعنى .

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م .

وربما حكموا بأنه أشعر الناس في كل شيء ، لأنه قال بيتاً راقهم أو شطراً وقع منهم موقعا حسنا . وهم كانوا إلى هذا كله يغمضون في ألفاظهم ويعمدون إلى معاني مبهمة بحيث لا تستطيع أن تبين آراءهم كما هي ، فهم يذكرون الديباجة ، والحاشية ، والأديم ، وما إلى ذلك من ألفاظ مستعارة يعجبك وقعها ويخطئك معناها الدقيق .

أعلم هذا كله ، ولكني مع ذلك أحب هؤلاء القدماء ، وأحب آراءهم ، وأجد في قراءتها لذة وبهجة ، وإلى تفهمها راحة واطمئناناً . وإذا أخطأني رأيهم الدقيق في الشعر أو حكمهم الصحيح عليه ، فإنني أجد نقدهم مرآة صادقة لنفس جذابة حلوة أحب أن أدخل إليها من حين إلى حين .

نعم ! إن رأي مصعب بن عبد الله الزبيري لا يعطى صورة واضحة من عمر ابن أبي ربيعة ولا من شعره ؛ ولكنه يعطى صورة واضحة من مصعب نفسه ومن أصحابه الذين استمعوا له وحفظوا عنه ، ومن الرواة الذين تناقلوا هذا الحديث وخلدوه ، وليس هذا بالشئ القليل . ثم من الذي يستطيع أن يزعم لك أن الأجيال المختلفة تستطيع أن تفهم الأدب على وجه واحد ، وتصدر في الحكم عليه من مصدر واحد؟ وكيف السبيل إلى ذلك وأنت لا تستطيع أن تضمن تشابه أطوار الحياة وظروفها في الأجيال والبيئات المختلفة ؟ وإذن فلا تستطيع أن تضمن تشابه الذوق . وإذن فلن تستطيع أن تضمن تشابه النقد . وإذن لن ينبغي لك أن تطلب إلى القدماء ما تطلبه إلى المحدثين . ولئن عجبت لشيء فإنما أعجب لهذه الميول والأهواء التي قد يشترك فيها القدماء والمحدثون ، على تباين الأطوار واختلاف الظروف وتبدل أحوال الحياة . أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ؛ ولكنها ممتعة قيمة للدكتور « زكي مبارك » خريج الجامعة المصرية ؛ تناول فيها شعر عمر بن أبي ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرني أن أهنته به ، ويسرني أيضاً أن أنهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضل على عقول الشباب . ولكن الدكتور « زكي مبارك » ، وهو شاب حادّ الشباب عنيفه ، قد أسرف في نقد مصعب بن عبد الله إسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف ، وليس مصدر هذا الإسراف إلا أنه لم يقدر ، كما ينبغي ، اختلاف المثل الأدبية باختلاف العصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فلطف

ما فيه من حداثة ومزيج ما فيه من جور .

كان القدماء مجمعين أو كالمجمعين على إكبار عمر بن أبي ربيعة وتقديمه ، يستوى في ذلك خصومه وأنصاره ، فقد كان ضرباً من الإكبار والتقديم هذا التحرج من رواية شعر عمر ، وهذا الإشفاق من أثره في الفتيان والفتيات . فلم يكن لهذا التحرج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوى خللاب ساحر للنفوس .

ولكن من أى ناحية نستطيع أن ندرس شعر عمر بن أبي ربيعة ، أندرسه من حيث هو مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية في القرن الأول للهجرة ؟ أم ندرسه من حيث هو مظهر من مظاهر الحياة الأدبية في ذلك العصر ؟ أم ندرسه من حيث هو مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام ؟ أم ندرسه من حيث قيمته في لفظه وأسلوبه ومعناه ؟ أم ندرسه من حيث عبث الرواة به وإضافتهم إليه ؟ أم ندرسه من حيث تطوره ؟ فقد تطور شعر عمر بن أبي ربيعة كما تطور ابن أبي ربيعة نفسه ؟ ولعل أصدق دليل على أن القدماء أنفسهم أحسوا هذا التطور قول جرير : « ما زال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر » .

أما أن ندرسه من حيث هو مرآة لنفس عمر ومظهر لشخصيته ومثال لقوة حسه ودقة شعوره ، فكل هذه النواحي خليقة بالدرس . وأنا زعيم لك بأنك ستظفر إن درستها بنتائج أدبية وتاريخية قيمة جداً . ولكنك تعلم حق العلم أنى لا أستطيع أن أعرض لهذا كله في هذه الأحاديث ، فليست هي مما يسع هذا البحث العلمي الدقيق ، ولو أنى عرضت لها لقصيت فيها سنة أو أكثر من سنة . وقد طلب إلى بعض أصدقائي منذ حين أن أنصرف عن الغزلين إلى غيرهم ؛ فأجبتهم إلى ما أراد . وأنا أريد أن يكون هذا الحديث خاتمة القول في الغزلين . ويسرنى جداً أن يعنى غير واحد من رجال الأدب بالبحث عن كل هذه النواحي التي أرى أنها خليقة بالدرس من شعر عمر بن أبي ربيعة .

أما أنا فلست أدرس في هذا الحديث إلا ناحية واحدة أو جزءاً من ناحية واحدة إن صح هذا التعبير . ولكنى ألفتك إليه ، وأودّ لو استطاع الباحثون أن يتموه ؛ فلن أزيد عن الإشارة الموجزة إليه . أريد أن أبحث عن حب عمر ابن أبي ربيعة ما هو ؟ وما سبيله ؟ وما أثره في البيئة التي ظهر فيها ؟

وقد رأينا في الحديث الماضي أن عمر لم يكن عذرياً، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عملياً محققاً يلتمس الحب في الأرض لا في السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب في حبه مذهب أصحاب المحون من شعراء العصر العباسي ، فلم يكن يسرف في العبث ، وإنما كاي يقتصد اقتصاداً ويتوسط في حبه توسطاً ، فيعف كثيراً ، ويعبث قليلاً . وكانت ظروف حياته نفسها تكرهه على هذه العفة ؛ لأنه لم يدع امرأة شريفة من قریش إلا شبب بها ؛ وما كان له أن يتجاوز العفة في هذا التشبيب ، إنما الذي نريد أن نتيينه هو طبيعة هذا الحب . فنلاحظ قبل كل شيء أن عمر لم يكن يجب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يجب بحسه ، وبحسه ليس غير . كان موكلاً بالجمال يتبعه ، وله في ذلك أحاديث أذكر منها قصته مع عروة بن الزبير ، فقد سايره ذات يوم وأخذنا يتحدathan ، فإذا عمر يسأله عن ابنه محمد ؛ فأجابه عروة : لقد تقدمنا ؛ فأظهر عمر الرغبة في أن يلحقه ويسايره ، وأنكر عروة ذلك ، فقال عمر : أنا موكل بالجمال أتبعه . وكان محمد بن عروة جميلاً رائع الطلعة ، وقد أذن عروة لعمر فلحق بالفتى وسايره .

وله أحاديث أخرى مع الشبان في البيت الحرام وخارج البيت الحرام ، وتستطيع أن تقرأ ديوان عمر بن أبي ربيعة كله فلن تجد فيه من وصف نفس المرأة وجمالها المعنوي إلا قليلاً جداً . فأما الذي تجده في هذا الديوان فوصف جمالها المادى من جهة ، ووصف ميولها وأهوائها من جهة أخرى . ولم يخطئ نصيب حين قال : « عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال » . فلم يعرف العصر الأموي كله شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلاً بمثل ما وصفها به عمر ابن أبي ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص .

كانت الصلة الجنسية أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس إلى عمر ابن أبي ربيعة . فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكتملة للرجل ، لا يستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادى وحده ، وإنما كان يريد لها واسعة متناولة جميع أطراف الحياة . ولست أشك في أن عمر بن أبي ربيعة كان صديقاً للمرأة بالمعنى الحديث الذي نفهمه لصداقة المرأة ، كان يريد لها من الحرية مثل ما يريد للرجل ، وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة

لا حرج فيها ولا جناح ، وكان يريد أن تظهر المرأة فخرها بجالها وروعها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه ، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة ، كما تستفيد من خلال الرجل ، كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب . وسواء علينا أشعر بذلك أم لم يشعر ، أكوّن فيه رأياً صريحاً أم لم يكوّن ، فهناك شيء لا شك فيه وهو أن شعر ابن أبي ربيعة كله ليس إلا تغنياً بجبال المرأة وتأثيرها في حياة الرجل ومكانها من نفسه . وكان كل شيء في حياة عمر وسيلة إلى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث إليها ولا سيما الحج ، فلم يكن ابن أبي ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجبال ، وكان إذا قرب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة وظهر في مظهر الفتوة والقوة ، وفارق مكة فعترض للحجيج في طريق المدينة والشام والعراق يتلمس نساءهم ، ويتبين هواجهم ، ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف : فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك ، كان عمر قد أحصى النساء اللاتي يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة ، وكانت له رسل تعمل في ذلك فتأتيه المواعيد في مكة حيناً ، وفي منى حيناً آخر ، وكانت أحبّ ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف . هنالك كان عمر ابن أبي ربيعة يترصدهنّ ، ومنهن من كانت ترصده . وهنالك كانت تبتدئ الأحاديث لتم بعيداً عن البيت ، حتى إذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة إلى بلادهم ، رأيت عمر مقسماً بين نساء المدينة ونساء الشام ونساء العراق ، يشيع هذه ثم يعود فيشيع تلك ، ثم يترك هاتين ليشيع امرأة أخرى . وهو لا يفرغ من تشيع امرأة إلا قال الشعر الجيد يسبقها إلى مواطنها ، ولا يلبث أن يسقط بين أيدي المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأرسقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسم الحج موسم شعر وغناء في الحجاز .

وقد ذهب الشعراء مذهب عمر بن أبي ربيعة . وتأثر النساء تأثراً شديداً بهذه الحركة الغزلية فأحببها وحرصن عليها واجتهدن في تقويتها وتذكية نارها ، واستبقن إلى إرضاء الشعراء وتحريضهم على قول الشعر وإغرائهم بالغزل فيه .

أظنك تستطيع الآن أن تفهم السبب في افتتاح النساء بعمر ، وتنافسهنّ فيه ، واستباقهن إلى مودته . وأظنك تشاركني في الحكم بأن عمر لم يكن مغروراً

ولا مفتوناً ولا تياها، كما كان يظن به بعض القدماء ، وكما يظن به بعض المحدثين أيضاً . كان عمر يصف نفسه كثيراً ، وكان يسرف في هذا الوصف أحياناً ، حتى قال له ابن أبي عتيق ذات يوم : لم تشب بها وإنما شببت بنفسك . ولكن مصدر هذا لم يكن غروراً ولا فتنة ولا تياها ، وإنما كان حب النساء إياه حقاً ، وتهالكهن عليه حقاً . وليس من المنكر أن يكون هذا قد اضطره إلى شيء من الغرور والتيه . ولكني لست أحسب أن الغرور والتيه وحدهما هما اللذان أنفقا بهذا الشعر الكثير الذي اتخذ نفسه موضوعاً له .

لم يكن عمر مغروراً ولا تياها ، كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ، وإنما كان صادق الحب حقاً قويته أيضاً . ستقول : فكيف يلاثم ذلك ما زعمت من أنه لم يكن عذرياً ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلاثم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتبع النساء جميعاً بحبه لا يكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى ، وربما اشتغلت نفسه في وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقاً ، وكان عمر بن أبي ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضاً . ذلك لأنه لم يكن عذرياً ، لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير ، كما قلت آنفاً ، لم يكن حسه يطبع قلبه فيرى الجمال في عشيقته ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه ، فكان يكفي أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابه ، وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يجب قط امرأة كما أحبها ، وأنه لن يسلو عنها مهما تبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقاً في هذا كله ، ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يجب امرأة جديدة حباً ليس له بمثله عهد ، ولن يكون له بمثله عهد ، ولن يجد سبيلاً إلى الانصراف عنه . ومصدر هذا أن قلبه كان كما قلت يتبع حسه ، وأن النساء كنّ مفتونات به ، فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر ، وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى ، فكان طمعه متصلاً وأمله لا حد له .

ليس عمر بن أبي ربيعة بدعا من الشعراء ولا من العشاق ، فأنت تجد في كل عصر من العصور وفي كل بيئة من البيئات عشاقاً أفلاطونيين وعشاقاً آخرين يحبون بالحس . ولكني أريد أن التمس لعمر بن أبي ربيعة شبيهاً من

أهل الأدب الحديث ، وأعتقد أن هذا الشبيه سيُفسر عمر حق التفسير ويوضح نفسه وجه أحسن توضيح .

منذ سنين كتب صديقي الأستاذ ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها إلى السربون وقارن فيها بين عمر بن أبي ربيعة وبين الشاعر الفرنسي « ألفردى موسىه » . وقد تكون هذه المقارنة خلاصة في ظاهر الأمر ، فعمر بن أبي ربيعة أظهر عشاق العرب ، و « ألفردى موسىه » أظهر الغزلين من شعراء فرنسا في القرن الماضي ، وكلاهما وقف حياته على المرأة وحبا ، وكلاهما وقف شعره على جمال المرأة والتغنى به . ولكن الفرق عظيم جداً بين الشاعرين ، عظيم إلى حد أن المقارنة بينهما مستحيلة ، فليس بين نفسيهما شبه ما .

أنت محزون حين تقرأ « ألفردى موسىه » يتفطر قلبك لوعة وأسى ، وبأخذك شئ من اليأس والسخط على الحياة والزهد فيها حين تنظر إلى هذا الحب القوي المتين ، فترى أنه على قوته وصدقه ومثابته جريح يدمى .

ولكنك مبتهج راض مبتسم للحياة حين تقرأ شعر ابن أبي ربيعة ؛ فلم يكن قلبه جريحاً ولم تكن نفسه كئيبة ، ولم يكن يرى في الحياة إلا لها أو سبيلاً إلى اللهو . وأنت حين تقرأ ما يظهر ابن أبي ربيعة فيه الحزن والأسى مطمئن راض بل مبتسم ؛ لأنك تعلم أن هذا الحزن إنما هو وسيلة إلى السرور ومذهب من مذاهب الاستعطاف وسبيل من سبل اللذة .

لا أضع ابن أبي ربيعة بإزاء « ألفردى موسىه » وإنما أضعه بإزاء رجل فرنسي آخر هو أخوه حقاً ، هو صورته الصادقة لولا ما بينهما من فروق البيئة والجيل ، ولكن نفسيهما نفس واحدة ، ولكن حسيهما حس واحد ، ولكن مذهبيهما في الحب وإعلانه مذهب واحد ، ولكن ميليتهما في الحياة يوشكان أن يكونا ميلاً واحداً ، كلاهما أحب بحسه وأخضع قلبه لحسه ، وكلاهما فنن النساء ، وكلاهما تحدث بفتنته للنساء حديثاً حلواً خلاصاً ، وكلاهما تعمق في الحب الحسى حتى وصل إلى قرارته ، وكلاهما أحب حتى كره الحب ، ولذ حتى زهد اللذة ، وكلاهما لم يعرف لحبه موضوعاً يقصره عليه ، فكان يترك هذه ليحب تلك ، ويخلص من هذه ليقع في شرك تلك .

ستسألني عن هذا الفرنسي الذي يشبه عمر بن أبي ربيعة هذا الشبه القوي الغريب ، ليس شاعراً ولكنه ناثراً كالشاعر ، أنت تعرفه حق المعرفة لأن بينك

وبينه صلة قوية ، لأنه صديق الشرق عامة وصديق مصر خاصة : « بييرلوقى » .
 أقرأت شيئاً من حب هذا الكاتب ؟ أقرأت كتبه عن فتيات قسطنطينية
 بنوع خاص ؟ إني أحب أن تقرأ هذه الكتب ، وأنا واثق كل الثقة بأنك
 لن تشك بعد قراءة ابن أبي ربيعة في أن هذين الرجلين يصدران عن مصدر
 واحد . ولو أن لى أن أو من بالتتاسخ لقلت : إن نفس ابن أبي ربيعة قد مرت
 بها أطوار الحياة المختلفة فهذبته تهذيباً وصفته تصفية ، ثم تمثلت في هذا العصر
 الحديث في شخص « بييرلوقى » فكتبت ما كتب « بييرلوقى »

مكان هذا الكاتب الفرنسى من النساء عامة ومن فتيات القسطنطينية
 خاصة ، كمكان عمر بن أبي ربيعة من المرأة عامة والمكيات خاصة .

أحب أن تقرأ هذه المذكرات الخاصة التى تنشرها « الألوستراسيون »
 منذ أسبوع والتي تركها « بييرلوقى » فسترى في هذه المذكرات والكتب
 نصوصاً لا تدع في نفسك موضعاً للشك فيما أقول ، وقد أتخذ هذه المذكرات
 موضعاً للحديث من أحاديث الأحد .

في هذه المذكرات ينبئنا « بييرلوقى » في ألفاظ أشبه بالنار منها بالكلام
 أنه أحب امرأة حباً حسيماً خالصاً لم يعرفه من قبل ولن يعرفه بعد ، أنساه كل
 شىء وكل إنسان وكل واجب ، وأن هذه المرأة تحبه حباً حسيماً أيضاً ؛
 ولكنها في الوقت نفسه تحب رجلاً آخر ، وهى صادقة في الحيين ، ثم ينبئنا
 أنه شديد الألم لأنه لا يقف عند امرأة ولا يستطيع أن يقصر حياته على حب
 واحد . ومن غريب الأمر أنك تجد في هذه المذكرات صديقا « لييرلوقى »
 ينصح له ويشير عليه ، فلا يستطيع أن تمنع نفسك من التفكير في عمر بن
 أبي ربيعة وصديقه ابن أبي عتيق ، ثم تجد في هذه المذكرات فصولا تصف لنا
 تنكر « بييرلوقى » وإخفائه نفسه ، كما تجد ذلك أيضا في قصة « اليائسات » .
 فلا يستطيع أن تمنع نفسك من التفكير في ابن أبي ربيعة وما كان يسلك من
 سبل وحيل للوصول إلى النساء ، فإذا وصل « بييرلوقى » إلى صاحبه فالأمر
 بينهما كالأمر بين ابن أبي ربيعة وصاحبه : لهو حيناً ، وعفة حيناً آخر ،
 والمرأة في كلتا الحالتين تعلم حق العلم أن عاشقها لعوب بخلاف لا يكاد يقف
 عند المرأة إلا حيناً كالنحل تنتقل بين الزهر .

اسمع إلى « بييرلوقى » وقد قضى مع صاحبه ساعات يراها أسعد ساعات

حياته وهو يقول لها : إني أحبك ، فتجيبه : هذا شيء تقوله . ثم اقرأ ما شئت من شعر عمر بن أبي ربيعة وعتب النساء عليه وكلفهن به مع هذا العتب . وإن بين يدي الآن لصحفا من كتاب « اليائسات » كنت أريد أن أترجمها لك وأروى معها شيئاً من شعر ابن أبي ربيعة ، لتلمس تشابه النفسين لمساء ؛ ولكن من لي بالمكان الذي يسمح لي بالترجمة والرواية ، فحسبي أن أترجم لك هذه القطعة الموجزة من كتاب « اليائسات » لترى كيف كانت الفتيات تتحدث إلى « بييرلوتي » ولتعلم أن « بييرلوتي » لم يكن أقلّ إيماناً بسلطانه على النساء من صاحبه العربي القديم . وهي من كتاب كتبه إليه إحدى عاشقته وقد شربت السم وهي تموت :

« ... أيها الحبيب العزيز أسرع إلىّ فأنا أريد أن أنبئك نبئى ... ألم تكن تعلم أنى كنت أحبك من أعماق نفسى ؟! يستطيع من مات أن يعترف بكل شيء ... فهو لا يدعن لسلطان ما ... ومالى لا أعترف لك وأنا مفارقة هذه الحياة بأنى كنت أحبك ! ... أى أندريه ! فى ذلك اليوم الذى جلست فيه إلى هذا المكتب حيث أكتب إليك هذا الوداع أرادت المصادفة أن أميل فألسك ... حينئذ أغمضت عيني ، ومن دون هاتين العينين المغمضتين مرت أحلام ما أجهلها ! ... وكانت ذراعاك تضمانى إلى قلبك ، وكانت يداى اللتان يملؤهما الحب تمسان عينك فى لطف وتذودان عنهما الحزن ... آه ! لقد كان يستطيع الموت أن يأتى حينئذ ، ولقد كان يصادف لو أتى مملئك وسأمتك ! ولكن ما كان أحلاه وما كان أملاً هذه النفس التى يحملها بالغبطة والشكر ... آه ! كل شيء يختلط ويحتجب ... زعموا لى أننى سأنام ، ولكنى لا أحس النوم بعد ! ولكن كل شيء يضطرب ويتضاعف وكل شيء يرقص ... وإن شمعاتى لكالشموس ... وأرى زهراتى يعظمن ، يعظمن حتى لكأنى فى غابة من زهر شائق ! تعالى أندريه ... ادن منى . ماذا تصنع بين الورد ؟! ... ادن منى حينما أكتب ... أريد أن تطوّقنى بذراعاك وأريد أن تقبل شفطائى عينيك الغاليتين ... هنأ أيها الحب فهكذا أريد أن أنام قريباً منك وأن أقول لك إني أحبك ... أدن منى عينيك ، فإن الموتى مثلى يستطيعون أن يقرءوا النفوس من طريق العيون ... » .

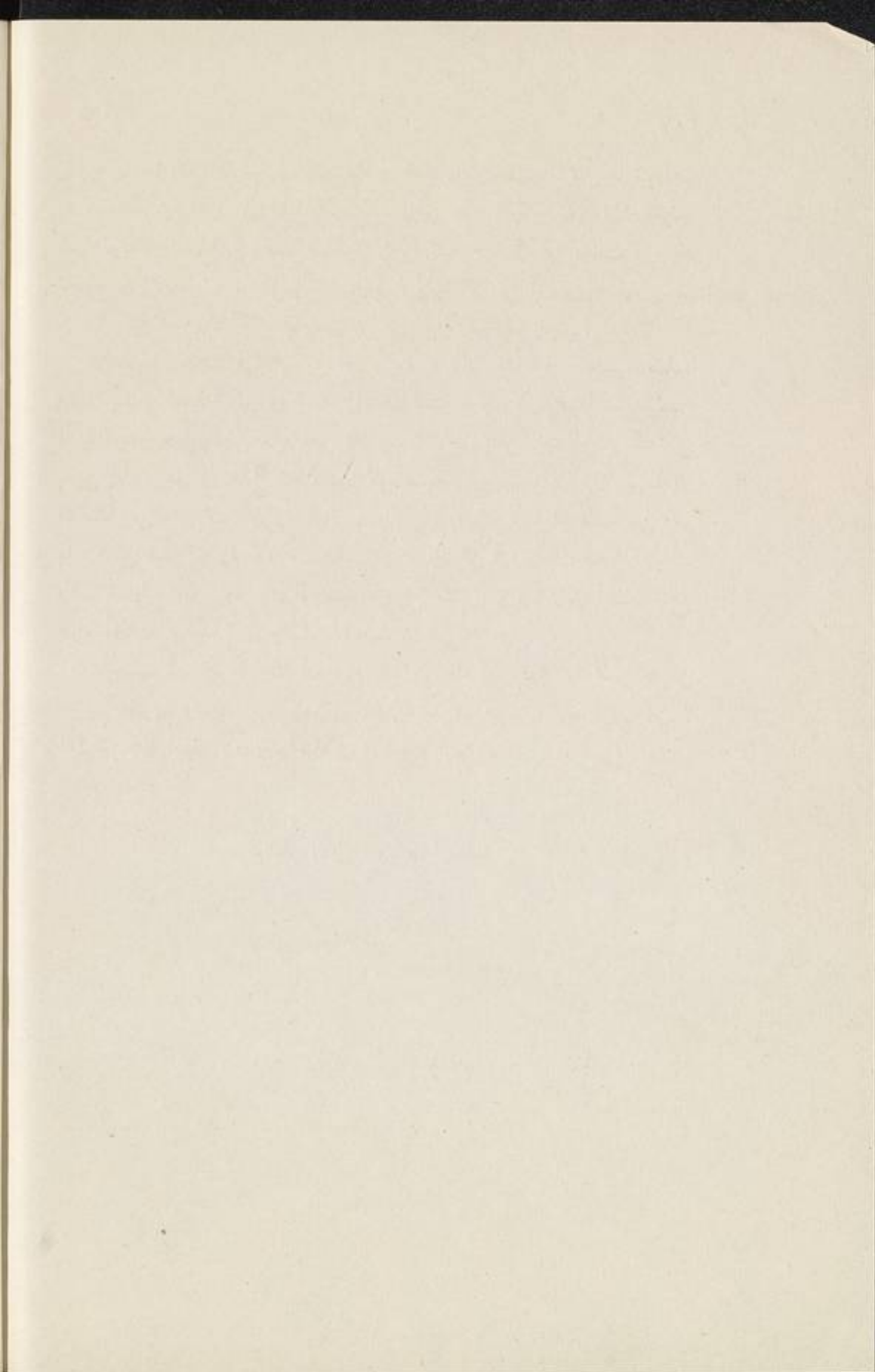
لست أزعم أن إحدى صاحبات عمر تحدثت إليه بشيء يشبه هذا أو

يقاربه ، وما كان لقرشية أن تتحدث في القرن الأول للهجرة بمثل ما تتحدث به هذه التركية المترفة في القرن الماضي ، ولكن هذه التركية تشبه تلك القرشية شبيهاً قوياً جداً ، فهي تحب صاحبها وتعلن إليه حبها في قوة وعنف وفي غير تحرج ولا تحفظ ، أو قل إن «بييرلوقى» يشبه عمر بن أبى ربيعة فهو ينطق هذه التركية بحبها إياه كما كان ينطق ابن أبى ربيعة القرشيات بحبهن .

ولنختصر حكماً في عمر بن أبى ربيعة ، كان هذا الحب حسيماً صادقاً منتقلاً بطبعه شديد التأثير في النساء إلى حد الفتنة ، وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطربينه ويتهالكن عليه حتى فتن بنفسه ، فلم يتغنّ بحبه إياهن كما تغنى بحبهن إياه . هو في هذا كله مشبه كل الشبه «ليبيرلوقى» لا فرق بينهما إلا ما ينشأ من اختلاف أطوار الحياة ، ولكنى لم أثبت شيئاً مما قلت عن عمر بشيء من شعره ؛ ولم أروى لك شعر عمر ، وأنا لن أروى لك منه الكفاية ، وأنت تستطيع أن ترجع إليه ، فديوانه شائع منشور ، وأنا واثق أنك ستستفيع بقراءته انتفاعاً جديداً إذا لاحظت ما قدمت لك من أمر حبه .

وأحسب أن قد آن لنا أن ندع الغزلين بعد أن ألمنا بما ألمنا به من حياتهم وفنونهم وشخصياتهم وأهوائهم المختلفة ، فلندعهم ؛ ولكن إلى من ؟ ذلك شيء لا أعرفه الآن وقد أعرفه في الأسبوع المقبل .

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى



فهرست الموضوعات

صحيفة		المقدمة
٥		
٩	أثناء قراءة الشعر القديم .
١٨	ساعة مع شاعر جاهلي .
٢٨	» أخرى مع لييد .
٤٠	» » »
٥٤	» مع طرفة .
٦٤	» أخرى مع طرفة .
٧٥	» مع زهير .
٨٧	» أخرى مع زهير .
٩٨	» » »
١١٠	» مع كعب بن زهير
١٢٢	» » الحطيئة
١٣٣	ساعة أخرى مع الحطيئة
١٤١	» مع عنبرة .
١٥٠	» » سويد بن أبي كاهل
١٦٠	» » المثقب العبدى
١٦٩	الغزلون : قيس بن الملوح أو مجنون بنى عامر
١٨٠	الغزلون والغزل : نشأته وأسبابها .
١٨٩	الغزلون وأخبارهم .
٢٠٠	الغزلون : قصة قيس بن ذريح

صحيفة

- ٢١٣ شعر الغزابين
- ٢٢٧ عود إلى الغزلين : وضاح اليمين
- ٢٣٥ الغزلون : العرجي
- ٢٤٤ » : عبيد الله بن قيس الرقيات .
- ٢٥٤ » : الأحوص بن محمد الأنصاري
- ٢٦٦ » : يزيد بن الطثرية
- ٢٧٧ » : كثير
- ٢٨٧ زعيم الغزلين عمر بن أبي ربيعة
- ٢٩٨ خاتمة القول في الغزلين : الحب في شعر ابن أبي ربيعة

